الدكتور الشيخ عدنان فرحان آل قاسم

تاريخ الحوزات العلمية

والمدارس الدينية عند الشيعة الإمامية

الجزء الأول

مدرسة أهل البيت عليهم السلام

في مكة والمدينة والكوفة

قدما له

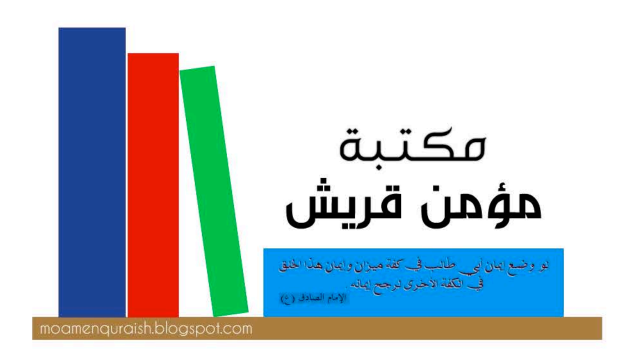
آية الله الشيخ محمد مهدي الآصفي

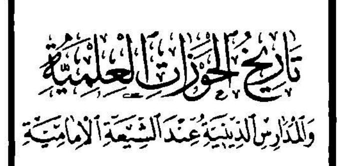
آية الله الشيخ علي رضا الأعرافي

شركة دار السلام

بيروت - لبنان


تاريخ الحوزات العلمية
والمدارس الدينية عند الشيعة الامامية
مدرسة أهل البيت
في مكة والمدينة والكوفة





الطبعة الأولى

1436هـ - 2016 م

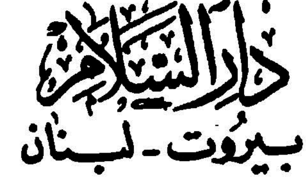
توزيع



009613210986
009611547698

009647813111272

iraqsms@gmail.com



لبنان : 009611472192 -009613461595

العراق : 009647802150376

E-mail:daralsalamco@hotmail.com

الدكتور الشيخ عدنان فرحان آل قاسم



بحث تاريخي في نشأة الحوزات العلمية
والمدارس الدينية عند الشيعة الإمامية
منذ نشأتها الأولى حتى نهاية القرن الرابع عشر الهجري

الجزء الأول

مدرسة أهل البيت عليهم السلام

في مكة والمدينة والكوفة

قدم له

آية الله الشيخ محمد مهدي الآصفي　　آية الله الشيخ علي رضا الأعرافي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

التوبة: ١٢٢

الإهداء

إلى سليل بيت النبوة، وموضع الرسالة، ومهبط الوحي، ووارث علوم الأنبياء والأئمة الطاهرين

وأُستاذ العلماء والفقهاء والمجتهدين وقدوتهم سيدي الإمام أبي عبد اللّه جعفر بن محمد الصادق عليه السلام

وإلى العلماء الأعلام، والفقهاء والمراجع العظام

وإلى أساتذتي الأفاضل الذين بذلوا جهدهم في تربيتي وتعليمي

أتقدم بجهدي المتواضع الذي بذلته في هذا الكتاب آملاً منهم حُسن القَبول

شكر وتقدير

اللهم لك الحمدُ حمد الحامدين، ولكَ الشُكر شكر الشاكرين علىٰ ما أنـعمت وتفضلت ووفقت لانجاز هذا العمل العلمي.

أتقدم بوافر الشكر والتقدير والامـتنان إلى جـامعة المـصطفىٰ العـالمية، مـمثلة برئيسها العام سماحة العلّامة الشيخ علي رضا الأعرافي، الذي اقترح موضوع هذا الكتاب، وواكب مراحله، ووفر له مستلزماته، وذلل صعوباته، وبذل جهده فـي التسديد والنصح وابداء وجهات النظر القيمة.

كما وأتقدم بالشكر الجزيل لسماحة الدكتور الشيخ علي العباسي رئيس مجمع أبحاث المصطفىٰ الدولية، لمواكبته لمشروع هذا الكتاب.

كما وأخص بالشكر والتقدير سماحة الدكتور الشيخ عز الديـن رضـا نـجاة رئيس مركز العلوم الإسلامية، لإشرافه ومراجعته لفصول وأبحاث هذا الكتاب، ولما بذله من جهود كبيرة، وآراءٍ قيمة ساهمت بشكل كبير فـي تـقويم الكـتاب واغنائه.

كما وأتقدم بوافر الشكر والتقدير والاحـترام للأسـاتذة الأفـاضل والعـلماء الأعلام الذين غمروني من فيض أخلاقهم الكريمة، وسعة صـدرهم، وتـفضلوا مشكورين بمراجعة خطة البحث لهذا الكتاب وأدلوا بملاحظاتهم القيمة، سائلين المولى القدير أن يجزيهم خيراً؛ وأن يتقبل منّا هذا العمل بخالص قبوله، إنه ولي الإحسان والقبول.

مقدمة جامعة المصطفى العالمية
بقلم رئيسها آية الله علي رضا الأعرافي

إنّ الإسلام ومذهب أهل البيت عليهم السلام يشتملان على إطار عالمي يجمع الأُمة ويوحدها، ومنذ أن بزغت شمس الإسلام وانطلقت رسالته الخالدة الحاملة لمشعل الحرية بلغت أسماع الكثير من الأشخاص المنتمين إلى قوميات مختلفة وأمم شتى، وقد احتضن الإسلام ومذهب أهل البيت عليهم السلام على وجه الخصوص أُمماً مختلفة وأعراقاً متعددة.

والحوزة العلمية الشيعية لها تاريخ مشرف وجدير بالاهتمام في هذا الميدان، هذه الحوزة المنيفة الشامخة التي تعاقبت عليها الأعصار والقرون بكل ما تحمل من تقلبات من الازدهار والانحطاط والمنعطفات الخطيرة، وقد عانت ما عانت من الغربة والهجرة والإبعاد والسجن والتشريد، ولكنها حملت رسالة الإسلام وتعاليم الأئمة المعصومين عليهم السلام بشغف، وأدت رسالتها بكل فخر واعتزاز، من خلال الدرس والبحث والجهاد لتوصلها إلى الأجيال جيلاً بعد جيل لينهل منها عشاق الحقيقة والإمامة والولاية.

إن ظهور الحوزات العلمية الشيعية في ري وقم وبغداد والحلة وجبل عامل والنجف ومشهد وإصفهان وشيراز وعشرات المراكز العلمية والتحقيقية والتربوية الأُخرى لهي وجه آخر لهذا التاريخ المجيد وتأكيد لعظم تلك المسؤولية والرسالة.

كما أن تلك الأسماء اللامعة والشخصيات العلمية الراسخة كالشيخ المفيد والطوسي والمحقق والعلّامة الحليّين والشهيدين والشيخ الأنصاري وملا صدرا... ما هي إلّا أدلة وآيات تشير إلى ذلك التاريخ المشرق المجيد.

ومن النقاط المضيئة والامتيازات المتفردة لهذه الحوزة العلمية ذلك الالتزام والمسؤولية والإخلاص والأخلاق الفاضلة، والمعرفة المقترنة بالعمق والتحقيق

وتأصيل الأفكار، والاستجابة لمقتضيات الزمان واحتياجات العصر، ومواجهة الأفكار الأُخرى بروح علمية متزنة، وهذه الخصائص والمميزات تمثل شروطاً وأسباباً لبقاء الحوزات الدينية فاعلة ومؤثرة عبر التاريخ، إضافةً إلى الثبات على الأصالة وما لها من امتيازات دون إغفال للنظر والاستفادة من التجارب الإيجابية الجديدة وما تفرضه متطلبات الزمان، وما يثيره العالم من حولنا من تساؤلات.

إن معرفة تاريخ الحوزة والوجوه العلمية البارزة فيها مسؤولية وتكليف يقع على عاتق كل طالب علم.

ولكن الأمر الذي يحظى لدينا بالأهمية اليوم هو أن لا نكتفي بهذا التاريخ المشرق، والماضي المجيد ونتغنى بتلك الشخصيات الكبيرة التي شكلت هويتنا، وبنت أمجادنا، ورسخت تراثنا، حتى أصبحنا نتفاخر ونتباهى بها بين الأُمم، وإنما يجب أن نوجد التوازن والتناسب بين ماضينا وحاضرنا، فلابد من الاستفادة من هذا الإرث العظيم لتأدية رسالتنا في عصرنا الحاضر، هذه الرسالة والمسؤولية التي تعد الأصعب والأثقل مما كانت عليه في أي زمان مضى، حيث لا يمكن قياس الحاضر بما تقدم من الأزمان.

١) نظرة إلى تاريخ الحوزات العلمية :

١ ـ ١) المقطع الأول : منشأ الحوزة العلمية الشيعية وجذورها :

ترتبط جذور الحوزة العلمية الشيعية بعصر وجود الأئمة عليهم السلام، ويمكن القول بأن الحوزات العلمية تشكلت بشكلها الواقعي وانطلاقتها الحقيقية في عهد الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، حيث بلغت نضجها وتكاملها، على الرغم من وجود تشكيلات ووجودات علمية سابقة لهذا العصر، كما في مدينة رسول الله وكذلك في مدينتي (الكوفة والبصرة)، ولكن الظهور الواقعي لهذه الحوزات كان في عصر الصادقَين عليهما السلام، حيث نشأت الحوزة وتكاملت على أساس العلوم المختلفة والمتنوعة في هذا العصر.

٢ ـ ١) المقطع الثاني : الحوزات العلمية في عصر الغيبة :

برزت عدّة حوزات مهمة في عصر الغيبة الصغرى وما بعدها على أساس منهج أهل البيت والفكر الشيعي، ومن أهم تلك الحوزات حوزة ري وبغداد، وكذلك كانت مدينة قم إلى حدٍّ ما، ومن أعاظم علماء حوزة ري أشخاص مثل الكليني والصدوق (رحمة الله عليهما)، وفي حوزة قم كان الأشعريون، وفي بغداد برز علماء كبار من أمثال الشيخ المفيد ﷺ حيث لمع نجمه في هذه المدينة التي كانت عاصمة للخلافة العباسية، ابتداءً من زمن المنصور الدوانيقي، حيث قامت حوزة علمية شيعية متينة وذات تأثير كبير وإشعاع واسع على صعيد العلم والثقافة.

وقد بقيت حوزة بغداد في تألقها وذروة عطائها حتى القرن الخامس الهجري، حيث قام بواجب العلم فيها رجال أفذاذ كالشيخ المفيد والسيّد الرضي والسيّد المرتضى والشيخ الطوسي والنجاشي والكثير من العلماء ممن أغنوا الواقع العلمي من خلال آثارهم الكلامية والتفسيرية، وعلوم الحديث والفقه، ولم تصرفهم هذه الجهود العلمية الجليلة عن متابعة الواقع السياسي، حيث سجلوا حضوراً واضحاً في هذا الميدان، ولذلك فالدور الكبير الذي أدته حوزة بغداد لا يمكن أن ينسى.

٣ ـ ١) المقطع الثالث : التوسع العلمي والجغرافي للحوزة العلمية الشيعية :

بعد حوزة بغداد، ننتقل إلى الجيل الثالث للحوزات العلمية، ونعني به حوزات النجف والحلة، وبعد ذلك حوزة جبل عامل في لبنان، وقد كان لهذه الحوزات حضور متميز خلال القرن السادس والسابع والثامن الهجري، حيث تحملت هذه الحوزات أعباء المسؤولية في الميدان العلمي والاجتماعي والسياسي، وقد نشأ في أروقتها عدد من العلماء الأفذاذ كالعلّامة الحلي وفخر المحققين والشهيد الأول.

إن قسماً كبيراً وجانباً مهماً من علم الكلام أحرز تقدماً لافتاً في مدرسة الحلة، وإلى جانب حوزة الحلة كانت حوزة النجف التي تعد ركيزة أساسية وقطباً محورياً في تاريخ الحوزات الشيعية.(٣)

٤ ـ ١) المقطع الرابع : تطور الحوزات العلمية في إيران :

تحولت إيران بشكل تدريجي إلى قاعدة أقوى وأهم فيما يخص الحوزات العلمية، مع أن لبنانِ والعراق لها أهمية أيضاً في ذلك العصر، فقد تمتعت حوزة إصفهان بأهمية كبيرة في العهد الصفوي، وقد كان لهجرة الشيخ الكركي والبهائي من لبنان إلى إصفهان ذلك الأثر الكبير، وقد اتخذ الواقع الفلسفي والعقلي مساراً جديداً، إضافة إلى تطور المسار الحديثي الذي تبنى الإشراف عليه العلّامة المجلسي بكل ما يتمتع به من اقتدار في هذا الميدان، حيث تبوأ ميراث الشيعة موقعاً جديداً في هذا العصر، وقد شاركت الحوزة العلمية في إيران في هذه الحقبة الزمنية في بناء المدنية وإدارة الدولة عندما مدت الدولة الصفوية يد الحاجة إلى الحوزة العلمية، لقد تمتعت الحوزة العلمية آنذاك بقدر من القوة والسلطة، حتى أنها اقتربت من مفهوم ولاية الفقيه، وبالانتقال إلى عصر متأخر قليلاً نلتقي بحوزة طهران وخراسان في العهد القاجاري، إضافةً إلى ظهور حوزة لا بأس بها في البحرين.

٥ ـ ١) المقطع الخامس : الحوزات الشيعية في إيران وقم الجديدة :

في القرن الأخير، وبعد مرور ٩٢ عاماً على حوزة قم الجديدة، اتسعت آثار الحوزة العلمية، التي شكلت قم محوراً لها، وكذلك العراق حتى كانت لها آثار وأعمال مهمة في دولها، بل وفي العالم الإسلامي، وحتى في عموم العالم البشري، وقد بلغ عمل الحوزات العلمية الشيعية وعطائها الذروة حينما كانت ثمرته اليانعة قيام الثورة الإسلامية في إيران، وهذه الثورة ما هي إلّا أثر من آثار ميراث الحوزة الشيعية العظيم، الذي تجلى وتجسد بشخصية الإمام الخميني ﷺ، كما أن الإمام الخميني ارتقى بالحوزة العلمية إلى الفضاء العالمي الواسع بكل قوة واقتدار، لتترك أثرها الكبير في هذا العالم.

لقد استقبلت قم ومنذ البداية مذهب أهل البيت عليهم السلام، فكانت تجد في ذاتها جوهرة العقد في إطار الحوزة العلمية، فتحولت إلى مركز ديني وعلمي حينما

استقبلت الأشعريين المهاجرين وغيرهم من المحدثين والفقهاء، لتتحول إلى مركز ديني وعلمي لعشاق العلم المحمدي الأصيل المتمثل بالحديث وعلوم الإسلام، وبقيت هذه الشعلة الوهاجة مضيئة على مر الزمن حتى شهدت تحولاً جديداً على يدي الفقيه المهاجر آية الله الحائري، حيث بدأت فصلاً متميزاً مليئاً بالمفاخر والعطاء الذي أهدته إلى عالم الإسلام والتشيع بكل فخر واعتزاز، وكان من جملة هذا العطاء انتصار الثورة الإسلامية العظيمة بقيادة الإمام القائد الراحل وبمساندة الحوزة العلمية والعلماء والمراجع والأُمة الإسلامية، حيث أوجدت قدوة جديدة دخلت من خلالها الحوزة العلمية مرحلة جديدة من أبرز معالمها اتساع نطاق العلوم الدينية لتشمل أُمماً وشعوباً متنوعة بعد أن كانت مقتصرة على أُمم وشعوب محدودة.

إن المحور الأساسي والهدف المنشود لعمل الحوزة هو تربية وتنشئة النفوس الطاهرة، وتخريج علماء على درجة من الاستقامة والخلق الرفيع يحملون رسالات الله ويدلون الناس على سبيله من خلال توسيع دائرة الخطاب الإسلامي الأصيل ومذهب أهل البيت عليهم السلام إلى جميع أنحاء العالم.

إن هذه الأهداف النبيلة وقلاع النور المشعة استطاعت على طول التاريخ أن تجتذب إليها أُناساً متميزين ومحترمين ومخلصين، فتمكنت الحوزات العلمية أن توسع نطاق علومها وتنشر أهدافها الإلهية من خلال هذه النخبة الطاهرة لتعلم أرجاء مترامية من هذا العالم، فانتشرت الفضيلة والعلم وتوسع نطاق الإسلام وانتشرت معارفه في تكامل الأخلاق وتهذيب النفوس وعالمية الدين، حتى كانت لها خطوات ثابتة وراسخة في هذا الميدان، وقد تحملت هذه النخبة ألوان المتاعب وواجهت أنواع العقبات في هذا الطريق، ولم تألُ جهداً، ولم تقصر في عمل حتى أثمرت أعمالها في جذب الطلبة الأعزاء من الدول القريبة والبعيدة في هذا العالم ليتوجهوا إلى الحوزات الدينية بلهفة واشتياق، فأصبحنا نحن وهم ورثة هذا الجهد الكبير والماضي المجيد المليء بالمفاخر، وتكليفنا الآن مواصلة هذا

الطريق والمحافظة على هذا الإرث التليد من قيم الدين ومعطياته المعنوية التي تتطلب قدراً كبيراً من العمل ومجاهدة النفس وترويضها، ومضاعفة الجهود وتكثيف النشاط، والعمل المتواصل.

إن الحوزات العلمية ـ وخصوصاً الحوزة العلمية في قم ـ شهدت تحولات كبيرة في ربع القرن المنصرم، كانت لها تجربة قيمة ومفيدة، وقد أوجدت الثورة الإسلامية نقاط تحول كثيرة في بلدنا وعموم العالم الإسلامي في العديد من المستويات وفي مختلف الاتجاهات، وكذلك أوجدت نقطة تحول في واقع الحوزات العلمية، وقد ظهر هذا التحول على مستويين:

الأول: توسعة دائرة الإشعاع لتكتسب بعداً دولياً.

والثاني: ما أحدثته من تطوير على صعيد طرح البرامج المدروسة وتنظيم العمل.

وجامعة المصطفى العالمية التي بدأت عملها عبر مؤسستين هما: المركز العالمي للعلوم الإسلامية، ومنظمة الحوزات والمدارس خارج البلد، إنما هي مثال شاخص وشاهد حي يحكي تطور وترقي الحوزة في الساحة العالمية، إضافةً إلى كونها شاهداً على التحولات العميقة على صعيد التنظيم وتطوير البرامج.

٢) خصائص الحوزة الشيعية:

الحوزات العلمية الشيعية باعتبارها من أوائل الجامعات التي اشتملت على مختلف العلوم والمعارف من خلال تاريخ يمتد إلى ما قبل (١٠٠٠) سنة، لها خصائص ومميزات نرى أن التوجه لها ومعرفتها أمر مهم وذو فائدة وبناء:

١ ـ ٢) التاريخ المتواصل للحوزة:

إن الحوزات العلمية الشيعية لها هوية تاريخية موحدة ومترابطة مع بعضها، ولم ينقطع جريان الفقه الشيعي في أي حال من الأحوال، وعدم الانقطاع هذا لم يقتصر على الكتب والمؤلفات وحسب، وإنما كان هذا التواصل عبر تلقي الأجيال

اللاحقة عن سابقتها جيلاً عن جيل حتى تواصلت حلقات هذه السلسلة إلى يومنا هذا دون انقطاع، والأبعد من ذلك استمرار الحوزة العلمية كمؤسسة فاعلة عبر هذا التاريخ الطويل.

لقد انتقلت مركزية الحوزة العلمية الشيعية إلى أماكن عديدة عبر تاريخها، ومع ذلك لم ينقطع هذا التواصل ولم يتغير هذا المنهج، وبقي الخيط الذي ينظم حبات هذا الوجود المبارك على حاله.

٢ ـ ٢) دور الحوزة العلمية الحضاري :

إن الدور الذي أدته الحوزات العلمية وما تركته من آثار حضارية في المنطقة وعلى صعيد العالم الإسلامي، وحتى على نطاق العالم أمر واضح يمكن بيانه، وخصوصاً في هذا الزمان الذي تحولت فيه أنظار العالم إلى الحوزات العلمية.

٣ ـ ٢) العمق العلمي والتحقيقي للحوزات العلمية :

إننا نشاهد العطاء العلمي للحوزة الشيعية من خلال الموسوعات الكبيرة في الفلسفة والكلام والفقه والتفسير، إن هذا العمق العلمي والدقة المتناهية تكشف عن الأبعاد العلمية غير الاعتيادية لهذه المؤسسة.

٤ ـ ٢) الهوية المستوعبة للأعراق والمناطق في الحوزة العلمية :

مع أن المحور الأساسي للحوزة العلمية يتمثل في (العراق ولبنان وإيران)، إلّا أن الثورة الإسلامية وسعت آفاق الحوزة العلمية حتى شملت الكثير من المناطق والنقاط المترامية في العالم.

٥ ـ ٢) البعد التربوي والأخلاقي للحوزات :

وهذا البعد صار سبباً لإيجاد نهج أخلاقي ومعنوي مؤثر وراسخ في نفوس طلبة العلم في الحوزات.

٦ ـ ٢) البعد الاجتماعي والسياسي للحوزات العلمية :

على الرغم من وجود بعض الأفراد في الحوزة العلمية ممن لا يعتقدون برسالة الحوزة الاجتماعية والسياسية، ولكن حقيقة حوزاتنا ونهجها كان اجتماعياً وسياسياً، وإن انبثاق الثورة الإسلامية كان من صلب الحوزة، وقد تجلت كنوز

الحوزة وذخائرها في شخص الإمام الخميني ﷺ فأوجد هذه الثـورة الشـاملة، وفي المقابل فإن الثورة الإسلامية أحدثت تحولات هائلة وأسـاسية فـي واقـع الحوزة العلمية، فنحن مدينون لهذه الثورة وما أوجدت من آثار.

٣) الرسالة العالمية لجامعة المصطفى :

إن التحول والتطور في الحوزة العلمية أمر ضـروري وإلزامـي تـفرضه روح العصر والاستجابة لما يستجد من تساؤل تماشياً مع مقتضيات الزمان، ولكنه أمر خطير وحساس في الوقت نفسه، لأنه يثير الكثير من التـحدي، ولهـذا السـبب يحتاج الجمع بين (الأصالة) و(المعاصرة) والسنة والتجديد إلى قدر عـالٍ مـن الذكاء والدقة والتدبير والتأمل.

وقد سعت جامعة المصطفى العالمية خلال العقدين الماضيين إلى أن تركز مسيرتها بأقدام ثابتة معتمدة على الأصالة والسنن المتجذرة في أعماق التاريخ وبـالاعتماد على تراث الحوزة العلمية وذخائرها، لتنطلق إلى العالم الواسع والعمل فيما يقارب (١٠٠) دولة من خلال وضع البرامج والبناء وتطوير الذات في عدة ساحات مـنها البناء والتعليم والتربية والعلاقات والتحقيق وغير ذلك من الآفاق والصعد.

ولأول مرة في تاريخ الحوزات العلمية الشيعية نجد هذا الكم الكبير من الطلبة وهذا التنوع العرقي الذي اجتمع اليوم من مختلف أقطار العالم في إيران وفي إطار الحوزة العلمية.

وتدل هذه الإحصاءات على أن أعداد الطلبة في تزايد مستمر، وفيما يـتعلق بالكيف فإن جامعة المصطفى تضم الكثير من الكوادر والشخصيات المرموقة من أصحاب الفكر والنظر، وهذا التنوع العرقي والقاري والإقليمي يعد ميزة أُخرى تضاف إلى مميزات الحوزة الشيعية، حيث تحتوي جامعة المصطفى العالمية على طلّاب من جميع قارات العالم تقريباً، وبـالإضافة إلى التـدريس عـلى أسـاس مذهب أهل البيت فهناك دروس تعطى على أساس المذاهب الإسلامية السـنية، ويمكن الإشارة والتذكير بـوجود جـمع مـن الأخـوات الدارسـات ومـن دول وقوميات مختلفة، وهذه المؤشرات مجتمعة تشكل دليلاً على التحول والتجديد

اللذين تشهدهما الحوزات العلمية والمراكز الرسمية للعلوم الإسلامية والمعارف الإلهية إلى ما هو أبعد وأشمل من منطقة الشرق الأوسط لتشمل جميع بقاع العالم، وذلك من خلال تهيئة الأرضية الصالحة والطريقة الميسرة لانتقال تعاليم الإسلام وعلومه ومعارف أهل البيت عليهم السلام إلى أبعد نقطة ممكنة، وذلك من خلال إنشاء ورعاية مئات الحوزات العلمية في كافة أرجاء العالم وإيجاد عدد من الجامعات الإسلامية التي تعتمد على الأصالة الحوزوية إلى جانب المعاصرة والتجديد، وهذا البعد الذي أضافته جامعة المصطفى إلى الحوزة أمدها بالقدرة والإمكانية التي تمكنها من أداء دورها العالمي في حمل رسالة الإسلام وجعلها رسالة عالمية، وقد أعدت الجامعة منهجاً وبرنامجاً مدوناً لهذه المهمة المقدّسة مشفوعاً بتخطيط متقن وسياسة محددة واضحة في حالتي الإعداد والتنفيذ.

وهذا التطور والتحول في تاريخ الحوزة لم نجد له نظيراً على مر عصورها وامتداد تاريخها، وهذا دور أساسي ومقطع مهم بالنسبة لتطور الحوزة العلمية وارتقائها، جدير بالتوجه والاهتمام.

ولم يعد خافياً على أحد أن هذا التحول العظيم في الساحة العالمية الكبرى إنما وجد وتشكل من رحم الحوزات العلمية، كما ساهمت في صيانته والحفاظ عليه من خلال الجهود الجبارة والسعي الحثيث الذي تقوم به ثلةٌ من العلماء العاملين المضحين المؤثرين من أجل الحفاظ على سلامة وطهارة القيم الإيمانية المعنوية وصيانة الحوزات العلمية من كل الهجمات والتجاوزات التي يقوم بها شياطين الجن والإنس.

لقد أثبتت الحوزات العلمية عبر تاريخها الذي تجاوز الألف عام أنها الحارس الأمين، كانت وستبقى حاملة لهذا الإرث العظيم لتوصله إلى الأجيال البشرية الجديدة، فلابد من التأكيد على هوية الحوزة هذه باعتبار مهمتها المقدّسة في الحفاظ على هذا الإرث العلمي والمعنوي ونقله بكل أمانة وإخلاص.

والجدير بالذكر أنه على طول تاريخ الحوزة العلمية برز علماء كبار أدركوا متطلبات الزمان والمكان في عصورهم فانطلقوا لإحداث تغيير وتطوير للبنى الأساسية في إطار الأُصول العامة للحوزة العلمية، وقد تمكنوا من خلال الذائقة

الفقهية والمنهج الرصين أن يحافظوا على أصالة الحوزة وصيانة أصولها من جهة، والإيفاء بمتطلبات الزمان وتحولاته من جهة أُخرى.

لقد كانت إرادة تغيير مناهج وسنن الحوزة القديمة وما زالت موجودة عن حسن نية وسلامة قصد، ولكن السلف الصالح من العلماء حافظوا على أصالة الحوزة وأحدثوا نوعاً من التطوير في الأساليب والمناهج اتساقاً مع متطلبات العصر، ونحن اليوم مكلفون بحمل هذه الرسالة والحفاظ عليها من خلال صيانة هوية الحوزة الأصيلة وحياطة نظامها من جهة وإيجاد الأرضية الصالحة لتطويرها وتقدمها من جهة أُخرى.

موسوعة التعريف بالحوزة :

من المؤسف أننا لم نجد من قبل موسوعة للتعريف بمكانة الحوزة وبيان الأدوار التي مرت بها والكشف عن سير تطورها وارتقائها خلال مسيرتها المظفرة، وعلى الرغم من وجود معلومات متناثرة هنا وهناك، ولكن من الضروري أن تجمع هذه المعلومات في إطار مجموعة علمية متكاملة ومرتبة لتشكل موسوعة مرجعية في هذا الإطار.

وبحمد الله والهمة العالية والسعي الحثيث للعالم المحترم حضرة حجة الاسلام والمسلمين الشيخ (عدنان آل قاسم) تم إنجاز مجموعة شاملة مستوعبة تستحق التقدير والإشادة وهي خطوة أُولى في هذا الإطار من شأنها أن تملأ هذا الفراغ وتسد الحاجة إلى مثل هذا العمل، وتعرض تاريخ الحوزات العلمية أمام أنظار العالم، وسوف يتم تطويرها وإكمالها في المستقبل، وما هو مدون ومثبت في هذه المجموعة لا يمثل كلَّ تاريخ الحوزات العلمية وإنما يمثل زاوية وعرض لجزءٍ من تاريخ الحوزات العلمية، وما صاحبه من تطور وتحول عبر هذا التاريخ.

إن هذه الموسوعة تفتح نافذةً للقراء ليطلوا من خلالها على عظمة ومكانة الحوزات والجامعات الشيعية وعلمائها عبر تاريخ الطويل، وما كان لها من تأثير وانعكاسات في ثقافة المجتمع، بل وتكشف عن آثار الحوزة الاجتماعية والسياسية أيضاً.

تقديم سماحة آية الله الشيخ محمد مهدي الآصفي (حفظه الله)

بسم الله الرحمن الرحيم

(تاريخ العلم) علم حديث، فيما اعلم، وقد دخل في حقل الثقافة والمعارف الإسلامية منذ القرن الثالث عشر بصورة واسعة.

فكتب العلماء في تاريخ القرآن، وتاريخ التفسير وتاريخ الحديث، وتاريخ الفقه، وتاريخ الأُصول، وتاريخ العرفان والفلسفة، وتاريخ الفكر المعاصر، ولكن لا تزال هناك فراغات بحاجة إلى التدوين مثل تاريخ (الأخلاق) وتاريخ (علم الرجال) وتاريخ (دراية الحديث) وتاريخ (تدوين السيرة النبوية) وتاريخ (التاريخ) وعلوم ومعارف أُخرى لم ينهض العلماء بتدوين تاريخها بعد.

وهذا العلم حاجة ضرورية في فهم العلوم التجريبية والعقلية والرياضيات والثقافات والعلوم الإنسانية والأدبية والمعارف الإسلامية وغيرها. ولذلك ينبغي ادراج تاريخ العلوم والمعارف الإسلامية ضمن المناهج التعليمية التي يتلقاها طلّاب العلوم الإسلامية، وطلبة الجامعات في مرحلة التخصص.

فلا يكاد أن يعرف الإنسان تطور العلوم التجريبية وتشعبها من دون أن يعرف تاريخ هذه العلوم، وكذلك العلوم العقلية، والثقافات الإسلامية المألوفة في حوزاتنا وجامعاتنا الإسلامية.

فالباحث الذي يقرأ كتاب (الفوائد الحائرية القديمة والحديثة) للمحقق البهبهاني (ت ١٢٠٥ هـ) مثلاً، والطالب الذي يقرأ كتاب (فرائد الأُصول) للشيخ الأنصاري (ت ١٢٨٠ هـ)، وهما يمثلان آخر مراحل تطور علم الأُصول المعاصر، من دون أن

ننتقص من قيمة التجديد والتطوير الذي أجراه على هذا العلم، علماء معاصرون بعد المحقق البهبهاني والشيخ الأنصاري، من أمثال المحقق صاحب الكفاية (ت ١٣٢٩ هـ)، والأعلام الثلاثة من تلاميذه: المحقق النائيني (ت ١٣٥٥ هـ)، والمحقق العراقي (ت ١٣٦١ هـ)، والمحقق الإصفهاني (ت ١٣٦١ هـ)، والتجديد الذي أجراه على هذا العلم بعدهم فقهاء معاصرون لنا من أساتذتنا وشيوخنا في الفقه والأُصول رحمهم اللّه... أقول أن الذي يقرء هذين الكتابين يعرف مراحل التطور الكبيرة والعظيمة في هذا العلم، التي جرت على يد هذين العلمين رحمهما اللّه.

فلم يكن يميّز أحد قبل المحقق البهبهاني بين (الشك في التكليف) و (الشك في المكلف به)، وبالتالي لم يكن التمييز بين موارد البراءة والاشتغال في الفقه ميسرا للفقيه قبل المحقق البهبهاني رحمه الله.

كذلك لم نكن نعرف الحكم العقلي بتنجيز (العلم الاجمالي) في الفقه والأُصول قبل المحقق البهبهاني.

وهكذا التفريق بين الأدلة الفقاهيّة والأدلة الاجتهادية لم يكن معروفا بشكل واضح قبل الشيخ الأنصاري رحمه الله.

والشيخ الأنصاري، وإن كان ينسب هذا التفريق بين موارد الأمارات والأُصول إلى المحقق البهبهاني، ولكن الأنصاف أنّ رائدها الأول هو الشيخ الأنصاري في كتابه (فرائد الأُصول ـ الرسائل).

وهو أمر مهم للغاية، وبهذا التفريق يمكننا أن ننظم مراتب الأدلة، فلا نتمسّك بالدليل الفقاهتي مع وجود الدليل الاجتهادي، وبه نعرف موارد حكومة الأدلة بعضها على بعض.

وقد جرى الفقهاء من دون إستثناء في الاستنباط وترتيب الأدلة على هذا الكشف الهام الذي تمَّ على يد الشيخ الأنصاري وبأنامله الشريفة منذ عصر الشيخ إلى اليوم.

كذلك لم يكن يعرف فقهاؤنا التفريق بين الأصل السببي والمسببي، وتقديم الأصل السببي على الأصل المسببي قبل الشيخ الأنصاريﷺ.

كما لم يكن يعرف فقهاؤنا قبل الشيخ الأنصاري الكثير من مباحث (القطع) و (الشك) اللّذين فتحهما اللّه تعالى على يد الشيخ الأنصاري في كتابه القيم العميق (فرائد الأُصول)، الذي ظل ركنا ثابتا في دراسة الأُصول في حوزاتنا العلميّة منذ أن ألّفه الشيخﷺ إلى اليوم.

وبعد عصر الشيخ الأنصارى جرى أيضا تطوير كثير على يد تلامذته، ومن ذلك قاعدة (الترتب) على يد المحقق المرزا حسن الشيرازي، مؤسس مدرسة سامراء الفقهية، وكذلك التفريق بين متعلق الحكم وموضوع الحكم على يد المحقق النائيني وأمثال ذلك وهو كثير، وقد تحدثت بتفصيل عما جرى من التجديد والتطوير في علم الأُصول على يد هذين العلمين الجليلين المحقق البهبهاني والشيخ الأنصاري في كتابهما القيمين (فرائد الأُصول والفوائد الحائرية) في بحث مستقل باسم: راندا علم الأُصول المعاصر.

إنّ طالب العلم لو لم يقرأ تاريخ علم الأُصول وما جدّده الراندان المعاصران المحققان في هذا العلم، في المباحث العقلية من علم الأُصول، وكذلك ما جدّده الشيخ محمد تقي الإصفهانيﷺ (ت ١٢٤٨ هـ) في مباحث الألفاظ من هذا العلم في حواشيه القيمة العميقة المعروفة على كتاب معالم الأُصول (هداية المسترشدين في شرح معالم الدين)، وما أحدثه المحقق القمي (ت ١٢٣١ هـ) في (القوانين) والشيخ محمد حسين الإصفهاني (ت ١٢٥٠ هـ) في كتابه (الفصول) وشريف العلماء

(ت ١٢٤٥ هـ)، وهو من أساتذة الشيخ الأنصاري والسيّد محسن الأعرجي الكاظمي (ت ١٢٢٧ هـ) في كتابه المحصول في علم الأُصول وغيرهم، وهؤلاء كلهم تلامذة المحقق البهبهاني... أقول: إن طالب العلم لو لم يطلع على التطور والتجديد الذي جرى على يد هؤلاء الأعاظم، لا يعرف قيمة المباحث التي جدّدها هؤلاء الأعلام في علم الأُصول في مباحث الألفاظ وفي المباحث العقلية على نحو سواء، ولا يزال معظم هذه المسائل غير معروف لفقهاء المذاهب السنية الأربعة.

وقد طلب حفيد الشيخ محمد تقي الإصفهاني صاحب الحاشية من الشيخ الأنصاري، وكان من تلاميذه أن يكتب في مباحث الألفاظ من علم الأُصول، كما كتب في المباحث العقلية فقال له: إنَّ جدكَ الشيخ محمد تقي الإصفهاني أغنانا عن الكتابة في مباحث الألفاظ بما كتبه في كتابه حاشية المعالم.

ولا أُريد أن أسهب في هذا البحث لئلّا يخرجنا عما نحن بصدده في دور تاريخ العلم في فهم العلم...

ومهما يكن من أمر، فإن تاريخ الفقه عند الشيعة الإمامية وتاريخ التشريع، وهو غير تاريخ الفقه، من العلوم التي دخلت المكتبة الفقهية في وقت متأخر.

وهذا العلم من العلوم الضرورية في حقل الدراسات الفقهية... والذين يقرأون الفقه دون الالمام بتاريخ الفقه تنقصهم جملة من مقومات دراسة الفقه، ولا تتكامل عندهم عناصر الاجتهاد بشكل كامل دون معرفة تاريخ المسألة الفقهية وتاريخ أبواب الفقه وكتبه ومناهجه.

وقد كان السيّد البروجردي يعطي اهتماما كبيرا في دروسه في الفقه لتاريخ المسألة الفقهية ونشأتها، ويقول: إنّ الدراسات الفقهية عندنا دوّنت في ظروف حاكمية فقه المذاهب السنية، وبشكل خاص المذاهب الأربعة المعروفة.

وقد كان تدوين المسألة الفقهية عندنا يتم على طريقة التعليق بالنقد والنقض لفتاوى فقهاء أهل السنة. ونحن لا يتيسر لنا أن نفهم المسألة الفقهية المدوّنة في مدوّناتنا الفقهية إلّا عندما نعرف ظروف صدور الرواية عن المعصومين عليهم السلام أو ظروف صدور الفتوى من فقهائنا وملابساتها.

وقد كانت جملة من الروايات تصدر عن المعصومين عليهم السلام في ظروف التقية، ولذلك نجد لأئمة أهل البيت عليهم السلام أكثر من رواية في مسألة واحدة باتجاهات مختلفة، بين السلب والايجاب. وما لم يعرف الفقيه ظروف هذه المسألة وتاريخها، وموقف الحكومات الأموية والعباسية المعاصرة لأئمة أهل البيت عليهم السلام من تلك المسألة... لا يتيسر له استنباط الحكم الشرعي في تلك المسألة، وهذه المسائل كثيرة، ويختلف الحال من فترة تاريخية يشتد فيها التضييق على أهل البيت عليهم السلام كما في عصر معاوية والدوانيقي وهارون والمتوكل عن فترات التوسعة النسبية لهم عليهم السلام في بيان الحلال والحرام. كما في عصر المأمون مثلاً.

إنّ معرفة ظروف صدور الرواية عنهم عليهم السلام وصدور الفتاوي عن فقهاء مدرستهم من شروط الاستنباط، ومن دونها لا يستطيع الفقيه أن يستنبط الحكم الشرعي من خلال الأحاديث بصورة كاملة... وقد كان السيّد البروجردي رحمه الله في دروسه شديد العناية بدراسة الظروف والملابسات التي كانت تحف المسألة عند صدور الرواية وبعدها.

أقول: أنا لم أحضر الدروس الفقهية للسيّد البروجردي رحمه الله - في قم - ولكني قرأت له الكثير مما كتبه تلامیذه عن آرائه الفقهية والأُصولية والرجالية مثل كتاب الصلاة لآية الشيخ اللنكراني وصلاة الجمعة للشيخ المنتظري وكتاب أسانيد الكافي وأمثال ذلك مما لا يحضرني الآن عناوينها، ووجدت في دراسات هذا الفقيه الجليل لفتات علمية جديرة بالاهتمام، ووجدت له اهتماما كبيرا بتاريخ المسألة الفقهية ونشأتها وكذلك له

عناية بتاريخ المسألة الأُصولية إذا كانت للمسألة الأُصولية جذور تاريخية، مثل مسألة الطلب والإرادة.

وليس هذا الاهتمام بتاريخ المسألة أمر جديد في كتبنا الفقهية المعاصرة، فقد كان هذا الاهتمام هو منهج شيخ الطائفة الطوسي﵁ في كتبه الفقهية مثل كتاب الخلاف ومنهج العلّامة الحلّي﵁ في جملة من كتبه الفقهية مثل (تذكرة الفقهاء)، وهما وإن لم يذكرا تاريخ المسألة الفقهية بالمعنى الذي نقلته عن السيّد البروجردي﵁، ولكن يذكران في تقرير كل مسألة الآراء الفقهية المختلفة من فقهاء السنة، وهو يعين الفقيه كثيرا إذا أراد أن يؤرخ للمسألة الفقهية.

وكذلك يجب أن نذكر منهج السيّد محمد جواد العاملي﵁ صاحب كتاب (مفتاح الكرامة).

وبعد، لقد استطردت في هذا البحث، وجرى الاستطراد بصورة عفوية... ونعود الآن إلى نقطة البداية من هذا البحث.

إنّ الإنسان ليعجب عندما يعرف أنّ هذا الصرح العلمي الشامخ، على امتداد التاريخ العقلي في الإسلام، والجهد العلمي الضخم، بعرضه العريض، وتاريخه العريق، وما يستتبعه من الأسفار والاغتراب، سعيا لطلب العلم، وتحمل الفقر وضنك العيش، من قبل طلبة العلوم الإسلامية، وإقامة المئات من الحوزات والمدارس والجامعات الإسلامية في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه وآلاف المدونات الفقهية والأُصولية والقرآنية والحديثية تمّ استجابة لدعوة اللّه تعالى للمسلمين أن يتفقهوا في الدين، من خلال القرآن والحديث، لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

وبعد، الكتاب الذي بين أيدينا جهد واسع وموفق في تدوين تاريخ الحوزات العلمية عند الشيعة الإمامية، منذ عهد رسول اللّهﷺ إلى اليوم لمؤلفه العلّامة المحقق حجة الاسلام والمسلمين الشيخ عدنان فرحان القاسم (أبو أنس) كما يدعونه به أصدقاؤه واخوانه.

وقد قرأت كثيرا مما كتبه علماؤنا المعاصرون في تاريخ الفقه والفقهاء والحوزات العلمية عند الشيعة الإمامية.

حاول أصحابها أن يتتبعوا مراحل تطور هذا العلم وتكامله منذ عصر الرسالة إلى اليوم، من خلال دراسة المباحث الفقهية التي دونها فقهاء الإمامية خلال هذه المدة.

ولكني لا أُغالي إذا قلت أنّ الموسوعة التي دوّنها الشيخ عدنان فرحان (أبو أنس) حفظه اللّه أوسع وأعمق هذه البحوث، وقد بذل مؤلفه الجليل جهدا مضنيا وصبرا في تتبع مراحل تطور الفقه والحوزات العلمية عند الشيعة الإمامية، وقرأ وتصفح لتدوين هذا الكتاب مصادر كثيرة في الفقه والأُصول والحديث والرجال والتراجم والتاريخ، والأدب حتى أخرج لنا ـ بتوفيق اللّه تعالى ـ هذا الأثر العلمي القيم.

والذي يقرء هذا الكتاب يتعرف على الثروة العلمية الكبيرة لفقهاء مدرسة أهل البيتعليهم السلام، وما تتضمنه هذه المدرسة من رؤى فقهية وأفكار عميقة، ودراسات ومناهج في الاجتهاد تجمع بين الأصالة في المحتوى والمضمون والأُصول، والتجديد في مناهج الاستنباط وآليات الاجتهاد.

---

(١) التوبة: ١٢٢.

وبهذه المناسبة ندعوا فقهاء المذاهب الأربعة وغيرهم من فقهاء المذاهب السنيّة أن يدرسوا علميَّ الفقه والأُصول في مدرسة أهل البيت عليهم السلام ليلمسوا بأنفسهم غنى هذه المدرسة الفقهية المباركة وأصالتها وعمقها وكفاءة الآليات الاجتهادية التي يستخدمها فقهاؤنا لاستنباط المسائل الفقهية وارجاع الفروع إلى الأُصول، وترتيب الأدلة ومعالجة حالات التعارض في الأدلة ومعالجة حالات التزاحم في الأحكام المتزاحمة.

اسأل اللّه تعالى أن يتقبل هذا الجهد العلمي والصبر على البحث والتتبع لمؤلف هذا الكتاب، ويجعله ذخرا له يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى اللّه بقلب سليم، وينفع به الحوزات العلمية وطلبة الدراسات العليا في الفقه، واللّه تعالى الموفق للسداد والصواب.

محمد مهدي الآصفي

النجف الأشرف

١ / ذي الحجة / ١٤٣٥ هـ

المقدمة

اقترن ظهور الإسلام مع الدعوة إلى القراءة فهبط الوحي على النبي الخاتم محمد المصطفى ﷺ بقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ * ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ * ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[1].

ثمّ جاءت الآيات القرآنية الأُخرى والتي تحث على التعليم والتعلم والتفكر والتدبر والتعقل لتغطي مساحة واسعة من كتاب اللّه العزيز وقد وكّل اللّه سبحانه إلى نبيه الأكرم ﷺ القيام بمهمة التبليغ والتعليم والتربية والتزكية، إلى جانب مهامه الإلهية الكبرى التي بعثه اللّه من أجلها.

فقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[2].

فقام بالأمر، وبلغ الرسالة، وعلم الأُمة شرائع الإسلام وما فيه صلاحهم، فأخرجهم من ظلمات الجاهلية إلى نور العلم والمعرفة والتهذيب والتزكية، فكان ﷺ كما وصفه الإمام علي عليه السلام: «أَضاءَت بِهِ البِلادُ بَعدَ الضَّلالةِ المظلِمةِ، والجَهالةِ الغالبة»[3].

وكان رسول اللّه ﷺ يفتخر بأن يكون معلما لهذه الأُمة.

فروي عنه قوله ﷺ: «بالتعليم أرسلت» وقوله ﷺ: «إنما بعثتُ معلما»[4].

---

(١) العلق: ١ ـ ٥.

(٢) الجمعة: ٢.

(٣) نهج البلاغة: ٢١٠، الخطبة ١٥١ بترتيب الدكتور صبحي الصالح.

(٤) المجلسي، بحار الأنوار: ١ / ٢٠٦، والقرطبي، جامع بيان العلم وفضله: ١ / ١٧، ٦٠.

فكان خير مُعلم لهذه الأُمة: «أروى قَبَسَ القابس، وأَضاءَ الطَّريقَ للخابِطِ، وهُدَيت به القلوبُ»[1].

وبعد أن اختار اللّه سبحانه لنبيه ﷺ مكانه في مستقر رحمته، قام بالأمر أهل بيتهِ الكرام صلوات اللّه عليهم، فَهُم: «شَجَرةُ النُّبوّةِ، وَمَحَطّ الرِّسالة، وَمُختَلَفُ الملائكةِ، وَمَعادِنُ العِلمِ، وينابيعُ الحُكم»[2]. وهم: «أساسُ الدِّينِ، وَعِمادُ اليقين، إليهم يفيءُ الغالي، وَبِهِم يُلْحَقُ التَّالي». وهم عندهم: «أبوابُ الحُكمِ وضياءُ الأمر» وهم: «إن نَطقوا صَدَقوا، وإن صَمَتوا لم يُسبَقوا».

فقام الأئمة الأطهار وأهل البيت الأخيار (صلوات اللّه عليه) بمهمام النبي ﷺ في التربية والتعليم والتزكية، فكانوا ـ وبحق ـ «عيشَ العلم وموت الجهل.. عَقَلوا الدِّين عَقلُ وِعايةٍ ورعايةٍ، لا عقلَ سَمَاعٍ وروايةٍ، فإنَّ رواةَ العلمِ كثيرٌ، ورعاتُهُ قليلٌ»[3].

وتتابع أُولئك الأئمة عليهم السلام بالقيام بمهامهم فكانوا صلوات اللّه عليهم «كمثل نجوم السماء إذا خوى نجم طلع نجمٌ»[4].

ومن بعد عصر حضور الأئمة عليهم السلام جاء عصر ورثة الأنبياء والأئمة عليهم السلام، وهم العلماء؛ حملة الشريعة، والراسخون في العِلم من أهل البصر والبصيرة والصبر والعلم بمواضع الحق، فمزجوا الحلم بالعلم، والقول بالعمل؛ ففتحت لهذه الأُمة الخيرات بمفاتيح العلم»[5].

---

(١) نهج البلاغة: ١٠١ الخطبة ٧٢ بترتيب صبحي الصالح.

(٢) المصدر نفسه: ١٦٢ ـ ١٦٣ خطبة ١٠٩ و ٤٧ خطبة (٢) و ١٧٦ خطبة (١٢٠) و ٢١٥ خطبة (١٥٤).

(٣) المصدر نفسه: ٣٥٧ ـ ٣٥٨ الخطبة ٢٣٩.

(٤) المصدر نفسه: ١٤٦ الخطبة ١٠٠.

(٥) المصدر نفسه: ١٢٥، ٢١٣، ٢٤٨، ٣٠٥.

ومنذ فجر الإسلام تشكلت حلقات الدرس، والتف حول النبيﷺ وأهل البيتعليهم السلام، والعلماء، مبتغين العلم وعشاق المعرفة، فتشكلت بهم حلقات الدرس، واتخذت من المساجد، وبيوت العلماء، أماكن للتدريس، فكان مسجد رسول اللّهﷺ أول منارةٍ للعلم والتعليم والتربية، ثم تتابعت المساجد لتؤدي دورها التعليمي والتربوي بالاضافة إلى كونها أماكن للعبادة والصلاة والاعتكاف.

ثمَّ تطور وضع التعليم لاحقا وظهرت المدارس والحوزات التعليمية في العالم الإسلامي، وانتشرت على نطاق واسع في البلاد الإسلامية، حيث تسابق العلماء والخيرين من أبناء هذه الأُمة على تأسيس هذه المدارس والحوزات ورعايتها، فأوقفوا لها الأوقاف، ووفروا لها مستلزمات التعليم، وأنشأوا فيها المكتبات العامرة بخزائن الكتب ونفائس المخطوطات ونوادرها، فاستمرت في عطاءها العلمي لقرون من الزمن، وتخرّج منها أجيال من العلماء وخلفت للأجيال اللاحقة تراثا علميا كبيرا وفي مختلف شؤون العلم والمعرفة الدينية والدنيوية، فكانت هذه المدارس والحوزات ولا زالت منارا للعلم والمعرفة، ومظهرا بارزا من مظاهر حضارة هذه الأُمة.

وقد حرص علماء الأُمة ومفكريهم وكتابهم ـ وباعتزاز ـ على تدوين تاريخ مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم العلمية، فحددوا امكانها، وأرخوا لتاريخ تأسيسها ومن درس فيها ومن تخرّج منها، والتراث العلمي الذي خلفته.. فدونت من أجل ذلك الكتب والمؤلفات القيمة، أغنت الباحثين والدارسين بمعلومات قيمة عن هذه الصروح العلمية.

وللشيعة الإمامية الاثني عشرية من اتباع مدرسة أهل البيتعليهم السلام، تاريخ علمي حافل بالمنجزات العلمية تتصل حلقاتهم بصدر الإسلام الأول، ويستمر عبر القرون اللاحقة ضمن المسار العلمي للأُمة الإسلامية.

إلّا أن مما يؤسف له أن التاريخ العلمي للمدارس الدينية والحوزات العلمية، في مدرسة أهل البيتعليهم السلام لا زال غير معروفا حتى لاتباع مذهب أهل البيتعليهم السلام فضلاً عن غيرهم؛ فالكثير منهم لا يعرف شيئا عن بدايات انطلاق الحركة العلمية ومواطن تواجدها، وأهم علمائها، والتراث العلمي الذي خلقته للأُمة..!! ويعود السبب في ذلك إلى عدم تدوين تاريخ لهذه الحركة العلمية المباركة، وضمن مؤلفات مستقلة، تعرف بها وبمدارسها وحوزاتها ومن دَرَسَ أو دَرَّس فيها، وما آلت إليه هذه المدارس والحوزات! وما وجد من تدوين لهذا التاريخ فهو شذرات متناثرة هنا وهناك، واشارات ونتف مبعثرة في بطون بعض كتب التراجم والتاريخ العام وردت عرضا في ثنايا ترجمة عالم من العلماء، أو بلد من البلدان، أو مؤلَّف من المؤلفات.

ومن هنا جاءت فكرة هذا الكتاب والتي اقترحها سماحة العلّامة الشيخ علي رضا الأعرافي، رئيس جامعة المصطفى العالمية في مدينة قم المقدّسة ـ والتي افتخر أن أكون أحد الدارسين فيها والمتخرجين منها ـ وذلك ضمن جلسة علمية حضرها سماحة آية اللّه الشيخ محمد مهدي الآصفي (حفظه اللّه)، والذي أبدى تأيده للفكرة، واستعداده للاشراف العلمي على هذا الكتاب.

وقد كنت قبل ذلك قد فرغت من تدوين رسالتي العلمية لنيل شهادة الدكتوراه، وكان موضوعها (تطور حركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية)، وقد اطلعت من خلال فصولها وأبحاثها على الخطوط العامة لموضوع الكتاب المقترح، ولمست مدى الحاجة إلى تدوين تاريخ الحوزات العلمية والمدارس الدينية.

ولهذا كان طلب فضيلة الشيخ الأعرافي ـ والذي لا يرد له طلب ـ قد لاقى استجابة سريعة مني. فشمرت عن ساعد الجد واعددت خطة بحث مفصلة تتضمن فصول وأبحاث هذا الكتاب فقدمتها لفضيلته كذلك قدمت نسخة منها لسماحة

الشيخ الآصفي، فسجل سماحة الشيخ حفظه اللّه ملاحظاته القيمة حول خطة البحث، كما تلقيت من سماحة الشيخ الأعرافي (حفظه اللّه) كتاب كريم جاء فيه:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

سماحة الحجة الشيخ عدنان حفظه اللّه.

بعد السلام والتحية،

أُقدم لكم تقديري وشكري لإعداد هذه الأُطروحة الهامة، وفي الحقيقة منذ أكثر من عشر سنوات كنت أتمنى تأليف كتاب يناقش ويعالج تاريخ الحوزات العلمية وتطوراتها ويعرفها كمؤسسة علمية واحدة ومتوحدة ومتطورة عبر تاريخها، وذلك من خلال نظرة أكاديمية وجامعة شاملة ومستوعبة. وكنت أحسّ بفقد سِفر يتصدى لهذا الأمر، وكنت آسفا له. والآن؛ وبفضل اللّه أُشاهد معالم تحقق تلك الأُمنية من خلال أُطروحتكم وجهودكم القيمة وللّه الحمد، وأسأل اللّه أن يوفقكم ويوفق المركز العالمي للدراسات الإسلامية لانجاز هذا المشروع بسرعة ودقة...» وأكد من جديد على نقاط...»[1]. كما وأوعز سماحته إلى فضيلة الدكتور الشيخ علي عباسي رئيس مركز أبحاث المصطفى الدولية لمتابعة الموضوع.

إلّا أنّ بعض الظروف الموضوعية والصعوبات الادارية، حالت دون المباشرة بالكتابة، وأدت إلى تأخير الموضوع لفترة طويلة من الزمن.

وبعد زوال تلك العوائق تمَّ عقد الاتفاق مع جامعة المصطفى العالمية بواسطة مركز أبحاث المصطفى الدولية على انجاز هذا المشروع العلمي ووفق خطة البحث

(١) رسالة بخط سماحته.

المقدمة وخلال فترة زمنية لا تتجاوز السنة الواحدة، وعيّن فضيلة الدكتور الشيخ عز الدين رضا نجاة كمشرف علمي على بحوث الكتاب.

إلّا أن سعة موضوع البحث، وتعدد مصادره ومراجعه، والانشغالات العلمية الأُخرى حالت دون انجاز العمل في الفترة الزمنية المقررة، فاستمر العمل بهذا المشروع لسنوات ثلاثة، حتى تمَّ ـ وبحمد اللّه ـ انجاز القسم الأكبر من الكتاب؛ والذي استوعب تقريبا كلّ الحوزات والمدارس الدينية الرئيسية المركزية، ولم يبق إلّا بعض الحوزات الفرعية، والتي يمكن استيعابها ضمن مجلدٍ من مجلدات هذا الكتاب الموسوعي انشاء اللّه.

وخطة البحث التي حاولنا تطبيقها في هذا الكتاب، والتي تتجلى بوضوح من خلال فصوله وأبحاثه تتلخص بما يلي:

١ـ محاولة استيعاب مصادر البحث ومراجعه سواء التي كتبت باللغة العربية أو الفارسية أو المترجمة من اللغات الأُخرى.

٢ـ حاولنا استيعاب جميع الحوزات العلمية والمدارس الدينية المركزية والتي تعتبر الحوزات الأُم عند الشيعة الإمامية، بالاضافة إلى الحوزات الفرعية المتشعبة من الحوزات المركزية.

٣ـ دراسة ظروف نشأة الحوزات العلمية ومدى تأثرها بالحوزات السابقة لها، ومدى تأثيرها بالحوزات اللاحقة.

٤ـ تقسيم تاريخ كلّ حوزة إلى مراحل ودراسة كل مرحلة باستيعاب، بدأً من نشأتها ثمّ تطورها وازدهارها، ثمّ أُفولها وتلاشيها مع بيان أسباب ذلك.

٥ـ ترجمة مركزة لأهم علماء كلِّ حوزة؛ مع بيان لمساهمتهم العلمية وذكر تراثهم العلمي، وتلامذتهم وانجازاتهم ومشاركتهم في الحياة العلمية.

٦ـ الاشارة التي تطور الدراسات العلمية، الفقهية والأُصولية والفلسفية والكلامية..، وأبرز النظريات العلمية لعلماء هذه الحوزات.

٧ـ الاشارة إلى بعض الأحداث السياسية والمذهبية التي رافقت نشوء بعض الحوزات ومدى تأثيرها في أوضاع تلك الحوزات.

٨ـ استيعاب أسماء المدارس العلمية وأماكن التعليم الأُخرى، وظروف تأسيسها، والمتولين لها.

٩ـ الاشارة إلى الأوضاع المالية والمعيشية لطلّاب وأساتذة هذه الحوزات والمدارس.

١٠ـ الاشارة إلى نظم التعليم وطريقة التدريس، والمتون الدراسية المقررة لكلِّ حوزة من هذه الحوزات.

هذه أهم ملامح خطة ومنهجية البحث العلمي الذي حاولنا جهد الامكان الالتزام به في تدوين فصول وأبحاث هذا الكتاب.

وختاما: ينبغي أن اشيد بالجهود الكبيرة التي بذلها المشرف على هذا البحث فضيلة الشيخ رضا نجاة والذي كان نعم العون في تقويم الكتاب، من خلال مواكبته لمراحل هذا المشروع، ومطالعته لأبحاثه وابداء الملاحظات القيمة، فله مني جزيل الشكر والامتنان.

كما اسجل شكري وتقديري لكل من ساهم في انجاز هذا الكتاب، فلهم مني جزيل الشكر والامتنان، ومن اللّه عظيم الأجر والثواب.

ولا أدعي لنفسي الكمال والصواب فيما دوّنت في كتابي هذا، إذ الكمال للّه وحده، وكمال الإنسان في نقصه وفقره إلى اللّه سبحانه، إلّا أني قد بذلت جهدي في هذا الكتاب، وواصلت معه الليالي والأيام، واستوعب من عمري سنوات، وارتحلت أوراقه

ومصادره ومراجعه معي من بلد إلى بلد، حتى تمكنت ـ وبتوفيق من اللّه سبحانه ـ أن انجز هذا الكتاب والذي قد يستوعب عدّة أجزاء متتالية مترابطة في فصوله وأبحاثه وكلي أمل أن يرشدني العلماء الأعلام والمحققين إلى مواطن الخطأ والاشتباه في المعلومات المدونة لاستدراكها لاحقا انشاء اللّه.

وما توفيقي إلّا باللّه، عليه توكلت وإليه أُنيب.

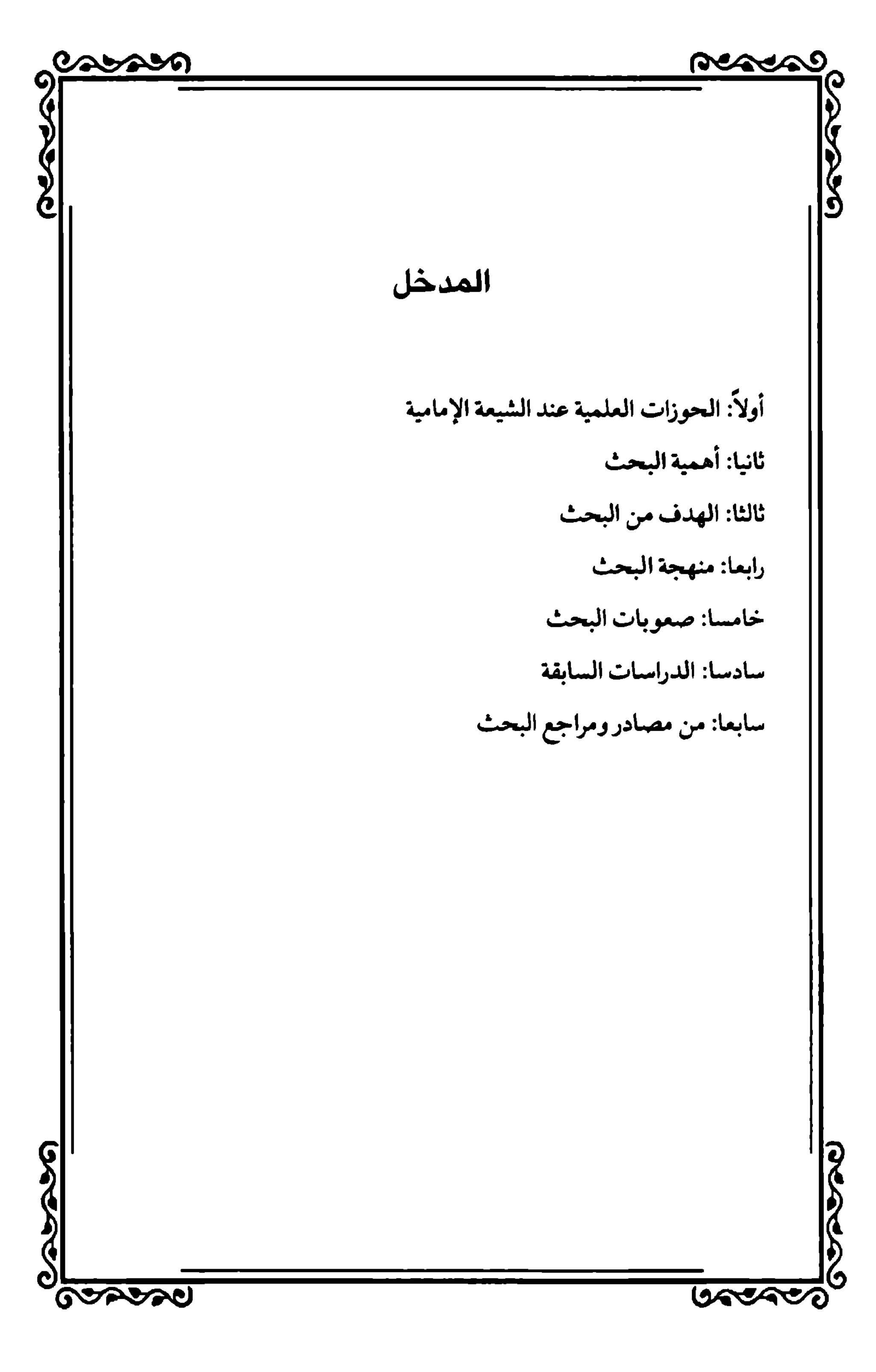
وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين.

الدكتور الشيخ

عدنان فرحان القاسم (أبو أنس)

قم في ٢٧ / رمضان / ١٤٣٤ هـ

٥ / ٨ / ٢٠١٣



المدخل

أولاً: الحوزات العلمية عند الشيعة الإمامية

ثانيا: أهمية البحث

ثالثا: الهدف من البحث

رابعا: منهجية البحث

خامسا: صعوبات البحث

سادسا: الدراسات السابقة

سابعا: من مصادر ومراجع البحث

بسم اللّه الرحمن الرحيم

والحمد للّه رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

لقد اهتم الرَّسول الأكرمﷺ وأهل البيتعليهم السلام اهتماما واسعا بالعلم والحثّ على طلبه من منابعه الأصلية، حتى أصبح هذا الاهتمام من السمات البارزة والمعالم الشاخصة لمدرسة أهل البيتعليهم السلام.

وقد روي عن رسول اللّهﷺ وأهل بيته عشرات الأحاديث التي تحث المسلمين عامة واتباعهم خاصة على سلوك طريق العلم والتعلم والتفقه في أُمور الدين والمعارف الإسلامية، فقد روي عن رسول اللّهﷺ: «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم، ألا إنّ اللّه يحب بغاة العلم»، وجاءَ في الحديث الصحيح عن أبان بن تغلب عن الإمام الصادقعليه السلام قوله: «لَوَددتُ أنَّ أصحابي ضربت رُؤُوسهم بالسِّياط حتى يتفقَّهوا»[1].

كذلك روي عنه قولهعليه السلام: «إذا أراد اللّه بعبدٍ خيرا فقَّهَهُ في الدين»[2].

ولم يقتصر الأمر على الحث والترغيب على طلب العلوم والتفقه فقط، وإنما كانواعليهم السلام هم المؤسسين والمشيِّدين للمدارس الفقهية والعقائدية وخاصة في عصر الإمامين الباقر والصادقعليهما السلام، ولم تمنعهم ظروف القهر والاضطهاد السياسي الذي كان يمارسه الجهاز الحاكم في عهد الدولتين الأموية والعباسية من القيام بمهامهم

---

(١) الكليني ـ محمد بن يعقوب، الأُصول من الكافي: ١ / ٣٠ ـ ٣١ كتاب فضل العلم، تصحيح وتعليق: علي أكبر غفاري، طبعة دار الأضواء ـ بيروت، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٣٢.

العلمية والتربوية وبناء الجماعة الصالحة التي تضم أبناء الأُمّة الإسلامية، كما سوف يأتينا تفصيله خلال هذا البحث إن شاء اللّه.

وقبل الدخول في هذه المباحث التفصيلية لابدّ هنا من بيان بعض الأُمور الأساسية وضمن نقاط محددة كمقدّمة لموضوع البحث.

أولاً: الحوزات العلمية عند الشيعة الإمامية

الحوزة العلمية ـ كمصطلح ـ له تعريفات متعددة في كلمات الباحثين والمحققين تختلف سعة وضيقا واطرادا وانعكاسا ـ كما سوف يأتينا لاحقا ـ إلّا أنها تلتقي في مجملها لتقدم اطارا عاما لمفهوم الحوزة العلمية.

وأحد هذه التعاريف يقول: «إنَّ الحوزة العلمية اصطلاح حديث يراد به المؤسسة العلمية التي تقام لغاية الدراسات العلمية الشرعية، التي تمكّن الطالب من معرفة الأحكام الشرعية في مختلف مجالات حياته العلمية»[1].

تاريخ ظهور الحوزة العلمية:

يعود تاريخ ظهور الحوزة العلمية إلى عصر فجر الإسلام الأول، حيث كانت حلقات الدروس تعقد في بيت رسول اللّهﷺ وفي بعض بيوت الصحابة، ثمّ في المسجد النبوي الشريف بعد هجرة النبيﷺ، كما سوف يأتينا. إلّا أن بعض الباحثين يرى أنَّ «أول حوزة علمية في تاريخ المسلمين هي حوزة الكوفة التي أنشأها الإمام الصادقعليه السلام والتي كانت تضمُّ أربعة آلاف طالب»[2].

---

(١) البهادلي، علي، الحوزة العلمية في النجف: ٨٧.

(٢) المصدر نفسه: ٩٩.

وسوف يأتينا مزيد بحث حول تاريخ نشوء هذه المؤسسة العلمية والتي يصطلح عليها بـ «الحوزة العلمية» إن شاء اللّه تعالى.

وفي هذه الدراسة حول «تاريخ الحوزات العلمية والمدارس الدينية عند الشيعة الإمامية»، سوف نتناول بالبحث أهم الحوزات العلمية في رقعتها الجغرافية التي تمتد من مكة إلى المدينة والكوفة، وبلاد الريّ وقُم، وبغداد والنجف والحلّة وسامراء وجبل عامل وحلب وخراسان وبلاد ماوراء النهر وإصْبَهَان[1] وغيرها من حواضر العالم الإسلامي التي احتضنت مراكز علمية شيعية اصطلح عليها (بالحوزات العلمية).

وسوف نواكب مسارها التاريخي، والمراحل التي تخطتها، والمنجزات التي حققتها في مجال العلوم والمعارف الإسلامية، مع الاشارة إلى أبرز علمائها ممن ترك بصماته الواضحة على هذه الحوزات والمراكز العلمية، بالاضافة إلى التراث العلمي الذي خلفته هذه الحوزات للأجيال القادمة.

ثانيا: أهمية البحث

تكمن أهمية البحث والتعريف بتاريخ الحوزات العلمية الشيعية من خلال أهمية الحوزة العلمية نفسها، إذ إنَّ هذه المؤسسة الدينية التي كانت ولا زالت تحظى باهتمام مراجع الدين، والعلماء الأعلام، والمحققين والباحثين، وتَخرَّج منها أساطين الفقه والأُصول والتفسير والكلام والفلسفة والحكمة...؛ تحتاج إلى من يعرّفها ويساير نشأتها وتطورها التاريخي والمراحل التي مرت بها والخارطة الجغرافية للمناطق التي انتشرت فيها؛ ليطلع على ذلك أبناء الأُمة الإسلامية، وطلاب العلم والمعرفة

(١) هكذا وردت عن الحموي في معجم البلدان: ١ / ١٦٧.

وليفتخروا بهذه الانجازات المعرفية الكبيرة؛ والتي تحققت خلال قرون من عمر الزمن، وبجهود علميّة كبيرة وشاقة بذلت من أجل ذلك.

وتأتي أهمية البحث في هذا الموضوع من جهة أُخرى من خلال المكانة التي تبوأتها الحوزة العلمية والموقع البارز لها طيلة الفترة الزمنية التي عاشها التاريخ الشيعي، إذ مثّلت الكيان الذي يعبِّر عن رأي الطائفة الإمامية في مختلف شؤونها الدينية والاجتماعية والسياسية والفكرية، ووقفت أمام الكثير من محاولات التحريف والتغريب.

وكانت بحق قلعة الإسلام الحصينة أمام كل محاولات التحريف والهيمنة الثقافية والفكرية الوافدة على كيان الأُمة الإسلامية والفكر الإسلامي.

ولقد أدرك الإمام الخمينيﷺ هذا الأمر فتحدث عن الماضين من العلماء وأشاد بهم قائلاً: «منذ مئات السنين وروحانية الإسلام سند المحرومين، ولقد ارتوى المستضعفون دائما من كوثر المعرفة الزلال للفقهاء الأجلاء، وعندما نتجاوز مجاهداتهم العلمية والثقافية.. نجد أنهم في كل عصر من الأعصار قد تحملوا الغصص والمرارات في الدفاع عن مقدساتهم الدينية والوطنية»[1].

ولا يخفى دور المرجعية الدينية والحوزة العلمية في حياتنا السياسية المعاصرة، حيث نجدها قد جسّدت المواقف الحكيمة، والنظرة الثاقبة في قيادتها للأُمة الإسلامية، مما سلط الأضواء الساطعة عليها وعلى الحوزة العلمية لمعرفة مكوّناتها المعرفية والاجتماعية والسياسية والفكرية.

---

(١) الشيخ محسن عطوي، الحوزة العلمية في فكر الإمام الخميني، مجلة المنطلق، العدد ٥٧، محرم ١٤١٠ هـ ص ٢٣.

بالإضافة إلى ذلك فإنَّ الحوزات العلمية قد شهدت في الآونة الأخيرة تطورا واسعا في مختلف شؤونها، مما يستوجب تعريف المؤسسات والأكاديمية العلمية بذلك حيث لا زال الكثير من القائمين عليها يحملون نظرة سلبية مغلوطة عن الحوزة العلمية وبرنامجها التعليمي والتربوي والاجتماعي، ويقيِّمونها على أُسس بعيدة عن الإنصاف والروح العلمية.

فلابدَّ من القيام بتعريف جامع لهذه الحوزات العلمية لكي نصحِّح وجهات نظر هؤلاء من جهة، وللاستفادة من برامجها التعليمية من جهة أُخرى.

ثالثا: الهدف من البحث

هنالك جملة من الأهداف يسعى هذا البحث لبيانها من خلال أبواب وفصول متسلسلة ومتناسقة ومترابطة، ويمكن إجمال هذه الأهداف بالنقاط التالية:

أولاً: التدوين التاريخي والجغرافي للحوزات والمدارس العلمية الشيعية منذ نشأتها الأُولى وإلى زماننا الحاضر.

ثانيا: الاطلاع على النظام التعليمي والمتون الدراسية وأبرز الفروع التخصصية العلمية لهذه الحوزات، وما امتازت به بعض هذه الحوزات عن بعضها الآخر.

ثالثا: معرفة المؤسِّسين والبانين والمتولِّين لهذه المدارس والحوزات وسبب تسميتها بأسمائها المعروفة بها.

رابعا: معرفة الأساتذة والعلماء والطلاب الذين درسوا وتخرّجوا من هذه الحوزات ومكانتهم الدينية والاجتماعية والسياسية والفكرية في الوسط الاجتماعي.

خامسا: الاطلاع على بعض الأحداث السياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية التي تزامنت مع هذه الحوزات، ومدى تأثّر أو تأثير هذه الحوزات بهذه الحوادث.

سادسا: الاطلاع على مدى ارتباط هذه الحوزات الشيعية فيما بينها وبين المدارس والمعاهد والحوزات عند المذاهب الأُخرى في نفس البلد أو البلدان المجاورة لها.

سابعا: الاطلاع على مدى ارتباط الحوزات العلمية وعلمائها بالسلطة الحاكمة في تلك البلدان التي تتواجد فيها.

ثامنا: الاطلاع على التراث الفقهي والأُصولي والتفسيري والفلسفي والكلامي... الذي خلَّفته لنا هذه الحوزات؛ والتي تركت آثارها الواضحة على الحوزات الأُخرى.

تاسعا: الاطلاع على النظام المالي لأساتذه وطلاب هذه الحوزات والمصادر المالية التي كانت تموِّلها.

وهنالك أهداف أُخرى سوف يطلع عليها القارئ الكريم من خلال أبحاث الكتاب.

رابعا: منهجة البحث

أولاً: يتناول هذا البحث دراسة نشأة الحوزات العلمية وتطوّرها التاريخي عند الشيعة الإمامية في جوانبها العلمية والفكرية والثقافية وتأثيرها وتأثرها بالواقع السياسي والأحداث والمنعطفات الحادَّة في حياة الأُمة الإسلامية، بالإضافة إلى الجوانب المذهبية والاجتماعية التي كان لها تأثير في مجريات الأحداث.

ثانيا: يغطِّي البحث فترة زمنية طويلة تمتدُّ من فجر الإسلام في مكة والمدينة، وتنتهي بعصرنا الحاضر، وهذه الفترة الزمنية ـ والتي تمتدُّ إلى أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمن ـ قد شهدت فيها «الحوزة العلمية» تطورا كبيرا في مختلف شؤونها كما أنها انتقلت من بلد إلى بلد، ومن بقعة جغرافية معينة إلى أُخرى، ومن بيئة إلى بيئة تختلف عنها.

وهذان العنصران: عنصر الامتداد الجغرافي، وعنصر الأدوار الزمنية المختلفة؛ عنصران مترابطان، ويشكّلان الإطار العام للمنهج الذي نُساير فيه حركة الحوزة العلمية في نشأتها وتطورها.

ثالثا: يتوزّع البحث بعد المقدمة والمدخل إلى أبواب وفصول ومباحث رئيسية يتم البحث فيها عن أهم معالم كلٍّ حوزة من هذه الحوزات، وتحت عناوين رئيسية وفرعية ومباحث أساسية وجانبية.

رابعا: اختلفت كلمات الباحثين في شؤون الحركة العلمية الدينية عند الشيعة الإمامية في تحديد المصطلح واستخدامه، فنجد بعضهم استخدم مصطلح «المدرسة» وأراد بها تلك الحركة العلمية التي لها معالمها وسماتها وتيارها الفقهي والفكري مثل مدرسة الكوفة، ومدرسة بغداد، ومدرسة النجف. وبعض آخر اطلق مصطلح «المؤسسة الدينيّة» وأراد بذلك عهود تاريخ الفقهاء السياسي والعلمي، وبعض ثالث من الباحثين استخدم كلمة «مركز» فعنون مباحث كتابه بـ «مركز بغداد» و «مركز النجف» و «مركز الحلّة» وهكذا[1].

وقد آثرنا استخدام مصطلح «الحوزة العلمية» بدلاً من المصطلحات السابقة، وإن كان هذا المصطلح من المستحدثات القريبة التي لا ترقى إلى عهود تاريخ الحركة العلمية عند الشيعة، إلّا أنه ينطبق على موضوع بحثنا مباشرة، وأقرب إلى الواقعية في المخاطبة حسب التداول والعرف العام. بالاضافة إلى أن الجذور اللغوية لكلمة «حوزة» قد تجوِّز لنا هذا الاستخدام.

---

(١) للتوسع، انظر: جودت القزويني، تاريخ المؤسسة الدينية الشيعية: ٩ ـ ١٠.

خامسا: اعتمد البحث على قائمة موسعة من المصادر والمراجع الأولية والثانوية، بالاضافة إلى الدراسات والبحوث المنشورة في دوائر المعارف والدوريات والمجلّات التخصصّية، وجرى البحث على وفق النصوص التاريخية التي تضمنتها الكتب التاريخية التي وصلتنا عبر القرون، وكذلك ما تضمنته كتب التراجم والرجال والتي تشكل عمدة مادة البحث، إلّا أننا لم نأخذ بكل ما في هذه الكتب وما تضمنته النصوص كمسلَّمات لا نقاش فيها، وإنما حاولنا جهد الامكان توثيقها وتوجيهها وتحليلها بما يوافق متطلبات البحث ومستلزماته.

سادسا: اشتمل البحث ـ وباختصار شديد ـ على معظم المحطّات المتعلّقة بتاريخ «الحوزة العلمية» عند الشيعة الإمامية وما رافق هذا التاريخ من حوادث سياسية وعلمية واجتماعية. وبعض هذه الحوادث وخاصة السياسية منها شديدة التعقيد والتأثير كحركة «التنباك» والحركة الدستورية «المشروطة»... وغيرهما، إلّا اننا لم نستغرق في تفاصيلها إلّا بمقدار ما يتعلق بدور الحوزة اتجاهها وموقفها منها، من دون الدخول في الجزئيات والتفاصيل الأُخرى، والتي تكفّلت ببيانها بعض المؤلفات التي سوف نشير إليها في هوامش الكتاب ليطلع عليها من يريد التوسّع في البحث.

سابعا: اقتصر بحثنا على تاريخ الحوزة العلمية عند الشيعة الإمامية فقط، ولم نتناول تاريخ الحوزات العلمية عند المذاهب الأُخرى إلّا فيما نراه ضروريا من ناحية منهجية للمقارنة بين بعض الحوزات التي تزامنت مع الحوزات الشيعية وخاصة في عصر المفيد والمرتضى والطوسي في بغداد.

ويعود سبب الاقتصار على توثيق تاريخ الحوزات العلمية الشيعية خاصة؛ لأ نّها تشكِّل الحلقة المفقودة في تاريخ الحوزات والمدارس الدينية ولم يقدّر لهذا التاريخ أن يفرد بكتاب مستقل، بعد أن أُ لّفت عشرات الكتب والأبحاث التي تؤرخ للحوزات

عند المذاهب الأُخرى ككتاب «الأزهر في ألف عام» و «الدّارس في تاريخ المدارس» وغيرهما.

خامسا: صعوبات البحث

هنالك جملة من الصعوبات والاشكاليات المنهجية تحفُّ بموضوع البحث والتي لابدّ من التغلب عليها وتجاوزها حتى يستوفي موضوع البحث حقه بشكل علمي أكاديمي.

ومن أبرز هذه الصعوبات:

أولاً: سعة موضوع البحث وشموله:

إنّ موضوع تاريخ الحوزة العلمية موضوع واسع مترامي الأطراف، ويستوعب فترة زمنية طويلة، ويتوزَّع على مساحة جغرافية كبيرة تشمل رقعة واسعة من العالم الإسلامي، ويتطلب من الباحث أن يكون على اطلاع واسع وتفصيلي بتاريخ الفقه والفقهاء، وحركة الاجتهاد، وجغرافية البلدان التي تواجدت فيها تلك الحوزات العلمية، وما رافق ذلك من أحداث سياسية واجتماعية... حتى يمكنه أن يعطي صورة واضحة عن نشأة تلك الحوزات وتطورها أو أُفولها واندثارها بمرور الزمن.

ثانيا: علميّة الموضوع وتخصصيَّته:

الموضوع المطروح، موضوع علمي تخصصي بحت، ولا يتوقف فقط على جانب السَّرد التاريخي لنشأة الحوزات العلمية، وإنما يحتاج من الباحث إلى جانب روح المثابرة وبذل الجهد الواسع، أن يمتلك الخبرة الفنية والأدوات العلمية اللازمة، والتخصّص الكافي في التراث الفقهي والأُصولي والرجالي من حيث المصطلحات المستعملة، ومن حيث المؤلفات والموسوعات الفقهية والأُصولية بالاضافة إلى معرفته

بطرق الاستدلال والبحث والاستنباط حتى يتمكن أن يميز أوجه الابداع والتطور بين حوزة وأُخرى ومدى تأثر اللاحقة بالسابقة.

ثالثا: فقدان أوشحَّة المصادر والمراجع من جهة، وكثرتها من جهة أُخرى:

ويواجه الباحث صعوبات كثيرة في بيان معالم بعض الحوزات العلمية رغم أهميتها الكبرى مثل حوزة بغداد في زمن «الأعلام الثلاثة»: «المفيد والمرتضى والطوسي» لعدم توفّر المعلومات الكافية عنها، وما يوجد عنها من معلومات فهي معلومات متناثرة في موسوعات كتب التاريخ والرجال وقد تستوجب أن تقرأ كتابا بأكمله لتستخرج منه ذرات من المعلومات لبناء جبل من البحث العلمي.

ومن جانب آخر نجد بعض الحوزات العلمية كحوزة النجف الأشرف، قد كتب عنها ومن جميع الجوانب عشرات الكتب والأبحاث بل كتب عنها موسوعات كبيرة، بعضها عن شعرائها وأُدبائها، وبعض آخر عن فقهائها ومفكريها، وثالث عن تراثها الفقهي والأُصولي... مما يجعل الباحث أمام بحر خضّمٍ من الأبحاث والآراء ووجهات النظر المختلفة، والتي تستوجب مهارة عالية لتمييز أوجه الصواب منها.

رابعا: الاحتياج إلى الكثير من المصادر والمراجع:

سعة الموضوع وشموليته من جهة، وعمقه التاريخي من جهة ثانية، وتنوع الرقعة الجغرافية التي يتناولها البحث من جهة ثالثة. تستلزم الرجوع إلى كثير من المصادر والمراجع التاريخية والرجالية ومعاجم البلدان ودوائر المعارف، بالاضافة إلى الدراسات الحديثة والدوريات والمجلّات التخصصية والدراسات الأكاديمية؛ التي تناولت موضوع البحث من جوانبه المختلفة.

وهذه الشمولية والسعة والتنوع والعمق التاريخي؛ يستلزم بالضرورة وجود مكتبة تخصصية متكاملة تستوعب كلَّ المصادر والمراجع ومما له صلة أو مدخلية في موضوع البحث.

خامسا: عدم وجود الدراسات الشاملة:

مما يؤسف له، أنَّ موضوع تاريخ الحوزات العلمية عند الشيعة الإمامية ـ رغم أهميته ـ لم يحضَ بالعناية الكافية من البحث والتأليف والتصنيف، وإن كانت ثمّة محاولات في هذا المجال فهي قد تشكل معالجات لبعض جوانب الموضوع، إلّا أنها محاولات ناقصة من جوانب أُخرى، وفي حدود مطالعاتنا وتتبعنا للكتب والمؤلفات المتعلقة بالموضوع لم نعثر على كتاب جامع تناول الموضوع بنحو الشمول والاستفاضة والاستيعاب، ولم يفرد لهذا الموضوع المهم بحثا أكاديميا تخصصيا تسلط فيه الأضواء على مراحل نشوء وارتقاء الحوزات العلمية عند الشيعة الإمامية.

وكلّ الذي عثرنا عليه من مؤلفات ودراسات وأبحاث تلامس موضوع بحثنا لا يتعدى ـ غالبا ـ بعض البحوث والمؤلفات التي تختص ببعض الحوزات العلمية كحوزة النجف أو جبل عامل، أو مجرد اشارات عابرة ضمن بعض الفصول التاريخية، أو بعض المقدمات التحقيقية التي تصدّرت بعض الكتب الفقهية والأُصولية أو المجاميع الروائية التي أُعيد تحقيقها وطبعها من قبل بعض المؤسسات.

إلّا أن في هذه المؤلفات الجزئية والاشارات المقتضبة والمقدمات التحقيقية، مادة علمية جيدة يمكن الاستفادة منها، إلى جانب المصادر الأولية والثانوية الأُخرى.

القصة والغصة:

تحت هذا العنوان كتب المرحوم الشيخ محمد جواد مغنية في كتابه الممتع «تجارب محمد جواد مغنية»: «... أما الموضوع الثاني فهو في الحقيقة بحث في تاريخ النجف الأشرف، وبالأصح في تطورها وتقدمها أو جمودها وتأخرها، ولا أُخفي القارئ أني منذ سنوات، وأنا أُحاول الكتابة في هذا الموضوع، ولكني لم أُوفَّق وبالتالي يئست، وليأسي قصة، فيها ألف غصة وغصة، منذ شهور مضت قرأت كتابا يقرب من مئتي صفحة، للأُستاذ محمد عبد المنعم خفاجي، واسم الكتاب «الأزهر في ألف عام» وهو المجلد الأول، وإليك بعض مواضيعه:

«تأسيس الأزهر وبدء حياته الجامعية، قوانين الأزهر، الأزهر والحركة العلمية، الأزهر وتاريخنا القومي، جهاد الأزهر، القوة الشعبية في الأزهر، تحديد اختصاص مشيخة الأزهر، بعثات الأزهر إلى أُوربا، الاعتراف بشهادة الأزهر، الأزهر يغذي الثورات...» وما إلى ذلك.

أما الغصة فيشاركني فيها الكثير، ثمّ أين المصادر لهذه المواضيع؟ وأين قانون جامعة النجف؟ وتحديدا اختصاص المرجع الأعلى، وأين الدولة أو الجامعة التي تعترف بشهادة النجف؟

.. فلماذا لا نطبق ذلك عمليا؟ فنكتب.. مقالاً بعنوان: البعثات النجفية إلى البلاد الإسلامية، وأثر النجف في الثورات التحررية، واللغة العربية، والشريعة الإسلامية، وعن القوة الشعبية للنجف، ولا أظن أن بلدا في المشرق والمغرب يشارك النجف في هذه القوة...»[1].

---

(١) تجارب محمد جواد مغنية: ٧٤، طبعة نور الهدى ـ قم.

وتعليقا على ما كتبه المرحوم الشيخ محمد جواد مغنية ـ والذي نشاركه في آلامه وغصصه ـ نقول: إنّ ما إطلع عليه سماحته لا يمثل إلّا رقما واحدا من عشرات الكتب والمؤلفات التي اختصت في تدوين تاريخ المدارس والحواضر العلمية عند أتباع المذاهب الإسلامية؛ ويمثل كتاب الأزهر في ألف عام في ثلاثة أجزاء ـ والذي لم يطلع الشيخ مغنية إلّا على جزء واحد منه ـ واحدة من هذه الكتب والدراسات والبحوث.

وفيما يلي استعراض لبعض من هذه الكتب التي أرّخت للمدارس الدينية عند بعض المذاهب الإسلامية:

أولاً: كتاب «الدّارسُ في تاريخ المدارس»؛ تأليف: عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي المتوفى سنة (٩٢٧ هـ).

صدر الكتاب بمجلدين كبيرين سنة (١٩٨٨ م) عن مكتبة الثقافة الدينية في القاهرة، وعنى بنشره وتحقيقه: جعفر الحسني عضو المجمع العلمي العربي بدمشق.

يقول محقق الكتاب في التمهيد: «إنّ كتاب «الدارس في تاريخ المدارس».. هو أجلُّ كتاب عرفناه عن تاريخ دمشق بعد تاريخ ابن عساكر، جمع فيه المؤلف تاريخ دور القرآن، والحديث، والمدارس، والخوانق والتكايا، والربط والزوايا، والترب، والجوامع المعروفة في دمشق منذ القرن الخامس حتى العاشر للهجرة، وذكر فيه تراجم أصحابها وسير من درّس فيها.

فهو خير كتاب يبسط لنا النهضة العلمية في دمشق خلال خمسة قرون، ويصف لنا تسابق أبنائها على إنشاء دور العلم والمعاهد الدينية والمؤسسات الخيرية...».

ثمّ يضيف محقّق الكتاب فيقول: «وليس النعيمي أول من عالج هذا الموضوع، وقد سبقه من نقل عنهم، كابن الأثير، وأبي شامة، وابن خلكان، وابن شداد، والبرزالي،

والذهبي، والكتبي، والصفدي، والحسني، وابن كثير، وابن حجي الحسباني، وابن قاضي شهبة...».

ثمّ يختم قوله بتقييم كتاب النعيمي بقوله: «ومن مميزات هذا الكتاب ومحاسنه جمعه أخبار ما هو مشتّت في كتب التراجم والتاريخ، فهو فريد في نوعه حتى الآن»[١].

إلّا أن ما يؤسف له أنَّ مؤلِّف الكتاب لم يؤرِّخ في كتابه للمدارس الشيعية في دمشق الشام في الوقت الذي أرَّخ لجميع مدارس المذاهب الإسلامية الأُخرى بالاضافة إلى أصحاب الطرق والصوفية والدراويش! ولعلّ عذره عدم وجود مدارس للشيعة في دمشق الشام خلال الفترة التي أرّخ لها!

ثانيا: كتاب «الأزهر في ألف عام»؛ تأليف الدكتور: محمد عبد المنعم خفاجي.

صدر الكتاب بثلاثة مجلدات، وبأكثر من (١٣٠٠) صفحة وبطبعته الثانية سنة (١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م) عن مكتبتي: عالم الكُتب ـ بيروت، ومكتبة الكلّيات الأزهرية في القاهرة.

والمؤلف أحد خرّيجي كلّيات الأزهر قسم الدراسات العليا، وأحد أساتذتها بعد ذلك في نفس القسم.

والذي يبدو أن الكتاب (الأزهر في ألف عام) يمثّل مجموعة من الكتابات والبحوث الّتي كتبها المؤلف في أوقات متفرقة تحت عناوين: «الأزهر الجامعي بعد عشرين عاما، والأزهر الخالد، والأزهر العظيم، ورسالة الأزهر في القرن العشرين، ورسالة الأزهر في النصف الثاني من القرن العشرين»[٢].

---

(١) الدارس في تاريخ المدارس، المجلد الأول: التمهيد بلا ترقيم، تحقيق: جعفر الحسني، طبعة مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة، (١٩٨٨ م).

(٢) الأزهر في ألف عام: ١ / ١٠ الهامش، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م.

إذ نجد هذه العناوين مع عناوين أُخرى في فهرست المجلدات الثلاثة من كتاب الأزهر في ألف عام.

والكتاب بمجمله يسلِّط الأضواء على هذه الجامعة العلمية العريقة منذ تأسيسها من قبل الدولة الفاطمية سنة (٣٦٠ هـ) وبأمر من الخليفة الفاطمي المعز لدين اللّه (ت ٣٦٥ هـ) وقد أطلق على هذا المسجد اسم الأزهر، نسبة إلى فاطمة الزهراءعليها السلام التي ينتسب إليها الفاطميون، ثمّ صارت جامعة كبرى يدرس فيها الفقه الفاطمي على مذهب الشيعة، وتعاليم الشيعة في الدين والفلسفة والتوحيد..[1].

ثمّ يترجم المؤلف لمشيختها وأساتذتها وتلاميذها، وأهم المنعطفات التاريخية والسياسية والاجتماعية التي رافقها خلال قرن من الزمن، وعطائها العلمي والفكري والأدبي على مستوى العالم الإسلامي، وغيرها من الأبحاث الكثيرة والتي لا يخلو بعضها من الحشو الممل الذي لا ربط له بموضوع الكتاب.

ثالثا: كتاب: «الأزهرُ جامعا وجامعة»؛ للدكتور: عبد العزيز محمد الشناوي، وهو كتاب ضخم في مجلدين، يستعرض فيه المؤلف بدايات تأسيس الأزهر والأدوار التي مرّ بها، ودورهُ السياسي والاجتماعي والفكري.

رابعا: كتاب: «المنار والأزهر»؛ للكاتب المصري المعروف محمد رشيد رضا صاحب المنار، وقد اشتمل الكتاب على مقدمة مهمة في ماضي الأزهر وحاضره ومستقبله، ومقالات للمؤلف يردُّ فيها على مجلة الأزهر، وخاتمة في السعي لاصلاح الأزهر.

---

(١) الأزهر في ألف عام: ١ / ٢٨ ـ ٢٩.

خامسا: الأزهر على مسرح السياسة المصرية (دراسة في تطور العلاقة بين التربية والسياسة)؛ تأليف الدكتور: سعيد إسماعيل علي.

صدر الكتاب عن دار الثقافة للطباعة والنشر في القاهرة سنة (١٩٧٤ م).

يبحث الكاتب بشكل عام في قضايا فلسفة التربية ومن زاوية العلاقة بين التربية والسياسة، ويطبق ذلك من المنظور التاريخي على جامعة «الأزهر» كمثال ومصداق لذلك.

وتبدأ الدراسة من تاريخ تأسيس الأزهر سنة (٣٦٠ هـ) وتنتهي بعام (١٩٢٣ م). ويتألف الكتاب من عشرة فصول وتحت كل فصل مجموعة من البحوث تتحدث عن الأُصول السياسية لنشأة الأزهر، وموقف الأزهر من المذاهب الحاكمة، وظهور زعامة الأزهر، والأزهر يقاوم الاستبداد والظلم، ومقاومة الأزهر للاحتلال الفرنسي والبريطاني، والاصلاح التربوي في الأزهر وغيرها من الأبحاث التي تبرز دور الأزهر السياسي على مسرح الأحداث.

سادسا: مدرسة الإمام أبي حنيفة (تاريخها وتراجم شيوخها ومدرسيها)؛ تأليف: وليد الأعظمي.

- صدر الكتاب عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في العراق، سلسلة الكتب الحديثة رقم (٣٨).

تعتبر (مدرسة الإمام أبي حنيفة) من المدارس العريقة في تاريخ العراق، وقد انشأت عند منتصف القرن الخامس الهجري سنة (٤٥٩ هـ) وافتتحت قبل المدرسة النظامية الشهيرة بخمسة أشهر، ووصفها الدكتور مصطفى جواد بأنها: (أول مدرسة منتظمة وواسعة انشأت في العراق)[١].

---

(١) مقدمة المؤلف: ٣ عن دليل خارطة بغداد للدكتور مصطفى جواد: ١٥٦.

وقد تكون (مدرسة الإمام أبي حنيفة) من المدارس الوحيدة في العراق التي بقيت محافظة على مكانها ومكانتها العلمية لتواصل رسالتها العلمية في مختلف الظروف.

حاول المؤلف أن يكون كتابه جامعا لأخبار هذه المدرسة، وتخليدا لعلمائها فأرخ لها من بدء تأسيسها وإلى سنة (١٤٠٠ هـ) ضمن ثلاثة فصول، تضمن الفصل الأول: تاريخ المدرسة ومراحل تطورها.. والفصل الثاني في تراجم الذين تولوا مشيختها وعمادتها، والفصل الثالث في تراجم الذين تولَّوا التدريس فيها. وجعل في آخر الكتاب ملحقا بأسماء الأساتذة الذين شغلوا وظيفة التدريس فيها من غير العراقيين.

سابعا: كتاب «مدارس بغداد في العصر العباسي»؛ تأليف الدكتور: عماد عبد السلام رؤوف.

صدر الكتاب بطبعته الأُولى عن دار البصري ببغداد سنة (١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م).

حاول المؤلف في هذا الكتاب أن يذكر معظم مدارس بغداد العلمية.. في العصر العباسي، وأن يترجم للكثير من مدرسي تلك المدارس، ووعاظها، ومحدثيها، وخزانها، وطلابها، متوخيا في ذلك التركيز والايجاز.

وقد جاء ترتيب المدارس في هذا الكتاب حسب المذاهب السنية الأربعة ـ حسب قول الكاتب ـ ابتداءً بالأقدم فالأحدث حسب التسلسل الزمني، مستثنيا من ذلك المدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية، وهما من أقدم مدارس بغداد وأهمها، معللاً ذلك بكثرة أخبارها وطول تاريخها وتعدد ما كتب فيها من بحوث[1].

إلّا أن المؤلف لم يذكر المدارس المالكية من بين المدارس السنية، وكذلك لم يذكر المدارس الشيعية ولعلّ عذره في عدم ذكره للمدارس المالكية هو عدم وجود

---

(١) مدارس بغداد، المقدّمة: ٣ ـ ٤.

اتباع لهذا المذهب في بغداد في العصر العباسي وتبعا لذلك عدم وجود نشاط علمي ومدارس خاصة بهم. إلّا أن إهمال ذكر المدارس الشيعية أو النشاط العلمي للمذهب الشيعي في بغداد في العصر العباسي ليس له ما يبرره ظاهرا، إلّا أن نوجه ذلك بعدم وجود مدارس للشيعة شاخصة ومعروفة، وكان علماء الطائفة الشيعية يدرِّسون في المساجد الشيعية أو في بيوتهم..!

وقد اهتم علماء المذهب الزيدي في اليمن اهتماما كبيرا بتوثيق تاريخ مدارسهم العلمية وكتبوا في هذا عشرات المؤلفات منها:

١ـ كتاب: **المدارس الإسلامية في اليمن**، تأليف: القاضي إسماعيل بن علي الأكوع، طبعة مؤسسة الرسالة بيروت، ومكتبة الجيل الجديد صنعاء، ويقع في (٥٤٠) صفحة. حاول المؤلف أن يستوعب تاريخ المدارس الإسلامية في اليمن منذ تأسيس أول مدرسة فيها وإلى منتصف القرن الرابع عشر للهجرة، ولم يقتصر على مدارس المذهب الزيدي، وإنما استوعب مدارس المذاهب الإسلامية الأُخرى، الموجودة في بلاد اليمن.

٢ـ كتاب: «**هَجَر العلم ومعاقله في اليمن**» للمؤلف نفسه، ويقع الكتاب في خمسة مجلدات مع مجلد للفهارس ومجلد آخر كمستدرك لما فات المؤلف في حين تدوينه للكتاب، وصدر الكتاب بطبعته الأُولى عن دار الفكر المعاصر في بيروت، ودار الفكر في دمشق سنة (١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م) والكتاب يؤرخ للحياة العلمية وأماكنها في بلاد اليمن، إذ إن مصطلح «الهجر» تطلق على الأماكن المأهولة بالعلم والفضل والصلاح... حيث اشتق من لفظ الهجرة «التهجير» وهو اتفاق بعض زعماء القبائل بجعل القرية التي يأوي إليها العلماء والفضلاء وأهل الصلاح والتقوى (هجرةً).

فالكتاب يجمع بين أماكن التعليم والتعلم، والعلماء الذين هاجروا إليها وسكنوا فيها....

٣ـ كتاب: «الحياة العلمية في اليمن..» تأليف: عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع.

وأصل الكتاب عبارة عن دراسة أعدت لنيل درجة الدكتوراه من قسم التاريخ والحضارة في جامعة الأزهر. وطبع الكتاب في صنعاء سنة (١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤ م) من قبل وزارة الثقافة والسياحة في صنعاء. ويقع الكتاب في (٤٥٠) صفحة تناول فيها المؤلف أوجه الحياة العلمية في اليمن، خصص الفصل الأول للحديث عن المراكز والمؤسسات العلمية والمدارس وخصّ الفصل الثاني بالنظام التعليمي ثمّ تحدث في فصول أُخرى عن حملة العلم والفرق والمذاهب التي ظهرت في اليمن وتراثهم الفكري والفقهي خلال تلك الفترة التي تناولها المؤلف.

نكتفي بهذا المقدار من الكتب المدوّنة في موضوع تاريخ المدارس العلمية الدينية عند بعض المذاهب الإسلامية، وهنالك عشرات الكتب الأُخرى في هذا المجال، وفيما يلي أسماء بعضها مع أسماء مؤلفيها:

١ـ نشأة المدارس المستقلة في الإسلام للدكتور ناجي معروف.

٢ـ علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي للدكتور ناجي معروف.

٣ـ مدارس ما قبل النظامية للدكتور ناجي معروف.

٤ـ عروبة العلماء المنسوبين إلى البلدان الأعجمية للدكتور ناجي معروف.

٥ـ تاريخ علماء المدرسة المستنصرية للدكتور ناجي معروف.

٦ـ المدرسة النظامية للدكتور أسعد أطلس.

٧ـ المدرسة المستنصرية للدكتور حسين أمين.

٨ـ المدارس ونظام التعليم للدكتور أحمد خالد جيدة.

٩ـ المدارس الدينية في باكستان، للدكتور مصباح عبد اللّه الباقي.

سادسا: الدراسات السابقة

سوف نعتمد إن شاء اللّه في بحثنا هذا على عدد كبير من المصادر والمراجع التاريخية، وكتب التراجم والرجال، ومعاجم البلدان، بالاضافة إلى دوائر المعارف والدوريات والأبحاث الجادة التخصصية حول الموضوع.

ولابد من الاشارة أولاً إلى أهم الدراسات التي تناولت بعض جوانب الموضوع، ثمّ ذكر المصادر والمراجع الأولية والثانوية.

أ ـ أهم الدراسات والبحوث السابقة:

أولاً: دراسات الشيخ محمد مهدي الآصفي.

لسماحة الشيخ الآصفي مجموعة من الدراسات الجادة في هذا المجال. وهذه الدراسات تتوزع ما بين مؤلف مستقل، أو بين مقدمة مفصلة لبعض الكتب الفقهية والأُصولية، وتشكل هذه الدراسات بمجموعها مادة علمية قيّمة تدخل في صميم أبحاث دراستنا حول تاريخ الحوزة العلمية.

وفيما يلي استعراض موجز لهذه الأبحاث بحسب تسلسلها الزمني.

١ـ (مدرسة النجف وتطوّر الحركة الإصلاحية فيها).

صدر هذا الكتاب سنة (١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م)[١] وفيه يدرس المؤلف الحياة

---

(١) وقد أُعيد طبع الكتاب سنة ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م تحت عنوان: «الشيخ محمد رضا المظفر وتطور الحركة الاصلاحية في النجف»، ط. ضمن سلسلة رواد الاصلاح التي تصدرها مؤسسة التوحيد ـ طهران.

الفكرية في النجف ليصل إلى الحديث عن الشيخ محمد رضا المظفّر أحد دعاة إصلاح نُظم الدراسة ومناهجها في الحوزة العلمية في النجف. ولهذا الكتاب أهمية كبيرة، فإن المؤلف قد جاء فيه على الكثير من جوانب الحياة الفكرية النجفية بأُسلوب سهل مبسّط، ومن ثمّ تحدّث عن سير الإصلاح داخل الحوزة العلمية في النجف؛ وصولاً إلى الحديث عن تجربة (منتدى النشر) لارتباطها بأحد رجالها المؤسسين، وهو الشيخ المظفر‏.

٢ـ مقدمة (الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية).

وهي مقدمة ممتعة حاوية لتاريخ الحركة العلمية، وتاريخ الفقه الشيعي وتاريخ تطوره منذ بزوغه حتى زمن كتابة المقدمة، كذلك تحدث في بعض الجوانب عن حياة الشهيدين محمد بن مكي العاملي (ت ٧٨٦ هـ) المعروف بالشهيد الأول صاحب متن اللمعة؛ وشارحها زين الدين بن نور الدين علي بن أحمد العاملي (٩٦٥ هـ) المعروف بالشهيد الثاني صاحب الروضة البهية.

وهذه الدراسة القيمة يعود تاريخها إلى سنة (١٣٨٦ هـ) وتقع في أكثر من مائة وسبعين صفحة.

وتأتي أهمية هذه الدراسة من جهة أنَّ المؤلف قد أرّخ لتاريخ الفقه الشيعي وتطوره، بنحو من التفصيل والتبسيط مع ربط ذلك التطور بالعوامل المحيطية والزمنية والحياة الاجتماعية.

ومن جهة ثانية سلّط الأضواء على البيئة العلمية في جبل عامل من خلال حياة عَلَمينِ بارزين من أعلام نهضتها العلمية الحافلة.

٣ـ مقدمة كتاب: «الرأي السديد في الاجتهاد والتقليد» وهي تقريرات الدراسات الأُصولية للسيد أبي القاسم الخوئي بقلم الشيخ ميرزا غلام رضا عرفانيان:

وهذه الدراسة تضمّنت عرضا موجزا لتاريخ الفقه الإسلامي، والمدارس التي ظهرت في الاجتهاد، ثمّ بين الاتجاه الذي تبناه فقهاء الشيعة في الاجتهاد وهو الاستناد إلى الحجة بقسميها الذاتية والمجعولة من قبل الشارع.. ثمّ تحدث عن المدرسة الاخبارية في الاجتهاد ومؤسسها الأمين الاسترآبادي بشكل مختصر وهذه الدراسة على وجازتها وتكرارها لما في مقدمة اللمعة إلّا أنَّ فيها بعض الاضافات المهمة.

٤ـ مقدمة كتاب «رياض المسائل» للفقيه السيد علي الطباطبائي.

وتتوزّع هذه الدراسة بشكل مقدمة للجزنين الأول والثاني من طبعة الرياض الحديثة التي قام بتحقيقها وطبعها في أربعة عشر مجلدا مؤسسة النشر الإسلامي في قم سنة (١٤١٢ هـ).

تحدث في مقدمة الجزء الأول عن تاريخ فقه أهل البيت منذ ظهور هذه المدرسة في المدينة المنورة حتى مدرسة كربلاء التي ينتمي إليها مؤلف كتاب رياض المسائل السيد علي الطباطبائي، ويؤرخ سماحته لهذه المقدمة بتاريخ (الأول من ذي القعدة الحرام ١٤١١ هـ).

وفي مقدمة الجزء الثاني تحدث سماحته عن حياة المحقق الحلي، نجم الدين جعفر بن الحسن المتوفى سنة (٦٧٦ هـ) والجديد في هذه الدراسة هو الحديث والبحث الدقيق عن محنة الأُمة الإسلامية عند سقوط بغداد سنة (٦٨٦ هـ) بيد التتار بقيادة هولاكو، ودور علماء الشيعة وزعمائهم في العراق في درء ما أمكن درؤه من الخطر عن العراق وعن مراكز العلم والدين في هذا البلد. ثمّ تحدث عن مدرسة

الحلّة، وعن المحقق الحلي ونشأته ومكانته العلمية. ثمّ تقييمه لأهم أعمال المحقق الفقهية والأُصولية... وأساتذته وتلامذته ووفاته.

وأرخ سماحته لهذه الدراسة بتاريخ ١٤ / جمادى الثانية / ١٤١١ هـ

ولهذه الدراسة أهميتها الكبيرة لأنها تسلط الأضواء على مدارس مهمة من مدارس الفقه الشيعي وبالخصوص مدرستي الحلّة وكربلاء.

علما بأن هذه الدراسة قد تكرر نشرها كمقدمة لكتاب «النهاية ونكتها» للطوسي والحلي والذي حققته ونشرته مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم سنة (١٤١٧ هـ).

هذه هي أهم ما عثرنا عليه من دراسات سماحة الشيخ الآصفي حول نشأة وتاريخ المدارس الفقهية وهي سلسلة دراسات مهمة تشكل بمجموعها حلقات مترابطة، وسوف تكون مركز اعتمادنا في دراستنا هذه.

ثانيا: كتاب «الحوزة العلمية في النجف، معالمها وحركتها الاصلاحية ١٣٣٩ ـ ١٤٠١ هـ» للمرحوم الأُستاذ علي أحمد البهادلي، ط. دار الزهراء ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٣ هـ

وهي من الدراسات الأكاديمية القيّمة حول حوزة النجف الأشرف وحركة الاصلاح التي ظهرت فيها في العقود الأخيرة، حصل من خلالها الباحث على درجة الماجستير في الدراسات الإسلامية من جامعة الإمام الأوزاعي في بيروت بتقدير جيد جدا.

تضمن الكتاب، مدخلاً وأربعة أبواب يتألف كل منها من ثلاثة فصول.

تحدَّث من خلالها عن المدارس الإسلامية في العالم الإسلامي، وعن النجف كمدينة علمية، والأدوار العلمية التي مرّت بها هذه المدينة. ثمّ معالم الحوزة العلمية في النجف، من حيث النشأة، والمكونات، والأهمية، ثمّ تناول مفاهيم الاجتهاد، والمرجعية الدينية ومراحلها التاريخية، وفي الباب الرابع والأخير تناول ضمن فصول

ثلاثة: النظام التربوي والتعليمي الحوزوي في النجف، ثمّ الأفكار الاصلاحية التي ظهرت لإصلاح النظام الدراسي، ثمّ استخلص النتائج وقدم الملاحظات اللازمة.

وهذه الدراسة رغم عدم شموليتها واستيعابها للحوزات الأُخرى واقتصارها على حوزة النجف وفي فترة زمنية قصيرة معروفة في تفاصيلها، إلّا أنها دراسة علمية أكاديمية قيِّمة تلامس بعض جوانب موضوع بحثنا.

ثالثا: دراسات الأُستاذ الدكتور جودت القزويني.

والأُستاذ الدكتور جودت القزويني من الباحثين الأكاديمين ومن أُسرة آل القزويني العلمية المعروفة، وله جملة من المؤلفات الرصينة والجادة وحقق الكثير من كتب التراث، وله منهج رائع في دراسة النصوص التاريخية.

ومن دراساته التي لها صلة مباشرة بموضوع بحثنا:

١ـ تاريخ المؤسسة الدينية الشيعية، من العصر البويهي إلى نهاية العصر الصفوي الأول (٣٠٠ إلى ١٠٠٠ هـ)، ط. دار الرافدين ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٢٦ هـ

وهذه الدراسة التي استوعبت سبعة قرون من الزمن من الدراسات الأكاديمية التي نال بها المؤلف شهادة الدكتوراه من معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية التابع لجامعة لندن.

ثمّ وسع مباحث الدراسة بعد أن بدأ منهج البحث يتغيّر عنده «الأمر الذي دعاه إلى كتابة فصول البحث للمرة الثالثة والرابعة تبعا لتغير المنهج وتبدله» كما يقول المؤلف في خاتمة مقدمته للكتاب: «فهذا كتاب أُقدّمه للقرّاء بعد جهود مضنية استمرت طوال خمسة عشر عاما».

وتضمن الكتاب في أبوابه وفصوله دراسة فترة زمنية طويلة تمتد من بداية مرحلة الغيبة الكبرى، وبالتحديد منذ عصر البويهين في بغداد أوائل القرن الرابع الهجري، وانتهاءً بالقرن العاشر الهجري، أي المرحلة التي اصطلح عليها تسمية: «العصر الصفوي الأول».

فتناول بالبحث تاريخ مدرسة بغداد، ثمّ تاريخ مدرسة الحلّة، ثمّ تاريخ مدرسة جبل عامل. ثمّ فقهاء البحرين ثمّ ركز بحثه على الدولة الصفوية ودور المحقق الكركي والشهيد الثاني، بالاضافة إلى أبحاث مهمة أُخرى لها صلة بالموضوع.

ويعتبر هذا الكتاب وثيقة علمية مهمة في دراسة تاريخ الحوزة العلمية كمؤسسة دينية، والذي ينقص هذه الدراسة أن المؤلف لم يتعرض إلى الحركة العلمية قبل تاريخ الغيبة الكبرى، ولا أكمل دراسته بعد تاريخ الدولة الصفوية، فاصبحت هذه الدراسة ـ على أهميتها ـ ناقصة في بدايتها ونهايتها، كذلك لم يسلط الأضواء فيها على الحوزات العلمية في النجف وقم والري والكوفة.

٢ـ المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية، دراسة في التطور السياسي والعلمي، اصدار دار الرافدين ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٢٦ هـ.

تناول الباحث من خلال فصول كتابه دراسة التطور التاريخي للمرجعية الدينية الشيعية الاثني عشرية في جانبها العلمي والسياسي ابتداءً بالقرن الرابع الهجري، وانتهاءً بعصرنا الحاضر. فتحدث عن الحوزة العلمية ببغداد، والحوزة العلمية بالحلة، والحوزة العلمية في جبل عامل، والحوزة العلمية في النجف عبر مرحلتين، ثمّ الحوزة العلمية في قم ودور الشيخ عبد الكريم الحائري، واشتمل الكتاب على بحوث قيِّمة تناولت محطّات من تاريخ الشيعة الإمامية الاثني عشرية، والحوادث التي التصقت بهم في جانبيها السياسي والعلمي.

وهذه الدراسة قد تكون اشمل من الدراسة السابقة حول المؤسسة الدينية، وأكثر ارتباطا بموضوع بحثنا، إلّا أنه يرد عليها نفس الملاحظات السابقة حيث أهمل الباحث دراسة نشأة الحوزة العلمية في مكة والمدينة والكوفة والري... وغيرها ولم يشر إليها لا من قريب ولا من بعيد حتى ولو مجرد اشارة عابرة.

رابعا: كتاب مدرسة أهل البيت عليهم السلام في المدينة المنورة والكوفة.

للأُستاذ الدكتور عبد الجبار الرفاعي، إصدار مؤسسة الهدى الدولية، الطبعة الأُولى، ١٤٢٢ هـ

يتحدث المؤلف في بحثه عن نشأة الحركة العلمية الإسلامية في مدرستين مهمتين هما: مدرسة المدينة المنورة ومدرسة الكوفة في عصر الإمام الصادق عليه السلام وما بعده، كما انه يشير باقتضاب في مقدمة الكتاب إلى مدرسة مكة المكرمة دون الاسهاب في تفاصيلها.

ويقسم الباحث كتابه بعد المقدمة إلى قسمين رئيسين، تضمن القسم الأول: مدرسة المدينة في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وعصر أمير المؤمنين ثمّ عصر الباقر والصادق والهادي عليهم السلام، ويقسم أدوار هذه المدرسة إلى ثلاثة أدوار رئيسية يتميز كل دور عن سابقه ببعض الامتيازات ويشترك معها في أُخرى.

وفي القسم الثاني يتناول الباحث مدرسة الكوفة من حيث نشأتها وأدوارها التي يقسمها إلى أربعة أدوار. وفي كلا قسمي الكتاب يقوّم الباحث نتائج بحثه ويستخلص النتائج منها.

وهذا البحث ـ على وجازته ـ قد احتوى على حشد كبير من المعلومات في عبارات مكثفة ذات معنى علمي واسع، فلم يخلَّ ايجاز الكتاب بالفكرة التي تشكل محور موضوع الكتاب.

وتأتي أهمية هذا الكتاب من جهة أنَّ الباحث قد سلط الأضواء على فترة زمنية من تاريخ الحركة العلمية لم يتناولها الكتّاب والباحثون في تاريخ الحوزات العلمية، لقلّة مصادرها، وشحة المعلومات عنها فجاء هذا الكتاب ليسدَّ هذا الفراغ وليكمل حلقة البحث في تاريخ الحوزات العلمية.

خامسا: كتاب تاريخ التشريع الإسلامي.

للدكتور الشيخ عبد الهادي الفضلي، من منشورات الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية، طبعة أُفست دار الكتاب الاسلامي ـ قم.

ويعدّ هذا الكتاب من الكتب المنهجية القيّمة أَعدّه المؤلف كمادة دراسية مقررة في تاريخ التشريع الإسلامي لطلاب السنة الثانية من كلية الشريعة وبطلب من اللجنة الدائمة للكتب والمناهج في الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية.

وللشيخ الفضلي، اسهامات علمية مشكورة في مجال تطوير المناهج الدراسية للحوزات العلمية والمراكز الدراسية، وتمتاز مؤلفاته وملخصاته ومقرراته بالمنهجية والعلمية والموضوعية، ويعتبر كتابه حول تاريخ التشريع الإسلامي ـ الإمامي ـ من المحاولات العلمية الرائدة في مجالها، إذ إن تاريخ الفقه الإمامي يشكل الحلقة المفقودة في تاريخ التشريع الإسلامي، فقد أ لّفت عشرات الكتب في تاريخ فقه المذاهب الأربعة، ولم يقدّر للفقه الإمامي أن يفرد بكتاب مستقل، فتأتي الكتابة عنه مكملة لحلقات السلسلة، وبها يتكامل هذا العقد النفيس.

وقد أوضح المؤلف مقصوده من تاريخ التشريع الإسلامي وانتهى إلى هذه النتيجة: «دراسة نشأة وتطور التشريع الإسلامي (الفقه الإسلامي) من ناحية تاريخية.

ثم سار المؤلف مع منهجه الذي وضع خطة بحث كتابه وِفْقَه، فرتب المراحل التاريخية والعهود الزمنية لنشأة وتطور الفقه الإمامي ابتداءا من عهد النبي محمدﷺ وانتهاءً بعصر الغيبة الكبرى، ثم تتبع مراكز وجود الحركة العلمية الشيعية من النجف إلى حَلَب والحلّة والشام ثم النجف وكربلاء، وتحدّث أثناء ذلك عن الحركة الاخبارية بموضوعية وروح علمية قلَّ نظيرها.

والذي يدخل في صميم موضوع رسالتنا من كتاب الشيخ الفضلي، المنهجة القيّمة التي سار عليها في كتابه، فهو عندما يستعرض السير التاريخي للتشريع الإسلامي (الإمامي)، يتوقف عند مراكزها ومدى تطورها وطرائق البحث والدراسة، ولا يكتفي باستعراضها تاريخيا فقط.

وهذه الوقفات والاشارات العلمية لحدود المنهج المتبع في دراسة الشيخ الفضلي، وإن لم تكن تستوعب كل جوانب موضوع دراستنا إلّا أنها ـ بمجملها ـ تشكل مرجعا يمكن الاعتماد على مفرداته.

سادسا: كتب صدرت قديما وحديثا لها صلة بموضوع بحثنا نستعرض بايجاز بعضها:

١ ـ تاريخ التربية عند الإمامية وأسلافهم من الشيعة بين عهدي الصادق والطوسي.

للدكتور عبد اللّه فياض، طبعة الدار المتحدة للنشر، بيروت، الطبعة الثانية (١٩٨٣ م).

والبحث هو عبارة عن رسالة علمية نال بها المؤلف شهادة الدكتوراه، وله مؤلف آخر تحت عنوان (تاريخ الإمامية) نال بها المؤلف شهادة الماجستير وقدم له الشهيد محمد باقر الصدر (رضوان اللّه عليه) بمقدّمة مستفيضة قيّمة.

ويُعدُّ هذا الكتاب الذي يقع في ستة فصول مع ملاحق وفهارس علمية، من خيرة ما كتب عن التربية والتعليم عند الشيعة، فتحدث عن العوامل المؤثرة في توجيه التعليم، وأمكنة التعليم عند الشيعة، والمعلمون والطلبة وأساليب التعليم والمشاهد الشيعية الشريفة ودورها في العلم والتعليم... وغيرها من الأبحاث.

٢ـ حركة الاصلاح الشيعي (علماء جبل عامل وأُدباؤه من نهاية الدولة العثمانية إلى بداية استقلال لبنان).

تأليف: صابرينا ميرفان، ترجمهُ عن الفرنسية: هيثم الأمين. ط. دار النهار، بيروت، سنة (٢٠٠٣ م) وهذا الكتاب صدر بالفرنسية عام (٢٠٠٠ م)، وهو كتاب ضخم يقع في أكثر من ٦٥٠ صفحة وتضمن دراسة تاريخية وميدانية لحركة الاصلاح الشيعي في جبل عامل، وسلطت الأضواء على حركة السيد محسن الأمين العاملي‌رحمه‌الله الاصلاحية.

٣ ـ الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي.

للشيخ جعفر المهاجر، طبعة دار الروضة، بيروت، (١٩٨٩ م ـ ١٤١٠ هـ).

قسّم الكتاب المذكور إلى أربعة أبواب رئيسية، تضمن كلُّ باب منها مجموعة من الأبحاث في اطار هجرة علماء جبل عامل إلى إيران في العصر الصفوي وبحث في أسبابها التاريخية ونتائجها الثقافية والسياسية، معتمدا في بحثه على مجموعة من المصادر التاريخية وباللغتين الفارسية والعربية.

وقد صدر للمؤلف حديثا كتاب: جبل عامل بين الشهيدين، الحركة الفكرية في جبل عامل في قرنين، من أواسط القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد، حتى

أواسط القرن العاشر / السادس عشر للميلاد، والكتاب من اصدار قسم الدراسات العربية في المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، دمشق (٢٠٠٥ م).

تحدَّث المؤلف وبإسهاب عن الحركة العلمية والفكرية في جبل عامل خلال قرنين من الزمن، وآثر أن يحدد زمان البحث بحياة الشهيدين العامليين محمد بن مكي، وزين الدين بن علي، وما بينهما وبين النهضة العلمية في جبل عامل من علاقة.

٤ـ منطلق الحياة الثقافية في جبل عامل.

للدكتور محمد كاظم مكي، إصدار دار الزهراء، بيروت، الطبعة الأُولى (١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م).

ويتضمن الكتاب بأبوابه الأربعة وفصوله الثمانية بحوثا شيِّقة عن تاريخ الحركة الثقافية والفكرية ولبعض أعلام هذه الحركة في جبل عامل، ومدى تأثر وتأثير هذه الحركة بالمراكز العلمية والثقافية والفكرية الأُخرى.

٥ـ حديث الجامعة النجفية.

للشيخ: محمد رضا شمس الدين.

وقد صدر الكتاب ـ بطبعته الأُولى ـ سنة (١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٣م) في النجف الأشرف، المطبعة العلمية. ثمّ أُعيد طبعة بعد تحقيقه سنة (١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣ م) في بيروت، دار المحجة البيضاء، وضمن مجموعة من البحوث والدراسات الأُخرى للمؤلف جمعت تحت عنوان (بهجة الراغبين في مؤلفات الشيخ محمد رضا شمس الدين) وكتاب «حديث الجامعة النجفية» من ضمن هذه المجموعة.

والكتاب ـ على اختصاره ـ من أنضج الدراسات التي تناولت شؤون الحوزة العلمية في النجف الأشرف من كافة جوانبها، إلّا أنه أعرض عن تسجيل ملاحظاته على سير الدراسة ونظمها ومناهج التعليم وشؤون المرجعية الدينية.. وغيرها من الموضوعات

التي كان ينبغي التطرق إليها وبحثها. ولعلّ أجل الموت الذي لا مردّ له حال دون أن يتبع هذه الدراسة بدراسة أُخرى.

٦ـ الحوزة العلمية في النجف الأشرف.

تأليف: السيّد محمد الغروي، إصدار دار الأضواء ـ بيروت، ط. الأُولى، (١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م).

والكتاب عبارة عن دراسة تاريخية مختصرة تبحث عن بداية الجامعة العلمية الدينية في النجف الأشرف والأدوار التي مرّت بها، ومناهجها الدراسية، ومدارسها السكنية، وشؤونها الأُخرى المالية والاجتماعية والتربوية... وقد استوعب المؤلف تاريخ هذه الحوزة العلمية منذ نشوئها إلى يومنا هذا، معتمدا على منهجية تقسيم المعلومات بحسب القرون الهجرية.

٧ـ حوزة النجف الأشرف، النظام ومشاريع الاصلاح.

تأليف: الدكتور عبد الهادي الحكيم، إصدار مؤسسة آفاق للدراسات والأبحاث، ط. الأُولى (١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م).

وهذا الكتاب الذي يقع في (٦٠٠) صفحة، من الكتب القيِّمة جدا إذ يسلط فيها الكاتب ـ وهو ابن النجف وخرّيج بيئتها الحوزوية والأدبية ـ الأضواء على هذه الجامعة العلمية العريقة في تاريخها ونتاجها العلمي، وذلك ضمن فصول وأبواب بلغت خمسة عشر فصلاً مع خاتمة وملاحق توثيقية.

٨ـ المفصل في تاريخ النجف الأشرف.

تأليف: الدكتور حسن عيسى الحكيم، طبعة المكتبة الحيدرية في النجف الأشرف، ط. الأُولى، (١٤٢٧ هـ).

والكتاب عبارة عن موسوعة علمية صدر منها (٢٠) مجلدا، تناول فيها المؤلف تاريخ هذه المدينة وفي مختلف شؤونها ـ ومنها تاريخ الحوزة العلمية ـ من عصر ما قبل الإسلام حتى الزمن الحاضر، وقد توزعت المعلومات التاريخية على اجزاء الكتاب المتعددة.

١٠ـ الفقه في جنوب لبنان.

تأليف: محمدطاهر الحسيني، ط. دار المحجة البيضاء ـ بيروت، ط. الأُولى، (١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م).

والكتاب عبارة عن دراسة مختصرة عن المدارس العلمية في جبل عامل، مكتفيا بذكر أشهرها بحسب المواطن التي نشأت فيها، بالاضافة إلى ذكر العلماء الذين كان لهم دور التأسيس لهذه المدارس مع ذكر أهم نتاجهم الفقهي والأُصولي.. وتعتبر هذه الدراسة ـ على اختصارها ـ من الدراسات المهمة جدا في مجالها.

وهنالك دراسات وبحوث مطولة ومختصرة تلامس في بعض جوانبها موضوع بحثنا سوف نشير إليها في ثنايا البحث.

● دراسات باللغة الفارسية:

شهدت الساحة الفكرية في الحوزات العلمية، والمعاهد والجامعات الإيرانية نشاطا علميا ملحوظا بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وتشكيل الحكومة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني، الذي تبنى النظرية السياسية في الحكومة الإسلامية على أساس نظرية «ولاية الفقيه» والتي وضع أُسسها النظرية في كتابه «الحكومة الإسلامية» ثم دونت كمادة قانونية أساسية في دستور الجمهورية الإسلامية، وكيّفت مجموعة بنود وفقرات هذا القانون على أساس ذلك.

وعندما نلاحظ الكمّ الهائل من الدراسات الإسلامية الفكرية والأُصولية والفقهية التي صدرت خلال هذه الحقبة نجد أن الكثير منها قد تناول فقه الدولة الإسلامية وحدود ولاية الفقيه، ونظرية الحكومة في الإسلام والاجتهاد وحدوده وضوابطه، والجذور التاريخية لمبدأ الاجتهاد....

وفيما يتعلق بموضوع دراستنا، فهناك مجموعة من الدراسات الجادَّة والقيِّمة، صدرت من كتّاب ومؤلفين وباحثين ممن لهم تخصّص في مجال دراساتهم، تناولت بعض الجوانب المتعلقة بموضوع دراستنا.

ومما يؤسف له أن هذه الدراسات والبحوث لم يترجم الكثير منها إلى اللغة العربية، وبقيت متداولة في حدود ابناء الناطقين باللغة الفارسية والعارفين بها.

وفيما يلي إشارات موجزة لبعض النماذج من هذه الدراسات والبحوث:

أولاً: هزاره شيخ طوسي

إعداد وترجمة وتنظيم علي دواني.

صدر هذا الكتاب عن جامعة (دانشگاه) مشهد سنة (١٣٤٨ ش) وأعادت طبعته مؤسسة أمير كبير سنة (١٣٦٢ ش).

والكتاب يقع في مجلد واحد يضم ثلاثة أجزاء، ويحتوي على مجموعة قيِّمة من الأبحاث التاريخية والتحقيقية حول شخصية الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) والتي كتبها وقدمها لمؤتمر ألفية الشيخ الطوسي نخبة من العلماء والمفكرين والباحثين من إيران ومن البلدان الإسلامية الأُخرى. بل ومن المستشرقين من أمثال منتغمري وات من إنكلترا، ودچارلز آدامس من كندا ممن اشتركوا في هذا المؤتمر وقدموا بعض أبحاثهم فيه.

ويعتبر هذا الكتاب دائرة معارف قيمة يضم بين دفتيه أبحاث تحقيقية في مجال الفقه والأُصول والحديث، والفلسفة والكلام، والدراية والرجال والأنساب، والتاريخ... ويسلط الأضواء على شخصية كبيرة من علماء الشيعة بلغ من المكانة بحيث كادت الطائفة الشيعية ان تنسب إليه.

ثانيا: مؤسس حوزه (يادنامه حضرت آية اللّه حاج شيخ عبد الكريم حائرى)

صدر هذا الكتاب بتاريخ (١٣٨٣ ش) عن قبل مؤسسة بوستان كتاب قم (انتشارات دفتر تبليغات اسلامى حوزه علميه قم) بمناسبة مرور سبعين سنة على وفاة مؤسس الحوزة العلمية في قم الشيخ عبد الكريم الحائري (ت ١٣٥٥ هـ) ويتضمن الكتاب مجموعة من الأبحاث بالفارسية والعربية لمجموعة من العلماء والمفكرين والباحثين، مع تحقيق بعض رسائل الشيخ الحائري الفقهية.

وهذا الكتاب في بعض أبحاثه يعطينا فكرة جيدة عن الحوزة العلمية في قم وعن مؤسسها وواضع حجر أساسها الشيخ الحائريرحمه الله.

ثالثا: تاريخ قم

تأليف محمد حسين ناصر الشريعة، تصحيح وتعليق وإضافات: علي الدواني.

صدر هذا الكتاب بطبعته الرابعة المحققة سنة (١٣٨٣ ش)، انتشارات رهنمون ـ قم.

يشتمل الكتاب على خمسة أبواب وتحت كل باب مجموعة من الفصول والأبحاث، يسلط فيها المؤلف الأضواء على مدينة قم المقدسة مدفن السيدة فاطمة بنت الإمام موسى بن جعفرعليهما السلام.

وقد تضمن الكتاب مقدمة وافية للشيخ الدواني تحدث فيها عن قم وحوزتها العلمية، كذلك نجد في الفصل الثاني من الباب الرابع من الكتاب حديثا مفصّلاً عن المدارس العلمية في قم وتاريخ تأسيسها ومؤسسِّيها.

والكتاب كسابقه يعطينا فكرة جيدة عن مدينة قم والحوزة العلمية فيها.

رابعا: تاريخ تشيّع إصفهان از دهه سوم قرن اول تا پايان قرن دهم

«التشيع في إصفهان من أوائل القرن الأول إلى نهاية القرن العاشر».

تأليف مهدي فقيه إيماني.

صدر هذا الكتاب سنة (١٤١٦ هـ ـ ١٣٧٤ ش) بمناسبة مرور ثلاثة قرون على وفاة العلامة المجلسي‏ﷺ والكتاب بمجمل أبحاثه يعطي فكرة جيدة عن تاريخ الشيعة والتشيع في مدينة إصفهان، ويسلِّط الأضواء على فترة الحكم الصفوي، ودور العلّامة المجلسي في إرساء قواعد الشيعة والتشيع في هذه المدينة، بالاضافة إلى الآثار العلمية التي صدرت من هذه المدينة.

ومن المؤسف أن الكاتب لم يقسِّم أبحاث كتابه إلى أبواب وفصول ومباحث متسلسلة، وإنما جاء بحشد كبير من المعلومات عن هذه المدينة من دون تبويب وتقسيم علمي منهجي.

إلّا أن هذا الكتاب يعطي فكرة جيدة عن حركة التشيع في هذه المدينة، وكذلك يسلط بعض الأضواء على سير الحركة العلمية الحوزوية فيها.

خامسا: حوزه علميه خراسان، مؤلف: محمود پسنديده

صدر هذا الكتاب بتاريخ (١٣٨٥ ش) من انتشارات آستان قدس رضوى، وبمقدمة الشيخ واعظ زاده خراساني.

والجزء الأول من الكتاب يتحدث عن المدارس العلمية في مدينة مشهد المقدسة القديمة منها والحديثة.

على أمل أن يصدر الجزء الثاني من الكتاب ويتضمن المدارس والحوزات العلمية في المدن التابعة لمحافظة خراسان.

ويحتوي الكتاب بعد المقدمة على خمسة فصول، وفي كل فصل جملة من المباحث المهمة التي تتعلق بتاريخ المدارس والحوزات العلمية في مقاطعة خراسان، بالاضافة إلى صور قديمة وحديثة لهذه المدارس والحوزات.

سادسا: تحولات حوزه علميه قم پس از پيروزى انقلاب اسلامي

مؤلف: علي شيرخاني، عباس زارع، ناشر: مركز اسناد انقلاب اسلامي.

صدر هذا الكتاب بتاريخ (١٣٨٤ ش) ويقع في ٤٢٠ صفحة، ضمن سلسلة موضوعات «تدوين تاريخ الثورة الإسلامية في إيران».

ويتضمن الكتاب بعد المقدمة خمسة فصول رئيسية بالاضافة إلى النتائج والصور والوثائق والمستندات والمصادر.

والكتاب بمجمل أبحاثه وفصوله يعطينا معلومات قيمة عن الحوزة العلمية في قم ومدى التحوّل العظيم الذي حصل فيها بعد الثورة الإسلامية المباركة، ومن جميع النواحي الادارية، ومناهج الدراسة والمؤسسات التحقيقية... وغيرها من الأُمور الكثيرة التي جعلت من هذه الحوزة المباركة قدوة لغيرها في مجال التطور والاصلاح.

سابعا: حوزه‌هاى علمية شيعه در گستره جهان

تأليف: سيد علي رضا كباري.

أُعِدَّ هذا الكتاب بإشراف مركز تحقيقات باقر العلوم ـ قم، وصدر في طبعته الأُولى سنة (١٣٧٨ هـ ش)، من مؤسسة انتشارات امير كبير ـ طهران.

ويقع الكتاب ـ بعد المقدمة ـ في عشرة فصول أوسعها الفصل الرابع الذي استوعب فيه المؤلف أكثر من (٦٠٠) صفحة من مجموع صفحات الكتاب البالغة (٨٣٣) صفحة، وجاءت الفصول الأُخرى بشكل مختصر جدا، ولم يستوعب المؤلف في بعضها إلّا صفحات قليلة.

ورغم عدم وجود التناسب في ترتيب فصول ومباحث الكتاب، إلّا أ نّه استوعب عناوين كثيرة في فصوله ومباحثه مما له صلة وثيقة بمباحث كتابنا، بالاضافة إلى العنوان الرئيسي الذي استوعب الفصل الرابع من الكتاب والذي يسلِّط المؤلف فيه الأضواء على الحوزات العلمية في البلدان التي وجدت فيها، مع استيعابه لأكثر عدد من الحوزات العلمية في إيران.

والذي يؤخذ على المؤلف هو الاختصار الشديد في مباحث بعض الحوزات العلمية المهمة من قبيل الحوزة العلمية في بغداد والنجف والحلة وجبل عامل، والتوسع والأطناب في بعض الحوزات العلمية الفرعية في إيران وغيرها، بالاضافة إلى وجود بعض المباحث الجانبية التي لا ربط لها بموضوع الكتاب.

ولكن كل هذا لا يقلِّل من شأن الجهد الذي بذله المؤلف في كتابه والذي سوف نعتمده كأحد المصادر المهمة لمواضيع بحثنا.

ثامنا: دانشنامه جهان اسلام، ج ١٤

إصدار بنياد دائرة المعارف اسلامى باشراف الدكتور: حداد عادل.

وتعتبر هذه الموسوعة العلمية الثقافية من أهم الإصدارات الحديثة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وقد صدر منها (١٨) مجلدا وتمّ تبويبها بحسب حروف المعجم اللغوي، وقد تناولت هذه الموسوعة وفي مادة (حوزه) أهم الحوزات العلمية القديمة منها والحديثة، وسلطت الأضواء على مؤسسيها ومناهجها الدراسية وطلابها وما تركته من تراث علمي... وبشكل مختصر كما هو معهود في مناهج دوائر المعارف، التي يشترك في تحرير أبوابها مجموعة من المفكرين والكتّاب.

نكتفي بهذه النماذج من الدراسات والبحوث التي اطلعنا عليها حول موضوع رسالتنا، مع اذعاننا بوجود دراسات وبحوث أُخرى كثيرة لا يسع المجال لذكرها.

ولابدَّ من التأكيد مجدَّدا إلى أننا ـ في حدود ما اطلعنا عليه من دراسات وبحوث ـ لم نجد دراسة شاملة استوعبت تاريخ الحوزات العلمية عند الشيعة الإمامية خلال مسيرها التاريخي منذ نشأتها حتى عصرنا الحاضر، ولهذا قد تكون دراستنا لهذا الموضوع إضافة علمية جديدة في هذا المجال إن شاء اللّه تعالى.

سابعا: من مصادر ومراجع البحث

أولاً: المصادر التاريخية:

يُعدُّ كتاب **تاريخ الأُمم والملوك** للطبري (ت ٣١٠ هـ)، من المصادر المهمة التي اعتمدناها، حيث يعتبر من المصادر الأصلية في التاريخ العربي الإسلامي حتى نهاية عام (٢٩٠ هـ)، مرتبا حسب نظام الحوليات ومعتمدا على الروايات؛ لأنه سرد الحوادث منقولة على شكل روايات، وهو يصف الحدث بروايات متعددة منقولة عن

عدة أشخاص مما يساعد الباحث على عقد مقارنة للروايات وصولاً إلى الحقيقة، وقد أورد بعض النصوص التاريخية عن مكة في زمن بعثة الرسولﷺ، وعن المدينة وأوجه الحياة الاجتماعية والسياسية فيها، وعن منطقة النجف قبل الإسلام وبعض المظاهر الحضارية الأُخرى المنتشرة على أرضها، فضلاً عما تضمنه من أحداث متفرقة عن النجف خلال العصر العباسي، وخاصة فيما يتعلق بسياسات بعض الخلفاء العباسيين تجاه هذه المدينة، بالاضافة إلى بعض الحقائق التاريخية الأُخرى.

والمصدر الآخر (**مروج الذهب ومعادن الجوهر**) للمسعودي (ت ٣٤٦ هـ) حيث رتب كتابه حسب تسلسل العهود على أساس الخلفاء وبعمومات موجزة، ومع هذا، فمروياته المختصرة لا يمكن للباحث أن يستغني عنها؛ فقد أمدَّنا ببعض المعلومات عن منطقة النجف قبل الإسلام، وكذلك عن سياسة الخلفاء العباسيين تجاه هذه المدينة، وبعض النصوص التي استندنا عليها في رسم صورة الحياة الاقتصادية في النجف وذلك فيما يخصُّ بحر النجف.

ومن أهم المصادر التاريخية التي اعتمدناها: «**تاريخ بغداد أو مدينة السلام**» لمؤلفه «أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى سنة (٤٦٣ هـ)».

وتأتي أهمية الكتاب من عدّة جهات، فهو كتاب تراجم إذ يضمُّ الكتاب (٧٨٣١) ترجمة للمحدِّثين وأرباب العلوم الأُخرى ورجالات المجتمع والدولة، وتظهر أهمية الكتاب من ناحية الحياة الثقافية والفكرية؛ لأنه يكشف عن طرق التدريس ومناهج العلماء وعلاقاتهم مع تلاميذهم، والتعريف بالمدارس التي انتشرت في القرنين الرابع والخامس، وكذلك الحلقات العلمية ومجالس العلماء في المساجد للتحديث والتدريس.

كما يعكس «**تاريخ بغداد**» نشاط العلماء ومدى اتصال الحركة الفكرية في المدن الإسلامية ببعضها وذلك عن طريق ذكره لهجرة ورحلة العلماء في طلب العلم.

ويمكن أن نصف كتاب «تاريخ بغداد» بأنه موسوعة ثقافية فكرية، لمؤلف موسوعي قد أخذ مؤلفها من (٤٤٦) كتابا ألفت جميعا خلال القرن الثالث والرابع والخامس وهي في موضوعات شتى.

وأبرز جانب في كتاب «تاريخ بغداد» والذي يتعلق بموضوع بحثنا هو: ان المؤلف قد ترجم لسائر العلماء الذين عاشوا ببغداد أو زاروها منذ انشائها حتى عصره سنة (٤٦٣ هـ).

ولم يقتصر في ترجمته على علماء مذهب معين، وإنما شمل علماء جميع المذاهب بما في ذلك علماء الشيعة ومحدثيهم الذين عاشوا في بغداد أو زاروها.

ومن المصادر الأُخرى المهمة التي اعتمدناها كتاب «**المنتظم في تاريخ الملوك والأُمم**» لابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) وقد دوّن الأحداث على السنين، وهو ينتهي بنهاية عام (٥٧٤ هـ) وتحدث المؤلف عن المدن الاسلامية وخاصة مدينة النجف الأشرف وقدم لنا معلومات مهمة حول عمارة المرقد الشريف واهتمام الخلفاء والسلاطين والأُمراء والوزراء بهذه المدينة، وما بذلوه من أموال في تحسين أحوالها المعيشية، ومن زار منهم المرقد الشريف ومن دفن إلى جنبه كذلك.

(والكامل في التاريخ) لابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) من المصادر الأساسية التي رجعنا إليها، على الرغم من أن أكثر معلوماته قد استقاها من الطبري وابن الجوزي إلّا أنه حافظ على أُصول قسم من هذه الروايات، وهذب بعضها، ودمج بعضها بالبعض الآخر، وقد أورد معلومات مقتضبة ـ بعض الشيء ـ عن تاريخ مدينة النجف إلّا أنها لا تقل أهمية عن المعلومات التي أوردها ابن الجوزي في كتابه المنتظم.

وهناك بعض المصادر الأُخرى التي استفدنامنها بصورة متفاوتة في تراجم بعض الشخصيات البارزة، أو ما ذكرته من بعض الحوادث المتناثرة ومن أهمها «تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام للذهبي» (ت ٧٤٨ هـ)، وكتابه الآخر «العبر في خبر من غبر»، و «تاريخ ابن الوردي» المعروف بـ «تتمة المختصر بتاريخ البشر لابن الوردي» (ت ٧٤٩ هـ) و «البداية والنهاية لابن كثير» (ت ٧٧٤ هـ) و «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي» (ت ٨٧٤ هـ)، إضافة إلى المراجع الحديثة.

ثانيا: كتب الطبقات والتراجم والرجال:

تعدّ كتب الطبقات والتراجم والرجال سواء منها المتقدمة أم المتأخرة، من الكتب المهمة التي يمكن الاعتماد عليها كثيرا في تراجم بعض الشخصيات البارزة، حيث زودتني بمعلومات مهمة عن واقع الحركة العلمية في مختلف البلاد الإسلامية ورجالاتها، ومن أهمها كتاب «رجال النجاشي» للشيخ: أحمد بن علي الأسدي الكوفي، المعروف بـ «النجاشي» (ت ٤٥٠ هـ) وهذا الكتاب هو من الأُصول الرجالية المعتمدة، حيث وردت تراجم العلماء مع ذكر بعض مؤلفاتهم. وكذلك كتاب «اختيار معرفة الرجال» المعروف بـ «رجال الكشي» لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ). وكذلك كتاب الرجال المعروف بـ «رجال الطوسي».

وأما المصادر الرجالية الأُخرى فهي: «الفهرست لمنتجب الدين» الذي كان حيا سنة (٥٨٥ هـ) الذي ترجم لعدد من تلامذة الشيخ الطوسي في النجف، وتلامذة ولده الشيخ أبي علي الطوسي ومنه استقى الرجاليون معلوماتهم، وكذلك كتاب «معالم العلماء» لابن شهر آشوب (ت ٥٨٨ هـ)، المرتب على حروف المعجم، وهو متمم

لكتاب الفهرست للشيخ الطوسي، وجاء فيه تراجم الذين تتلمذوا على يد الشيخ الطوسي في النجف، وكتاب «الرجال لابن داود الحلي» من علماء القرن السابع الذي ترجم فيه الشيخ الطوسي وبعض تلامذته.

كذلك كتاب الفهرست لابن النديم (ت ٣٨٠ هـ) من المصادر المفيدة وأمدنا بمعلومات قيمة عن بعض المؤلفين والكتّاب وما أ لّفوه؛ وضمن أبواب مقسمة على العلوم سهلت علينا عناء البحث في أقرب وقت، وأسهل سبيل.

ومن المصادر المهمة كذلك «وفيات الأعيان لابن خلكان» (ت ٦٨١ هـ) الذي يضم بين دفتيه معلومات مهمة في ثنايا تراجم بعض العلماء، و «لسان الميزان لابن حجر» (ت ٨٥٢ هـ) فى ترجمة الشيخ أبي علي الطوسي، و «شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي» (ت ١٨٠٩ هـ).

ومن المصادر الرجالية التي اعتمدناها كتاب «أمل الآمل للحر العاملي» (ت ١١٠٤ هـ) مع تكملته للسيد حسن الصدر الذي اعتمد في تراجمه على كتاب الفهرست لمنتجب الدين، وترجم لتلامذة الشيخ الطوسي وولده أبي علي الطوسي، وكذلك بعض الأُسر العلمية في النجف وغيرها، والأُسر العلمية والعلماء في جبل عامل.

وكذلك كتاب «لؤلؤة البحرين للبحراني» (ت ١١٨٦ هـ)، وترجم للشيخ الطوسي وولده أبي علي، وناقش بعض القضايا وأعطى رأيه فيها، وكذلك كتاب «مقابس الأنوار للكاظمي» الذي استفدنا منه كثيرا في ترجمة رجال الحركة العلمية في النجف، ويعتبر كتاب «رياض العلماء للأفندي» من المصادر الرجالية المهمة، وجاء فيه تراجم لكثير من رجال الحركة العلمية والأُسر العلمية، وكذلك موسوعة السيد محسن الأمين «أعيان الشيعة»، و «الذريعة في مصنفات الشيعة» و «طبقات أعلام الشيعة»

للشيخ أغا بزرك الطهراني، حيث نجد فيها دراسة وافية لرجال الشيعة وتراثهم العلمي على مر العصور.

وأخيرا يعتبر كتاب «معجم رجال الحديث للسيد أبي القاسم الخوئي» مصدرا مهما حيث نجد تراجم لكثير من رجالات الإمامية.

ومن كتب التراجم المهمة والتي صدرت حديثا بالفارسية كتاب «مفاخر الإسلام للشيخ علي الدواني». وهي موسوعة رجالية تقع في أكثر من عشرين مجلدا، ترجم فيها المؤلف لرجالات الحوزة العلمية وعلمائها من عصر الغيبة الصغرى وإلى عصرنا الحاضر، ولم يكتفِ المؤلف بالترجمة فقط، وإنما وقف موقف المحلل والناقد والمصحح والباحث في أكثر مطالب كتابه القيم.

وقد اعتمد المؤلف على قائمة واسعة من كتب التراجم والرجال المشهورة عند الشيعة ذكرها في مقدمة الجزء الأول من كتابه، فضلاً عمّا أضافه من مقابلاته الشخصية لبعض العلماء من معلومات قيمة انفرد كتابه بها.

ثالثا: كتب الجغرافية والرحلات:

تعد كتب الجغرافية والرحلات من المصادر المهمة التي لا يسع المؤرخ الاستغناء عنها ففيها معلومات قيمة عن خطط المدينة، والحياة الاقتصادية والاجتماعية، والإدارية، ومن أقدم ما وصل إلينا من هذه الكتب «البلدان لليعقوبي» (ت ٢٨٤ هـ)، الذي أمدّنا بمعلومات مهمة عن منطقة النجف وبحر النجف والمناطق المحيطة بها، أما كتاب «الاعلاق النفسية لابن رسته» (ت ٢٩٠ هـ) فقد أمدّنا بمعلومات قيمة، وبنفس الأهمية كتاب «المسالك والممالك لابن خرداذبه» (ت ٣٠٠ هـ)، أما كتاب «معجم ما استعجم للبكري» (٤٨٧ هـ)، فقد استفدنا منه في تحديد منطقة النجف

وتحديد مواقع بعض الأديرة والقصور الأُخرى المنتشرة فيها، وكذلك «معجم البلدان لياقوت الحموي» (ت ٦٣٦ هـ) الذي يعد موسوعة جغرافية حيث استفدنا منه كثيرا في تحديد كثير من خطط المناطق الجغرافية للحوزات العلمية، وكتاب «مراصد الاطلاع لابن عبد الحق البغدادي» (ت ٧٣٩ هـ) الذي هو في الحقيقة، اختصار لكتاب معجم البلدان، ولا ننسى ذكر كتاب الرحالة ابن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ) «تحفة النُظّار في غرائب الأمصار»، فقد جاء فيه معلومات عن مدينة النجف في غاية الأهمية، عن طبيعة أحوالها العلمية والاجتماعية والاقتصادية والتطور العمراني فيها. كذلك كتاب (رحلة ابن جبير) لأبي الحسن محمد بن أحمد الأندلسي (ت ٥٨٢ هـ).

رابعا: كتب اللغة والأدب:

لا يمكن الاستغناء عن كتب اللغة والأدب العربي في كتابة التاريخ؛ لأن هذه الكتب تقدِّم لنا مادة جيدة عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والإدارية والفكرية، كما نجد فيها كثيرا من الحقائق التاريخية التي أهملتها المصادر التاريخية، وقد استفدنا من كتب اللغة في معرفة الاشتقاق اللغوي لتسميات الكوفة والنجف والري وقم... وغيرها ومن أهم هذه المصادر «الاشتقاق لابن دريد» (ت ٣٢١ هـ) و «الصحاح للجوهري» (ت القرن الخامس) و «أساس البلاغة للزمخشري» (ت ٥٣٨ هـ) و «لسان العرب لابن منظور» (ت ٧١١ هـ) و «مجمع البحرين للطريحي» (ت ١٠٨٥ هـ).

خامسا: الموسوعات ودوائر المعارف:

١ـ ماضي النجف وحاضرها.

يُعدُّ كتاب «ماضي النجف وحاضرها» للشيخ جعفر محبوبة، المطبوع بأجزائه الثلاثة، من المراجع المهمة عن تاريخ مدينة النجف، فقد تتبع فيه تاريخ النجف منذ عصر ما قبل الإسلام حتى عصره، وقد أغنانا بمعلومات قيمة ودلنا على كثير من المصادر والمراجع التي استقى منها معلوماته، وكان الشيخ في كتابه هذا منقبا ومحققا، ومن يقرأ كتابه يلحظ مدى الجهد الذي بذله في سبيل إخراج هذه الدراسة بهذا الشكل.

٢ـ «شعراء الغري أو النجفيات»، لعلي الخاقاني، المكوّن من (اثني عشر جزءا) صدرت هذه الموسوعة ـ التي تتناول ترجمة ما يقارب (٤٠٠ شاعر نجفي) ـ سنة (١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٤ م). ولمّا كان جلُّ هؤلاء المترجمين من رجال الحوزة العلمية في النجف، فقد وجدت فيه ـ لا سيما في موضوع حركة إصلاح الكيان المرجعي ونظم الدراسة ـ إشارات متناثرة، اعتمدت على الكثير منها في صفحات هذه الدراسة، دون أن يفوتني التنويه إلى ما اتسمت به ملاحظات مؤلّفه الخاقاني من (حدّة) وعنف، وخروج في كثير من الأحيان عن أُصول النقد، وقواعد التقييم، وضوابط الملاحظة. الأمر الذي يجعلنا حذرين في التعامل مع أفكاره وآرائه فيما يرتبط بموضوعات هذه الدراسة.

٣ـ «موسوعة العتبات المقدّسة» التي جمع بحوثها الأُستاذ جعفر الخليلي، وكتب في هذه الموسوعة كبار الكتّاب، أمثال الدكتور مصطفى جواد، والدكتور حسين علي محفوظ، والأُستاذ جعفر الخياط، والعلامة الدكتور السيد محمد بحر العلوم، وقد

اعتمدنا هذه البحوث في أكثر من موضع من بحثنا، وخاصة بحوث الدكتور مصطفى جواد «النجف قديما» و «النجف مصحة قديمة» و «النجف والحيرة» وبحث الأُستاذ جعفر الخياط «النجف في المراجع الغربية» وبحث السيد محمد بحر العلوم «الدراسة وتاريخها في النجف».

٤ـ موسوعة النجف الأشرف، التي جمع بحوثها وأشرف عليها الوجيه الحاج جعفر الدجيلي صاحب دار الأضواء في بيروت، وكتب بحوثها مجموعة من كبار الكتّاب والباحثين ورجالات الفكر والمعرفة ممن لهم صلة وثيقة بالنجف الأشرف، وتستهدف هذه الموسوعة أن تؤرخ لمدينة النجف وكل ما يرتبط بها من حركة وحياة، وهي موسوعة جليلة أرّخت لفقهاء النجف، ولنمط الدراسات فيها، ولمعاهدها ومدارسها... بالاضافة إلى رصد نشاطاتها الميدانية المتمثلة في حركة الاصلاح الاجتماعي والعلمي والثقافي.

وقد صدر من هذه الموسوعة لحد الآن ثلاثة وعشرون مجلدا.

٥ـ موسوعة طبقات الفقهاء.

تأليف: اللجنة العلمية في مؤسسة الإمام الصادقعليه‌السلام، باشراف العلّامة الفقيه الشيخ جعفر السبحاني، طبعة دار الأضواء، بيروت، (١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م).

وتضمُّ هذه الموسوعة خمسة عشر مجلدا ضخما بالاضافة إلى مجلدين بمثابة المقدمة الضرورية لهذه الموسوعة، حيث تضمنت المقدمة تاريخ الفقه الإسلامي وأدوار الاجتهاد عند المذاهب الفقهية عامة، وعند الشيعة الإمامية خاصة، ثمّ في المجلدات الأُخرى ترجم للفقهاء وأصحاب الفتيا بحسب طبقاتهم من الصحابة إلى التابعين وإلى الفقهاء من بعدهم.

وتوصل مؤلف هذه الموسوعة القيمة إلى نتيجة مهمة مفادها: «أنّ فقه الشيعة الإمامية ومدارسها ترجع إلى عصر الرسول الأكرمﷺ وما تلاه من عصر الإمام أمير المؤمنين عليعليه السلام وأولاده المعصومينعليهم السلام خاصة الامامين الصادق والباقرعليهما السلام اللذين شيّدا معالم هذا المذهب على صعيدي العقيدة والشريعة، وقد تربى في أحضان هذه المدرسة العديد من المتكلمين والفقهاء والمجتهدين، وقد أُلِّفَ في عصرهما كتب كثيرة في كافة المجالات».

وتعتبر هذه الموسوعة من أهم ما انتجته المؤسسات العلمية حديثا ولا يستغني الباحث عنها في جميع المجالات وخاصة في توثيق تاريخ الفقه والفقهاء والحوزات العلمية.

٦ـ موسوعة دائرة المعارف الإسلامية الكبرى:

وهي من الموسوعات الحديثة المهمة والشاملة، وتصدر عن مركز دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، وهي: مؤسسة علمية تحقيقية، تمَّ تأسيسها في طهران عام (١٣٦٢ ش ق = ١٩٨٣ م) لتدوين دوائر المعارف: الإسلامية؛ العامة والتخصصية، وأول أثر تحقيقي لهذا المركز موسوعة (دائرة المعارف الإسلامية الكبرى) والتي تصدر باللغتين الفارسية والعربية؛ ويعكف على تدوين مقالاتها مجموعة كبيرة من الباحثين بإشراف هيئة علمية لها أقسام متعددة.

وقد صدر من هذه الموسوعة أكثر من عشرين مجلدا باللغة الفارسية، وترجم منها إلى اللغة العربية ثمان مجلدات كبار تبدأ من الحرف (آب) وينتهي الجزء الثامن بـ (اقليد).

ومما لا شك فيه أن هذه الموسوعة القيّمة سوف تمدنا بالكثير من المعلومات المتعلقة بموضوع بحثنا، تتسم بالجدة والموضوعية.

٧ـ موسوعة العالم الإسلامي:

وهذه أيضا من الموسوعات العلمية الشاملة الحديثة والتي تصدر باللغة الفارسية بعنوان: (دانشنامه جهان اسلام) عن مركز دائرة المعارف الإسلامية، والتي أسسها ويتولى رئاستها العليا آية اللّه السيّد علي الخامنئي، ويتولى الاشراف عليها الدكتور غلام علي حداد عادل، ويحرر مقالاتها نخبة من الباحثين وبإشراف هيئة علمية وهيئة مستشارين وقد صدر منها في حدود (١٨) مجلدا وترجم بعض مجلدأتها إلى اللغة العربية.

وهذه الموسوعة كسابقتها سوف ترفد بحثنا بالمعلومات الحديثة، والمدونة بمنهجية علمية أكاديمية.

٨ـ موسوعات ودوائر معارف أُخرى.

هنالك مجموعة من دوائر المعارف والموسوعات الأُخرى والتي يمكن الاستفادة منها في بعض المباحث ومن هذه الموسوعات:

١ـ موسوعة معجم المؤلفين تأليف عمر رضا كحالة.

٢ـ موسوعة الأعلام لخير الدين الزركلي.

٣ـ دائرة المعارف الإسلامية الشيعية للسيّد حسن الأمين.

٤ـ دائرة المعارف العلوية للأعلمي.

٥ـ دوائر معارف أُخرى قيد التدوين في مصر لم نطلع عليها.

المجلات والدوريات التخصّصية:

هنالك مجموعة من المجلات والدوريات التخصصية والتي نجد في ثنايا أبحاثها بعض المعلومات المهمة منها:

١ـ فصلية تراثنا (بالعربية)، تصدر في قم عن مؤسسة آل البيت لاحياء التراث.

٢ـ فصلية الحديث (بالفارسية)، تصدر في قم عن مؤسسة دار الحديث.

٣ـ فصلية فقه اهل البيت (باللغة العربية)، تصدر في قم وبيروت عن مؤسسة دائرة معارف فقه أهل البيت.

٤ـ فصلية فقه اهل البيت (باللغة الفارسية)، تصدر في قم عن مؤسسة دائرة معارف فقه أهل البيت.

٥ـ فصلية المنهاج، تصدر في بيروت عن مؤسسة دائرة معارف فقه أهل البيت.

٦ـ فصلية الموسم، تصدر في هولندا.

٧ـ مجلة حوزة (بالفارسية) تصدر في قم.

٨ـ مجلة رسالة الاسلام التي أصدرها مجمع التقريب في مصر.

٩ـ مجلة علوم الحديث تصدر في قم.

بالاضافة إلى الدوريات والمجلّات القديمة التي كانت تصدر في النجف الأشرف وفي لبنان وقم، مثل مجلة الاعتدال، والغري، ومجلة العرفان، ومجلة الهادي وغيرها.

مصطلحات البحث ومفاهيمه

تمهيد في تحديد مفاهيم البحث والقواسم المشتركة بين موضوعاته

أولاً: مفهوم الشيعة

١ـ الشيعة في اللغة

٢ـ الشيعة في القرآن

٣ـ الشيعة في الاصطلاح

ثانيا: مفهوم مصطلح الحوزة:

١ـ الحوزة في اللغة

٢ـ الحوزة في الاصطلاح

٣ـ التعريف المناسب للحوزة

ثالثا: جغرافية مراكز الحوزات العلمية

قبل الدخول في أبواب وفصول ومباحث موضوع «تاريخ الحوزات العلمية والمدارس الدينية» عند الشيعة الإمامية، لابد من تحديد المفاهيم والمصطلحات المتعلقة بالبحث، ثمّ البحث عن الامتداد التاريخي لاستخدام هذه المصطلحات كتسمية للحواضر العلمية والفكرية والثقافية الدينية عند الشيعة الإمامية بالخصوص.

بالاضافة إلى البحث عن القواسم المشتركة بين موضوعات البحث.

أولاً: مفهوم الشيعة

١ـ الشيعة لغة:

هو المشايعة، أي المتابعة والمناصرة والموالاة، والشيعة: اتباع الرجل وأنصاره.

فالشيعة بالمعنى اللغوي تعني: الاتباع والأنصار والأعوان، ويقع على الواحد والاثنين والجمع، والمذكر والمؤنث بلفظ واحد، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيعة[١].

وبهذا المعنى اللغوي، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[٣].

٢ ـ الشيعة في الاصطلاح:

لقد اختص هذا المصطلح بمن تولّى عليا وبنيه(عليهم السلام) وأقرّ بإمامتهم، حتى صار ينصرف إليهم إذا ما أطلق عند الاستعمال من دون قرينة أو إمارة.

---

(١) صحاح الجوهري: ٣ / ١٥٦، وتاج العروس: ١١ / ٢٥٧، ولسان العرب: ٧ / ٢٥٨ مادة: شيع.

(٢) الصافات: ٨٣.

(٣) القصص: ١٥.

قال ابن خلدون في مقدمته: «إعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والأتباع، ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع علي وبنيه رضي اللّه عنهم»[1].

ونقل ابن منظور عن الأزهري قوله: «والشيعة قوم يهوون هوى عترة النبيﷺ ويوالونهم...»، «وأصل الشِّيعة الفِرقةُ من الناس... وقد غلب هذا الإسم على من يتولّى عليّا وأهل بيته رضوان اللّه عليهم أجمعين، حتّى صار لهم اسما خاصّا، فإذا قيل: فلانٌ من الشِّيعة عُرف أ نّه منهم، وفيمذهب الشيعة كذا، أي عندهم، وأصل ذلك من المشايعة، وهي المتابعة والمطاوعة»[2].

يقول الشهرستاني في الملل والنحل: «الشيعة هم الذين شايعوا عليا على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصّا ووصيّةً، إمّا جليّا وإمّا خفيا، واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج من أولادهِ، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقيّة من عنده، وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحيّة تناط باختيار العامة، وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أُصولية وهي ركن الدين»[3].

والشيعة الاثنا عشرية هم الإمامية القائلون بوجود النصّ على اثنى عشر إماما ـ بعد الرسول ـ نصّ عليهم هو نفسه صلوات اللّه عليه وآله.

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة: ١٩٦، طبعة أُفست مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، بلا ـ ت.

(٢) ابن منظور، لسان العرب ٧ / ٢٥٨، مادة: شيع، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م.

(٣) الشهرستاني ـ محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل: ١٤٦ ـ ١٤٧، تحقيق: محمد سيد كيلاني، طبعة دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م.

ويقول النوبختي (من أعلام القرن الثالث) في كتابه فرق الشيعة: «الشيعة: هم فرقة عليّ بن أبي طالب، المسمّون بشيعة علي في زمن النبيﷺ ومن وافق مودّته مودّة علي»[1].

ويبين الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) ـ الفرق بين الإمامية وغيرهم ـ فيقول: «فأما السِّمة للمذهب بالإمامة ووصف الفريق من الشيعة بالإمامية فهو عَلَمٌ على من دان بوجوب الإمامة ووجودها في كلّ زمان، وأوجب النصّ الجليّ والعصمة والكمال لكلّ إمام، ثمّ حصر الإمامة في ولد الحسين بن عليعليهما السلام.. وصار هذا الاسم ـ في عُرف المتكلّمين وغيرهم من الفقهاء والعامة ـ علما على من ذكرناه....

ثمّ أضاف: واتفقت الإمامية على أنّ الأئمة بعد الرسولﷺ اثنا عشر إماما»[2].

وعرّفه الشيخ المفيد: «الشيعة: هم مَن شايع عليّاًعليه السلام وقدّمه على أصحاب رسول اللّه صلوات اللّه عليه وآله، واعتقد أ نّه الإمام بوصية من رسول اللّه، أو بارادة من اللّه تعالى نصّا، كما يرى الإمامية، أو وصفا كما يرى الجارودية»[3].

وعن الشهيد الثاني (ت ٩٦٥ هـ) قال: «والشيعة: مَن شايع علياًعليه السلام، أي اتّبعه وقدّمه على غيره في الإمامة وإن لم يوافق على إمامة باقي الأئمة، فيدخل فيهم: الإمامية، والجارودية من الزيدية، والإسماعيلية غير الملاحدة منهم، والواقفية، والفطحية»[4].

---

(١) النوبختي ـ الحسن بن موسى، فرق الشيعة: ١٧، صححه وعلّق عليه: محمد صادق بحر العلوم، طبعة الحيدرية، ١٩٤٦ م.

(٢) المفيد ـ محمد بن محمد بن النعمان، أوائل المقالات في المذاهب المختارة: ٤٦ ـ ٤٩، قدم له وعلّق عليه: الشيخ فضل اللّه الزنجاني، طبعة تبريز، ١٣٧١ هـ.

(٣) موسوعة العتبات المقدسة المدخل: ٩١ نقلاً عن الشيخ المفيد.

(٤) العاملي ـ زين الدين بن علي، الشهير بـ الشهيد الثاني، الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية: ٢ / ٢٢٨.

من هذه التعاريف، يمكن أن نعرف المقوّمات الأساسية للتشيّع والتي يمكن تلخيصها بما يلي:

أولاً: إنّ جوهر التشيّع هو الالتزام بإمامة عليّ وولده وتقديمه على غيره، لوجود النصوص عندهم في ذلك، وهذا يعني أن الإمامة وليدة النصوص الشرعية، فهي امتداد للنبوّة، ويترتب عليها ما يترتب على النبوّة من لوازم، عدا الوحي فإنّ نزوله مختصٌّ بالأنبياء.

ثانيا: إنّ الإمامة لا تتمّ بالانتخاب والاختيار، وإنما بالتعيين من اللّه تعالى، فهو الذي ينصّ على الإمام عن طريق النبيﷺ[1].

ثالثا: ان مصطلح الشيعة يشمل اتباع المذاهب الأُخرى ممن آمن بالنص على امامة عليعليه السلام من غير الخارجين عن ملّة الإسلام، كالزيدية، والإسماعيلية والواقفة....

أما مصطلح الشيعة الإمامية الاثني عشرية، فيختص بالشيعة الإمامية الذين يعتقدون بوجود النصّ على اثني عشر إماما ـ بعد الرسولﷺ ـ نصّ عليهم هو نفسه صلوات اللّه عليه وآله.

ويعرف الشيعة كمذهب اسلامي كبير، له مكانته الساميّة بين المذاهب الإسلامية الكلامية والفقهية، وينتشر المنتمون إليه في رقعة واسعة من البلاد الإسلامية.

يقول أحد علماء الإمامية معرفا المذهب الإمامي الاثني عشري:

«مذهب الإمامية هو أحد المذاهب الإسلامية الكلامية والفقهية.. يرجع في انتمائه العقيدي والفكري إلى أئمة أهل البيتعليهم السلام، وبه سمّي بالإمامي، وأتباعه بالإمامية، وقد يسمّى بالمذهب الجعفري نسبة إلى الإمام السادس من أئمة أهل

---

(١) الوائلي ـ أحمد، هوية التشيع: ٢١.

البيتعليهم السلام: أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادقعليه السلام المتوفى سنة (١٤٨ هـ)، وذلك لوفرة عطائه الفكري بالنسبة إلى بقية الأئمة من أهل البيتعليهم السلام، ولأنه عاش فترة انطلاقة الفكر الكلامي ومدارسه الأُولى كالجبرية والمعتزلة، وفترة توسع الفكر الفقهي وظهور أصحاب المذاهب الفقهية أمثال: مالك بن أنس، وأبي حنيفة، حيث كان المسلمون آنذاك يتمايزون بالانتماء، فيقال: هذا من أتباع المذهب الكلامي المعيَّن، أو المذهب الفقهي المعيّن.

ويعرف هذا المذهب أيضا بمذهب الإمامية الاثني عشرية في مقابلة المذهبين الشيعيين الآخرين، الزيدي والإسماعيلي اللذين تستمرُّ الإمامة ـ في اعتقادهما ـ متجاوزة الحصر بعدد معيَّن.

ويطلق عليه ـ غالبا ـ المذهب الشيعي لكثرة أتباعه مقارنة بأتباع المذهبين الشيعيين الآخرين الزيدي والإسماعيلي ويشكل الشيعة الإمامية ـ في الوقت الحاضر ـ نصف مسلمي آسيا وثلث مسلمي العالم»[١].

الجذور التاريخية لاختصاص اسم الشيعة بالموالين لأهل البيتعليهم السلام:

قد يتصور البعض انَّ اسم الشيعة والتشيع لم يكن له وجود في صدر الإسلام الأول، وإنما استحدث هذا المصطلح بعد عهد طويل من مجيء الإسلام، وانتحله بعض المسلمين ليمتازوا عمن سواهم!! بل إنَّ بعضهم اتخذ من لفظة (الشيعة والتشيع) وسيلة للطعن والغمز واللمز..!

---

(١) الفضلي ـ عبد الهادي، مذهب الإمامية: ٧ ـ ٨، ط. مركز الغدير للدراسات الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م.

ولسنا في مورد ذكر هذا البعض وكلماتهم ومؤلفاتهم ومنهجهم الذي استندوا عليه في طمس الحقائق أو تشويهها، وهم يشكلون طبقة واسعة وعلى مرّ التاريخ.

وكذلك لا نريد أن نكيل لهؤلاء بنفس المكيال، بعد أن انقشع عصر الظلمة وأصبحت الحقائق واضحة جليّة لمن أراد أن يعرف حقيقة الشيعة والتشيع.

وإنما نريدأن نشير ـ وبشكل مختصر ـ ومن خلال الاستناد إلى بعض الروايات ـ وهي كثيرة جدّا ـ المرويّة عن الرسول الأكرمﷺ ورواها صحابته (رضي اللّه عنهم) ودونتها كتب الصحاح والمسانيد، ومنها وجدت طريقها إلى كتب التفسير الروائي ـ إنّ التشيع يعود إلى عهد الرسولﷺ وله السبق التاريخي على كل المذاهب الإسلامية الأُخرى مع وافر احترامنا لهذه المذاهب وأربابها ومعتنقيها.

وإنَّ هذه التسمية بـ (الشيعة) قد جاءت من صاحب الشريعة، وهو الواضع لهذا الاسم.

وفيما يلي بعض هذه الروايات مع ذكر رواتها ومصادرها من كتب الرواية والأثر:

١ـ روى ابن عساكر في تاريخه:

عن جابر بن عبد اللّه الأنصاري قال: «كنا عند النبيﷺ فأقبل علي بن أبي طالب عليه السلام فقال النبيﷺ: «... والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة»... فنزلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾[1]»[2].

---

(١) البينة: ٧.

(٢) ابن عساكر ـ أبو القاسم علي بن الحسن، تاريخ ابن عساكر: المجلد ٢٣ / الجزء ٤٥، تحقيق: علي عاشور، طبعة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م.

٢ ـ وروى ابن حجر في الصواعق المحرقة، والشبلنجي في نور الأبصار:

عن ابن عباس قال: «لما أنزل اللّه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ قال رسول اللّهﷺ لعليعليه السلام: «هُوَ أنت وشيعتك، تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضين، ويأتي عدوك غضابا مقمحين»»[١].

٣ ـ وروى القندوزي الحنفي في ينابيع المودة:

عن أمّ سلمة رضي اللّه عنها قالت: قال رسول اللّهﷺ: «وعلي وشيعته هُم الفائزون يوم القيامة»[٢].

٤ ـ وروى الكنجي الشافعي في كفاية الطالب، والخوارزمي في المناقب:

عن جابر بن عبد اللّه قال: كنا عند النبيﷺ فأقبل علي بن أبي طالبعليه السلام فقال النبيﷺ: قد أتاكم أخي، ثمّ التفت إلى الكعبة فضربها بيده ثمّ قال: والذي نفسي بيده، إنّ هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة، ثمّ إنه أولكم إيمانا، وأوفاكم بعهد اللّه، وأقومكم بأمر اللّه، وأعدلكم في الرعية، وأقسمكم بالسوية، وأعظمكم عند اللّه مزية. قال: ونزلت فيه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾. قال: فكان أصحاب رسول اللّهﷺ إذا أقبل عليعليه السلام قالوا: قد جاء خير البريّة[٣].

٥ ـ وروى السيوطي في تفسيره، والحسكاني في شواهد التنزيل:

عن عليعليه السلام قال: «قال رسول اللّهﷺ لي: ألم تسمع قوله اللّه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾، أنت وشيعتك، وموعدي وموعدكم

---

(١) ابن حجر، الصواعق المحرقة، باب ١١، الفصل الأول: ١٦١، ونور الأبصار للشبلنجي: ٧٨.

(٢) القندوزي، ينابيع المودة: ٢ / ٦١.

(٣) الكنجي الشافعي، كفاية الطالب: ٢١٤، والخوارزمي، المناقب: ١١١.

الحوض إذا جاءت الأُمم للحساب تدعون غرّا محجلين»[1].

وهنالك عشرات الروايات الأُخرى بنفس المضمون الذي تضمنته هذه الروايات، والتي نتعرّف من خلالها على البدايات الأُولى لولادة مصطلح «الشيعة»[2].

والذي نستفيده من هذه الروايات ما يلي:

أولاً: إنّ مصطلح «الشيعة» هو أول مصطلح ظهر في أوساط الأُمة الإسلامية، وقبل تكوين المذاهب وظهورها، وإن هذه التسمية، تسمية شرعيّة أطلقها النبي الأكرمﷺ وهو الذي قال فيه القرآن: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[3].

يقول أبو حاتم الرازي في كتاب الزينة: «إنّ أول اسم لمذهب ظهر في الإسلام هو الشيعة، وكان هذا لقب أربعة من الصحابة: أبو ذر، وعمار، ومقداد، وسلمان الفارسي...»[4].

ويقول الخوانساري في الروضات:

«وكان يختص بهذه التسمية ـ الشيعة ـ أولاً: سلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، ومقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر في عهد رسول اللّهﷺ لملازمتهم خدمة أمير المؤمنينعليه السلام ومواظبتهم على حقّ طاعته في ولايته»[5].

---

(١) السيوطي، الدر النثور: ٦ / ٣٧٩، والحاكم الحسكاني، شواهد التنزيل: ٢ / ٣٥٦.

(٢) للتوسع انظر: تفسير الطبري: ٣ / ٣٦٥، وفتح القدير للشوكاني: ٥ / ٣٩٨، وروح المعاني للآلوسي: ١٦ / ٣٧٠، وتذكرة الخواص لابن الجوزي: ٢٧، والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ١٠٧، ونظم الدرر للزرندي: ٩٢.

(٣) النجم: ٣ ـ ٤.

(٤) الرازي ـ أبوحاتم، الزينة في الكلمات الإسلامية العربية: ٣ / ١٠، ط. مصر.

(٥) الخوانساري ـ محمدباقر الموسوي، روضات الجنات: ١ / ٣٢٣، طبعة مكتبة اسماعيليان ـ قم، ١٣٩٠ هـ.

فالتأكيدات النبوية على هذا المصطلح وفي أكثر من مناسبة قد جذّرته في وعي الأُمة، وأصّلته في عمق ذاكرتها ووجدانها، وتكونت نتيجة لذلك نخبة متميزة من الصحابة الأوائل عرفوا بعمق وعيهم وبصيرتهم وحبهم لعليﷺ وأهل بيت النبيﷺ فأصبح لفظ «الشيعة» لقبا لهؤلاء.

ثانيا: تأسيسا على ما ذهبنا إليه من رأي في بدايات ظهور التشيع وإنه ظهر في زمن النبيﷺ، ومن خلال أحاديثه وتأكيداته. فلا مجال حينئذ لبعض الآراء الأُخرى التي تؤرّخ لنشأة التشيع في أزمنة أُخرى متأخرة عن زمن النبي وحياته[1]. مع أنّ الأدلة التاريخية متوفّرة على وجوده في حياته.

يقول أحد الباحثين السنّة: «من الخطأ أن يقال: إنّ الشيعة إنّما ظهروا لأول مرة عند انشقاق الخوارج، بل كان بدء الشيعة وظهورهم في عصر الرسول حين أُمر بإنذار عشيرته بهذه الآية»[2]. والآية هي: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾[3].

ثالثا: قد يقال: «لا تفيد الأحاديث الواردة على لسان النبيﷺ في حقّ عليﷺ أنّ لعليّ شيعة في زمان النبي! فقد تنبأ النبيﷺ بظهور بعض الفرق، كإشاراته إلى الخوارج والمارقين، كما ينسب إليه أ نّه قال لعليّ: «إنّك تقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين». ولا يدل ذلك على وجود جماعة مستقلة لها عقائد متمايزة أو تصورات خاصة»[4].

---

(١) لمعرفة هذه الآراء ومناقشتها، انظر: الوائلي، هوية التشيع: ٣١ ـ ٣٧، والسيّد الغريفي: التشيع، الفصل الأول: ٢٥ ـ ٣٢.

(٢) الوائلي ـ أحمد، هوية التشيع: ٣٧ نقلاً عن محمد عبد الله عنان في كتابه: تاريخ الجمعيات السرية.

(٣) الشعراء: ٢١٤.

(٤) صبحي ـ أحمد محمود، نظرية الإمامة: ٣١.

فإنه يقال: مع وجود هذه الأحاديث ووفرتها، والتي أخرجها كل من ابن عساكر، وابن عدي، وابن مردويه، من علماء السنة، إلّا أن الشيعة لا يستدلون على ظهور التشيّع أيام النبيﷺ بما ورد على لسانه من أحاديث، فالمسألة ـ كما يسمّيها الأُصوليّون ـ على نحو القضية الحقيقية لا الخارجية، أي لا يلزم وجودهم بالفعل كما استظهر المستشكل، وإنما هي صفات ذكرها النبيﷺ للشيعة متى وجدوا وأينما وجدوا. أما الاستدلال على ظهور الشيعة أيام النبيّ فمن روايات وقرائن كثيرة يوردونها في هذا المقام. أورد قسما منها الدكتور عبد العزيز الدوري واستعرض مصادرها..[1].

«إنّ بعض هذه الآراء ـ وهي الأصح ـ يرجع بالبداية الزمنية في ظهور الشيعة إلى وقت مبكّر في حياة النبيﷺ، حيث التأمت جماعة من الصحابة تفضّل عليّا على غيره من الصحابة وتتخذه رئيسا»[2].

رابعا: إنّ رسول اللّهﷺ بعد أن أسس هذا المصطلح وشخّص مصاديقه، وبيّن منزلة من يتّسم به من درجات إيمانية، فلا معنى للادعاء الذي يدعيه خصوم الشيعة ومن تبعهم من المستشرقين والكتّاب الغربيين من انتماء التشيّع إلى قومية معينة، وإنه أخذ من الرواسب الفكرية والدينية لهذه القوميّة ـ كما يدعون ـ والغرض من ذلك هو محاصرة التشيع والتشكيك في هويته الإسلامية[3].

---

(١) الدوري ـ عبد العزيز، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام: ٧٢.

(٢) الوائلي ـ أحمد، هوية التشيع: ٣٦ ـ ٣٧، وانظر الفصل الثالث من المصدر نفسه: «روّاد التشيّع الأوائل».

(٣) للتوسع في الموضوع، انظر: تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة، وفجر الإسلام لأحمد أمين والصلة بين التصوف والتشيع للشيبي، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان، والشيعة والخوارج لفلهوزن، والعقيدة والشريعة للمستشرق أجناس جلود تسهير....

وقد كفانا بعض الباحثين مؤونة البحث في هذه الدعوى ومناقشتها مناقشة علمية جادة وخلص إلى القول:

«إنّ المضمون الفكري للتشيع هو نفس المضمون الإسلامي، وأي مضمون يشذّ عن المضمون الإسلامي في العقيدة والأحكام فالشيعة منه براء، بدليل أنّ مصادر التشريع عند الشيعة هي أربعة: الكتاب الكريم، والسنّة الشريفة، والاجماع، والعقل.. إنّ هذه المصادر التشريعية هي المكونات العضوية لهيكل الشريعة الإسلامية باتفاق جمهور المسلمين ـ على اختلاف بسيط في بعض تفاصيلها ـ ولمّا كانت هي مصادر التشريع عند الإمامية فما معنى وصف التشيّع بالفارسية؟»[1].

وقد يستبعد تصور الانتماء الفكري للتشيع إلى عرق معين من الأعراق البشرية، وإنما يفترض أنَّ هنالك بعض المفاهيم الحضارية الفارسية انتقلت إلى التشيع عن طريق من اعتنق التشيع من أبناء فارس، فصارت هذه المعتقدات والمفاهيم الحضارية ـ وبمرور الزمن ـ جزءا من ماهية التشيّع، وبقيت هكذا يتداولها خلف عن سلف!

إلّا أ نّه على فرض صحة هذه الفرضية فإنها لا تختص بالتشيّع وإنما تشمل المضمون الإسلامي نفسه، حيث انصبَّت الروافد العِرقية عن طريق الأُمم التي اعتنقت الإسلام وهي تحمل أفكارها وعقائدها التي لم تتخلص منها، ولعلّ اليهود أكثر الجماعات تأثيرا في الحضارة الإسلامية.. لأنهم استأثروا بالتفسير وبالقصص الدينية لأ نّهم أهل كتاب، «ولمّا كانت الجزيرة العربية فقيرة إلى الأفكار الدينية والمضامين الثقافية لعب الفكر اليهودي دورا هاما في ملء هذا الفراغ، وخصوصا في الفكر السني الذي حاول أن يتخلص من هذا الرداء ويخلعه على الشيعة عن طريق

---

(١) الوائلي، هوية التشيع: ٦٦ ـ ٦٧ بتلخيص وتصرّف.

الشخصية الوهمية عبد اللّه بن سبأ.. ولكن حقائق الأُمور والبحث الدقيق يثبت عكس ما ادّعاه هؤلاء القوم وما نسبوه للشيعة»[1].

ثانيا: مفهوم مصطلح الحوزة

١ـ الحوزة لغة:

ذكر علماء اللغة لكلمة «حوزة» جملة من المعاني لابد من التوقف عندها لاستخلاص المفهوم اللغوي العام لهذا المصطلح.

قال ابن منظور: «.. الحَوز من الأرض أن يتخذها رجل ويبين حدودها فيستحقها فلا يكون لأحد فيها حق معه.. وحوز الدار وحيزها: ما انضمّ إليها من المَرافق والمنافع، وكل ناحية على حِدَة حيِّز.. وفي الحديث: «فحمى حَوزة الإسلام» أي حدوده ونواحيه، وفلان مانع لحوزته أي لما في حيزهِ، والحوزة، فَعْلَةٌ، منه سميت بها الناحية..»[2].

وقال الفراهيدي: «.. والحوز: موضع يحوزه الرجل يتخذ حواليه مسنّاة، وجمعه: أحواز. وكل شيء ضممت إليك فقد حُزته واحتزته..»[3].

وقال الفيومي: «حُزتُ الشيء: أحُوزه حَوزا وحيازةً ضممتهُ وجمعتُهُ، وكُلُّ من ضمَّ إلى نفسه شيئا حازه.. والحوزة الناحية.. وأحياز الدّار نواحيها ومرافقُها..»[4].

---

(١) الوائلي، هوية التشيع: ٦٩.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة حوز: ٣ / ٣٨٨ وما بعدها. والنهاية لابن الأثير: ١ / ٤٦٠.

(٣) كتاب العين: ١ / ٤٤٢.

(٤) المصباح المنير: ١ / ١٥٦.

وقال الراغب في معنى قوله تعالى: ﴿أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ﴾ «أي: صائرا إلى حيز.. وذلك كلُّ جَمع منضمٌّ بعضهُ إلى بعض، وحزتُ الشيء أحوزه حوزا، وحمى حوزتَهُ، أي: جَمعه..»[1].

وقال الطريحي: «الحوز: الجمع، وكلّ من ضمَّ إلى نفسهِ شيئا فقد حازه حوزا وحيازة.. والحوزة: الناحية، وحوزة الإسلام: حدوده ونواحيه، ومنه الحديث: «الإمام منّا مَن منَع حوزته». والحيِّز بالتشديد: ما انضمّ إلى الدار مِن مرافقها، وكلّ ناحية حيِّز.. وهذا في حيزك: أي في ناحيتك»[2].

وفي معجم المقاييس: «حوز: الحاء والواو والزاء أصلٌ واحد، وهو الجمع والتجمّع؛ يقال لكلّ مَجْمَع وناحيةٍ: حَوْزٌ وَحَوزَة، وحمى فلانٌ الحَوْزَة، أي المجمعُ والناحية... وكلُّ مَن ضمَّ شيئا إلى نفسه فقد حازَه حَوزا»[3].

والذي يستفاد من مجمل ما قاله علماء اللغة في معنى كلمة (حوزة) بمفهومها اللغوي العام، انها: المكان المحدد المجموع الذي له حدوده ونواحيه ومرافقه؛ فكل جمع منضمّ بعضه إلى بعض يقال له حوزة.

٢ـ الحوزة اصطلاحا:

مصطلح الحوزة من المصطلحات الحديثة، ولهذا اختلفت فيها التعريفات واختلفت فيها ألفاظها سعة وضيقا، وإن كانت بمجملها ترسم لنا صورة عامة لمفهوم

---

(١) المفردات: ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٢) مجمع البحرين: ١ / ٤٧٢ ـ ٤٧٣.

(٣) ابن فارس ـ أحمد، معجم المقاييس في اللغة: ٢ / ١١٧ ـ ١١٨، مادة: حوز، حقّقه: عبد السلام محمد هارون، طبعة أُفست مكتب الإعلام الإسلامي ـ قم، ١٤٠٤ هـ

الحوزة العلمية، وفيما يلي عرض لهذه التعريفات وما يرد عليها من نقد، ثمّ بيان ما نراه مناسبا من تعريف:

التعريف الأول: «الحوزة العلمية، هي مصطلح يطلق على الدراسات الإسلامية؛ لبحث وجهة نظر الإسلام في كافة مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية والثقافية، والاجتماعية، والعبادية، وتشكل على مرّ الزمن فريقا من الباحثين والدارسين جل اهتمامهم هو البحث في مراكز علمية خاصة بهم، هذه المراكز العلمية التي تختص بالدراسات الإسلامية يطلق عليها اصطلاح الحوزة العلمية الدينية»[1].

التعريف الثاني: «الحوزة اصطلاح حديث يراد به المؤسسة العلمية التي تقام لغاية الدراسات العلمية الشرعية التي تمكّن الطالب من معرفة الأحكام الشرعية في مختلف مجالات حياته العلمية «ولايبعد أن يكون المعنى مأخوذا من المدلول اللغوي وهو (الحَوز) وكأنه مكان معنوي (يحوز) مجموعة من الطلاب»[2].

التعريف الثالث: «الحوزة العلمية هي: مجمع علمي يحوي عددا من طلاب العلوم الدينية، مع ما يستلزمه هذا العدد من هيكلية تدريسيّة من أساتذة متخصصين في المواد التي تدرس ضمن هذا المجمع التعليمي، وهيئة إشراف تضمن سير هذا المجمع من الناحية العلمية، والمسلكية والتنظيمية»[3].

التعريف الرابع: «الحوزة العلمية تسمية عربية، فالحوزة لغةً هي المكان، أو الناحية التي إذا ما خصّصت للدرس والتحصيل جاز أن تسمّى حوزة علمية. وتبعا للأصل

---

(١) البهادلي ـ علي، الحوزة العلمية في النجف الأشرف: ٨٧ نقلاً عن لمحات من خرسان: ٧، إصدار مركز إحياء التراث الإسلامي ـ إيران.

(٢) المصدر نفسه: ٨٧ نقلاً عن الشيخ حسن طراد ضمن مقابلة شخصية للمؤلف معه.

(٣) المصدر نفسه: ٨٧ نقلاً عن الشيخ محمد جعفر شمس الدين في كتاب الحوزات العلمية: ٣١.

اللغوي فإن الحوزة يمكن أن تخصص لمختلف أوجه النشاط الإنساني، إلّا أنها ارتبطت بلغة علماء الدين بتلقّي العلم، حِتى بات مفهوما تلقانيا: ان الحوزة لابدّ أن تكون علمية»[1].

التعريف الخامس: «إنّ الحوزة هي بمثابة مجتمع ثقافي دراسي، ضمن منطقة معينة تتسّع وتضيق حسب الظروف السياسية والاجتماعية المحلية المحيطة بها»[2].

التعريف السادس: «الحوزة هي معهد في بلد أو قرية أو مدينة يسكنها جمهرة من أهل العلم والفضل، يديرون فيها حلقات التدريس المنعقدة بين طلاب المعرفة المتعدّدي المواطن عادة»[3].

التعريف السابع: «الحوزة العلمية هي التعبير المتعارف بين الذين ينتسبون إلى المراكز الدينية الرئيسية كالنجف، وقم، والأزهر، التي صارت مشهورة تاريخيا على أنها المدارس الكبرى التي تضمّ الأُلوف من المدرّسين والعلماء الذين يعتنون بالتدريس والتلقين والرعاية لطلاب العلوم الدينية، الذين بعد دراستهم في تلك المراكز والحواضر الكبرى للعلم الديني يعودون إلى بلدانهم ليكونوا مبلّغين ومبشّرين بالإسلام.

فالحوزة العلمية بناءً على هذا هي جامعة غير رسمية (بمعنى غير مرخّص لها قانونا) حسب مفهوم الدولة في عصرنا، وإنما تحمل رخصتها من خلال كونها الوسيلة الأهم عبر التاريخ الإسلامي في حفظ الإسلام ضد حملات التشكيك والتوهين»[4].

---

(١) البهادلي ـ علي، مجلة الموسم، العدد ٨ / المجلد ٢ / السنة ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م.

(٢) خشيش: الحوزات العلمية في جبل عامل: ١٠٣.

(٣) عطوي ـ محسن، الحوزات العلمية في فكر الإمام الخميني، مجلة المنطلق، العدد ٥٧، محرّم سنة ١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩ م.

(٤) البهادلي، الحوزة العلمية: ٨٨ نقلاً عن الشيخ المقداد في جواب خطي للمؤلف.

التعريف الثامن: «الحوزة العلمية: كيان علمي وبشريّ يؤهّل للاجتهاد في علوم الشريعة الإسلامية، ويتحمّل مسؤولية تبليغ الأُمة، وقيادتها»[1].

التعريف التاسع: «إنّ مُسمى الحوزة، هو أوسع بكثير من مسمى الجامعة أو المعهد العلمي، أو أية مؤسسة تعليمية أو علمية، فالحوزة العلمية هي عبارة عن مجموعة من المدارس، وفصول الدرس، وحلقات البحث والمناقشة والتي تقام وتنتظم عادةً في الجوامع، والمساجد، والأماكن المقدسة، والزوايا الدينية، والمدارس العلمية أو في بيوت العلماء والأساتذة أنفسهم...»[2].

نقد التعاريف:

والذي يرد على هذه التعاريف بمجملها أنها غير جامعة وغير مانعة، ولا تعطي صورة واضحة عن الحوزة العلمية كمؤسسة دينية يراد منها ترويج الدين الإسلامي وقيادة المجتمع، ولها دورها ومكانتها الخاصة عند الشيعة الإمامية في عصر الغيبة.

فلا يمكن أن نصوّر الحوزة العلمية وكأنها مجرد مؤسسة علمية أو مدرسة أو معهد ونقصر دورها على ذلك، فيكون شأنها شأن أي مدرسة أو معهد أو كلية لدراسة علوم الدين والشريعة، والحال أن الحوزة غير هذا، ولا يقتصر دورها على التربية والتعليم لطلاب العلوم الدينية. وإنما يمتد هذا الدور ليشمل بالاضافة إلى المهمة العلمية، المهمام القيادية في المجتمع كما سوف يتضح من أبواب وفصول وأبحاث كتابنا.

---

(١) البهادلي، الحوزة العلمية: ٩٤. مرجع سابق

(٢) الشاهرودي ـ نور الدين، تاريخ الحركة العلمية في كربلاء: ٧٣، طبعة دار العلوم ـ بيروت، ط. الأُولى، ١٤١٠ هـ

ونحن في الوقت الذي لا نتوقع من أمثال هذه التعاريف أن تكون جامعة مانعة وبالحدِّ والرسم التامّين ـ كما يقول علماء المنطق ـ إلّا أننا نتوقع من التعريف أن يكون أقرب إلى أصل التسمية في مفهومه اللغوي، ويعبر عن الواقع الحالي للحوزة، والمهام الموكلة إليها في عصر الغيبة، والتي تتلخص في إعداد المجتهد في علوم الشريعة الإسلامية الذي يتولى مهمة استنباط الأحكام الشرعية وتبليغها لأفراد الأُمة الإسلامية، ويتولى قيادة المجتمع باعتباره نائبا عن الإمام في عصر الغيبة، ويتولى نفس المهمام الموكلة إليه عليه السلام في عصر حضوره. بالاضافة إلى المهمة الأُخرى التي تقع على عاتق الحوزة العلمية وهي مهمة ترويج تعاليم الإسلام وتبليغها للناس من خلال إعداد المبلّغين للدين الإسلامي الحنيف؛ والذي له أوجه متعددة من التدريس أو المحاضرات أو الندوات، أو تأليف الكتب أو غيرها من أوجه النشاط العلمي الديني.

وعلى ضوء هذا لابد لنا من تعريف للحوزة العلمية يحمل في وعائه هاتين المهمّتين.

فالحوزة العلمية: «مؤسسة تعليمية دينية تأخذ على عاتقها إعداد المجتهد في علوم الشريعة الإسلامية، الذي يتحمّل مسؤولية استنباط الأحكام الشرعية وتبليغها للأُمة، وقيادتها في عصر الغيبة، بالاضافة إلى إعداد وتربية وتعليم من يصلح لمهمة تبليغ الدين الإسلامي في وسط الأُمة الإسلامية».

وبعبارة أُخرى: «أن الحوزة العلمية: كيان علمي تعليمي تؤهل المنتسب إليها إلى درجة الاجتهاد في علوم الشريعة الإسلامية، وإعداد وتربية المبلغين والدعاة الذين يتحملون مهمة التبليغ للأُمة»[1].

---

(١) انظر: البهادلي، الحوزة العلمية: ٨٩ وما بعدها.

٣ـ الجذور التاريخية للتسمية:

مما لا شك فيه أن مصطلح «الحوزة العلمية» من المصطلحات الحديثة التي أطلقت على مجموعة المدارس والمعاهد والمؤسسات العلمية، التي تأخذ على عاتقها تدريس العلوم والدراسات الشرعية ومقدماتها للوصول إلى درجة الاجتهاد، والتي يرعاها ماليا ومعنويا مراجع الدين ضمن مناطق معينة ورقعة جغرافية تتسّع وتضيق حسب الظروف السياسية والاجتماعية المحيطة بها.

وعندما نبحث في تاريخ التربية والتعليم عند المسلمين فإنا نجد مصطلح «المدرسة» والذي قد تستعمل في أكثر من معنى، فتارة تأتي بمعنى المعهد العلمي أي المجامع العلمية التي تشمل المسجد والمدرسة ومجالس البحث كدور العلماء مثلاً، وتارة بالمعنى الحديث للمدرسة التي تمتاز بإدارة وهيئة تشرف على تنظيم الطلاب والمناهج؛ وهو المصطلح الشائع استعماله بالاضافة إلى مصطلح الجامعة، فيقال: المدرسة المستنصرية، أو الجامع الأزهر، أو جامعة القرويين.. ولا نجد لمصطلح «الحوزة» ذكرا بين هذه التسميات والمصطلحات.

والأمر الآخر الذي يثير الانتباه هو أن هذا المصطلح «الحوزة» قد اقترن وأطلق على مجموعة المدارس والمعاهد والتجمعات العلمية الدينية الشيعية حصرا، ولا نجدها تستعمل كتسمية للمدارس والمعاهد الإسلامية عند المذاهب الإسلامية الأُخرى.

أضف إلى ذلك أن المصطلح «الحوزة» قد أخذ بُعدا مذهبيا خالصا بعد أن أصبح مرتبطا بلقب المرجع الديني «الأعلى» لأبناء الطائفة الشيعية. فاخترع في السنوات

الأخيرة لقب وتسمية «زعيم الحوزة العلمية» وأسبغ على المرجع الأعلى للشيعة[1] هذا اللقب.

فمتى أطلق مصطلح وعنوان «الحوزة العلمية» على المؤسسات التعليمية الدينية عند الشيعة الإمامية؟ ولماذا عدلوا عن المصطلحات الأُخرى كمصطلح المدرسة أو الجامعة أو المعهد إلى هذا المصطلح بالذات؟

لتحديد الإجابة عن هذين السؤالين لابد من العودة إلى المصادر التاريخية وكتب التراجم والأبحاث التخصصية في هذا المجال.. لمعرفة السياق التاريخي لاستخدام هذا المصطلح.

إلّا أنّنا ـ مما يؤسف له ـ لم نجد من يؤرخ لهذا المصطلح واستعماله بمقدار ما بحثنا في كتب التاريخ والتراجم، ولعلنا نعثر مستقبلاً على ذلك، أو نلجأ إلى بعض الأعلام ممن يؤخذ برأيهم في هذا المجال.

ثالثا: جغرافية انتشار الحوزات العلمية

لقد انتشرت الحوزات العلمية والمدارس الدينية عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية في رقعة جغرافية واسعة من العالم الإسلامي، وظهرت في حواضر ومدن كثيرة؛ وتنقلت من مدينة إلى أُخرى، ومن مصر إلى مصر آخر، فكلما أفل نجم حوزة من الحوزات العلمية في بلد، أو انحسر دوره العلمي لأسباب موضوعية معينة؛ ظهرت حوزة علمية وريثة لها لتواصل المسيرة العلمية وتواكب حركة الزمن من دون توقف أو انفصال.

---

(١) انظر: شمس الدين ـ محمد مهدي، الاجتهاد والتجديد: ١٤٥، طبعة المؤسسة الدولية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ م.

ومن هنا يمكن أن نقول أن تاريخ الحوزات العلمية عند الشيعة الإمامية مترابط الحلقات، متكامل الحركة، متنامي الكيان، له تسلسل تاريخي واضح المعالم.

وفيما يلي مخطط تقريبي للانتشار الجغرافي للحوزات العلمية والمدارس الدينية عند الشيعة الإمامية:

أولاً: الحوزات العلمية التأسيسية؛ وتشمل: مدرسة الرَّسول وأهل البيت عليهم السلام في: مكة والمدينة والكوفة، وهو ما تضمنه المجلد الأول من هذه الموسوعة.

ثانيا: الحوزات العلمية المركزية الرئيسية وتشمل:

أ ـ الحوزة العلمية في بغداد والنجف الأشرف، وقسّمنا حوزة النجف الأشرف إلى أدوار ثلاثة والحقنا بها حوزة سامراء وهو ما تضمنه المجلد الثاني من هذه الموسوعة.

ب ـ الحوزة العلمية في الحلة وجبل عامل وكربلاء، وهو ما تضمنه أبحاث المجلدين الثالث والرابع.

ج ـ الحوزة العلمية في مدينة (قم المقدّسة)، وقد اعتبرها بعض الباحثين من الحوزات الفرعية التابعة لحوزة الكوفة في بدايات تأسيسها ثمّ لحوزة النجف الأشرف في مراحلها التالية، إلّا أنها ـ وبحق ـ أصبحت من الحوزات المركزية الرئيسية عند الشيعة الإمامية، وسوف يكون تاريخ هذه الحوزة وبعض ملحقاتها محور أبحاث المجلد الخامس من هذه الموسوعة.

ثالثا: الحوزات العلمية الفرعية:

وهي الحوزات التي تبرعمت من الحوزات الرئيسية المركزية مثل: حوزة الري، وحوزة حلب، وحوزة إصفهان، وحوزة خراسان ونيسابور وحوزة البحرين والقطيف والاحساء وتعرف بـ (أَوال).

وسوف يكون تاريخ هذه الحوزات وغيرها من الحوزات الفرعية محور أبحاث المجلد السادس من الموسوعة.

رابعا: الحوزات العلمية والمدارس الدينية في البلدان الإسلامية:

مثل الحوزة العلمية في سمرقند وبلاد ماوراء النهر، والحوزة العلمية في بلاد الهند، باكستان، افغانستان وغيرها.

وفيما يلي:

مخطط تقريبي لجغرافية الحوزات العلمية

أولاً: الحوزات العلمية التأسيسية

مكة ـ المدينة ـ الكوفة

↓

ثانيا: الحوزات العلمية المركزية الرئيسية

بغداد ـ النجف الأشرف ـ الحلة ـ جبل عامل ـ كربلاء ـ قم

↓

ثالثا: الحوزات العلمية الفرعية

الري ـ حلب ـ اصفهان ـ خراسان ـ نيسابور ـ القطيف والبحرين والاحساء

↓

رابعا: الحوزات العلمية في البلاد الإسلامية

سمرقند وبلاد ماوراء النهر ـ الهند ـ پاكستان ـ افغانستان و غيرها

الباب الأول:
منطلق الحركة العلمية
في عصر الرّسول في مكة والمدينة

الفصل الأول:
منطلق الحركة العلمية والفكرية في مكة

المبحث الأول: اقتران ظهور الإسلام بالدعوة إلى طلب العلم.

المبحث الثاني: معالم مدرسة الرّسولﷺ في مكة.

أ ـ الرسول الأكرمﷺ ومنهجه في التعليم.

ب ـ أماكن التربية والتعليم والتزكية في مكة.

١ـ دار خديجة (رضي الله عنها) المدرسة الأُولى للتربية والتعليم.

٢ـ دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي (مدرسة للدعوة في مرحلتها السريّة).

٣ـ المسجد الحرام في مكة.

ج ـ تنوع الأجناس والقوميات عند المنتمين لمدرسة الرسولﷺ في مكة.

المبحث الثالث: العمل التبليغي والدعوي للمنتمين لمدرسة الرسولﷺ.

أ ـ عملهم التبليغي في داخل مكة وشعابها.

ب ـ عملهم التبليغي خارج مكة.

١ ـ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ودوره التبليغي في الحبشة (نموذجا).

٢ ـ مصعب بن عمير رضي الله عنه ودوره التبليغي في المدينة (نموذجا).

المبحث الرابع: ملامح عامة عن المنهج التعليمي في العهد المكي.

أ ـ الأُسلوب التعليمي.

١ ـ طرق وأساليب التعليم.

٢ ـ التدرج في التعليم.

٣ ـ الأولوية في التعليم.

ب ـ المنهج التعليمي.

المبحث الخامس: ملامح الحركة العلمية في مكة بعد هجرة رسول اللهﷺ

خلاصة عامة للفصل الأول.

المبحث الأول

اقتران ظهور الإسلام بالدعوة إلى طلب العلم

بعد قرون طويلة عصيبة، عاشت فيها البشرية ألوانا من الظلم والتعدي والتحارب والتقاتل، وساد العالم بأسره ظلام الجهل والتخلف الثقافي والفكري، وكان للجزيرة العربية نصيبها الأوفر منها، وشمل كل نواحي الحياة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية، فكانت الجهالة من جهة، والعصبية القبلية من جهة ثانية، هما السمتان البارزتان في هذا العالم، وتحولت الحياة آنذاك إلى غابة يفترس فيها القوي الضعيف، ويلقي الجهل والتخلف بضلاله القاتم على أهله.

وهي الحقبة الزمنية التي يصطلح عليها القرآن الكريم بـ (عصر الجاهلية) وهي بلا شك جاهلية حضارية قبل ان تكون جاهلية بالعلوم والمعارف الإنسانية.

في ظل هكذا اوضاع، ومن وادي غير ذي زرع، تحيطه جبال صخرية صماء، وتتصل به صحارى قاحلة مجذبة، انبعث نور الإسلام، ليشع بنوره الساطع على الجزيرة العربية، وعلى العالم بأسره، وليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وقد لا نجد تعبيرا أدق وأبلغ وأجمع من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة وهو يصف الأحوال السائدة آنذاك قبل بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

يقول عليه السلام: «أرسَلَهُ على حينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسل، وطَولِ هَجعَةٍ من الأُمَم، واعتزامٍ مِنَ الفِتن، وانتشارٍ مِنَ الأُمور، وتَلَظٍّ من الحُروب، والدنيا كاسِفة النُّور، ظاهرة الغرور... قَد درِست منارُ الهُدى، وَظَهَرت أعلامُ الرَّدى...»[1].

---

(١) نهج البلاغة، ترتيب: صبحي الصالح: ١٢٣، الخطبة: ٩٠. وانظر الخطبة: ١٩٥.

لقد بُعث النبيﷺ في أُمة يسودها الجهل والأُمية الحضارية؛ وليس الأُمية بمعنى عدم القراءة والكتابة، فلقد كان بعض رجال قريش، ومن الأوس والخزرج أيضا من يجيد القراءة والكتابة بشكل بدائي.

يقولعليه السلام: «إنَّ اللّه بَعثَ مُحمَّداًﷺ، وليس أحدٌ مِنَ العَربِ يَقرأُ كِتابا، ولا يَدعي نُبوة، فساقَ الناسَ حتى بَوَّأهُم مَحلتَهم، وبَلَّغهم مَنجاتَهم...»[1].

يروي البلاذري في الفتوح: «... دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً يكتب، وكان الكتّاب بالعربية في الأوس والخزرج قليلاً...»[2].

والدين الإسلامي الحنيف؛ والذي ختم اللّه سبحانه به أديانه السماوية، له ميزة فريدة عن بقية الأديان السماوية حيث اقترنت ولادته بالدعوة إلى التعليم والتعلم والقراءة والكتابة.

فهذا القرآن الكريم، وهو النور الذي ختم اللّه به كتبه السماوية، نجده يفتتح دعوة السماء بالدعوة إلى القراءة، ويعطي قيِّمة ومكانة سامية للكلمة المقروءة والكلمة المكتوبة، فكانت أول سورة من القرآن الكريم تفتتح بقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ وتلتها مباشرة: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ ثمّ يؤكد سبحانه على دور القلم الحضاري والفكري في حياة الإنسان فيذكر سبحانه في سياق هذه الآيات: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[3].

ويذكر علماء التفسير وعلوم القرآن ان السورة الثانية التي نزلت بعد سورة «العلق» هي سورة «ن» والتي مطلعها: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾[4].

---

(١) نهج البلاغة، ترتيب: صبحي الصالح: ٧٧، الخطبة: ٣٣.

(٢) البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى، فتوح البلدان: ٤٥٧ ـ ٤٥٩، تحقيق: رضوان محمد.

(٣) سورة العلق: ٣ ـ ٤.

(٤) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن: ٢ / ٤٥.

وعلى هذا فالآيات الأُولى تتحدث عن القراءة، والآيات في السورة الثانية تتكلم عن الكتابة، ثمّ بعد ذلك تجيء الآيات القرآنية الكثيرة التي تهتف بجلال العلم والمعرفة والتعلم لتغطي مساحة واسعة من كتاب اللّه العزيز.

«وافتتاح نزول القرآن على النبيّ ﷺ بالقراءة ظاهرة متميزة لا نعثر على ما يماثلها في أي كتاب سماوي غيره، وتعني في إحدى دلالاتها أن القرآن الكريم كتاب سماوي يهدف إلى تعميم المعرفة واشاعة العلم واستئصال منابع الأُمية والجهل. ويتجلّى هذا المعنى بصورة واضحة في بيان القرآن لمهمة النبي المتمثلة في التزكية والتربية وتعليم الكتاب والحكمة»[1].

يقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[3].

كذلك لم يعرف دين من الأديان السماوية رَفَع قدر العلم، واحترم العلماء مثل الإسلام.

---

(١) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٧ ـ ٨.

(٢) المائدة: ١٥ ـ ١٦.

(٣) الجمعة: ٢.

فالقرآن الكريم يرفع العلماء إلى أسمى درجات الفضل، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[1].

ويجعل ـ سبحانه ـ من العلم ميزانا للتفاضل؛ فيفضِّل به بعض الناس على بعض، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾[2].

كذلك فضل اللّه سبحانه رسله على سائر خلقه بميزات من أهمها، العلم والحكمة، فيقول تعالى في يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[3] ويقول في موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[4] ويقول في العبد الصالح: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[5] وهكذا يقول سبحانه عن لوط وداود وسليمان[6].

ولما رفع الإسلام قدر العلم، وجعله ميزانا للتفاضل فيرفع به أقواما أخذوا نصيبا منه، ويخفض بفقده فضل آخرين. حتّم على المسلمين طلب العلم، بل افترضه عليهم، فرض كفاية.

فقد روي عنه ﷺ قوله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[7] وهو من مسلّمات الأحاديث النبوية، والمسلم لا خصوصيّة له في مقابل المسلمة بل يشمل الذكر والأُنثى، وقد وردت كلمة (ومسلمة) في بعض الروايات أيضا[8].

---

(١) المجادلة: ١١.

(٢) البقرة: ٢٤٧.

(٣) يوسف: ٢٢.

(٤) القصص: ١٤.

(٥) الكهف: ٦٥.

(٦) انظر الآيات القرآنية: الأنبياء: ٧٤، النمل: ١٥.

(٧) القرطبي، جامع بيان العلم وفضله: ٨، وبحار الأنوار للمجلسي: ١ / ١٧١.

(٨) انظر: آداب المتعلمين: ٥٧، وبحار الأنوار: ٦ / ١٧٧، وعوالي اللآلي: ٤ / ٧٠.

والذي نلاحظه في هذا الحديث النبوي الشريف أن طلب العلم من الفرائض الإلهية التي يجب على الإنسان المسلم القيام به كغيرها من الفرائض الواجبة، «وقد أجمع العلماء على أنّ من العلم ما هو فرض متعيّن على كل امرئ في خاصته بنفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع؛ ثمّ سائر العلم وطلبه والتفقه فيه وتعليم الناس إياه، وفتواهم به في مصالح دينهم ودنياهم فهو فرض على الكفاية يلزم الجميع فرضه، فإذا قام به قائم سقط فرضه عن الباقين، لا خلاف بين العلماء في ذلك، وحجتهم فيه قوله عزّ وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ...﴾[1] فألزم النفير في ذلك البعض دون الكلّ..»[2].

كذلك نلاحظ في الحديث إن العلم حق للجميع ولا يختص بطبقة خاصة من أفراد المجتمع، ولا بفئة دون أُخرى، فالعلم كبقية المواهب الإلهية حق للجميع.

كذلك نلاحظ في هذا الحديث الشريف ان هذا العلم الذي افترض على المسلمين، لا يختص بالعلوم الإسلامية فقط كتعلم التوحيد وأُصول الدين والعقائد، والفقه والأحكام الشرعية، والقرآن وتلاوته وإنما يشمل كل نوع من أنواع العلم مادام مفيدا للبشرية، إذ لم يقيد الرسول كلمة العلم بعلم معين، ويؤيد ذلك قولهﷺ: «اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كلِّ مسلم»[3].

ولم يكن في الصين علوم اسلاميّة آنذاك، فهذا يدل على اتساع وعاء العلوم في دنيا الإسلام.

---

(١) التوبة: ١٢٢.

(٢) جامع بيان العلم وفضله: ١٢ ـ ١٣.

(٣) جامع بيان العلم وفضله: ١ / ٩.

المبحث الثاني

من معالم وخصائص مدرسة الرسولﷺ في مكة

لقد انطلقت أول مدرسة إسلامية في التربية والتعليم من شعاب مكة، ومن بيت رسول اللّهﷺ وكان عميدها ومعلّمها الأول رسول اللّهﷺ، وتلميذها الأول من الرجال أول الناس إسلاما وإيمانا بعد رسول اللّهﷺ علي بن أبي طالبعليه السلام، ومن النساء أول نساء هذه الأُمة إسلاما وإيمانا زوج رسول اللّهﷺ خديجة بنت خويلد (رضي اللّه عنها)[1].

ثمّ توسّعت هذه المدرسة لتشمل بالاضافة إلى دار النبيﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي عند جبل الصفا، ودور بعض الصحابة (رضي اللّه عنهم)، وأخذ ينتسب إليها ويتعلم فيها الثلة القليلة من المسلمين ممن آمن بالرسولﷺ وصدق دعوته، فأخذ الرسول الأكرمﷺ يسعى جاهدا لإعداد وتربية وتعليم هؤلاء المسلمين الأوائل، ليكونوا النواة الأُولى للجماعة الصالحة، ولإعداد المجتمع الإسلامي.

وفيما يلي بعض معالم وخصائص هذه المدرسة الأُولى:

أ ـ الرّسول المعلم والمربي والمزكي ومنهجه التعليمي والتربوي

مما لا شك فيه أن مهام النبوة من اسمى المهام وأشرفها وأثقلها وأخطرها، ولا ينالها إلّا من ارتضاه اللّه لحمل رسالته من خلقه و ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[2].

---

(١) أُنظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٢٥٧، وابن سعد، الطبقات: ٣ / ١٣ ـ ١٤.

(٢) الأنعام: ١٢٤.

وأوكل المولى عزّ وجل إلى أنبيائه ورسله مهام ومسؤوليات تتسع وتضيق بحسب الجهة والأُمة التي أرسل إليها ذلك النبي أو الرسول.

وشاء اللّه سبحانه أن يختتم رسالات الأنبياء برسالة شاملة ومحيطة ومهيمنة على كلّ الرسالات السابقة، فكان الإسلام خاتمة أديانه، والقرآن خاتمة كتبه، والنبي (محمد) خاتم أنبيائه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[2].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3].

إلى غيرها من الآيات القرآنية التي تتحدث عن الإسلام كدين إلهي وآخر أُطروحة ربانية ختم اللّه بها الأديان السماوية[4].

أما القرآن الكريم فهو خاتمة كتب السماء، فقد قال سبحانه عنه: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ...﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[7].

---

(١) آل عمران: ١٩.

(٢) آل عمران: ٨٥.

(٣) البقرة: ١٣٢.

(٤) انظر المعجم المفهرس للقرآن مادة: «اسلام». وأُنظر: الدكتور محمد عبد اللّه دراز: الدين: ١١٢، والسيّد محمد باقر الصدر: المرسل الرسول الرسالة: ٨٨.

(٥) آل عمران: ٣.

(٦) المائدة: ٤٨.

(٧) الأنعام: ١٩.

وقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾[1].

أما الحديث عن الرسول الخاتمﷺ والمهام الكبرى التي أوكلت إليه، فقد نص القرآن الكريم في عشرات الآيات القرآنية على ذلك، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ ... ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[5].

وعندما نستعرض القرآن الكريم والآيات التي تُحَدِّثنا عن مهام الرسول الأكرمﷺ نجدها تنص على مهام كثيرة والتي منها: القيادة، والإنذار، والتبشير، والهداية، والتزكية، والتربية، والتعليم.. وغيرها من مهام نبيّنا الأكرمﷺ.

والذي يدخل في دائرة موضوعنا من مهام الرسول هو جانب (التربية والتعليم والتزكية).

---

(١) الإسراء: ٨٨.

(٢) الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦.

(٣) الفرقان: ٥٦.

(٤) آل عمران: ١٤٤.

(٥) الأحزاب: ٤٠.

يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وقد نهض النبيﷺ بمهمة التربية والتعليم والتزكية للأُمة التي بعث إليها منذ أول يوم من بعثته الشريفة، وواصل هذه المهمة بدأب ومثابرة حتى آخر لحظات حياته الشريفة، وقد روي عنه قوله: «بالتعليم أرسلت»[2]. أو: «إنما بعثت معلما»[3].

وروي عنهﷺ قال: «مَثَلُ ما بعثني اللّه به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكانت منها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع اللّه به الناس فشربوا وأسقوا وزرعوا، وكانت منها طائفة لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً، فذلك مَثَلُ من فقه في دين اللّه ونفعه بما بعثني اللّه به فَعَلِمَ وعَمِلَ وعَلَّم؛ ومَثَلُ من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى اللّه الذي أرسلت به»[4].

ب ـ أماكن التربية والتعليم في مكة

لقد انطلقت أول مدرسة إسلامية في التربية والتعليم من شعاب مكة، ومن بيت رسول اللّهﷺ وكان عميدها ومعلمها الأول رسول اللّهﷺ وتلامذتها علي بن أبي طالب‍عليه السلام وخديجة بنت خويلد (رضي اللّه عنها)، ثمّ توسعت هذه المدرسة لتشمل دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي عند جبل الصفا، وأخذ ينتسب إليها ويتعلم فيها الثلة القليلة ممن آمن بالرسولﷺ وصدق دعوته، فأخذ الرسول الأكرمﷺ يسعى

---

(١) الجمعة: ٢.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار: ١ / ٢٠٦.

(٣) جامع بيان العلم: ١ / ١٧ و ٦٠.

(٤) المرجع نفسه: ١ / ١٧ و ٦٠.

جاهدا لإعدادهم وتربيتهم وتعليمهم ليكونوا النواة الأُولى للجماعة الإسلامية الصالحة.

واتخذت مدرسة الرسولﷺ في مكة جانب السرية والكتمان كاستراتيجية مرحلية لها، خشية من تنبه قريش والقضاء عليها قبل أن تقوى وتتجذر في وسط الأُمة.

واستمرت هذه المدرسة مدة ثلاث سنوات تستقبل المسلمين الجدد من الرجال والنساء لتربيتهم وتعليمهم بتعاليم الإسلام وتلاوة القرآن والتدبر في آياته إلى جانب الاعداد التربوي والاخلاقي الذي كان رسول اللّهﷺ يفيض عليهم به: «حتى تكامل عددهم أربعين رجلاً خرجوا... وكان بين ما أخفى رسول اللّهﷺ أمره واستتر به، إلى أن أمره اللّه تعالى باظهار دعوته ثلاث سنين من مبعثه»[١].

وانطلاق الدعوة من المرحلة السرية إلى المرحلة العلنية كانت تعني مواجهة قريش بجبروتها واستكبارها؛ ولهذا لم يتمكن النبيﷺ والمسلمون من الافادة كثيرا من البيت الحرام كمدرسة لتعليم القرآن والدعوة إلى اللّه، إلّا في موارد محدودة سجلتها بعض كتب السيرة، كما سوف يأتينا لاحقا[٢].

ومع الأسف الشديد لا تسعفنا كتب السيرة والتاريخ بالشيء الكثير عن أماكن التعليم في مكة إلّا نزر يسير يمكن أن نلتقطه من ثنايا بعض الأحداث وبشكل مقتضب وعابر.

وفيما يلي بعض ما ذكر المؤرخون وكتّاب السيرة حول أماكن التعليم في مكة في حياة النبيﷺ في عهده المكي:

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٢٧٠ الهامش رقم ١، تحقيق الآبياري وآخرون.

(٢) للتوسع: أُنظر الدكتور أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية: ٥٥، طبعة مكتبة الانجلو المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٠م، القاهرة.

١ـ دار خديجة بنت خويلد (رضي اللّه عنها)

تعتبر دار خديجة (رضي اللّه عنها) ـ زوج النبيﷺ ـ أول مدرسة للتربية والتعليم في الإسلام إذا كانت هذه الدار تضمّ بالاضافة إلى رسول اللّهﷺ وخديجة (رضي اللّه عنها) الإمام عليعليه السلام، فكانعليه السلام: «أوّل من أسلم مع رسول اللّهﷺ وأوّل من صلّى»[١].

وكانت خديجة (رضي اللّه عنها) أوّل أهل القبلة ـ من النساء ـ استجابة لرسول اللّهﷺ[٢].

يقول ابن هشام: «وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدّقت بما جاء من اللّه، ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن باللّه وبرسوله، وصدّق بما جاء منه، فخفف اللّه بذلك عن نبيهﷺ، لا يسمع شيئا مما يكرهه من ردٍّ عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلّا فرّج اللّه عنه بها إذا رَجَعَ إليها، تثبّته وتخفّف عليه، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس، رحمها اللّه تعالى»[٣].

وعن اسلام علي بن أبي طالب يقول ابن إسحاق: «ثمّ كان أوّل ذكَرٍ من الناس آمن برسول اللّهﷺ، وصلّى معه وصدّق بما جاءه من اللّه تعالى: علي بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هشام رضوان اللّه وسلامه عليه، وهو يومئذ ابن عشر سنين. وكان مما أنعم اللّه به على علي بن أبي طالبعليه السلام أنه كان في حجر رسول اللّهﷺ قبل الإسلام..»[٤].

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ٣ / ١٣ ـ ١٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٢٥٧.

(٤) المصدر نفسه: ١ / ٢٦٢.

ثمّ انضم إلى هذه المدرسة شخص رابع كان يعيش في كنف رسول اللّهﷺ وبرعايته وهو زيد بن حارثة، مولى رسول اللّهﷺ «وكان أول ذَكر أسلم وصلّى بعد علي بن أبي طالبعليه السلام»[1].

وهكذا انضمّ إلى مدرسة الرسولﷺ في مكة أفراد آخرون ممن دخلوا الإسلام بدعوة رسول اللّهﷺ مباشرة إذ «جعل رسول اللّهﷺ يذكر ما أنعم اللّه به عليه وعلى العباد به من النبوة سرّا إلى مَن يطمئن إليه من أهله»[2].

وفي هذا الدار المباركة كان رسول اللّهﷺ يلتقي بالمسلمين فيتحلقون حوله ليزكيهم ويعلمهم الصلاة ويتلو عليهم ما يلتقاه من وحي السماء، ويفيض عليهم من أخلاقه الكريمة، فكانت هذا الدار أول مدرسة أو حوزة علمية لتعليم الدين الإسلامي، وحتى عرفت تلك الدار «دار الإسلام الأُولى»[3].

والذي يبدو مما سوف يأتينا من البحث ان النبيﷺ بقي مواظبا على استقبال المسلمين في بيته حتى بعد توفر أماكن أُخرى للقاءه والتعلّم منه فكانﷺ: «يجلس بمنزله بمكة والمدينة، ويلتف حوله المسلمون ليعلّمهم ويزكّيهم»[4].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٢٦٤.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٢٥٩.

(٣) هارون ـ عبد السلام، تهذيب سيرة ابن هشام: ٤٨.

(٤) شلبي ـ د. أحمد، تاريخ التربية الإسلامية: ٦٨.

٢ـ دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي

أسلم الأرقم بن أبي الأرقم بعد عشرة أنفس، وفي هذه الدار كان النبيﷺ مستخفيا من قريش بمكة يدعو الناس فيها إلى الإسلام في أول الإسلام حتى خرج عنها، وكانت داره بمكة على الصفا فأسلم فيها جماعة كثيرة[١].

وأصبحت هذا الدار مبدأ لتاريخ من دخل الإسلام من المسلمين من قبل المؤرخين، فأخذوا يأرخون لمن دخل الإسلام قبل أن يدخل رسول اللّهﷺ دار الأرقم أو بعد ما دخل، وكذلك أصبحت هذه الدار عنوانا لمرحلتين من مراحل الإسلام: مرحلة الدعوة السرية، ومرحلة الدعوة العلنية، فبعد أن «تكامل عدد المسلمين أربعين رجلاً مسلما، وكان آخرهم إسلاما عمر بن الخطاب.. خرجوا وكان بين ما أخفى رسول اللّهﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره اللّه تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين، من مبعثه»[٢].

ويحدثنا الأزرقي في تاريخ مكة عن هذه الدار فيقول: «دار الأرقم، أو رِبْع آل الأرقم بن أبي الأرقم، الدار التي عند الصفا، ويقال لها دار الخيزران.. وفيها مسجد يصلى فيه، كان ذلك المسجد بيتا، كان يكون ـ هكذا ـ فيه النبيﷺ يتوارى فيه من المشركين، ويجتمع هو وأصحابه فيه عند الأرقم بن أبي الأرقم، ويقرنهم القرآن، ويعلمهم فيه...»[٣].

ولعل اختيار دار الأرقم وغيرها من منازل الأصحاب في تلك الفترة من ظهور الإسلام هو بسبب ما تتطلبه المرحلة السرية من مراحل الدعوة من التخفي والاتقاء،

---

(١) ابن هشام: ١ / ٢٧٠ الهامش.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٢٧٠ الهامش و ٢٨٠.

(٣) الأزرقي، تاريخ مكة: ٢ / ٢٦٠، وانظر كتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسي: ١ / ٥١٨.

ولهذا كان النبيﷺ وأصحابه الأوائل يأخذون بالاحتياط التام في اجتماعاتهم واتصالاتهم وتواجدهم في دار الأرقم وغيرها، بالاضافة إلى الاختيار الدقيق والسري لمن يدعونهم إلى الإسلام، وبعض النصوص التاريخية تشير إلى ذلك.

ذكر ابن هشام: «أنّ رسول اللّهﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفيا»، ويتحدث عن أحد أصحاب النبيﷺ وأُسلوبه في دعوة الناس إلى الإسلام بقوله: «فجعل يدعو إلى اللّه وإلى الإسلام مَن وثق به من قومه ممّن يغشاه، ويجلس إليه».

وفي رواية أُخرى: «وكان أصحاب رسول اللّهﷺ إذا صلّوا ذهبوا في الشّعاب فاستَخفَوا بصلاتهم من قومهم...»[(١)].

وأخرج ابن سعد في طبقاته في قصّة إسلام عمار بن ياسر وصهيب بن سنان، قال: «قال عمار بن ياسر: لقيتُ صهيب بن سنان على باب دار الأرقم ورسول اللّهﷺ فيها، فقلت له: ما تريد؟ قال لي: ما تريد أنت؟ فقلت: أردت أن أدخل على محمد فأسمع كلامه، قال: وأنا أُريد ذلك، فدخلنا عليه فعرض علينا الإسلام فأسلمنا، ثمّ مكثنا يومنا على ذلك حتى أمسينا، ثمّ خرجنا ونحن مُستَخفون..»[(٢)].

واستمرت دار الأرقم وطيلة المرحلة السرّية من الدعوة الإسلامية المباركة تستقبل المؤمنين الجدد ليتعلموا فيها تعاليم الإسلام، وتلاوة القرآن، والأخلاق الفاضلة، (فلما تكامل عددهم أربعين رجلاً خرجوا)[(٣)].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٢٦٣ ـ ٢٦٧ ـ ٢٨١.

(٢) ابن سعد ـ محمد، الطبقات الكبرى: ٣ / ١٣٢، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٢٧٠ الهامش.

٣ـ المسجد الحرام في مكة

كان اختيار دار الأرقم وغيره من المنازل في تلك المرحلة من عمر الدعوة الإسلامية، لسبب ما تتطلبه المرحلة السرّية من مراحل الدعوة المباركة، فيكون طبيعيا مع انتشار الإسلام وكثرة معتنقيه وقوتهم، أن يتوافر للمسلمين الجو الملائم لكي يمارسوا فيه شعائرهم، فكان المسجد الحرام هو ذلك المكان الملائم لهذا الانتقال، إلّا أنّ خصوم الإسلام من المشركين أصروا على الحيلولة بينهم وبين الإفادة من البيت الحرام كمدرسة لتعليم القرآن والدعوة إلى الدين الجديد[1].

إلّا أن صدَّ رسول اللّهﷺ ومن آمن معه من الاستفادة من المسجد الحرام، لم يمنعهم من ممارسة شعائرهم الدينية والدعوة إلى اللّه، وتلاوة القرآن فيهذا المكان المبارك، وإن كان بشكل متحفظ وحذر.

وقد نقلت لنا كتب السيرة والتاريخ بعض الصور المتنوعة من ممارسة بعض هذه الشعائر؛ برغم ما كان يلاقيه الرسول وأصحابه من صور الاستهزاء والإهانة والاضطهاد من قبل قريش ورجالها.

روى ابن سعد في طبقاته في ترجمة الصحابي عبد اللّه بن مسعود: «أسلم عبد اللّه بن مسعود قبل دخول رسول اللّهﷺ، دار الأرقم... وكان أوّل من أفشى القرآن بمكّة من فيِّ رسول اللّهﷺ»[2].

وفي رواية ابن إسحاق: «كان أوّل مَن جَهَر بالقرآن بعد رسول اللّهﷺ بمكة عبد اللّه بن مسعود. قال: اجتمع يوما أصحاب رسول اللّهﷺ فقالوا: واللّه ما سمعت قريش هذا

---

(١) انظر: البهادلي، الحوزة العلمية: ٢٣ ـ ٢٤، والرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٨.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣ / ٨٠.

القرآن يُجهر به قطّ، فَمَنْ رجُل يُسْمِعهموه؟ فقال عبد اللّه بن مسعود: أنا، قالوا: إنّا نخشاهم عليك، إنّما نريده رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني فإن اللّه سيمنعني، قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضُّحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثمّ قرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ رافعا بها صوته: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ثمّ استقبلهم يقرؤها، قال: فتأمّلوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أمّ عبد؟ قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء اللّه أن يبلغ، ثمّ انصرف إلى أصحابه وقد أثّروا في وجهه»[(١)].

هكذا كانت أجواء الاضطهاد الديني والتعذيب الجسدي الذي عاشه أصحاب رسول اللّهﷺ وهم في بيت اللّه الحرام، وفي الحرم الآمن، ولم يكن هذا الاضطهاد يختص بالمستضعفين من أصحاب رسول اللّهﷺ من أمثال ابن مسعود، وبلال بن رباح الحبشي، وإنما شمل حتى رسول اللّهﷺ برغم من وجود عشيرته وقومه.

روى ابن إسحاق: «إنّ قريشا اشتدّ أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول اللّهﷺ ومَن أسلم معه منهم، فأغروا برسول اللّهﷺ سفاءهم، فكذّبوه وآذوه، ورموه بالشعر والسّحر والكهانة والجنون.. ورسول اللّهﷺ مُظهَرٌ لأمر اللّه لا يستخفي به، مبادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم، واعتزال أوثانهم، وفراقهُ إيّاهم على كفرهم»[(٢)].

إلّا أن رسول اللّهﷺ باستقامته وثباته كان يواجه سفاهة قريش بقوة وحزم وصلابة ولا تأخذه في الحق لومة لائم، وبسعة صدر وحلم كبير في بعض المواقف.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ٣٣٦.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

يروي ابن إسحاق في خبر طويل عمن حدثه قال: «لقد اجتمع أشرافهم ـ أي قريش ـ يوما في الحِجر، فذكروا رسول اللّهﷺ فقالوا: ما رأينا مثلُ ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قطّ.. فبيناهم في ذلك إذ طلع رسول اللّهﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثمّ مرّ بهم طائفا بالبيت، فلما مرّ بهم غمزوه ببعض القول، قال ـ الراوي ـ فعرفت ذلك في وجه رسول اللّهﷺ، ثمّ مضى، فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها.. ثمّ مرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف ثمّ قال: أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذّبح!! قال الراوي: فأخذت القوم كلمتهُ حتى ما منهم رجل إلّا كأنما على رأسه طائر واقع.. ـ فقال له أحدهم ـ انصرف يا أبا قاسم، فواللّه ما كنت جهولا»[1].

وفي موقف آخر ينقل ابن إسحاق عن رجل من أسلم، أن أبا جهل مرّ برسول اللّهﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره، من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلّمه رسول اللّهﷺ[2].

وفي رواية أُخرى لابن إسحاق قال: «قال أبو جهل: يا معشر قريش، إنّ محمدا قد أبى إلّا ما تَرون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أُعاهد اللّه لأجلسنّ له غدا بحَجَر ما أُطيق حَمله، فإذا سجد في صلاته فضختُ به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: واللّه لا نُسلمك لشيء أبدا، فامض لما تريد...»[3].

لقد استخدمت قريش كلّ الوسائل لصدّ رسول اللّهﷺ عن دعوته للناس إلى الإسلام والتوحيد ونبذ الأصنام والآلهة التي تعبد من دون اللّه، فلم يمنع ذلك رسول

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ٣٠٩ بتصرف.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٣١١.

(٣) انظر بقية الرواية في المصدر السابق نفسه: ١ / ٣١٩ وما بعدها.

اللّهﷺ من المضى في دعوته واتخاذه المسجد الحرام كأحد المراكز لتبليغ الدعوة والقيام بالشعائر الإسلامية، من الصلاة وتلاوة القرآن والدعوة إلى اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة.

وعندما وجدت قريش أنّ كلّ وسائلها لم تجد نفعا التجأت إلى وسيلة جديدة أشبه ما تكون بوسيلة الدعاية المضادة، وذلك بمعارضة القرآن الكريم بقصص وأساطير خرافية، والنص الذي يرويه ابن إسحاق يسلط الضوء على هذه الوسيلة الجديدة:

قال ابن إسحاق: «... قام النضرُ بن الحارث بن كلدة.. فقال: يا معشر قريش، إنه واللّه قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاما حَدثا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صُدغيه الشَّيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم ساحر، لا واللّه ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم كاهنا، لا واللّه ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم، وقلتم شاعر، لا واللّه ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلّها: هزجه ورَجزه، وقلتم مجنون، لا واللّه ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقته ولا وسوسته، ولا تخليطهِ، يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه واللّه لقد نزل بكم أمر عظيم»[1].

ثمّ يضيف ابن إسحاق فيقول: «وكان النّضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول اللّهﷺ وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رُستم واسبنديار، فكان إذا جلس رسول اللّهﷺ مجلسا فذكر فيه باللّه، وحذّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأُمم من نقمة اللّه، خلفه في مجلسه إذا قام، ثمّ قال: أنا واللّه يا معشر قريش، أحسن حديثا منه، فهلمّ إليّ، فأنا أُحدثكم أحسن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٣٢٠.

من حديثه، ثمّ يحدثهم عن ملوك فارس ورُستم واسبنديار، ثمّ يقول: بماذا محمد أحسن حديثا مني؟»[1].

وخلاصة الأمر، إنّ رسول اللّهﷺ قد اتخذ من المسجد الحرام ـ وبشكل محدود ـ مكانا لأداء شعائر الإسلام، ولقاء الناس لهدايتهم، وتلاوة القرآن، ولم يمنعه من ذلك ما اتخذته قريش من تدابير لصدّه عن ذلك.

ج ـ تنوع الأجناس والقوميات عند المنتمين لمدرسة الرسولﷺ في مكة

لقد انطلقت دعوى الإسلام من الجزيرة العربية، وبين مجتمع عربي له قيمهُ وأعرافه القبلية، وجاء الوحي الإلهي، «بلسان عربي مبين»، يحمله إليهم نبي عربي من قريش؛ بل من هامة العرب وسنامها الأعلى.

إلّا أن هذا كلّه لم يحدد الإسلام ضمن دائرة خاصة، وأُمة معينة، وإنما كان الإسلام أُممي في دعوته، وكان القرآن هدى للناس جميعا، والنبيﷺ مبعوث إلى الناس كافة، ورحمة للعالمين.

ومن هذا المنطلق نجد أن المسلمين الأوائل ممن لبى دعوة الرسولﷺ ينتمون إلى أجناس وقوميات مختلفة إلى جانب من ينتمي إلى القومية العربية والذين يشكلون الأكثرية بطبيعة الحال.

وعندما نستعرض الطبقة الأُولى من المسلمين الذي دخلوا الإسلام فيمرحلته المكية، نجد فيهم العربي الحر، والموالي، ونجد فيهم القرشي إلى جانب الحبشي، والرومي.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٣٢١.

وقد يكون لهؤلاء الموالي والذين ينتمون إلى القوميات الأُخرى غير العربية ميزة إضافية على الكثير من المسلمين ممن ينتمون إلى القومية العربية، وهي ميزة الانصهار الكامل في الإسلام وتجسيد مفاهيمه وقيمه على مستوى الواقع، وتحمل الأذى والاضطهاد من أجل ذلك، فمن جانب كان هؤلاء يرون في الإسلام المجسد لإنسانيتهم التي يتطلعون إليها، ويلبي طموحاتهم وآمالهم المشروعة في العيش الكريم، ولهذا اعتقنوا الإسلام وذابوا فيه وجسدوا التوحيد في أروع صوره.

ومن جانب آخر لم يكن لهؤلاء فئة يحمونهم ويمنعونهم من أذى قريش واضطهادهم، ولهذا نجدهم قد تعرضوا لأشد أنواع الأذى الجسدي، إلّا أنهم كانوا كالجبال الراسية وثبتوا على عقيدتهم وتحملوا ما تحملوا من أجل ذلك.

قال ابن إسحاق: «ثمّ إنهم ـ أي قريش ـ عَدوا على مَن أسلم، واتّبع رسول اللّهﷺ من أصحابه فوثبت كلّ قبيلة على مَن فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يُفتن من شدّة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يَصلب لهم، ويعصمه اللّه منهم»[1].

ثمّ يتحدث ابن إسحاق عن نماذج ممن عذبتهم قريش، منهم بلال بن رباح الحبشي الذي يقول عنه: «وكان بلال... صادق الإسلام، طاهر القلب، وكان أُمية بن خَلف.. يخرجه إذا حميت الظّهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكّة، ثمّ يأمر

---

(١) السيرة النبوية: ١ / ٣٣٩.

بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثمّ يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمّد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد»[1].

والذي يبدو من خلال النصوص التاريخية إن هذا الاضطهاد والتعذيب لم يقتصر على الرجال فقط وإنما شمل النساء المسلمات أيضا من أمثال أُم عبيس، وزِنيّرة، والنهدية وابنتها، «وجارية لبني مؤمّل.. وكانت مسلمة، وعمر بن الخطاب، يعذّبها لتترك الإسلام، وهو يومئذ مشرك وهو يضربها، حتى إذا ملّ قال: إني أعتذر إليك: إني لم أتركك إلّا ملالة، فتقول: كذلك يفعَل اللّه بك»[2].

أما قصة تعذيب عمّار بن ياسر وأبيه وأمه، فهي صفحة مأساوية أُخرى من صور التعذيب التي آذت النبيﷺ قبل أن تأذيهم.

يروي ابن إسحاق: «وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأُمه ـ وكانوا أهل بيت اسلام ـ إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء[3] مكة، فيمرّ بهم رسول اللّهﷺ فيقول: «صبرا آل ياسر، موعدكم الجنّة» فأ مّا أُمّه فقتلوها وهي تأبى إلّا الإسلام»[4].

ولم تترك قريش وسيلة من الوسائل لمحاصرة الإسلام والمسلمين في مكة إلّا واتخذتها، وتتنوع هذه الوسائل بحسب مكانة الشخص ومنزلته ومهنته وشرفه الاجتماعي، والنص الذي يذكره ابن إسحاق يسلط الضوء على بعض هذه الوسائل والطرق الخبيثة، يقول: «وكان أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم ـ أي بالمسلمين ـ في

---

(١) السيرة النبوية: ١ / ٣٤٠.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٣٤٠ـ٣٤١.

(٣) الرمضاء: الرمل الحارة من شدّة حرارة الشمس.

(٤) المصدر نفسه: ١ / ٣٤٢.

رجال من قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شَرف ومنَعة، أنّبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنُسفّهنّ حلمك، ولنفيّلنّ رأيك[1]، ولنضعنّ شرفك، وإن كان تاجرا قال: واللّه لنكسدنّ تجارتك، ولنهلكنّ مالك، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به»[2].

هكذا كانت أجواء مكة، وهذا ما لاقاه رسول اللّهﷺ من قومه وهو يقوم بدعوته، وعلى هذه الشاكلة واجه المسلمون ألوان العذاب، وهم في طور الاعداد والتربية والتعليم ولهذا تعددت أماكن التعليم، حتى إذا ضاقت بهم دار رسول اللّهﷺ ودار الأرقم والمسجد الحرام ـ خرجوا إلى شعاب مكة ووديانها طلبا للسلامة من أذى قريش وتفرغا للعبادة إلّا أنهم كانوا يلاحقون حتى في هذه الأماكن النائية.

روى ابن إسحاق: «أنَّ رسولَ اللّهﷺ كان إذا حضرت الصلاةُ خرجَ إلى شِعاب مكة، وخرجَ مَعَهُ عليّ بن أبي طالب.. فيصلّيان الصلوات فيها، فإذا أَمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاءَ اللّه ان يمكثا»[3].

ويروي أيضا: «وكان أصحاب رسول اللّهﷺ إذا صلّوا ذهبوا في الشّعاب فاستَخفوا بصلاتهم من قومهم»[4].

---

(١) لنفيلن رأيك: أي لنقبحنه ونخطئنه.

(٢) السيرة النبوية: ١ / ٣٤٢.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٢٦٣.

(٤) المصدر نفسه: ١ / ٢٨١ ـ ٢٨٢.

المبحث الثالث

العمل التبليغي والدعوي للمنتمين لمدرسة الرسولﷺ

أ ـ الحركة التبليغية والدعوية في مكة

تعرّض أبناء الدعوة الإسلامية والمنتمين إلى مدرسة الرسولﷺ في مكة إلى ضغوط اجتماعية واقتصادية بالاضافة إلى الاضطهاد والتعذيب الجسدي للمستضعفين منهم، مما ضيق كثيرا من فرص التبليغ والدعوة لمبادئ وقيم الدين الإسلامي الحنيف، ودعوة الرسول الأكرمﷺ.

ولكن ومع كلّ هذه الظروف القاسية لم يترك هؤلاء أيّ فرصة متاحة لهم إلّا واستفادوا منها ووظفوها لصالح الإسلام وتعاليمه وقيمه، حتى لو استدعى الأمر إلى التضحية بحياتهم وعوائلهم أو مصادر معيشتهم.

وسجلت لنا بعض مصادر السيرة النبوية صور مقتضبة لبعض المظاهر التبليغية والدعوية مما قد لا تحتسب في الظروف العادية التي عاشها المسلمون بعد ذلك في المدينة وغيرها من البلاد الإسلامية من مظاهر ونشاطات التبليغ والدعوة من قبيل إقامة الصلاة في بيت اللّه الحرام أو تلاوة القرآن والجهر به، أو إعلان كلمة التوحيد.. وغيرها من الشعائر التي كانت تستفز المشركين ويواجهون أصحابها بردود أفعال شديدة، تصل إلى القتل أو التعذيب الجسدي أو الإهانة، كما مرّ بنا بعض صورها فيما سبق.

ولهذا يمكن أن نصنف في هذه المرحلة بالذات كلّ نشاط قولي أو فعلي يرتبط بتعاليم الإسلام، وشعائره ويصدر من إنسان مسلم، في سُلم العمل التبليغي والدعوة إلى اللّه سبحانه.

بل حتى بعض الصفات الشخصية التي تتجسد في الشخصية الإسلامية من صدق وأمانة ووفاء.. تعتبر في تلك المرحلة لون من ألوان الدعوة إلى اللّه.

وفيما يلي بعض النماذج من حركة التبليغ والدعوة في مكة:

روى المؤرخون عن أبي ذر الغفاري في قصة اسلامه قال: «أقمت مع رسول اللّهﷺ بمكة، فعلّمني الإسلام وقرأت من القرآن شيئا، فقلت: يا رسول اللّه إني أُريد أن أظهر ديني، فقال رسول اللّهﷺ: «إني أخاف عليك أن تُقتل»، قلت: لابدّ منه وإن قتلت، قال: فسكت عنّي، فجئت وقريش حلقا يتحدثون في المسجد، فقلت: أشهد أن لا إله إلّا اللّه، وأنّ محمدا رسول اللّه، فانتفضت الخلق فقاموا فضربوني حتى تركوني كأني نصب أحمر، وكانوا يرون أنهم قد قتلوني، فأفقت فجئت إلى رسول اللّهﷺ فرأى ما بي من الحال فقال لي: «ألم أنهك؟» فقلت: يا رسول اللّه، كانت حاجة في نفسي فقضيتها، فأقمت مع رسول اللّهﷺ فقال: «الحق بقومك فإذا بلَغك ظهوري فائتني»[1].

---

(١) الحافظ أبي نعيم ـ أحمد بن عبد اللّه ت ٤٣٠ هـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ١ / ٢١٢ حديث رقم (٥١٦)، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م)، وروى قصة إسلامه البخاري في صحيحه: المجلد الثاني، الجزء الرابع: ٢٩١ ـ ٢٩٢ حديث رقم (٣٨٦١)، طبعة دار الفكر ـ بيروت، (١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م)، ومسلم في صحيحه: المجلد الثامن، الجزء السادس عشر: ٢٢ ـ ٢٨ بشرح النووي، طبعة دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٩ م).

وينقل ابن سعد في طبقاته عن أنس قال: «خرج عمر ـ ابن الخطاب ـ متقلدا السّيف فلقيه رجل من بني زهرة، قال: أين تَعْمِدُ يا عمر؟ فقال: أُريد أن أقتل محمدا...، قال: أفلا أدُلّك على العجب يا عمر؟! إنَّ ختنك وأُختك قد صَبوا وتركا دينك الذي أنت عليه، قال فمشى عمر ذامرا حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خَبّاب، قال: فلما سمع خباب حِسَّ عمر توارى في البيت فدخل عليهما فقال: ما هذه الهُينَمَةُ التي سمعتُها عندكم؟ قال: وكانوا يقرؤون (طه) فقالا: ما عدا حديثا تحدثناه بيننا، قال: فلعلّكما قد صَبوتما؟! فقالت له أُخته: أرأيت يا عمر إن كان الحق في غير دينك؟ قال: فوثب عمر على ختنه فوطأه وطأ شديدا فجاءت أُخته فدفعته عن زوجها فنفحها بيده نفحة فدمّى وجهها، فقالت ـ وهي غضبى ـ: يا عمر إن كان الحقّ في غير دينك، أشْهَدْ أن لا إله إلّا اللّه وأشهد أنّ محمدا رسول اللّه.

فلما يئس عمر قال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرأه.. فقالت أُخته: إنك رجس، ولا يمسّه إلّا المطهرون، فقُم فاغتسل أو توضأ، فقام عمر، فتوضأ، ثمّ أخذ الكتاب فقرأ (طه) حتى انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1] فقال عمر: دلوني على محمد..»[2].

من هاتين الروايتين نستفيد ان المسلمين الأوائل كانوا يجاهرون بكلمة التوحيد وبالشهادتين كعمل تبليغي يوصلون من خلاله كلمة اللّه إلى مسامع قريش لعلّهم يهتدون متعرضين بذلك لأخطار جسمية قد تكلفهم حياتهم، ونلاحظ أيضا ردود الأفعال القاسية من قريش بمجرد سماعهم كلمة التوحيد والشهادتين.

---

(١) طه: ١٤.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣ / ١٤٢ ـ ١٤٣.

كذلك نلاحظ أجواء السرية والكتمان التي أحاطت بدعوة الإسلام في مرحلته الأُولى، وحرص المسلمين الأوائل على تدارس القرآن واستظهار آياته ومعانيه بصورة حلقات تضمّ النفرين والثلاثة، أو العائلة الواحدة بالاستعانة ببعض المعلمين للقرآن ـ كما في قصة فاطمة بنت الخطاب وزوجها ـ

وفوق كل هذا نلاحظ جانب الاستقامة والثبات على الحق، والدفاع عن المبدأ رغم كل التهديدات والأخطار المحدقة بهم.

وقد مرّ بنا سابقا ما قام به عبد اللّه بن مسعود من التجاهر بقراءة القرآن وما تعرّض له من أذى ويمكن أن نظم شواهد أُخرى لهاتين الروايتين، والتي منها قصّة اسلام مصعب بن عمير الذي كان مدللاً من قبل والديه، إلّا أ نّه بلغه أنّ رسول اللّه يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم، فدخل عليه فأسلم وصدق به، وخرج فكتم إسلامه خوفا من أُمه وقومه، فكان يختلف إلى رسول اللّه سرّا، فبصر به عثمان بن طلحة يصلي فأخبر أُمه وقومه، فأخذوه فحبسوه، فلم يزل محبوسا حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأُولى ثمّ رجع مع المسلمين حين رجعوا[1].

وخلاصة الأمر أن الجانب التبليغي والدَعوي عند المسلمين الأوائل اقتصر على اظهار بعض شعائر وفرائض الإسلام من قبل بعض منهم، وفي بعض الأحيان كانوا يتوجهون بدعوتهم إلى بعض الأفراد، داعينهم إلى الإسلام الحنيف، فيستجيب بعضهم ويمتنع آخرون. وكان الطابع العام لتحرك هؤلاء الثلة المؤمنة هو التقية

---

(١) طبقات ابن سعد: المجلد الثاني، الجزء الثالث: ٦٢ ـ ٦٣، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م.

والحذر الشديد والخوف من أن ينكشف أمرهم للمشركين فيتعرضوا لألوان من الاضطهاد والتعذيب.

ب ـ الحركة التبليغية والدعوية خارج مكة

لقد سبقت هجرة الرسولﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة بعد بيعة العقبة الثانية، هجرة إلى الطائف قام بها رسول اللّهﷺ بمفرده[١] أو بمعية علي بن أبي طالب، أو زيد بن حارثة[٢]، وهجرة جماعية إلى أرض الحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالب، كذلك هاجر مصعب بن عمير مع نفر قليل من المسلمين إلى المدينة بعد بيعة العقبة الأُولى[٣].

وكان الهدف الأساسي لهذا التحرك خارج حدود مكة هو ايصال كلمة اللّه والدعوة والتبليغ لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف.

لقد رأى رسول اللّهﷺ أنّ الدعوة الإسلامية تتعرّض لضغوط قويّة تمنع من انتشارها، ودخول الآخرين فيها، ومن هنا فقد كان لابدّ من تحرّك جديد يعطي للدعوة دفعة جديدة، وإذا كان بقاؤهﷺ في مكة معناه جمود دعوته وتحجيمها وشلّ حركتها فمن الطبيعي أن يبحث عن مكان آخر، تتوفّر فيه حريّة الحركة والدّعوة إلى اللّه، بعيدا عن أذى قريش ومكائدها، ولأسباب موضوعية كثيرة[٤] عزم النبيﷺ على أن يتوجّه بدعوته إلى الطائف.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٦٠.

(٢) الصحيح من سيرة النبي: ٢ / ١٦٤.

(٣) ابن سعد، الطبقات: المجلد الثاني، الجزء الثالث: ٦٣.

(٤) للتوسع انظر: دروس في السيرة النبوية للمؤلف: المجلد الأول؛ العهد المكي.

إلّا أنَّ قبيلة «ثقيف» في الطائف لم تستجب لدعوة الرسولﷺ ولم تحسن لقاءه، فقد أقامﷺ بينهم عشرة أيام لا يدع أحدا من أشرافهم إلّا كلّمه وعرض عليه الإسلام، ولكنّ أحدا منهم لم يجب دعوته، بل ردّوا عليه في استهزاء وسخرية وأخرجوه من بلادهم، ولم يحسن إليهﷺ أحد منهم ويصدقه سوى عبد نصراني يدعى «عدّاس»[1].

إلّا أنّ رسول اللّهﷺ بعد هذه الرحلة المضنية عاد إلى مكة، وهو أشد عزيمة وأقوى مضاءً، لا تهوله المواقف الشداد، ولا تحول بينه وبين رسالته العوائق.

* هجرة المسلمين إلى أرض الحبشة:

لقد سبقت هجرة الرسول إلى الطائف هجرة جماعية لمجموعة من المسلمين إلى بلاد الحبشة، وكان الغرض منها العثور على موضع آمن يحميهم من أذى قريش، وفي نفس الوقت تمثل هذه الهجرة حركة سياسية لاثبات الوجود أمام جبروت قريش وطغيانها.

ولهذا اختار رسول اللّهﷺ للمسلمين الهجرة إلى هذه الأرض حيث قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها ملكا لا يُظلمُ عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل اللّه لكم فرجا ممّا أنتم فيه»[2].

وذكر ابن هشام أن عدد هؤلاء المهاجرين بلغ ثلاثة وثمانين رجلاً، وكان على رأس هؤلاء المهاجرين جعفر بن أبي طالب، الذي لم يكن غيره من بني هاشم معه في هذه الهجرة، وكان خروجهم ارسالاً وعلى دفعات متعددة حفاظا على عنصر السّرية[3].

---

(١) الطبري: ٢ / ٣٤٤ ـ ٣٤٦.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٣٤٢.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٣٤٥، وانظر الصحيح في سيرة النبيﷺ: ٢ / ٥١ ـ ٥٢.

وكان هذه الهجرة المباركة إلى أرض الحبشة آثار إيجابية كبيرة؛ فبالاضافة إلى عنصر الأمان والاطمئنان النفسي الذي حصل عليه المسلمون، كان هنالك عنصر مهم وهو ابراز عالمية الإسلام في تعاليمه وقيمه ومبادئه، وإن هذا الدين والنبي الذي أرسل به لا يختص بعرب مكّة والحجاز، وإنّما هو للناس كافّة.

وكان لقائد أُولئك المهاجرين جعفر بن أبي طالب عليه السلام الدور الكبير في التعريف بالإسلام ومبادئه وقيمه، وبالنبي صلى الله عليه وآله وفضائله وسجاياه، وبالقرآن وتعاليمه.

بالاضافة إلى رأي الإسلام بالديانات السابقة وبالأنبياء السابقين عليهم السلام.

وقد أوجز ذلك بأقصر عبارة وأبلغها جعفر بن أبي طالب عليه السلام خلال الحوار الذي جرى مع النجاشي وبحضور البطارقة ورجال الدين من المسيحيين، وذلك عندما أرسلت قريش من يطلب من النجاشي استرداد هؤلاء المسلمين إلى مكة[1].

ومن المؤكد إن الذي قاله جعفر بن أبي طالب عليه السلام في مجلس النجاشي وأقنعه بعدالة القضية التي هاجروا من أجلها، قد قالها هو والثلة المؤمنة المهاجرة معه لأهل تلك البلاد، وإن كانت كتب السيرة والتاريخ لا تحدثنا عن مدى تأثير هؤلاء المهاجرين في ذلك الوسط الاجتماعي الذي عاشوا فيه سنوات عديدة.

وخلاصة الأمر، إن هذه الهجرة قد برز فيها جانب التبليغ والدعوة إلى الإسلام، وتمّ فيها بيان لمبادئ الإسلام وقيمه، وذلك من خلال أحاديث المهاجرين وسلوكهم العملي وابرازهم لشعائر الإسلام الدينية.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ٣٦٠، والبداية والنهاية لابن كثير: ٢ / ٢١.

*** مصعب بن عمير ودوره التبليغي في المدينة:**

لقد ظهر اهتمام الرسولﷺ بالتعليم في دار هجرته (المدينة) في عهد مبكر جدا، وقبل أن يهاجر إليها، حيث أرسل إلى المدينة أحد خريجي مدرسته في مكة وهو الصحابي الجليل الشاب مصعب بن عمير؛ الذي فتح اللّه على يديه فتحا عظيما في هداية الناس وتعليمهم معالم الإسلام والقرآن وبعض فرائض الدين الإسلامي الحنيف.

لقد كان إرسال مصعب بن عمير إلى المدينة بعد بيعة العقبة الأُولى التي تمت في ذي الحجة من السنة الثانية عشر من البعثة، إذ بايعه اثنا عشر رجلاً من الأوس والخزرج، فلمّا أرادوا الانصراف إلى المدينة: «بعث رسول اللّهﷺ معهم مصعب بن عمير بن هشام، وأمره أن يقرأهم القرآن، ويعلّمهم الإسلام، ويفقّههم في الدّين، فكان يسمّى المقرئ بالمدينة، وكان منزله على أسعد بن زرارة»[1].

وفي رواية ابن سعد في الطبقات: «.. أرسلت الأنصارُ رجلاً إلى رسول اللّهﷺ وكتب إليه كتابا: ابعث إلينا رجلاً يُفَقّهُنا في الدين، ويُقرئُنا القرآن، فبعث إليهم رسول اللّهﷺ مصعب بن عمير،.. فكان يأتي الأنصارَ في دورهم وقبائلهم فيدعوهم للإسلام ويقرأ عليهم القرآن فَيُسلمُ الرجلُ والرجلان حتّى ظهر الإسلام وفشا في دور الأنصار كلّها والعَوالي.. وهو أوّل من جَمَّعَ في الإسلام جمعة»[2].

وإلى جانب المهمة التي قام بها مصعب بن عمير قبل مقدم الرسولﷺ إلى المدينة، نجد أن رجالاً آخرين من الصحابة قاموا بواجب تعليم أهل المدينة القرآن،

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٧٦.

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٣ / ٦٣.

مثل: عبد اللّه بن أُم مكتوم الذي جاء إلى المدينة بعد مصعب، «فجعلا يقرئان الناس القرآن»[1].

لقد كانت مهمة مصعب بن عمير في المدينة مهمة تبليغية تعليمية، فكان أول معلّم ومبلغ في الإسلام، وقد نجح في مهمته نجاحا باهرا إذ بدخوله إلى المدينة انتشر الإسلام بين أهلها انتشارا واسعا، وحدث تغيّر عظيم في هذه البلدة المباركة، تغيّر في العقيدة والأخلاق والسلوك، والعلاقات بين الناس، وفق مبادئ الإسلام التي بايعوا رسول اللّهﷺ عليها.

وبعد سنة من العمل التبليغي الناجح عاد مصعب بن عمير إلى مكة ليعرض على رسول اللّهﷺ النتائج الباهرة التي حقّقها الإسلام في ربوع يثرب، وخرج معه من أهل يثرب ممّن آمن وأسلم مجموعة كبيرة يزيد عددهم على السبعين، بينهم بعض النساء المؤمنات[2]، ليتمّ اللقاء برسول اللّهﷺ عند العقبة أيام التشريق، وتمت عندها بيعة العقبة الثانية التي مهدت الطريق لهجرة رسول اللّهﷺ إلى المدينة مع أصحابه، لتبدأ صفحة جديدة من صفحات العلم والإيمان، والجهاد من أجل الإسلام وإعلاء كلمة اللّه سبحانه.

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ٣ / ٦٣.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ٨٤ وما بعدها، وطبقات ابن سعد: ٣ / ٦٣ ـ ٦٤.

المبحث الرابع

ملامح عامة عن المنهج النبوي في التعليم في العهد المكي

لقد شهدت ربوع مكة وشعابها انبثاق حركة إيمانية يصاحبها حركة علمية تربوية؛ منهجها في التربية والتعليم هو القرآن الكريم، ومعلمها الأول رسول اللّه محمد بن عبد اللّهﷺ.

وعندما نريد أن نستجلي معالم المنهج وطرق التعليم في العهد المكي من حياة الدعوة الإسلامية لابدّ أن نقرّ بأن هذه الحركة كانت في بدايات مسيرتها، وكانت تحيطها أجواء من السرّية والكتمان، وكانت قريش تترصد اتباعها وتكيل لهم كل ألوان الاضطهاد.. ولهذا لم ترسم لنا النصوص التاريخية صورة مفصلة عن المناهج وطرق التدريس.. بشكل نستوفي به البحث عن هذه الفترة الزمنية، وليس بين أيدينا إلّا نزر يسير من الروايات التي قد لا تفي برسم صورة واضحة المعالم، إلّا أنها قد تعطينا بعض الملامح العامة حول الموضوع.

أ ـ الأُسلوب التعليم في العصر المكي

أولاً: منهج وأُسلوب النبيﷺ في تعليم الصحابة

لقد إتَّبعَ الرَّسول الأكرمﷺ في تعليم أصحابه أساليب متعددة، سماها علماء التربية في عصر الحاضر «طرق التدريس» وأهم هذه الطرق:

الأُولى: الطريقة الإلقائية.

الثانية: الطريقة الاستنباطية.

الثالثة: الطريقة الحوارية.

وكانﷺ يعلم أصحابه بالطريقة التي يراها مناسبة لشخصية المخاطب أو الموضوع الذي يتعلمه، أو بالطريقة التي كان يرى أ نّها تبعث فيهم النشاط وتحفزهم أكثر، وقد علَّمﷺ، بالطرق الثلاثة حسبما كان يقتضيه الموضوع.

فقد عَلَّمﷺ بالطريقة الالقائية في الأُمور الغيبية، وعند تعليمهم أُمورا لم يسبق لهم معرفة بها، وعند الوعظ والإرشاد.

والطريقة الإلقائية هي أنجح الطرق، وبخاصة وأنهﷺ كان يعلم كبارا، عندهم من الوعي وقوة الادراك ما يمكنهم من الاستيعاب ولذلك فإن هذه الطريقة هي المستعملة في المرحلة الجامعية في عصرنا الحاضر.

وأما الطريقة الاستنباطية، فكان يستعملها الرسولﷺ إذا كان هنالك قرائن تدل على المسؤول عنه، فإنه حينئذ يسأل والقرينة قائمة تدل على الاجابة، ويستنبط ما عندهم من العلم في المسألة، فإذا عجزوا عن الإجابة الصحيحة ألقاها عليهم.

ومن ذلك ما روي عنهﷺ أنه قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، حدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي.. ثمّ قالوا: حدثنا ما هي يا رسول اللّه؟ قال: هي النخلة»[1].

أما الطريقة الحوارية فقد كانت معروفة في عهد الرسول، واستعملها في تعليم المسلمين، والمقصود بالطريقة الحوارية تبادل الأسئلة والأجوبة بين الطالب والمعلم، أو بين الدارس والمدرس.

والطريقة الحوارية جيدة في التذكير بالمعلومات، والإيحاء بالاجابة، وفي نفس الوقت تضفي على الجو الدراسي روحا من الحيوية والنشاط، وتشعر الطالب بقيمة

---

(١) صحيح البخاري: ١ / ١٤٧.

الجهد الايجابي الذي يبذله أثناء الدرس. وكثيرا ما كان رسول اللّه يدير حلقة العلم بهذا الأُسلوب.

روي أن رسول اللّهﷺ قال ـ لأصحابه ـ: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: اللّه ورسوله أعلم، قالﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: افرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قالﷺ: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[1].

وهكذا يتنوع أُسلوب المعلم مع طلابه، فتارة يستعمل الطريقة الإلقائية من أول الدرس إلى آخره، وتارة يلجأ إلى الطريقة الاستنباطية ليستخرج ما عندهم من العلم، وحينا يبدأ الدرس بالطريقة الإلقائية ثمّ يعطي الطلاب الحق في المناقشة فينتقل منها إلى الطريقة الحوارية أو الاستنباطية[2].

وقد تتضح لنا معالم هذه الطرق بشكل أوضح خلال الحديث عن الحركة العلمية في المدينة زمن الرسولﷺ، كما يمكن أن نضيف، طريقة رابعة إلى هذه الطرق والأساليب، وهي الطريقة العمليّة، أو التَّطبيق العملي من قبل الرسولﷺ لما يريد أن يتعلمه أصحابه من أعمال لها كيفية خاصة من الأداء، من قبيل أداء مناسك الحج حيث روي عنهﷺ قوله: «خذوا عني مناسككم»[3]، أو أداء الصلاة، كقوله: «صلوا كما رأيتموني أُصلّي» أو قصّر الصلاة بعد قطع مسافة معينة، أو الافطار في السفر في صيام

---

(١) صحيح مسلم: ٨ / ١١٤ الحديث رقم ٢٥٨٩ طبعة دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٩ م.

(٢) الوكيل ـ محمد السيّد، الحركة العلمية في عصر الرسولﷺ: ٢٢ ـ ٢٨ بتلخيص وتصرف، طبعة دار المجتمع للنشر والتوزيع، ط. الثانية، (١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م).

(٣) صحيح مسلم: ٥ / ٣٧ الحديث ١٢٩٧، وانظر تعليق النوّوي على الحديث.

شهر رمضان[1]، وغيرها من أمثلة الأحكام التي تحتاج إلى الجانبين النظري والعملي معا، فكان رسول اللّه يقوم بذلك، مستعملاً في بعض الأحيان وسائل الايضاح اللازمة، والأمثلة المناسبة التي تبرز لهم المعقول في صورة المحسوس، ليسهل ادراكه، والأمثلة على ذلك كثيرة كما سوف يأتينا إن شاء اللّه.

ثانيا: التدرج في التعليم

لقد اتخذ الرسول الأكرمﷺ أُسلوبا علميا فذّا في تعليم المسلمين الأوائل من أصحابه، وهو أُسلوب التدرج والمرحلية في التعليم، فكان المسلمون يتلقون العلم من النبيﷺ بشكل متدرج فلا ينتقلون من شيء تلقوه إلى آخر إلّا بعد اتقان وحفظ ما تعلموه أولاً.

روى ابن ماجة عن جندب بن عبد اللّه قال: «كُنّا مع النبيﷺ ونحن فتيان حَزاورة[2]، فتعلّمنا الإيمان قبل أن نتعلّم القرآن، ثمّ تعلّمنا القرآن؛ فازددنا به إيمانا»[3].

وأخرج أحمد في مسنده عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: «حدّثنا من كان يُقرئنا من أصحاب النبيﷺ إنهم كانوا يقترئون من رسول اللّهﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأُخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل»[4].

---

(١) صحيح البخاري: ١ / ١٧٦ الحديث رقم ٦٣١ و ٢ / ٤٥ الحديث رقم ١٠٨٩، و ٢ / ٢٩٢ حديث رقم ١٩٤٤، طبعة دار الفكر ـ بيروت، ١٤١٩ هـ.

(٢) حزاورة: جمع حَزَوَّرٍ وهو الذي قارب البلوغ، والتاء لتأنيث الجمع. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: ١ / ٣٨٠.

(٣) ابن ماجة: ١١.

(٤) مسند أحمد: ٥ / ٤١٠.

وأخرج ابن عساكر عن ابن مسعود قال: «كنّا إذا تعلّمنا من النبيﷺ عشر آيات من القرآن لم نتعلّم العشر التي بعدها حتى نعلم ما فيه من العلم»[1].

ثالثا: الأولوية في أخذ العلم

وهي من أبرز معالم أساليب النبيﷺ في تعليم أصحابه، إذ كان يتدرج في تعليم أصحابه، ويعلمهم الأولى فالأولى فيما يجب أن يتعلموه، فقد روى الأشجعي عن أبيه قال: «كانَ رسولُ اللّهﷺ إذا أسلَمَ الرّجلُ كان أَوَّل ما يُعلمنا الصلاةُ أول ما قال: عَلِّمهُ الصَّلاة»[2].

ب ـ مناهج التعليم في العصر المكي

اعتمدت مناهج التعليم في العهد المكي على ركنين أساسيين في التعليم والتربية وهما: القرآن الكريم، والسنة النبوية.

وكان المعلم الأول لهذين الركنين هو الرسول الأكرمﷺ.

أما القرآن الكريم: فهو الركن الأساسي في العلم والتشريع والعقيدة ونظم الحياة والتربية.

وكانت الآيات والسور القرآن تنزل على النبيﷺ بواسطة الوحي، فيتلوها على المسلمين فيحفظونها ويتعلمون ما فيها من العلم والعمل والتربية والعقيدة.

وعندما نعود إلى القسم المكي من سور القرآن الكريم نجدها قد انفردت بخصائص امتازت بها عن السور المدنية، وشكلت هذه الخصائص نموذجا فريدا في

---

(١) كنز العمال: ١ / ٢٣٢.

(٢) الهيثمي ـ نور الدين علي، مجمع الزوائد: ٢ / ٢١ رقم الحديث ١٦١٨ عن الطبراني في المعجم الكبير، رقم ٨١٨٦.

أُسلوب التربية والتعليم، من خلال مراحل الدعوة الإسلامية، وخطواتها الحكيمة المتدرجة مع الأحداث والظروف، والوقوف على أساليبها المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين.

ومما امتاز به القرآن الكريم في قسمه المكي من سورهِ المباركة:

أولاً: قصر الآيات والسور وايجازها وحرارة تعبيرها وتجانسها الصوتي.

ثانيا: الدعوة إلى أُصول الإيمان باللّه واليوم الآخر، وتصوير الجنة والنار.

ثالثا: الدعوة إلى التمسك بالأخلاق الكريمة والاستقامة على الخير.

رابعا: مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم.

خامسا: كثرة القسم جريا على أساليب العرب[1].

وتشكل هذه الخصائص والامتيازات الغالبة على السور المكية الخطوط العامة للمنهج التعليمي القرآني في التربية والتعليم لاشتمالها على أُصول الإيمان والعقيدة من التوحيد إلى النبوة إلى الجنة والنار وما يتعلق باليوم الآخر، بالاضافة إلى الجانب التربوي والأخلاقي، مع تعليم أُسلوب الدعوة إلى اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى.

هذه هي أهم الخطوط العامة لمنهج القرآن الكريم في التربية والتعليم.

أما السنة النبوية: فهي الركن الأساسي الثاني في التربية والتعليم والتزكية.

وكان النبيﷺ ومن خلال (قوله وفعله وتقريره) يقوم بدور المعلم والموجه والمربي، فهوﷺ تارة يحدثهم ويعلمهم أُصول العقيدة والتوحيد، فيدخل الكعبة يوم

---

(١) صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن: ١٨٣، طبعة دار العلم للملايين ـ بيروت، ط. الخامسة، ١٩٦٨م، وعلوم القرآن للسيد محمد باقر الحكيم: ٧٧ وما بعدها، طبعة مجمع الفكر الإسلامي ـ قم، ط. الثالثة، (١٤١٧هـ).

فتح مكة فيأمر أن تكسر الأصنام التي بها ويقول لعلي: «ألق صنمهم الأكبر.. ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾»[1]، وأُخرى يشرح لهم مفهوم العبادة وفوائدها ومعطياتها، فيبن لهم ومن خلال المثال الحسي فوائد الصلاة فيقولﷺ: «لو كان على باب دار أحدكم نهر فاغتسل في كلّ يوم منه خمس مرّات، أكان يبقى في جسده من الدرن شيء؟ قلنا: لا، قال: فإنّ مثل الصلاة كمثل النهر الجاري، كلّما صلّى صلاة كفّرت ما بينهما من الذنوب»[2]، وثالثة يجسد لهم مكارم الأخلاق الفاضلة ويفيضُ عليهم من أخلاقه العالية، ومن الأدب النبوي الإلهي حيث يقولﷺ: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[3].

وكان النبيﷺ يبين لأصحابه كل هذه الجوانب من العلوم بمنهجية يراعي فيها حال المسلمين وحداثة إسلامهم ومستوى الفهم والوعي عند كل واحد منهم.

---

(١) الديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ٨٦ ـ ٨٧، والقندوزي الحنفي؛ ينابيع المودة: ١٦٥، وانظر: دروس في السيرة النبوية للمؤلف: ٣ / ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٢) الحر العاملي ـ محمد بن الحسن، تفصيل وسائل الشيعة: ٤ / ١٢ رقم الحديث ٤٣٨٧، طبعة مؤسسة آل البيت ـ قم، الطبعة الأُولى، (١٤٠٩ هـ).

(٣) الحويزي ـ عبد علي بن جمعه، تفسير نور الثقلين: ٥ / ٣٩٢، طبعة أُفست العلمية ـ قم، بلا ـ ت.

المبحث الخامس

ملامح الحركة العلمية في مكة بعد هجرة رسول اللّهﷺ منها

لم يبق في مكة من المسلمين بعد هجرة رسول اللّهﷺ إلّا مجموعة قليلة من المستضعفين الذين لم تمكنهم ظروفهم القاهرة من الهجرة والالتحاق برسول اللّهﷺ والمسلمين في المدينة.

وخلال هذه الفترة والتي استمرت إلى فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، انقطعت سُبل الإتصال برسول اللّهﷺ وأصحابه في المدينة بعد أن منعت قريش أهل مكة من السفر إلى المدينة، ومنعت أهل المدينة حتى من الوفود إلى بيت اللّه الحرام لأداء مناسك الحج والعمرة، والاستثناء الوحيد هو ما حصل في السنة السابعة أثناء عمرة القضاء، والتي كانت إحدى ثمرات صلح الحديبية التي سبقت عمرة القضاء بسنة(١)، إلّا أنَّ قريشا لم تسمح لرسول اللّهﷺ والمسلمين في البقاء في مكة سوى ثلاثة أيام، أخلت خلالها مكة من أهلها خوفا من اتصالهم بالمسلمين وتأثرهم بهم، وبعد انتهاء الأيام الثلاثة بعثوا إلى رسول اللّه أن أُخرج عنّا فقد انقضى الأجل(٢).

إلّا أنّ فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة قد فتح أمام أهل مكة ومن جاورها آفاقا رحبة في كل مجالات الحياة، ومنها الحياة المعرفية والعلمية، إذ لم يخرج رسول اللّهﷺ من مكة إلى المدينة إلّا بعد أن استخلف فيها بعض أصحابه من أجل أن يفقهوا مسلمة الفتح وما بعد الفتح معالم دينهم، ويعلِّموهم القرآن.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ١٢. انظر تفاصيل أحداث صلح الحديبية وعمرة القضاء في كتابنا دروس في السيرة النبوية: ٣ / ٣١ وما بعدها، الطبعة الثانية، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.

(٢) الديار بكري، تاريخ الخميس: ٢٠ / ٦٣.

قال ابن إسحاق: «ثمّ خرج رسول اللّهﷺ من الجعرانة معتمرا.. فلما فرغ من عمرته انصرف راجعا إلى المدينة. واستخلف عتّاب بن أُسيد على مكة، وخلّف معه معاذ بن جبل يفقّه الناس في الدين، ويعلّمهم القرآن»[1].

وفي رواية الواقدي: «واستعمل رسول اللّهﷺ عتّاب بن أُسيد على مكّة، وخلّف معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري يعلّمان الناس القرآن والفقه في الدين»[2].

وبعد فتح مكة بسنتين جاء اللقاء الأكبر للمسلمين برسول اللّهﷺ في حجة الوداع من السنة العاشرة للهجرة، إذ لم تكن رحلة الحج هذه رحلة عبادية فقط؛ وإنما كانت إلى جانب ذلك، رحلة إلى آفاق المعرفة من المعلم الأول والهادي المهدي رسول البشرية محمدﷺ[3].

فقد وقف رسول اللّهﷺ بين المسلمين يعلمهم مناسكهم قولاً وعملاً ثمّ يخطب فيهم الخطب البليغة ويطلب منهم أن فليبلّغ الشاهد الغائب: «فرُبّ مبلّغٍ أوعى من سامع». وكان يقول: «رحم اللّه امرءً سمع مَقالتي فوعاها، فَرُبَّ حامِلِ فِقه لا فِقْهَ له، ورُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَن هو أفقهُ منه»[4].

وفي رواية كما يقولﷺ: «... ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعلَّ من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه»[5].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٠٠.

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٥٩.

(٣) المصدر نفسه: ٤ / ٢٥٣.

(٤) ابن قيم، زاد المعاد: ٢ / ٣٤٠. طبعة دار احياء التراث ـ بيروت، والواقدي، المغازي: ٢ / ١١٠٣، وابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٤٠٢.

(٥) الواقدي، المغازي: ٢ / ١١١١، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٤٣.

وفيما ذكره المؤرخون من خُطب رسول اللّهﷺ ومواعظه وارشاداته في حجة الوداع، آفاق واسعة من المعارف الإلهية والأحكام الشرعية، والأخلاق الإسلامية، والآداب الاجتماعية.. تحتاج إلى جهد ووقت للوقوف عندها وفهمها واستلهام الدروس والعبر منها، إلّا أ نّنا نتوقف عند درس كبير من هذه الدروس يمكن أن نستلهمه من مجمل اجواء حجة الوداع وهو: اختيار الزمان والمكان المناسبين لدعوتهﷺ!

لقد فتح رسول اللّهﷺ مكة في السنة الثامنة، وكان بإمكانهﷺ أن يقيم في مكة إلى موسم الحج الذي قرب وقته، إلّا أ نّه اعتمر وغادر مكة عائدا إلى المدينة، وجعل أميرا على المسلمين في مكة ـ عتاب بن أُسيد ـ فحج بالناس في تلك السنة، ودارت دورة الزمن وجاء موسم حج العام التاسع وكان بالإمكان أيضا أن يكون أمير الحج رسول اللّهﷺ بنفسه، إلّا أ نّه مدَّد الأمر سنة أُخرى، وأرسل من ينوب عنه وهو الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام حاملاً البيانات النهائية لابلاغها على رؤوس الأشهاد في الموسم!

فلماذا أخّر رسول اللّهﷺ حجّهُ إلى العام العاشر؟ وهل من حكمة في هذا التأخير؟

من المسلّم به أن رسول اللّهﷺ كان رائده الحكمة في كلِّ ما يقدم عليه من عمل يتعلّق بشؤون المسلمين وبالدعوة إلى اللّه سبحانه، بل تتجلى الحكمة لنا في كل مفردات سيرته.

والذي نستلهمه كسبب لهذا التأخير، والذي دلت عليه وقائع واحداث حجة الوداع، أنّ رسول اللّهﷺ أراد أن يعطي الفرصة الزمنية الكافية لعملية التغيير والتحوّل وتربية نفوس الذين أسلموا في فتح مكة وما بعدها.

فلم يكن عام فتح مكة مناسبا للقيام بحج خالي من كل آثار الوثنية، ولم تكن فرصة سنة بعدها كافية لأَسلَمَةِ الحج، وإنما كان العام العاشر من الهجرة هو الزمان المناسب لهذا الحج!

لقد كانت الفترة الزمنية ما بين السنة الثامنة ـ عام فتح مكة ـ إلى نهايات السنة العاشرة، فترة زمنية حافلة بالعمل التبليغي، حيث عمل رسول اللّهﷺ على ابقاء معاذ بن جبل في مكة ليفقه الناس ويعلمهم القرآن، وأرسل المبلغين والدعاة إلى القبائل مع وفودها التي وفدت إلى المدينة بعد فتح مكة[1]، وكانت فرصة حج العام التاسع، الفرصة المناسبة لابلاغ سورة براءة وتوصيات رسول اللّهﷺ بواسطة الإمام عليعليه السلام، حتى جاء موسم حج العام العاشر، فاختار رسول اللّهﷺ هذا الموسم ليكون بين المسلمين في حجهم، بعد أن أخذ التغيير والتربية والتفقيه مداهُ في نفوس الناس، وانتهت آثار الشرك والوثنية ـ إلى حدٍّ ما ـ من القلوب والنفوس، وطهرت مكة وما حولها من مظاهر الشرك، فلا صنم منصوب، ولا عريان يطوف، ولا مكاء ولا تصدية، وإنما هي كلمة التوحيد تنطلق من الحناجر والأفواه، لتردد صداها مكة وشعابها.

لقد اختار رسول اللّهﷺ الزمان والمكان المناسبين لدعوته في مسك ختامها، واستخدم الأُسلوب التعليمي المباشر في دعوة الناس وهو يقول لهم: «خذوا عنّي مناسككم» فعلمهم مناسك الحج عمليا منسكا بعد منسك، وصحح لهم اخطاءهم السابقة.

كذلك نجد الأُسلوب الخطابي المؤثر من خلال تكرار خطبه، أو تكرار جمل وعبارات منها، أو بيانها بأُسلوب بلاغي مؤثر.. كلّ ذلك من أجل إفادة السامعين، وترسيخ المعاني في أذهانهم، وتمكينهم من حفظها حيث كان ذلك المجتمع يعتمد على حافظته اعتمادا كليا.

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٣١ وما بعدها.

بالاضافة إلى ترغيب السامعين في وعي وحفظ ما يقول لهم، ثمَّ ابلاغه لمن غاب عنهم من قومهم، فيقول لهم: «رحم اللّه امرءا سمع مقالتي فوعاها..» ويقول: «فليبلّغ الحاضر منكم الغائب بما سمعه»[1].

وفي كل ذلك درس للدعاة والمدرسين والمبلغين والخطباء وأئمة المساجد، لكي يتخذوا من هدي رسول اللّه في الدعوة والتبليغ وأساليبه المحببة التي تشدُّ الناس إلى الإسلام، وتؤثر فيهم، فإن اختيار المكان والزمان المناسبين، مع جمال الأُسلوب له تأثيره البالغ في نفوس السامعين.

الحركة العلمية في مكة بعد عصر النبوة

لم تنتقل عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة إلى مكة بعد رحيل رسول اللّهﷺ، وإنما استمرّت الحياة السياسية في المدينة في عصر الخلفاء الثلاثة وشطرا من خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام الذي نقل مركز الخلافة إلى الكوفة لأسباب موضوعية لا مجال لبيانها هنا.

كما أنَّ صحابة رسول اللّهﷺ الذين هاجروا معه إلى المدينة فضلاً عن الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج لم يرجع أحد منهم إلى مكة بعد وفاة النبيﷺ بل كان المسلمون يكرهون ذلك، وينكرون على من يفعله منهم، يروي الواقدي عن محمد بن عمر قوله: «لا نعلم أحدا من المهاجرين من أهل بدر رجع إلى مكة، يعني بعد وفاة النبيﷺ، غير أبي سُبرة ـ بن أبي رهيم ـ فإنه رجع إلى مكة بعد وفاة النبيﷺ، فنزلها،

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٤٣، والواقدي، المغازي: ٢ / ١١٠٣.

فكره ذلك له المسلمون، وولده يُنكرون ذلك ويدفعونه أن يكون رجع إلى مكة فنزلها بعد أن هاجر منها ويغضبون من ذكر ذلك»[1].

إلّا أنّ ابن سعد يذكر قائمة طويلة في أسماء من نزل مكة من أصحاب رسول اللّهﷺ، وجلّ هؤلاء هم من مسلمة فتح مكة وليسوا من المهاجرين إلى المدينة، وهذا يعني أنهم لم يستوعبوا تعاليم الإسلام، ولم يواكبوا التجربة الإسلامية في عهدها المدني، فلم يكونوا مؤهلين علميا وفكريا وإيمانيا للقيام بالواقع التغييري في مكة وما حولها.

إلّا أنّه وبمرور الزمن برز نفر من بين أُولئك ومن التابعين أو تابعي التابعين.. ومن حملة العلم والمعرفة وقاموا بدورهم في نشر العلوم الإسلامية في مكة وما حولها، ومن أُولئك عبد اللّه بن عباس وتلامذته من أمثال:

١ـ عطاء بن أبي رباح المتوفى سنة (١١٤ هـ) وهو من مولّدي الجند من مخاليف اليمن، نشأ بمكة، ومات بها. روى ابن سعد عن عطاء: «أنّه كان يعلّم الكتاب، وكان ثقة فقيها عالما كثير الحديث» وعن قتادة: «كان عطاء من أعلم الناس بالمناسك»[2].

وقد عدّه الشيخ الطوسي في رجاله، من الراوين عن عليعليه السلام[3]، وقد حدَّث عنه جمع كثير من الرواة ذكرهم الذهبي في سير أعلام النبلاء[4]، ويروى عن أحمد بن

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ٥ / ٣٠٩.

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٥ / ٣٢١.

(٣) الطوسي ـ محمد بن الحسن، رجال الطوسي: ٧٥، تحقيق: جواد القيومي، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٢٠ هـ.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٥ / ٥٥٣، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط. الأولى، ١٤١٧ هـ.

محمد الشافعي قوله: كانت الحلقة في الفتيا بمكة في المسجد الحرام لابن عباس، وبعد ابن عباس لعطاء بن أبي رباح[1].

٢ـ عمرو بن دينار المتوفى سنة (١٢٦ هـ) وصفه الذهبي في سير أعلام النبلاء بأنّه الإمام الكبير، وأحد الأعلام، وشيخ الحرم في زمانه، وانه من أوعية العلم، وأئمة الاجتهاد، وكان من الحفاظ المقدمين، وأفتى بمكة ثلاثين سنة، وقد سمع من ابن عباس، وجابر بن عبد اللّه.. وعبد اللّه بن جعفر وغيرهم من الصحابة، وأورد الذهبي أسماء جمع من المحدثين عنه[2]. وعدّه الشيخ الطوسي من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام وقال عنه: «عمرو بن دينار المكي، أحد أئمة التابعين، وكان فاضلاً عالما»[3].

وقد حاول بعضهم الانتقاص منه من خلال رميه بالتشيع، فقد روى الذهبي في تاريخ الإسلام عن يحيى بن معين قوله: أهل المدينة لا يرضونه ويرمونه بالتشيّع والتحامل على ابن الزبير، ولا بأس به هو بريءٌ مما يقولون»[4].

٣ـ ابن جريج، أبو الوليد عبد الملك بن عبد العزيز المتوفى سنة (١٥١ هـ) الذي عدّه الشيخ الطوسي من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام[5]، وعدّه ابن سعد في الطبقة الرابعة من التابعين في مكة ووصفه بقوله: «وكان ثقة كثير الحديث جدّا»[6]، ووصفه

---

(١) أبي نعيم الإصفهاني الشافعي، حلية الأولياء: ٣ / ٣٥٧، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٦ / ١١٢ وما بعدها.

(٣) الطوسي، الرجال: ١٤١.

(٤) الذهبي، تاريخ الإسلام: ٧ / ١٨٧، طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م.

(٥) الطوسي، رجال الطوسي: ٢٣٨.

(٦) ابن سعد، الطبقات: ٦ / ٣٣٠.

الذهبي في سير أعلام النبلاء بأ نّه: «الإمام، العلّامة، الحافظ، شيخ الحرم، وصاحب التصانيف، وأول من دون العلم بمكة»[1]، إلّا أنّ الذهبي في ميزان الاعتدال قال عنه: «أحد الأعلام الثقات، يدلّس، وهو في نفسه مجمع على ثقته مع كونه قد تزوج نحوا من سبعين امرأة نكاح المتعة، كان يرى الرخصة في ذلك، وكان فقيه مكة في زمانه»[2]. وفي معجم رجال الحديث نقل عن الكشي قوله: «محمد بن إسحاق، ومحمد بن المنكدر، وعمرو بن خالد، وعبد الملك بن جريج.. هؤلاء من رجال العامّة، إلّا أنّ لهم ميلاً ومحبة شديدة،.. وقد استظهر الوحيدﷺ كونه من الشيعة، ومن ثقاتهم ومعتمديهم»[3].

هؤلاء عينة لبعض علماء مكة في تلك الحقبة الزمنية والتي يمكن أن نضيف إليها أسماء أُخرى، ومن نفس الطبقة من التابعين أو من الطبقات الأُخرى، وهم في الأعم الأغلب من تلامذة أو تلامذة تلامذة عبد اللّه بن عباس الذي هو من أبرز تلامذة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام.

وقد بقي ابن عباس في مكة بعد وفاة النبيﷺ ثمّ خرج إلى البصرة واليا عليها من قبل أمير المؤمنين عليعليه السلام، إلى حين استشهاد عليعليه السلام سنة (٤٠ هـ)، فقد ترك البصرة إلى مكة واستوطنها إلى حين نودي لعبد اللّه بن الزبير بالخلافة، فضيق عليه حتى اخرج إلى الطائف وتوفي فيها سنة ثمان وستين من الهجرة[4].

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٦ / ٤٨٦ وما بعدها.

(٢) ميزان الاعتدال: ٢ / ٦٥٩.

(٣) الخوئي، معجم رجال الحديث: ١٢ / ٢١.

(٤) ابن عبد البر، الاستيعاب: ١ / ٥٥٩ وما بعدها، طبعة دار الفكر ـ بيروت، ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م. وأُنظر ترجمته: ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٣١ / ١٩٠، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م).

ومدرسة عبد اللّه بن عباس التفسيرية والفقهية.. وامتدادها من خلال تلامذته لا تمثل مدرسة أهل البيتعليهم السلام كذلك مواقفه مع علي وابناء عليعليهم السلام لا تمثل الموالاة والانقياد الكامل لخط الإمامة والولاية، ولهذا الحديث تفاصيل كثيرة لا مجال لها هنا[1].

ومهما يكن من أمر، فقد شهدت مكة حركة علمية متواضعة بعد وفاة رسول اللّهصلى الله عليه وآله وفي القرن الأول الهجري، «وبعد استشهاد زيد بن علي بن الحسينعليه السلام سنة (١٢٢ هـ)، وكذلك في عصر الإمام محمد الباقر والإمام الصادقعليهما السلام، أضحت مكة مجمعا للمحدّثين، وشيوخ الرواة، وعلماء الإمامية والزيدية»[2].

وفي القرنين الثالث والرابع الهجريين، حينما كانت دولتا الفاطميين وآل بويه، حاكمة، وجدت حوزات الإمامية ازدهارا كبيرا لها في مكة، حيث كان من علماء الإمامية؛ أبو طالب أحمد بن علي العقيقي (ت ٢٨٠ هـ)[3] وهو من أحفاد أصغر أبناء الإمام زين العابدينعليه السلام، وابنه علي بن أحمد العقيقي (ت ٢٨٠ هـ)[4] صاحبا كتاب «تاريخ الرجال»، وكتاب «الرجال»، من المدرسين الكبار في حوزة الإمامية في مكة المكرمة.

قال الشيخ الطوسي في الفهرست: «في ترجمة أحمد بن علي كان مقيما بمكّة وسمع أصحابنا الكوفيين وأكثر منهم، وصنّف كتبا كثيرة، منها: كتاب المعرفة، كتاب

---

(١) انظر: رجال الكشي: ٥٣ وما بعدها، تحقيق: حسن المصطفوي، طبعة دانشكاه مشهد.

(٢) الصالحي ـ عبد الحسين، الحوزات العلمية في الأقطار الإسلامية: ٧٥، طبعة بيت العلم ـ بيروت، طبعة الأُولى، ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤ م.

(٣) انظر ترجمته في أعيان الشيعة: ٣ / ٤٨ وفهرست الشيخ الطوسي: ٥٩ و ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

(٤) انظر ترجمته في أعيان الشيعة: ٣ / ٤٨ وفهرست الشيخ الطوسي: ٢٤، ٩٧.

فضل المؤمن، كتاب تاريخ الرجال..». وقال في ترجمة ولده: علي بن أحمد العلوي العقيقي: له كتب، منها:.. كتاب الرجال.. قال ابن عبدون: «وسمعنا منه في داره بالجانب الشرقي في سوق العطش بدرب الشواء لصيق دار أبي القاسم اليزيدي البزاز»[١].

كذلك نجد من علماء الإمامية في القرن الرابع ممن سكن في مكة الشيخ عتبة ابن عبد اللّه الحمصي، والشيخ أبا الحسن علي بن مندة[٢] (ت ٣٨٠ هـ) الذي نقل الكثير من أحاديث الأئمة الاثني عشر، وقد ضبط اسمه العلامة الفقيه الشيخ علي ابن محمد الخزاز الرازي القمي (من علماء القرن الرابع) في كتابه القيم «كفاية الأثر» إذ إنَّ علي بن مندة من مشايخ وأساتيذ الشيخ الخزاز القمي رحمهما اللّه[٣].

الهجرة العلمية إلى مكة

ليس بدعا أن تتجه الأنظار صوب مكة المكرمة، فهي مهبط الوحي، ومنطلق الرسالة الإسلامية، تشد إليها الرحال من كل فجٍ عميق قاصدين بيت اللّه الحرام والاتصال بعلماء مدرستها، إذ كانت محطا للعلماء من شتى أصقاع العالم الإسلامي من فقهاء ومحدثين ومفسرين.. وقد جاور الكثير من علمائنا بيت اللّه الحرام وأقام في مكة المكرمة، وكانت مجالس بحثهم عامرة مزدهرة تكتظ بعشاق العلم والمعرفة[٤].

---

(١) انظر ترجمته في أعيان الشيعة: ٣ / ٤٨ وفهرست الشيخ الطوسي: ٢٤، ٩٧.

(٢) الصالحي، الحوزات العلمية: ٧٥ ـ ٧٦.

(٣) انظر: كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر: ١٦ و ٣٢٥، طبعة بيدار ـ قم، ١٤٠١ هـ

(٤) الحسيني ـ محمد، الفقه في جنوب لبنان: ١٦١، طبعة دار المحجة البيضاء ـ بيروت، ط.الأُولى، ١٤٣٠هـ

ولا يمكن لنا أن نستوعب بالذكر جميع من أقام في مكة المكرمة وجاور بيت اللّه الحرام، وإنما سوف نكتفي بذكر نماذج لأبرز العلماء المهاجرين من الحواضر الشيعية كجبل عامل وإيران والعراق.. وباختصار شديد.

أولاً: الهجرة العاملية إلى مكة:

لقد شهدت مكة المكرمة هجرة مكثفة لعلماء من جبل عامل، وكان لبعض الأُسر العاملية دور علمي بارز فيها، فإنّ الكثير من أحفاد الشهيد الثاني اختاروا الإقامة هناك، وكذلك أحفاد السيّد علي بن أبي الحسن العاملي والد السيّد محمد صاحب المدارك، وكان أيضا لأُسرة آل الحر العاملي وآل أبي جامع نصيبا من هذه الهجرة[١].

ولعلّ أقدم وثيقة تاريخية تشير إلى الهجرة العاملية إلى مكة، ما ورد في اجازة الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي (ت ٧٨٦ هـ) للشيخ الفقيه ابن الخازن الحائري والتي ورد فيها: «وأ مّا مصنّفات العامة ومرويّاتهم، فإني أروي عن نحو من أربعين شيخا من علمائهم بمكة والمدينة ودار السلام بغداد، ومصر ودمشق وبيت المقدس ومقام الخليل إبراهيمعليه السلام..»[٢]. وقد لا تكون في هذه الوثيقة دلالة واضحة على هجرة دائمة لطلب العلم. إلّا أ نّها تدل بوضوح على التواصل مع علماء المذاهب الأُخرى وعدم الانغلاق في حدود علماء المذهب.

«أما بعد عصر الشهيد الأول وفي القرون التي تلت القرن الثامن، فإنا نجد هجرة مكثفة من جبل عامل إلى مكة المكرمة، وحصل تغير نوعي في شكل هذه الهجرة

---

(١) الحسيني ـ محمد، الفقه في جنوب لبنان: ١٦١، وللتوسع انظر: أعيان الشيعة للسيّد الأمين، وأمل الآمل للحر العاملي مع تكملته للسيّد حسن الصدر.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار: ٤٣ / ١٩٨.

وأهدافها، فلم تقتصر على زيارة بيت اللّه الحرام واستجازة العلماء هناك؛ بل استقر بهم الحال فيها وأصبح لهم كيان علمي ومجالس للبحث والدرس؛ فقد هاجر إليها أشهر علماء جبل عامل، من أمثال: الشيخ حسين بن عبد الصمد (ت ٩٨٤ هـ) والد الشيخ البهائي الذي كان عازما على مجاورة بيت اللّه الحرام إلّا أ نّه عدل عن هذا العزم.. وسكن البحرين[١]، ومن أمثال الشيخ محمد بن الحسن المعروف بالحرّ العاملي (ت ١١٠٤ هـ) الذي هاجر إلى مكة وأقام فيها في سنة (١٠٨٧ هـ) أو (١٠٨٨ هـ)، إلّا أ نّه خرج منها هاربا أثر الاعتداء على الشيعة وعلمائها آنذاك والذي أدّى إلى مقتلة عظيمة فيهم، فالتجأ إلى بعض الأشراف وسأله أن يخرجه من مكة إلى نواحي اليمن، فأخرجه مع أحد رجاله إليها فنجا[٢].

ومنهم: السيّد صالح بن محمد بن إبراهيم شرف الدين.. العاملي، الملقّب بالمكي والمعروف بالسيّد صالح الكبير (ت ١٢١٧ هـ) الذي «توجه إلى مكة المكرمة فجاور فيها سنتين ولذلك كان يلقّب بالمكي، وقرأ على فقهاء الحرمين، ورجع إلى جبل عامل..»[٣].

وهنالك كوكبة نيرة من علماء جبل عامل يذكرهم السيّد العاملي في الأعيان، والحرّ العاملي في أمل الآمل وحسن الصدر في التكملة ممن هاجر إلى مكة المكرمة واستوطنها مع أولاده وأحفاده، وكان لهم المنزلة الرفيعة والمقام العظيم بين أهل مكة، والكثير منهم دفن في مقبرة المعلى وغيرها من مقابر مكة رضوان اللّه تعالى عليهم.

---

(١) العاملي ـ محسن، أعيان الشيعة: ٦ / ٥٨.

(٢) مقدمة وسائل الشيعة: ١ / ٧٩، والصدر ـ حسن، تكملة أمل الآمل: ١ / ٣٠٧، بتحقيق: حسين علي محفوظ، طبعة دار المؤرخ العربي ـ بيروت، ١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨ م.

(٣) أعيان الشيعة: ٧ / ٣٧٧.

ويذكر السيّد حسن الصدر في التكملة في ترجمة السيّد نور الدين أخو صاحب المدارك فيقول: جاور بمكة يوم كانت محط رحال علماء الإمامية وتوفي فيها[١].

ثانيا: هجرة بعض علماء الاخبارية إلى مكة المكرمة:

لقد امتلأت مكة المعظمة بعلماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وكانت للمدرسة الاخبارية على يد مؤسسها الميرزا محمد أمين الأسترآبادي (ت ١٠٣٣ هـ)، حضور مكثف في مكة والمدينة، إذ إن أشهر علمائهم كان قد جاور بيت اللّه الحرام.

فالأمين الأسترآبادي الذي هو رأس الاخباريين في القرن الحادي عشر الهجري، قد أودع آراءه الاخبارية في كتابه الذي سمّاه: «الفوائد المدنية في الردِّ على من قال بالاجتهاد والتقليد». الذي ردّ عليه السيّد نور الدين علي العاملي (ت ١٠٦٢ هـ) بكتاب سماه الشواهد المكية في رد مداحض حجج الخيالات المدنية[٢]. والذي يبدو من مقدمة كتاب الفوائد للمؤلف الأسترآبادي إنه كان ساكنا في مكة ويتضح من قوله: «ولما أراد جمع من الأفاضل في مكّة المعظمة قراءة بعض الكتب الأُصوليّة لديّ...»[٣].

كما أنّ أُستاذ الأمين الأسترآبادي وهو: «الميرزا محمد بن علي الأسترآبادي (ت ١٠٢٨ هـ) كان مكي الجوار والمدفن[٤]، فقد سافر إلى مكة بعد وفاة أُستاذه

---

(١) انظر: السيّد الحسيني، الفقه في جنوب لبنان: ١٦١ وما بعدها، وللتوسع انظر: السيّد الأمين، أعيان الشيعة: ٦ / ٤٥٩ و ٨ / ٢٨٩ و ٣٠٦ و ١٠ / ٥٢ وكذلك أمل الآمل للحر العاملي: ١ / ١٢٥، وتكملة أمل الآمل للسيّد حسن الصدر: ٢٠٤، ٢٢٠ و ٢٥٢.

(٢) وقد طبع كلا الكتابين بمجلد واحد بتحقيق مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم.

(٣) الأسترآبادي ـ محمد أمين، الفوائد المدنية: المقدمة: ٢٩.

(٤) انظر ترجمته في روضات الجنات: ٧: ٣٦ / ٥٩٦.

الأردبيلي وسكن فيها، وحضر درسه هناك جمع من العلماء، وقرأوا عليه الكتب الفقهيّة الأربعة المشهورة، وكتابه منهج المقال.. وقد كتب لبعض طلّابه اجازات في الكعبة» كما أنه توفي في مكة ودفن في مقبرة المعلّى»[1].

ومن علماء الاخبارية الذين هاجروا إلى مكة المولى خليل بن الغازي القزويني (ت ١٠٨٩ هـ) الذي قال عنه الحر العاملي في أمل الآمل: «.. فاضل علامة حكيم متكلم محقق فقيه محدث ثقة جامع للفضائل ماهر معاصر رأيته بمكة في الحجة الأُولى وكان مجاورا بها مشغولاً بتأليف حاشية مجمع البيان»[2].

ومن علماء الاخباريين البارزين الذين هاجروا إلى مكة واتخذوها موطنا الشيخ زين الدين بن الشيخ محمد بن الشيخ حسن صاحب المعالم ابن الشهيد الثاني العاملي الجبعي المكي، الذي توفي بمكة سنة (١٠٦٤ هـ) ودفن مع والده بالمعلى عند أُم المؤمنين خديجة الكبرى (رض). وهو أُستاذ الحر العاملي صاحب الوسائل الذي ترجم له في أمل الآمل وأثنى عليه كثيرا وقال: «شيخنا الأوحد، كان عالما فاضلاً كاملاً متبحرا محققا.. جليل القدر عظيم المنزلة، لا نظير له في زمانه، قرأ على أبيه وعلى الشيخ الأجل بهاء الدين محمد العاملي، وعلى مولانا محمد أمين الأسترآبادي.. وجاور بمكة مدّة وتوفي بها ودفن عند خديجة الكبرى. قرأت عليه جملة من كتب العربية والرياضي والحديث والفقه..»[3].

---

(١) انظر: مقدمة كتاب منهج المقال: ١ / ٢٠ ـ ٢١. وللتوسع انظر: آقا بزرك الطهراني: طبقات أعلام الشيعة القرن الحادي عشر: ٣٣١، ٣٩٨، ٤٤٠، ٦١٣.

(٢) الحر العاملي ـ محمد بن الحسن، أمل الآمل: ٢ / ١١٢.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٩٢ ـ ٩٣.

والذي يبدو من خلال ما ينقله الحر العاملي وصاحب الأعيان أن الرجل شديد التأثر بأفكار ونظريات أُستاذه الأسترآبادي حيث نقل عنه أنه كان يقول: «قد أكثر المتأخرون التأليف وفي مؤلفاتهم سقطات كثيرة، عفا اللّه عنا وعنهم، وقد أدى ذلك إلى قتل جماعة منهم».. ثمّ نقل الحر العاملي عنه أنه كان يتعجب من جدّه الشهيد الثاني، ومن الشهيد الأول، ومن العلّامة في كثرة قراءتهم على علماء العامة، وكثرة تتبع كتبهم في الفقه والحديث والأُصول وقراءتها عندهم، وكان ينكر عليهم، وكان يقول: «قد ترتب على ذلك ما ترتب، عفا اللّه عنهم»[1].

وقد ترجم له سيّد الأعيان ورد على أفكاره الآنفة الذكر بقوله: «.. وقوله قد أدى ذلك إلى قتل جماعة منهم لم يظهر مراده مَن المشار إليه بذلك، والذي أدى إلى قتل جماعة هو فساد الزمان وأهله، وشدّة التعصب على علماء أهل البيت، لا تقصير منهم أو تفريط في شيء، وأما تعجبه من الشهيدين والعلّامة في كثرة قراءتهم على العامة وتتبع كتبهم، وزعمه ترتب المفسدة على ذلك؛ ففي غير محلّه لأنّ ذلك كان علو همة منهم، وكان فيه لهم فوائد لا تخفى، ولم يترتب عليه أي مفسدة، ولعلّه كان مائلاً إلى طريقة الاخبارية الذين يزعمون أن الاجتهاد مأخوذ من العامة..»[2].

ثالثا: هجرة بعض علماء العراق إلى مكة:

رغم أن العراق من حواضر الشيعة المهمة، بل أنها مركز التشيع في العالم الإسلامي، ويجد فيها العالم الشيعي الفضاء العلمي، حيث مراقد الأئمة ومراكز العلم والمعرفة، والمكتبات الكثيرة.. إلّا أنّ أنظار كبار علماء كانت ترنوا صوب مكة

---

(١) الحر العاملي ـ محمد بن الحسن، أمل الآمل: ١ / ٩٣.

(٢) الأمين، أعيان الشيعة: ٧ / ١٥٩ ـ ١٦٠.

المكرمة، وتطمح أن تجاور بيت اللّه الحرام ولو لبرهة من الزمن، وكان لعلماء العراق ومن حواضرها الشيعية نصيب من هذه الهجرة.

ومن أبرز هؤلاء العلماء السيّد مهدي ابن السيّد مرتضى الحسيني المعروف ببحر العلوم (ت ١٢١٢ هـ).

قال عنه السيّد العاملي: «هو الإمام العلّامة الرحالة، رئيس الإمامية وشيخ مشايخهم في عصره، نادرة الدهر وامام العصر الفقيه الأُصولي الكلامي المفسر المحدث الرجالي..»[١].

وقد ذكر في ترجمته: «إنّه في أواخر سنة (١١٩٣ هـ) تشرف بحج بيت اللّه الحرام، لا لقصد الحج فحسب، بل لإقامة مشاعر الحج وإصلاح بعض مواقفه، وتأسيس بعض مواقيته، وبقي في مكة أكثر من سنتين موضع حفاوة وعناية من عامة طبقاتها، حتى أنه كان يوضع له كرسي الكلام فيحاضر بالمذاهب المختلفة ويحضر مجلسه العلمي أرباب المذاهب كلها.. حتى إذا أكمل أشواطه الإسلامية، وأقام المشاعر، وصحح المواقف، ومركَز المواقيت على ضوء الطرق الشرعية الحقة، وأنهى جميع مهماته الدينية، وأدى رسالته التي من أجلها بقي مدة سنتين أو أكثر، بعد ذلك أظهر مذهبه وأعلن به، فازدحم عليه علماء المذاهب يناقشونه ويناقشهم حتى اذعنوا له بالفضل عليهم والتفوق..»[٢].

وذكر السيّد العاملي في الأعيان: «.. ولما ورد مكة المشرفة جعل يدرس بالمذاهب الأربعة، وكان لا يكاد يفارق مكانا إلّا ترك أثرا فيه، وآثاره من هذا القبيل

(١) الأمين، أعيان الشيعة: ١٠ / ١٥٨.

(٢) رجال السيّد بحر العلوم، المعروف بالفوائد الرجالية، المقدمة: ٣٥ ـ ٣٦ بقلم السيدين: محمد صادق بحر العلوم والسيّد حسين بحر العلوم، أُفست طبعة مكتبة العلمين في النجف الأشرف.

كثيرة، وقد وضع في حجته هذه أو في التي بعدها العلامات الكافية لأداء الحجاج المناسك على وفق مذهب أهل البيت عليهم السلام، التي بقيت بعده يستفيد بها الخلق، وعين المواقيت في حدود الإحرام للحج والعمرة والمزدلفة والمشاعر، وأظهر منها ما كان مخفيا وحسبك بذلك علو همة وثبات جأش في ذلك العصر الذي ساد فيه التعصب والنصب»[1].

نكتفي بذكر اسم العالم الجليل في تسمية من هاجر إلى مكة من علماء العراق ومن علماء الشيعة الإمامية، لأ نّه أُمة في رجل.

وفي الختام ينبغي أن نذكر بأن آخر حضور لعلم من أعلام الشيعة الإمامية في مكة المكرمة يسجل للسيّد عبد الحسين شرف الدين العاملي في رحلته التاريخية إلى حج بيت اللّه الحرام عام (١٣٤٠ هـ). وقد سجل لنا بقلمه الشريف فصول هذه الرحلة التاريخية، وصوّر لنا محطاتها بأروع تصوير، ومما جاء فيها: «.. كنّا نصلّي الفرائض الخمس جماعة في المسجد الحرام وفي مسجد الخيف وفي مسجد جدّة، في جماعة لم يعهد ثمّة نظير لها للشيعة في تاريخهم. وكنّا نعمل في مواقفنا كلّها عمرةً وحجّا حسبما يقتضيه مذهب أهل البيت في غير حرج ولا ضيق. وكان منزلنا في شعب عامر... مأوى لهذه الجموع الغفيرة يختلفون إليه ويريحون به، يأخذون منه ما هو محلّ ابتلائهم من الأحكام الشرعيّة، ويستمعون إلى قراءة التعزية وأحاديث الوعظ والإرشاد كأ نّهم في حواضرهم من عاملة والعراق وإيران وأفغان والهند وزنجبار.. ولنا من

---

(١) الأعيان: ١٠ / ١٥٩ وما بعدها.

الذكريات العلمية في ذلك الموسم ثلاث مناظرات جديرة بالتسجيل على التفصيل لولا ضيق المجال»[1].

إلّا أنّ ما سجّله السيّد شرف الدين‏ﷺ لم يكتب له الدوام، إذ قد يكون السيّد شرف الدين أول فقيه إمامي يأتم المسلمون بصلاته في البيت الحرام بعد انقراض الوجودات العلمية وعلماء الإمامية فيها.

«ولم تقض على الوجودات العلمائية ـ الإمامية ـ في مكة المكرمة إلّا العصبية المقيتة وظلم الظالمين، حتى خلت تلك المحافل العلمية وضرب عليها الحصار، وليس في مكة اليوم فقيه إمامي واحد»[2] ولا مدرسة علمية تختص بالشيعة، بل ولا يسمحون بتداول كتب الشيعة!!

خلاصة عامة

لقد استعرضنا ـ وبايجاز ـ في هذا الفصل أهم ملامح الحركة العلمية في مكة في صدر الإسلام الأول.

وتبين لنا من خلال ذلك أنَّ دعوة الإسلام قد اقترنت ومنذ ظهورها بالدعوة إلى طلب العلم والمعرفة كواجب وفريضة على كل المسلمين، وكفضيلة كبرى يمتاز بها صاحبها ـ وبامتياز ـ بالرفعة والمكانة المحمودة والثواب الجزيل.

وإن الذي حمل مشعل العلم والمعرفة والهداية هو الرسول الأكرمﷺ الذي كان ولا زال المعلم والمربي والمزكي، فكان يفيض بالعلم والمعرفة والتربية على

---

(١) موسوعة الإمام شرف الدين، المدخل: ٣٠٢ وما بعدها، طبعة دار المؤرخ العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦ م.

(٢) الحسيني، الفقه في جنوب لبنان: ١٦٢ ـ ١٦٣.

المسلمين، جاعلاً من بيت خديجة أول مدرسة للإسلام ثمّ دار الأرقم بن أبي الأرقم، فالمسجد الحرام وغيرها من الأماكن التي كان يلتقي فيها بالمسلمين، الذين تنوعت أجناسهم وقومياتهم وبلدانهم، إلّا أن هذا التنوع الطبيعي قد توحد ضمن كلمة التوحيد التي انطلقوا منها، حاملين مشعل الهداية والدعوة والتبليغ في مكة وشعابها ثمّ خارجها حيث أرض اللّه الواسعة في الحبشة التي وجدوا فيها «مراغما وسعة».

ثمّ أشرنا في المبحث الرابع إلى الملامح العامة للمنهج النبوي في التعليم ضمن بيان الطرق والأساليب التي اتبعها النبي في منهجة العلوم التي يعلمها لأصحابه.

وفي المبحث الخامس أشرنا إلى ملامح الحركة العلمية في مكة بعد هجرة رسول اللّهﷺ منها إلى المدينة.

خلاصة الأمر:

ونحن نستعرض منطلق الحياة العلمية في مكة وفي صدر الإسلام الأول، لا نستطيع القول ان هناك حركة علمية منظمة كما هو معروف عندما تطلق الكلمة، ولا نستطيع أن نقول كذلك بوجود مدارس خاصة يجلس فيها المتعلمون لتلقي العلم، ولا مناهج تعليمية تأخذ بالأساليب المتنوعة في التعليم.. كلّ هذه الأُمور وغيرها لا يمكن لنا أن ندعي وجودها في هذا العصر.

ولكننا نجزم بأن بذور حركة علمية واسعة قد وضعت في ذلك العصر ثمّ أثمرت وأَتت أُكلها فيما بعد، وقد وضعت في هذا العهد اللبنات الأُولى لنهضة علمية، قلما تتوفر لأُمة من الأُمم، أو في عهد من العهود بمثل هذه السرعة الفائقة، إذ إنَّ فترة ثلاث عشرة سنة مع حصار واضطهاد جسدي وفكري، لا تعتبر شينا مذكورا في حياة الأُمم

وتاريخها، إذ لابد ان تقاس حياة الأُمم ونهضتها في عمرها التاريخي بعشرات السنين بل بمئاتها وآلافها.

لقد استطاع الرسولﷺ أن يربي جيلاً وينشئ حضارة ويبعث نهضته في تلك الفترة الوجيزة، وفي وسط أُمة أُميّة لم تعرف لها حضارة سابقة ولم يسجّل لها التاريخ نهضة حضارية أو علمية من قبل.

وبعد رحيل الرسول الأكرمﷺ، استمرت الحركة العلمية على أيدي بعض الصحابة والتابعين، وبعض أُولئك كان يمثّل مدرسة أهل البيت، وأصحاب الأئمةعليهم السلام.

وقد هاجر إلى مكة المكرمة جمع كثير من علماء الشيعة الإمامية ومن مختلف حواضر ومدن الشيعة وكان لهم حضور فاعل ومؤثر في تلك الديار المقدسة.

وفي الوقت الحاضر لا يوجد أي حضور لفقيه إمامي في مكة لعوامل كثيرة على رأسها التعصب المقيت.

الفصل الثاني:
منطلق الحياة العلمية والفكرية وأدوارها
في المدينة المنورة

المدخل: ملامح المجتمع المدني قبل الإسلام

المبحث الأول: هجرة المسلمين إلى المدينة وآثارها التربوية والفكرية.

المبحث الثاني: دور المسجد في البناء الروحي والفكري والثقافي زمن الرسالة.

المبحث الثالث: ملامح الحركة العلمية في عصر الرسول ﷺ في المدينة.

المبحث الرابع: الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ومرجعيته العلمية والفكرية بعد رحيل الرسول ﷺ.

المبحث الخامس: ظهور مدرستي «الرأي» و «النص» بعد رحيل رسول الله ﷺ وموقف الإمام علي وأهل البيت عليهم السلام منها.

المبحث السادس: أدوار مدرسة أهل البيت عليهم السلام في المدينة.

- الدور الأول: دور التأسيس والتأصيل.
- الدور الثاني: دور الانكماش والتقية.
- الدور الثالث: دور الضمور والاضمحلال.

المبحث السابع: الحركة العلمية في المدينة بعد عصر الأئمة عليهم السلام.

* تلخيص واستنتاج لأهم ملامح مدرسة المدينة وأدوارها.

المدخل

بعد ثلاثة عشر عاما من الاضطهاد والحصار والتعذيب الذي لاقاه رسول اللّهﷺ ومن آمن معه من قِبَل قريش التي كانت تمثل الوثنية العربية في مكة، قرّر رسول اللّهﷺ الهجرة إلى «يثرب» بمعية المسلمين، اتقاءً من أذى قريش، وبحثا عن أرض جديدة للدعوة.

ملامح المجتمع المدني قبل الإسلام

لقد كان المجتمع المدني قبل الإسلام ومجيء الرسولﷺ والمسلمين إليها يتشكل من بعض القبائل العربية المنحدرة من أُصول يمانَية وعلى رأسها قبيلتا الأوس والخزرج، إلى جانب اليهود الذين استوطنوا هذه البلدة منذ زمن طويل قد يكون أسبق من سكنى القبائل العربية[1].

ويبدو من الروايات التاريخية أن هناك عداءً نشأ بين اليهود من جهة والأوس والخزرج من جهة أُخرى في القرن الذي سبق الهجرة النبوية ـ لسنا في صدد ذكر أسبابه ـ كانت الغلبة فيه لقبيلتي الأوس والخزرج على اليهود، وأصبحوا هم السادة وأصحاب الشأن في المدينة[2].

إلّا أن وضع الأوس والخزرج لم يكن مستقرا قبل الإسلام على الرغم مما بينهم من صلة قربى، ويبدو أن اليهود كان لهم دورا كبيرا في إذكاء نار العداوة والبغضاء بين

---

(١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٤ / ١٢٩.

(٢) انظر المصدر نفسه: ٤ / ١٣٣ ـ ١٣٥.

هاتين القبيلتين الكبيرتين، فوقعت بينهما حروب هلك فيها من الطرفين خلق كثير، وكان آخرها «يوم بُعاث» الذي وقع قبيل الهجرة بحوالي خمس سنوات[١].

لقد أدرك الأوس والخزرج أن حرب بعاث ـ وهي آخر أيامهم قبل الإسلام ـ قد أنهكت قواهم، وقتل بسببها العديد من رجالهم، لذا تطلعوا إلى جمع شملهم، وإقامة ملك عليهم، فاختاروا لذلك «عبد اللّه بن أُبيّ بن سلول الخزرجي» لمكانته فيهم، غير أن ذلك لم يتم، فقد دخل الإسلام المدينة، فغيّر مجرى الأحداث فيها.

فبعد أن هاجر النبيﷺ إليها جمع اللّه شملهم بالإسلام وتحت قيادة رسول اللّهﷺ ولم نعد نسمع كثيرا عن لفظتي الأوس والخزرج، إنما صرنا نسمع عن «الأنصار»، وهو اللقب الذي أُطلق عليهم في الإسلام لمناصرتهم لرسول اللّهﷺ، وصاروا يفتخرون بهذه التسمية حتى غلبت عليهم، وصارت في منزلة النسب[٢].

لقد كان الأنصار (الأوس والخزرج) يشكلون الغالبية في المجتمع المدني في صدر القرن الأول الهجري، إلّا أن الهجرة المستمرة ـ في مفتتح القرن الأول الهجري ـ أدى إلى تنوع سكان المدينة المنورة، فلم يعودوا يقتصرون على الأوس والخزرج وبعض اليهود، بل نزل معهم المهاجرون من قريش وقبائل العرب الأُخرى.

وظلت المدينة محافظة على تركيبتها السكانية في العهود اللاحقة، باستثناء ما جلبته حروب الفتوحات في عصر الخلفاء من الأجانب الذين شكلوا طبقة اجتماعية من الموالي والعبيد في المجتمع المدني، وكان لهم بعض الدور في ذلك المجتمع[٣].

---

(١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٤ / ١٣٨ ـ ١٣٩.

(٢) للتوسع انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ٥٨٤.

(٣) ابن خلدون، المقدمة: ١٣٦.

المبحث الأول

هجرة المسلمين إلى المدينة وآثارها التربوية والفكرية

لم تكن هجرة الرسولﷺ ومن آمن معه إلى مدينة «يثرب» هجرة مكانية أو زمانية يمكن أن تتحدد وتتأطر في أُفق المكان أو الزمان اللذين وقعت فيهما، وإنما كانت هجرة حضارية وفكرية وإيمانية بكلّ معنى الكلمة.

لقد دخل الإسلام إلى يثرب بعد بيعة العقبة الأُولى بواسطة الصحابي الجليل والمبلغ والداعية الأوّل إلى المدينة «مصعب بن عمير» الذي بعثه رسول اللّه إلى المدينة ليعلِّم القرآن وتعاليم الإسلام والدين الحنيف، فأثمرت جهوده في تكوين جماعة صالحة وفدت إلى مكة بعد سنة، لتلتقي النبيﷺ وتبايعه بيعة عامة، عرفت في التاريخ بـ «بيعة العقبة الثانية» والتي هاجر على إثرها رسول اللّهﷺ والمسلمون إلى المدينة لتتشكل بذلك نواة المجتمع الإسلامي، والدولة الإسلامية الفتية.

لم يحمل رسول اللّهﷺ معه إلى يثرب في هجرته متاعا أو أموالاً أو شيئا من عرض الدنيا، وإنما حمل بين جنبتيه قيم ومبادئ ومفاهيم السماء ليبلغها إلى الناس كافة، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الأوثان إلى التوحيد الخالص للّه وحده، ومن قيم ومفاهيم الجاهلية، إلى قيم ومبادئ العدل والإحسان والإنسانية.

لقد كان قيام دولة الإسلام الأُولى في المدينة على يد رسول اللّهﷺ يمثل نقلة حضارية وفكرية وثقافية لم تشهدها الجزيرة العربية من قبل.

وكانت الأُسس التي ابتنيت عليها دولتهﷺ أُسسا جديدة في ذلك المجتمع في كثير من مفرداته وتفاصيله، ولم يعهدها ذلك المجتمع في حياته القبلية المبتنية على أساس حميّة الجاهلية والثأر والاغارة والنهب والقتل.

إن المتتبع لمفردات السنة الأُولى من هجرتهﷺ يمكن له أن يستخلص أُسسا أربعة تمثل الحجر الأساس للبناء الأول للدولة الإسلامية المباركة بقيادة رسول اللّهﷺ وهذه الأُسس تتمثل بما يلي:

أولاً: بناء المسجد.

ثانيا: المؤآخاة بين المهاجرين والأنصار.

ثالثا: كتابة وثيقة العهد بين المهاجرين والأنصار واليهود والقبائل الأُخرى.

رابعا: اعداد القوة لمواجهة قريش والأعراب الوثنيين.

ولا نريد الدخول في تفاصيل ومفردات هذه الأُسس لخروجها عن موضوع بحثنا[1]، وإنما نركز على الأساس الأول وهو بناء المسجد لما له من دور تربوي وتعليمي وفكري وثقافي في حياة المجتمع الإسلامي في بدء إنطلاقة الدولة الإسلامية في المدينة.

---

(١) أُنظر، السيرة النبوية لابن هشام: ٢ / ١٤١ ـ ١٤٧، ١٥٠، ودروس في السيرة النبوية للمؤلف: القسم الأول، العهد المدني.

المبحث الثاني

دور المسجد في البناء الروحي والفكري والثقافي زمن الرسول

لقد اهتمّ رسول اللّهﷺ ببناء المسجد من أول يوم وطأت فيه قدماه أرض يثرب، فبنى أول مسجد أُسس على التقوى في «قبا» قبل أن يصل المدينة[1]، وفور وصولها بركت ناقته في الموضع الذي اتخذه مسجدا في المدينة؛ ذلك الصرح المتواضع في بنائه، العظيم في خيراته وبركاته، إذ أضحى هذا المسجد مركزا فاعلاً في حياة المسلمين السياسية والعسكرية والفكرية والثقافية، فمنه تصدر القرارات السياسية، ومن باحاته تنطلق قوافل المجاهدين، ومن على منبره تشع أنوار الهداية والوحي ومعارف القرآن، ويمكن القول: «إنّ هذا المسجد المتواضع في بنائه وعمارته البسيطة قد احتضن مدرسة فريدة، والكتاب الذي كان محور الدراسة فيها هو القرآن، والمعلم الأول هو رسول اللّهﷺ وتلامذته هم الصحابة من المسلمين»[2].

ولهذا يعتبر المسجد النبوي الشريف أول مدرسة في الإسلام، فلم تكن مهمته مقصورة على العبادات فقط، بل كانت أوسع من ذلك، وكان من أعظم مهماته كونه مدرسة يعلم الرسولﷺ فيها أصحابه.

فكانﷺ يجلس في المسجد، فيعلم الجاهل، ويفتي السائل، ويبين الأحكام، ويقرؤهم القرآن.

فقد روي عنهﷺ أنه قال: «مَن دخل مَسجدي هذا ليتعلَّمَ خَيرا أو يُعَلِّمُهُ، كان بِمَنزلةِ

---

(١) التوبة: ١٠٨.

(٢) الرفاعي ـ عبد الجبار، مدرسة أهل البيت: ٩.

المجاهِدِ فِي سَبيلِ اللّه...»[1].

روى صفوان المرادي، قال: «أتيت النبيﷺ وهو في المسجد متكئ على برد له أحمر، فقلت له: يا رسول اللّه، إني جئتُ أطلب العلم، فقال: مرحبا بطالب العلم، إنّ طالب العلم تحفّه الملائكة بأجنحتها، ثمّ يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب، فما جئت تطلب؟..»[2].

وفي رواية يرويها الشيخ الطوسي في أماليه بسنده عن أبي الأسود الدؤلي عن أبيه قال: قدمت الرّبذة، فدخلت على أبي ذر.. فحدّثني أبو ذرّ قال: دخلت ذات يوم في صدر نهاره على رسول اللّهﷺ في مسجده، فلم أر في المسجد أحدا من الناس إلّا رسول اللّهﷺ وعليّعليه السلام إلى جانبه جالس، فاغتنمت خلوة المسجد فقلت: يا رسول اللّه بأبي أنت وأُمي أوصني بوصيةٍ ينفعني اللّه بها، فقال: نعم، أكرم بك يا أبا ذرّ، إنّك منّا أهل البيت، وإنّي موصيك بوصيةٍ إذا حفظتها فإنّها جامعة لطرق الخير وسبله..»[3].

وفي رواية أُخرى يرويها الشيخ الطوسي بسنده عن بعض أصحاب النبيﷺ قال: «كنّا ذات يوم عند رسول اللّهﷺ جلوسا فأتى عليّعليه السلام».

فدخل المسجد، وقد وافق من رسول اللّهﷺ قياما، فلما رأى عليّا جلس ثُمَّ أقبل عليه فقال: يا أبا الحسن إنّك أتيتَ ووافق منّي قياما فجلستُ لك، أفلا أُخبرك ببعض ما فضلكَ اللّه به؟...»[4].

---

(١) الهيثمي، مجمع الزوائد: ١ / ٣٣٠.

(٢) المنذري، الترغيب والترهيب: ١ / ٤٢، وابن عبد البر، جامع بيان العلم: ١ / ٣٢.

(٣) الطوسي، الأمالي: ٧٧٣ بتحقيق: علي أكبر الغفاري وصاحبه، طبعة دار الكتب الإسلامية ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٣٨١ هـ ش.

(٤) المصدر نفسه: ٨٧٦.

وكان رسول اللّهﷺ قد اتخذ من مسجده في المدينة مركزا لتبليغ الوحي الإلهي،فإذا نزلت عليه آيات من ربه جمع الناس فبلغهم ما نزل عليه، ففي رواية: «لما أُنزلت الآياتُ من سورة البقرة في الرِّبا، خرج النبيﷺ إلى المسجد فقرأهنَّ على الناس، ثمّ حَرَّم تجارة الخمر»[١].

وكان النبيﷺ يرتقى المنبر في مسجده الشريف، فيتحلق حوله أصحابه، فيفسح المجال لهم أن يسألونه عن أمور دينهم، ففي رواية: سأل رجلٌ النبيﷺ ـ وهو على المنبر ـ ما ترى في صلاة اللّيل؟ قال: «مثنى مثنى، فإذا خَشي الصّبح صلّى واحدةً فأوتَرتَ له ما صلى»[٢].

ولم يقتصر أمر التعليم والتربية على المسجد النبوي فقط، بل شمل بعض المساجد الأُخرى مثل مسجد (قُبا)، الذي كان رسول اللّهﷺ يخرج إليه كل يوم سبت أو يوم الاثنين وفي أيام شهر رمضان[٣]، فيصلي فيه، ويلتقي بأصحابه، وبحسب تعبير الرواية: «خرجَ النبيﷺ إلى قَباء، فجاءت الأنصار يسلمون عليه»[٤]، وقطعا أن الأمر لم يقتصر على السلام فقط، وإنما: «كانت تُعقد حلقات العلم في مسجد قباء، كما كان من عادة الرسول أن يجلس في مسجده بالمدينة ليعلم أصحابه دينهم ودنياهم»[٥].

---

(١) رواهُ البخاري: ١ / ١٣٥.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ١٣٩.

(٣) ابن شبه ـ أبو زيد عمر البصري ت ٢٦٢ هـ تاريخ المدينة المنورة: ١ / ٤٤ ـ ٤٥، حققّه: فهيم محمد شلتوت، أُفست دار الفكر ـ قم، ١٤١٠ هـ

(٤) المصدر نفسه: ١ / ٤٣.

(٥) الشلبي، تاريخ التربية الإسلامية: ٨٦.

المبحث الثالث

ملامح الحركة العلمية في عصر الرسولﷺ في المدينة

لقد كانت الفترة المدنية من حياة الرسالة ورسولها الأكرمﷺ فترة حافلة بالحركة والنشاط والجهاد وعلى مختلف الأصعدة.

فإلى جانب الحركة العسكرية والجهادية ومعارك وغزوات الإسلام الكبرى، بالاضافة إلى المفاوضات والتحركات السياسية ـ والتي طغت بشكل واسع على هذه المرحلة من عمر الرسالة ـ نجد بوضوح معالم وآثار حركة تغيرية تعتبر نموذجا رائعا في عصرها التي نشأت فيه، ونستطيع أن نسميها «حركة علمية» ونحن على ثقة تامة بهذه التسمية، حيث لا ينقصها شيء من سمات الحركة العلمية المتعارفة.

نعم «كانت الحركة العلمية في المدينة المنورة في دولة الإسلام الأُولى، فنشأت صغيرة مع الدولة الناشئة، ثمّ نمت برعاية الإسلام وعناية الرسولﷺ، ولن تجد لسنّة اللّه تبديلاً»[1].

وفيما يلي بعض الملامح والأُسس لهذه الحركة العلمية:

أولاً: اهتمام النبيﷺ بالعلم والمتعلمين:

رغم انشغال النبيﷺ في اعداد أُسس قيام الدولة الإسلامية إلّا أنه أولى اهتماما واسعا للعلم والتعليم والتربية والتزكية واشاعته بين المسلمين، من خلال مواقفه العلمية أو من خلال أحاديثه الكثيرة في هذا المجال.

---

(١) المتوكل ـ د. محمد السيّد، الحركة العلمية في عصر الرّسول وخلفائه: ٩٤.

وقد أخذ هذا الاهتمام اشكالاً وصيغا متعددة يمكن ابرازها بما يلي:

١ ـ الحث على طلب العلم وبيان فضله:

وقد وردت روايات كثيرة جدا في هذا الباب نكتفي بذكر بعضها:

قال أبو عبد الله عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ألا وإنّ اللّه يحبُّ بغاة العلم»[1].

وعنه صلى الله عليه وآله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم، وطالب العلم يستغفر له كلُّ شيء حتى الحيتان في البحر»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله: «اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم»[3].

وهنالك أحاديث أُخرى بنفس المضمون مروية عن طريق أهل البيت عليهم السلام منها:

عن الإمام علي بن موسى الرضا عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم، فاطلبوا العلم في مظانّه واقتبسوه مِن أهله...»[4].

وفي حديث آخر: قال عليه السلام، قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: العلمُ خزاين ومفاتيحه السؤال فاسألوا يرحمكم اللّه، فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل والمعلم والمستمع والمجيب له[5].

---

(١) الكليني ـ محمد بن يعقوب ت ٣٢٨ هـ الأُصول من الكافي: ١ / ٣٦ بتحقيق: علي أكبر الغفاري، أُفست دار الأضواء ـ بيروت، (١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م)، وكنز العمال، حديث رقم (٢٨٦٩٧).

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٣٤.

(٣) القرطبي ـ ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله: ١ / ٨١، والعاملي ـ زين الدين بن علي المعروف بالشهيد الثاني، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد: ٩٩ وما بعدها، وكنز العمال حديث رقم ٢٨٦٩٨.

(٤) منية المريد: ١٠٨ ـ ١١١.

(٥) الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢ / ٢٨، وأمالي الشيخ الطوسي: ٧٢٠.

وعن الإمام علي عليه السلام: «أيها الناس اعلموا أنّ كمال الدين طلب العلم والعمل به...»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «من عَلَّم خيرا فلهُ أجر من عَملَ به...»[2].

وروى ابن فهد الحلي في كتابه عدّة الداعي مسندا عن الإمام الرضا عليه السلام مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وآله قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومُسلمة»[3].

وقد فصل العلماء الكلام في المراد من العلم ومعنى كونه فريضة.

قال الشيخ نصير الدين الطوسي: «والمراد من العلم ـ هاهنا ـ: علمُ الحال، أي: المحتاجُ إليه في الحال، المُوصلُ إلى النفع في المآل». كما يقال: «أفضل العلم علمُ الحال، وأفضلُ العَمل حفظُ المَآلِ»[4].

وفي رواية عن الإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام عن آبائه سلّط فيها الضوء على المراد من «العلم» الذي دعى رسول اللّه صلى الله عليه وآله إلى تعلمه.

قال: «دخل رسول اللّه صلى الله عليه وآله المسجد، فإذا جماعة قد أطافوا برجل، فقال: ما هذا، فقيل: علّامة، فقال: وما العلّامة؟ فقالوا: أعلمُ الناس بأنساب العَرب ووقائعها، وأيام الجاهليّة والأشعار العربيّة، قال: فقال النبي صلى الله عليه وآله: ذاك علمٌ لا يضرُّ من جَهلهُ، ولا ينفعُ من علمهُ، ثمّ قال النبي صلى الله عليه وآله: إنّما العلمُ ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنّة قائمة، وما خلاهنَّ فهو فَضل»[5].

---

(١) الكليني، الكافي: ١ / ٣٠.

(٢) الكليني، الكافي: ١ / ٣٥، كتاب فضل العلم، الحديث ١١.

(٣) عدّة الداعي: ٦٣، وآداب المتعلمين: ٥٧.

(٤) الطوسي ـ نصير الدين، آداب المتعلمين: ٥٨ بتحقيق الجلالي.

(٥) الكليني، الكافي: ١ / ٣٢ كتاب فضل العلم، الحديث ١.

أما كون طلب العلم فريضة، فقد ذكر العلماء: «إن من العلم ما هو فرض متعين على كلّ امرئٍ في خاصته بنفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه عن أهل ذلك الموضع.. والذي يلزم الجميع فرضه من العلم هو ما لا يسع الإنسان جهله من جملة الفرائض المفترضة عليه، ثمّ سائر العلم وطلبه والتفقه فيه وتعليم الناس إيّاه وفتواهم به في صالح دينهم ودنياهم فهو فرض على الكفاية يلزم الجميع فرضه، فإذا قام به قائم سقط فرضه عن الباقين، لا خلاف بين العلماء في ذلك، وحجتهم فيه قول اللّه عزّ وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾[1] فألزم النفير في ذلك البعض دون الكل، ثمّ ينصرفون فيعلمون غيرهم»[2].

وروي عن أبي ذر الغفاري قال: سمعنا رسول اللّهﷺ يقول: «إذا جاء الموت طالب العلم ـ وهو على تلك الحال ـ مات شهيدا»[3].

وروي عن الإمام أبي جعفر بن محمد بن علي بن الحسين: «عالم يُنتفعُ بعلمه أفضلُ من سبعينَ ألف عابد»[4].

٢ ـ مشاركة النبيﷺ المسلمين في حلقات الدرس تشجيعا لهم:

لقد كان رسول اللّهﷺ يحث المسلمين على الاجتماع لتدارس العلم وتعلمه، وخاصة إن كان هذا الاجتماع في بيوت اللّه، حيث يجمع الطالب بين خصوصية

---

(١) التوبة: ١٢٢.

(٢) جامع بيان العلم وفضله: ١ / ١٢ ـ ١٣.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٣٠، ٥٣، ١١٥، وكنز العمال: ١٠ / ١٣٧ ـ ١٣٨ الحديث رقم ٢٨٦٩٣.

(٤) المصدر نفسه: ١ / ٣٣، كتاب فضل العلم، حديث رقم ٨.

وثواب طلب العلم من جهة، وخصوصية وثواب التواجد في بيت من بيوت اللّه سبحانه.

روي عنهﷺ أنه قال: «ما من قوم يجتمعون في بيت من بيوت اللّه، يتعلمون القرآن ويتدارسونه بينهم إلّا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وتنزلت عليهم السكينة، وذكرهم اللّه فيمن عنده، وما من رجل يسلك طريقا يلتمس فيها علما إلّا سهل اللّه له طريقا إلى الجنة، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[١].

وروي عنهﷺ: «من غدا إلى المسجد لا يريد إلّا ليتعلّم خيرا أو ليعلّمه، كان له أجرُ معتمرٍ تامِّ العمُرة، ومن راح إلى المسجد لا يريد إلّا ليتعلّم خيرا أو ليعلّمه فله أجر حاجّ تامِّ الحجّة»[٢].

وروي عنهﷺ: «إذا مررتم في رياض الجنّة فارتعُوا، قالوا: يا رسول اللّه، وما رياض الجنّة؟ قالﷺ: حَلقُ الذّكر، فإنّ للّه سيّارات من الملائكة يطلبون حَلق الذّكر، فإذا أتوا عليهم حفّوا بهم».

قال بعض العلماء: «حلقُ الذكر هي مجالس الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع، وتصلّي، وتصوم، وتنكح وتطلّق، وتحجُّ وأشباه ذلك»[٣].

وروى المتقي الهندي في كنز العمال: «وخرج رسول اللّهﷺ فإذا في المسجد مجلسان: مجلسٌ يتفقّهون، ومجلس يدعون اللّه تعالى ويسألونه، فقالﷺ: كلا

---

(١) جامع بيان العلم وفضله: ١ / ١٦.

(٢) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين: ١ / ٩١.

(٣) الشيرازي، شرح المهذب: ١ / ٣٥ وعنه في منية المريد: ١٠٦.

المجلسين إلى الخير، أ مّا هؤلاء فيدعون اللّه، وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقّهون الجاهل، هؤلاء أفضل، بالتعليم أرسلتُ، ثمّ قعد معهم»[1].

ومما يؤيّد مضمون هذا الحديث ما روي عنهﷺ: «باب من العلم يحفظه الرجل لصلاح نفسه وصلاح من بعده أفضل من عبادة حول»[2].

وحلقات الدرس والتدريس هي أوّل ما عرفه المسلمون كطريقة للتدريس وأخذوا أُصوله عن رسول اللّهﷺ.

حيث روي«إنّ رسول اللّهﷺ: كان إذا جلس جلس إليه أصحابه حَلقا حلقا»[3].

يقول أحد العلماء في كتابه الذي أعدّه لبيان أُصول نشر العلم: «أما التعليم بصورة التدريس فأصله ما كانﷺ يفعله في مجالسه مع أصحابه، من تبيين الأحكام والحِكم والحقائق، وتفسير الآيات القرآنية، وذكر فضائلها وخواصها، وغير ذلك، وهم مع ذلك مجتمعون عليه، فهذا تقرير وتبيين، قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[4]، وهذه حلقة العلم، ولم تزل حلق العلم على العلماء كذلك»[5].

فالرسول الأكرمﷺ هو المؤسس والمبتكر لحلقات الدرس، وهو المعلم الأول فيها، ثمّ سرعان ما تتوسع هذه الحلقات بواسطة النابهين من أصحابه وحملة العلم منهم، فيشارك النبيﷺ في بعضها ويأثرها على حلقات الذكر والدعاء، ويشجع أصحابها، فتتوسع هذه الحلقات فيكون لبعض الأصحاب حلقات درس في

---

(١) كنز العمال: ١٠ / ١٤٧ الحديث ٢٨٧٥١.

(٢) جامع بيان العلم: ١ / ٢٧.

(٣) الكتاني، التراتيب الإدارية: ٢ / ١٥١.

(٤) النحل: ٤٤.

(٥) المصدر نفسه: ٢ / ١٥١ ـ ١٥٢.

موضوعات مختلفة وكلّ بحسب ما يحسنه وتخصص به نسبيا، وسوف يأتينا الاشارة إلى بعض هذه الحلقات في مكانها المناسب.

٣ـ اهتمام النبيﷺ بتعليم النساء وحثّ الصحابة على ذلك:

لم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة في التعليم، بل جعل تعليم المرأة أُمور دينها، وما تستقيم به حياتها فرضا يجب عليها أن تتعلمه، وحديث الرسولﷺ «طلب العلم فريضة على كل مسلم» يشمل الرجال والنساء على حد سواء، بلا حاجة إلى ضميمة «ومسلمة» الواردة في بعض المصادر التي أشرنا إليها سابقا.

ولهذا كان رسول اللّهﷺ يخرج إلى النساء فيعظهنّ ويعلمهنّ، لأنّ ترك النساء بغير تعليم يؤدي إلى جهلهنّ بما يجب عليهنّ من أُمور دينهنَّ، وحقوق أزواجهنّ، وتربية أولادهنّ، والنساء نصف المجتمع، وتعليمهنّ يرفع من مستوى الأُمة، ويمكنهنّ من القيام بواجبهنّ، وبذلك يسهمن في تطوير الحياة في الأُمة التي يشكلن الجزء المكمل فيها.

روى ابن عباس: «إنّ رسول اللّهﷺ خرج ـ أي إلى النساء ـ ومعه بلال.. فوعظهن وأمرهن بالصدقة»[1].

وروي ان الشفاء بنت عبد اللّه العدوية علّمت حفصة ـ زوج النبيﷺ ـ الكتابة بعلم رسول اللّهﷺ[2].

وقد بلغ حرص النساء على التعلم أن طلبْنَ من رسول اللّهﷺ أن يخصص لهنَّ يوما يعلمهنَّ فيه.

---

(١) صحيح البخاري: ١ / ١٩٢.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان: ٤٥٨.

فقد روي عن أبي سعيد الخدري قال: «قالت النساء للنبيﷺ: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوما من نفسك، فوعدهنَّ يوما لقيهنَّ فيه، فوعظهنّ وأمرهنّ». وفي رواية فقالﷺ: «موعدكن بيت فلانة، فأتاهن فحدثهن»[1].

والذي يظهر من الرواية أن النساء كن يسألن رسول اللّهﷺ ويحضرن درسه مع الرجال، حيث كان وضع مسجد رسول اللّهﷺ والمسلمين يسمح بذلك، فلما كثر عدد المسلمين من الرجال في الدرس وأصبح حضور النساء حرجا، ولم يعد هناك فرصة ليتمكن فيها النساء من الاستفادة المرجوة طلبنَ من الرسولﷺ أن يخصص لهن يوما يعلمهن فيه.

والرسول لم يعترض على الاقتراح، ولم يمتنع عن تدريسهن وتعليمهن، مما يفيد أن التعليم حق من حقوق المرأة في الإسلام، ولها أن تطالب به، وعلى الحاكم الإسلامي أن ييسره لها بالشكل الذي يحفظ عليها عفتها وكرامتها وهي تطلب العلم.

لهذا وافق الرسول على الاقتراح، وحدّد لهن مكانا يجتمعن فيه حتى لا يزاحمهن الرجال، وقد حضر الرسولﷺ في الموعد والمكان الذي حدده، فأمرهن ووعظهن وحدثهن بما يعود عليهن بالخير والنفع[2].

وقد عرف عن نساء الأنصار في المدينة كثرة السؤال من النبيﷺ عن أُمور دينهن، فقد روي عن عائشة: «نعمَ النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقّهن في الدين»[3].

ولم يقف الإسلام عند تعليم النساء الحرائر والاهتمام بهن، بل تجاوز ذلك الحث

---

(١) البخاري: ١ / ١٩٥، وفتح الباري: ١ / ١٩٦.

(٢) السيّد وكيل ـ محمد، الحركة العلمية في عصر الرسول: ٣٧.

(٣) البخاري: ١ / ٤١.

إلى تعليم الإماء ـ اللواتي كان عددهنَّ كثيرا في ذلك الوقت ـ فقد روي عنهﷺ: «ثلاثة لهم أجران:... ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثمّ اعتقها فتزوجها، فله أجران»[1].

٤ ـ اهتمامهﷺ بتعليم الصبيان والشباب:

لا يتوقف طلب العلم وتحصيله على عُمر معين، ولا زمان محدد، وإنما يرافق الإنسان في كل أطوار حياته، ولعل في الحديث الشريف «اطلب العلم من المهد إلى اللحد»[2]، إشارة إلى ذلك، بالاضافة إلى الأحاديث الأُخرى التي تتحدث عن قرب وفاة الإنسان وهو منشغل في طلب العلم، فتجعل له أجر الشهيد في سبيل اللّه، كما في حديث رسول اللّهﷺ: «إذا جاء الموت طالب العلم وهو على تلك الحال مات وهو شهيد»[3].

ولهذا حرص العلماء من صحابة رسول اللّه على تعلم العلم وتعليمه في مختلف أطوار حياتهم، وبعضهم تعلم في كبر سنه.

إلّا أنّ شأن طلب العلم ـ وهو من الأُمور الاكتسابية ـ أن يكون طلبه في الصغر، حتى ورد في الأثر المشهور: «مَثَلا الّذي يَتَعلَّمُ في صِغَرِهِ كالنقش في الحجر ومَثَلُ الذي يتعلّمُ العلمَ في كِبَرِهِ كالّذي يكتبُ على الماء»[4]. وهذا يعني أن العلم في الصغر أرسخ أُصولاً، وأبسق فروعا.

---

(١) البخاري: ١ / ١٩٠.

(٢) الطوسي ـ نصير الدين، آداب المتعلمين: ١١١ الهامش تحقيق الجلالي.

(٣) القرطبي، جامع بيان العلم: ١ / ٥٣.

(٤) السيوطي، الجامع الصغير: ٢ / ١٥٤، والماوردي، أدب الدنيا والدين: ٥٧، ومنية المريد: ٢٢٦، والهيثمي، مجمع الزوائد: ١ / ٣٣٣.

ولهذا روي عنه أيضا: «من تعلم العلم وهو شاب كان كالوشم في حجَر، ومن تعلم العلم بعد ما يدخل في السن كان كالكاتب على ظهر الماء»[1].

وعندما نعود إلى أحاديث رسول اللّهﷺ وسيرته، نجد فيها التأكيد على تعليم الصبيان والشباب وجعل ذلك حقا من حقوقهم التي ينبغي أن يتمتعوا بها في صغرهم وشبابهم حتى يكونوا مصدر خير في المجتمع الإسلامي.

فقد روي عنهﷺ: «حق الولد على والده أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي»[2].

وكانﷺ يؤكد كثيرا على تعليم الشباب، ويوصي بهم خيرا، ففي الحديث المروي عن زيد بن ثابت قال: قال رسول اللّهﷺ: «استودعوا العلم الأحداث»[3].

ومن طريف ما يروى في هذا المجال ما روي عن شهر بن حوشب قال: كنا نأتي أبا سعيد الخدري ونحن غلمان نسأله، فكان يقول: مرحبا بوصية رسول اللّهﷺ، وقال رسول اللّهﷺ: «سيأتيكم قوم يتفقهون ففقهوهم، وأحسنوا إليهم»[4]، وذكر أيضا عن أبي سعيد الخدري: كان إذا رأى الشباب قال: «مرحبا بوصية رسول اللّهﷺ، أمرنا أن نحفظ لكم الحديث، ونوسع لكم في المجلس»[5].

ومن الواضح أن الصبي والشاب أكثر تقبلاً لطلب العلم لأنه: «أفرَغُ قلبا، وأقلُّ شُغلاً، وأيسرُ تبذّلاً، وأكثر تواضعا»[6].

---

(١) الكتاني، التراتيب الإدارية: ٢ / ١٦٢، وقد تردد المؤلف في نسبة الحديث إلى قائله. وانظر جامع بيان العلم: ١ / ٩٨.

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ١٦٥ عن شعب الايمان للبيهقي.

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ٢١٤.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) الماوردي، أدب الدين في الدينا: ٥٧.

يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في وصيته القيّمة لولده الحسن عليه السلام: «قلبُ الحدثِ كالأرض الخالية، ما أُلقي فيها من شيءٍ قبلته»[1].

٥ ـ اهتمامه بتعلم الكتابة:

لقد كانت السمة البارزة للأُمة التي بعث فيها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هي الأُمية، ومعنى ـ الأمّي ـ كما يقول الراغب في المفردات ـ «هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب... أو هم: العرب الذين لم يكن لهم كتاب»[2].

وقد أشار القرآن الكريم إلى صفة الأُمية المتفشية في تلك الأُمة، فسماهم الأُميّين، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[3].

وقد تكون إشارة القرآن إلى صفة الأُمية بين العرب بمعناها الحضاري، أي أنها أُمية حضارية، بعيدة كل البعد عن أوجه الحضارة التي كانت تعيشها الأُمم الأُخرى المجاورة لها.

إلّا أنّ الأُمية الحضارية تلازم بالضرورة الأُمية بمعنى عدم معرفة القراءة والكتابة، لأنها من أوجه بناء الحضارة ومن مقوماتها الأساسية.

ومهما يكن من أمر، فإنّ تاريخ الجزيرة العربية يشهد على أُمية أهلها.

يقول البلاذري: «دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب.. وقال الواقدي: «كان الكتّاب بالعربية في الأوس والخزرج قليلاً»[4].

---

(١) نهج البلاغة: ٣٩٣ بترتيب الدكتور صبحي الصالح، طبعة دار الهجرة ـ قم، بلا ـ ت.

(٢) الراغب الإصفهاني، المفردات: مادة «أم»: ٨٧، تحقيق: صفوان عدنان داودي، أُفست ذوي القربى ـ قم.

(٣) الجمعة: ٢، وانظر: سورة البقرة: ٧٨، وآل عمران: ٢٠.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان: ٤٥٧ و ٤٥٩.

ويروى أنّ النبيﷺ أرسل رسالة إلى بكر بن وائل فلم يجدوا قارنا لها في القبيلة[1].

فإذا كانت قبيلة بكر بن وائل وهي من كبرى قبائل العرب لا تجد فيها كاتبا، فما بالك بالقبائل الصغيرة الأُخرى!

وحتى أُولئك القلّة، من الذين كانت لهم معرفة بالكتابة، كانت معرفتهم بها معرفة بدائية وضعيفة، كما ينص على ذلك ابن خلدون في مقدمته[2]، بل ربّما كانوا يعتبرون القراءة والكتابة عيبا، فقد قال عيسى بن عمر: قال لي ذو الرمّة: ارفع هذا الحرف، فقلت له: أتكتب؟ فقال ويدهُ على فِيه ـ أي اكتم عليَّ ـ فإنّه عندنا عيب[3].

ولهذا أولى النبيﷺ عناية خاصة بتعليم الكتابة والقراءة.

لقد عهد إلى بعض أسرى معركة بدر ممن كانوا يعرفون الكتابة والقراءة ممّن عجزوا عن دفع الفداء، بأن يعلم كل واحد منهم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة والقراءة.

قال السهيلي: «كان من الأسارى يوم بدر من يكتب، ولم يكن من الأنصار يومئذ أحد يحسن الكتابة، فكان منهم من لا مال له، فيقبل منه أن يعلم عشرة من الغلمان الكتابة ويخلي سبيله، فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت في جماعة من غلمان الأنصار»[4].

وكانﷺ يأمر بعض الصحابة ممن يحسنون الكتابة أن يعلموا من لا يحسنها، ففي الاستيعاب عند ترجمة عبد اللّه بن سعيد بن العاصي، قال: «وأمره ـ رسول اللّهﷺ ـ أن

---

(١) أُنظر الهيثمي، مجمع الزوائد: ١ / ٣٠٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ١٨.

(٣) ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٣٣٤.

(٤) الروض الأنف للسهيلي: ٢ / ٩٢، والحلبي، السيرة الحلبية: ٢ / ١٩٣.

يعلّم الناس الكتابة بالمدينة، وكان كاتبا محسنا»[1].

وفي سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال: «علمت ناسا من أهل الصُّفَّة الكتابة والقرآن»[2].

وينص المؤرخون على أن الكتابة العربية لم تكثر في المدينة إلّا بعد الهجرة النبوية بأكثر من سنة.. وصارت تنتشر في كل ناحية فتحها الإسلام، في حياته عليه السلام وبعده، حتى بلغت عدّة كُتّابه عليه السلام (٤٢) رجلاً[3].

وهكذا توسعت معرفة الكتابة بين المسلمين، وتحولت بمرور الزمن إلى صفة لازمة لبعض الأشخاص فيقال فلان الكاتِب، وأخذ المسلمون يخصصون أماكن لتعليم صبيانهم الكتابة والقراءة اقتداءً وتأسيا برسول اللّه ﷺ.

٦ ـ اهتمامه بكتابة أحاديثه:

لقد كان المجتمع العربي في صدر الإسلام الأول، مجتمعا أُميا لا يقرأ ولا يكتب إلّا القليل النادر كما أسلفنا فيما مضى، ولهذا كان يعتمد على حافظته في حفظ الأشعار والحكم والأدب، ثمّ بعد تشرفهم بالإسلام أخذوا يحفظون أحاديث رسول اللّه ﷺ وخطبه وارشاداته.

إلّا أن الاعتماد على الحفظ فقط له مساوئُ كثيرة «وتؤدي إلى الأوهام والأخطاء في الحديث،ولا يخفى أنّ اجتناب الخطأ في الحديث أمر ضروري وواجب لخطورة أمره،

---

(١) ابن عبد البر، الاستيعاب في اسماء الأصحاب: ١ / ٥٥٠ ـ ٥٥١، طبعة دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م.

(٢) الكتاني، التراتيب الإدارية: ١ / ١٠٨.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ١٠٨.

لأ نّه منسوب إلى رسول اللّهﷺ وتبتني عليه أحكام الشرع، فإهمال أمره يؤدّي إلى التحريف في الدين، والتهاون بأمر الشرع المبين»[١].

فالكتابة والتدوين هي الوسيلة المثلى للاتقان وعدم الوقوع في الزيادة أو النقصان، بالاضافة إلى فوائد عظيمة أُخرى تترتب على الكتابة والتدوين، والتي لا تتنافى مع الحفظ، بل هي مؤكّدة له، وموجبة لقوته.

ولهذا نجد النبيﷺ يولي أهمية خاصة بكتابة الأحاديث المسموعة منهﷺ، والأحاديث الواردة في هذا المجال كثيرة، سواءً منها ما تضمّن الأمر منهﷺ بالكتابة أو التقييد، أو ما كان بنحو الإذن أو الترغيب في ذلك.

روي عن عليعليه السلام عن رسول اللّهﷺ قال: «اكتبوا هذا العلم»[٢].

وروي عن عبد اللّه بن عمرو، قال: قلنا: يا رسول اللّه، إنا نسمعُ منك أشياءَ لا نحفظها، أفنكتبها؟ قالﷺ: «بلى، فاكتبوها»[٣].

وروي عن عبد اللّه بن عمرو ـ أيضا ـ قال: كنت أكتبُ كلّ شيء أسمعه من رسول اللّهﷺ، وأُريدُ حفظه، فنهتني قريش، وقالوا: تكتب كلّ شيء تسمعه من رسول اللّهﷺ، ورسول للّهﷺ بَشَر يتكلّم في الرضا والغضب؟!

قال: فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول اللّهﷺ، فأومأ باصبعه إلى فيه، وقال: «أكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلّا حق»[٤].

---

(١) الجلالي ـ محمد رضا، تدوين السنة الشريفة: ٣٧٨.

(٢) كنز العمال: ١٠ / ٢٦٢ الحديث رقم ٢٩٣٨٩.

(٣) تقييد العلم: ٧٤.

(٤) القرطبي، جامع بيان العلم: ١/ ٨٥، والمستدرك: ١ / ١٠٥ ـ ١٠٦.

وفي رواية مشابهة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: «قلت يا رسول اللّه أكتب كل ما أسمع منك؟ قالﷺ: نعم، قلت: في الرضا والغضب؟ قالﷺ: نعم، فإني لا أقول في ذلك كلّه إلّا حقا»[1].

وفي رواية أنس بن مالك قال: قال رسول اللّهﷺ: «قيّدوا العلم بالكتابة»[2].

وقد روي هذا الحديث عن عمر بن الخطاب، وعبد اللّه بن عباس، وغيرهما أيضا[3].

وفي صحيح الترمذي بسنده عن أبي هريرة، قال: كان رجل من الأنصار يجلس إلى رسول اللّهﷺ فيسمع من النبيﷺ الحديث، فيعجبه ولا يحفظه، فشكا إلى رسول اللّهﷺ، فقال: يا رسول اللّه، إنّي لأسمع منك الحديث فيعجبني ولا أحفظه؟! فقال رسول اللّهﷺ: «استَعن بيمينك» وأشار بيده إلى الخطّ[4].

وفي بعض النصوص: «استعن على حفظك بيمينك»[5].

وهنالك عشرات الأحاديث الأُخرى المروية عن النبيﷺ، والتي يرويها كبار الصحابة والتابعين، وتضمنتها كتب الصحاح والحديث، وبألفاظ ومضامين متقاربة، تنص جميعها على أن الرسول الأكرمﷺ قد حثّ ورغّب؛ بل وأمر بكتابة أحاديثه.

---

(١) القرطبي، جامع بيان العلم: ١ / ٨٥.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٨٦، وتقييد العلم: ٦٩، وتحف العقول: ٣٦.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٨٦ وما بعدها.

(٤) سنن الترمذي: ٥ / ٣٩، حديث رقم ٢٦٦٦.

(٥) الكامل لابن عدي: ٣ / ٩٢٨.

ومع هذا الكم الهائل من الأحاديث المروية في هذا المجال، لا يصغى لما ينسب إليهﷺ من أنه نهى عن كتابة أحاديثه، أو أنهﷺ قال: «لا تكتبوا عني شيئا سوى القرآن، فمن كتب عني شيئا سوى القرآن فليمحه»[1].

ولهذا نجد العلامة القرطبي المتوفى سنة (٤٦٣ هـ) بعد أن عقد بابا في كتابه: «جامع بيان العلم وفضله» تحت عنوان: «ذكر كراهية كتابة العلم وتخليده في المصحف»، وذكر فيه الحديث السابق عن رسول اللّهﷺ ولم يذكر حديثا غيره، وجلُّ ما ذكره مروي عن الصحابة والتابعين والمحدثين ناسبين ذلك لرسول اللّهﷺ من دون أي اسناد يذكر، عقَّب على ذلك في نهاية الباب بقوله: «ولولا الكتاب لضاع كثير من العلم، وقد ارخص رسول اللّهﷺ في كتابة العلم، ورخَّص فيه جماعة من العلماء، وحمدوا ذلك ونحن ذاكروه بعد هذا بعون اللّه»[2] ثمّ عقد بابا تحت عنوان: «ذكر الرخصة في كتابة العلم» وأورد عشرات الأحاديث المسندة عن كبار الصحابة، والتي ذكرنا بعضها آنفا.

ومن طريف ما ينقله في هذا الباب، الحوار المقتضب بين إسحاق بن منصور، وأحمد بن حنبل، قال: «أخبرني أحمد بن محمد.. حدثنا إسحاق بن منصور قال: قلت لأحمد بن حنبل، من كره كتابة العلم؟ قال: كرهه قوم ورخص فيه آخرون، قلت له: لو لم يكتب العلم لذهب، قال: نعم، ولولا كتابة العلم أي شيء كنا نكون نحن»[3].

---

(١) جامع بيان العلم: ١ / ٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٨٤.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٩٠ ـ ٩١.

فنجد الامام أحمد بن حنبل وهو المحدث وصاحب المسند المشهور، ومن أئمة المذاهب الأربعة، لا يسند حديث كراهية كتابة الحديث لرسول للّهﷺ وإنما ينسبه إلى قوم!

نعم حصل المنع عن كتابة حديث رسول اللّهﷺ وروايته، وبأساليب قهرية متنوعة، وذلك بعد وفاة رسول اللّهﷺ، ولأسباب سياسية وفكرية وعقائدية، لسنا في صدد الحديث عنها[1].

٧ ـ حثّ النبيﷺ بعض أصحابه على اللغات الأجنبية:

لا يخفى أهمية اللغة ودورها في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فهي مفتاح للتفاهم بين الأفراد والمجتمعات البشرية، والطريقة المثلى للتعارف؛ الذي أصبح ضروريا لعيش وأمن الإنسان على حقوقه حين الاختلاط مع أفراد المجتمعات البشرية الأُخرى.

وتظهر الأهمية الكبرى للّغة في الجانب العلمي من حياة الإنسان، إذ أصبحت اللغة، ـ وخاصة بعض اللغات الأجنبية ـ مفتاحا للعلوم الكونية والطبيعية ووسائل الاتصال، فأصبح من الضروري اتقان تعلمها لمجاراة تلك الشعوب والأُمم في رقيهم وتطورهم العلمي، والاستفادة من تجاربهم وخبراتهم وما أنجزوه في شتى فنون العلم والمعرفة.

---

(١) أُنظر، الحكيم ـ حسن، مذاهب الإسلاميين في علوم الحديث: ٣٩ ـ ٥٨، وأبو ريه ـ محمود، اضواء على السنة المحمدية: ٤٦ وما بعدها، وللتوسع أُنظر: الجلالي ـ محمد رضا: تدوين السنة الشريفة، والشهرستاني ـ علي: منع تدوين الحديث.

وقد لا نحتاج إلى التماس الدليل الشرعي أو معرفة الحكم الشرعي في جواز تعلم لغة من اللغات فهو من المباحات التي ترك اختيارها للمكلف، أو من الكمالات العلمية والشخصية التي ينبغي للإنسان السعي لها وتحصيلها.

ينقل عن الشيخ صفي الدين الحلي قوله:

بقـدر لغـات المـرء يكثـر نفعـه ... وتلـكَ لـه عنـد الملمـات أعـوان

فبادر إلـى حفـظ اللغـات مسـارعا ... فكل لسان فـي الحقيقـة إنسـان[1]

وعندما نعود إلى سيرة الرسول الأكرمﷺ وفي عهدها المدني نجد أن المجتمع المدني آنذاك كان يتألف من نسيج اجتماعي وديني متعدد، فكان إلى جانب العرب قوميات أُخرى وإن كانوا يشكلون أقلية، وكذلك إلى جانب الإسلام نجد الديانة اليهودية بالاضافة إلى بعض النصارى أو المجوس.

وكانت هذه الأقليات العرقية والدينية تتكلم وتتفاهم فيما بينها بلغتها الأُم، كالسريانية، والعبرانية، والفارسية، بالاضافة إلى معرفتها للغة العربية.

وتنقل لنا كتب الصحاح والتراجم والسير أن رسول اللّهﷺ قد أمر زيد بن ثابت أن يتعلم السريانية، وهي لغة اليهود القاطنين في الجزيرة العربية آنذاك ففي الاستيعاب قال: «كانت ترد على رسول اللّهﷺ كتب بالسريانية، فأمر زيدا فتعلمها في بضعة عشر يوما»[2].

وفي صحيح البخاري: عن زيد بن ثابت: «أن النبي أمره أن يتعلم كتاب اليهود، فإني ما آمن يهوديا على كتابي فتعلمته في نصف شهر، حتى كتبت له إلى اليهود،

---

(١) كتاني، التراتيب الإدارية: ١ / ١٨٨.

(٢) ابن عبد البر القرطبي، الاستيعاب: ١ / ٣٢١ ـ ٣٢٢.

وأقرأته إذا كتبوا إليه»[1].

وأخرج ابن داود وغيره عن زيد بن ثابت قال: قال لي رسول اللّهﷺ: «إنه تأتيني كتب من أُناس لا أُحب أن يقرأهن كل واحد، فهل تستطيع أن تتعلم العبرانية أو السريانية، فقلت نعم، فتعلمتها في سبعة عشر يوما»[2].

والملاحظ في هذا الباب أن جميع هذه الروايات ينتهي سندها إلى زيد بن ثابت، وهو يتحدث عن نفسه، ثمّ الفترة الزمنية القياسية التي تعلّم بها السريانية، إذ ليس من المعقول أن يتعلم اللغة السريانية أو العبرانية في أُسبوعين أو ثمانية عشر يوما! إلّا أن يقال إنه كان يعرف تلك اللغة وعايش بعض مفرداتها قبل ذلك، وهذا ما نفاه بنفسه حيث قال: «قال لي رسول اللّهﷺ أتحسن السريانية، إنه تأتيني كتب؟ قال: قلت: لا. قال: فتعلمها...»[3].

بالاضافة إلى ما ورد في ترجمة زيد من أنه: كان عمره لما قدم النبيﷺ المدينة إحدى عشرة سنة، وان اول مشاهده الخندق لأنه كان صغيرا قبل ذلك[4].

فكيف يطلب النبيﷺ من زيد بن ثابت بأن يتعلم السريانية وهو لا زال طفلاً يافعا، ولم يطلبها من غيره؟ ولماذا تنحصر قضية تعلم السريانية بشخص زيد فقط، مع أنهم يروون أن كتّاب الوحي كانوا أكثر من شخص وإلى ما شاء اللّه؟

---

(١) البخاري: ٤ / ١٥٣ رقم الحديث ٧١٩٥، طبعة دار الفكر ـ بيروت.

(٢) الكتاني: ١ / ١٨٧.

(٣) الكتاني، التراتيب الإدارية: ١ / ١٨٥.

(٤) ابن الأثير، أسد الغابة: ٢ / ٣٣٢، ترجمة زيد بن ثابت، طبعة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط. الأُولى، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م.

والأعجب من ذلك كلّه ما توسع به بعض الكتّاب في هذه الدعوى، فأسبغوا على شخصية زيد ما لم يحلم به في حياته! فقال الكتاني في التراتيب الإدارية: في العمدة للتلمساني: زيد بن ثابت، كان يكتب للملوك، ويجيب بحضرة النبيﷺ، وكان ترجمانه بالفارسية والرومية، والقبطية والحبشية، تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن!

ثمّ يضيف قائلاً: «وفي ص ١٤٤ من الجزء الثاني من العقد الفريد وقيل: إنه ـ أي زيدا ـ تعلم الفارسية من رسول كسرى! والرومية من حاجب النبيﷺ! والحبشية من خادم النبيﷺ! والقبطية من خادمته!»[١].

مع أن هذا الكاتب ينقل أن النبيﷺ كان يعرف جميع اللغات، وإنهﷺ علمه اللّه جميع اللغات، وهوﷺ مرسل للجميع، وإنهﷺ قد تكلم مع سلمان الفارسي بالفارسية[٢].

فإذا كان رسول اللّه يعرف جميع اللغات ويفهمها ويتكلم بها فما حاجته لزيد ابن ثابت؟

وإذا كان النبيﷺ قد تكلم بالفارسية مع سلمان، فكيف يروون الأحاديث في كراهة الكلام بالفارسية، وإنّ عمر نهى عن التكلم بالفارسية؟ وإنّ مالكا قال بكراهته[٣]!

فكل هذه المعطيات تدل على أن ما قيل في قصة زيد بن ثابت قصة مفتعلة، أو مبالغ فيها كثيرا، كما بالغوا في غيره من الصحابة حيث قيل: «إنّ عبد اللّه بن الزبير

---

(١) التراتيب الإدارية: ١ / ١٨٥.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ١٨٧ ـ ١٨٨.

كان له مائة غلام، كل غلام يتكلم بلغة، وكان ابن الزبير يكلم كل أحد بلغته»[1]. وهي من المبالغات التي لا يقبلها العقل السليم!

ومهما يكن من أمر، فيمكن أن نقبل أن النبيﷺ قد طلب من بعض أصحابه تعلم بعض اللغات التي كانت متداولة في يثرب وما حولها، كنوع من أنواع المهارات التي كان النبيﷺ يشجع أصحابه على تعلمها، مثل السباحة وركوب الخيل.. من دون الحاجة إلى هذا اللون من المبالغة. علما بأنّ النبيﷺ لم يرسل كتابا من كتبه بغير اللغة العربية، ولم يكتب بالفارسية أو السريانية أو القبطية[2].

٨ ـ الاهتمام بالتبليغ، وإرسالهﷺ للمبلغين والدعاة:

تعتبر مهمة التبليغ والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة من أُولى أوليات الأنبياء والرسل سلام الله عليهم.

وقد أولى القرآن الكريم عناية خاصة بهذه المهمة وأوكل أمرها إلى النبيﷺ وجعلها من صميم بعثته المباركة إلى الناس كافة.

والآيات القرآنية التي تحدثت عن هذه المهمة كثيرة جدا، وجاءت في سياق الحديث عن الأنبياء عامة والنبي الأكرم خاصة، ومن اتبعهم وآمن برسالتهم من المؤمنين والمؤمنات والدعاة إلى الله.

يقول تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّـرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[3].

---

(١) التراتيب الإدارية: ١ / ١٨٨.

(٢) الأحمدي، مكاتيب الرسول: ١ / ١٦ ـ ١٧.

(٣) البقرة: ٢١٣.

وقال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ... ﴾[1].

ويقول سبحانه مخاطبا خاتم رسله بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا * وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[4].

وقال عزّ وجل مبينا بعض مهام النبيﷺ الدعوتية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[5].

وبين سبحانه لنبيّه أُسلوب الدعوة في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[6].

وقال سبحانه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[7].

---

(١) النساء: ١٦٥، وانظر الآيات: الأنعام: ٤٨، والكهف: ٥٦.

(٢) الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٧.

(٣) فاطر: ٢٤.

(٤) سبأ: ٢٨.

(٥) الجمعة: ٢.

(٦) يوسف: ١٠٨.

(٧) النحل: ١٢٥.

إلى غير ذلك من الآيات المباركة التي تبين مهام الأنبياء والرسل وعلى رأسهم وخاتمهم نبينا الأكرمﷺ من التبشير والانذار وإقامة الحجة والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والتزكية والتربية والتعليم...

ولم تنحصر هذه المهام الربانية بالتي ذكرتها الآيات السابقة وإنما هنالك مهام أُخرى ثقيلة وخطيرة تدخل في صميم مهام الأنبياء والرسل.

كذلك لا تنحصر مسؤولية القيام بهذه الوظائف على الأنبياء والرّسل وحدهم، وإنما أُنيطت بالمؤمنين برسالات هؤلاء الأنبياء وبمن يحملون الهم الرسالي والدعوة إلى اللّه.

يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

فلم يقتصر دور أصحاب رسول اللّهﷺ على الجهاد والنفر في سبيل اللّه من خلال المشاركة في الغزوات والسرايا، وإنما كان لهم دور آخر لا يقلُّ أهمية وخطورة من الدور الأول، وهو دور الدعوة إلى اللّه تعالى والتبليغ والإرشاد والتعليم والتربية للأُمة وللناس كافة. وكان النبيﷺ يعمل على إعداد أصحابه الإعداد الكامل لتحمل مسؤولياتهم على كلا الصعيدين، صعيد الجهاد ومقارعة أعداء اللّه ورسالته، وصعيد التبليغ والدعوة إليه سبحانه بالحكمة والموعظة الحسنة، فأنشأ الجماعة الصالحة التي تحملت كلا المسؤوليتين ببصيرة ووعي وتفاني واخلاص، وصلت بهم إلى درجة التضحية بالنفس وعلى كلا الصعيدين.

---

(١) التوبة: ١٢٢.

ففي رواية عبد اللّه بن مسعود عن أبيه قال: قال رسول اللّهﷺ: «نضّر اللّه عبدا سمع مقالتي فحفظها وَوَعاها وبلَّغها من لم يَسْمَعْها، فربّ حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه..»[1].

وفي حديث آخر عن جابر، عن رسول اللّهﷺ قال: «نضّر اللّه أمرأً سمع مقالتي فوعاها، ثمَّ بَلَّغها، فرب مبلِّغ أوعى من سامع..»[2].

وخطب رسول اللّهﷺ في منى فقال: «ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فإنه لعله أن يبلغه من هو أوعى له منه أو من هو أحفظ له».

وورد هذا الحديث بلفظ آخر في قولهﷺ: «ليبلغ الشاهد الغائب ـ مرتين ـ فرب مبلَّغ أوعى من مبلِّغ» أو: «... فرب مبلّغ أوعى من سامع».

وفي حديث آخر رواه ابن عباس قال: قال رسول اللّهﷺ: «تسمعون ويُسمع منكم، ويسمع ممن يسمع منكم»[3].

وهنالك أحاديث كثيرة رويت عن النبيﷺ يدعو فيها أصحابه في زمانه ومن يأتي من بعدهم إلى حمل رسالة الدعوة إلى اللّه، وتبليغ الشاهد الغائب..[4].

ولم تقتصر دعوة الرسولﷺ لأصحابه إلى حمل مهمة التبليغ والدعوة على الترغيب لهم للقيام بهذه المهمة فقط، وإنما بادر إلى إرسال المبلغين والدعاة إلى

---

(١) انظر: القرطبي، جامع بيان العلم وفضله: ١ / ٤٦ وما بعدها، والهيثمي، مجمع الزوائد: ١ / ٣٥٦، والعاملي، منية المريد: ٣٧١.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٤٦، والهيثمي، مجمع الزوائد: ١ / ٣٥٥.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٤٦، والهيثمي، مجمع الزوائد: ١ / ٣٥٥.

(٤) انظر: المصدرين السابقين، والكافي للكليني، كتاب فضل العلم، باب صفة العلم وفضل العلماء: ١ / ٣٢ وما بعدها، والهيثمي، مجمع الزوائد: كتاب العلم، باب سماع الحديث وتبليغه: ١ / ٣٥٣ـ٣٥٨.

شتى انحاء الجزيرة العربية وإلى خارجها كالحبشة وبلاد الروم وبلاد فارس، وسيف البحر...

وقد بادر بنفسهﷺ إلى القيام بهذه المهمة فكانﷺ أول المبلغين والدعاة من مكة إلى خارجها، فكانت هجرته إلى الطائف في السنة العاشرة من بعثته لدعوة قبيلة «ثقيف» إلى الإسلام، التي لم تُحسن لقاء النبيﷺ، ولم تستجب لدعوته ولقي منهم معاملة سيئة، وردوه في استهزاء وسخرية.. وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويصيحون به، فانصرف عنهم دون أن يستجيب له أحد منهم سوى غلام نصراني يقال له «عدّاس»[1].

إلّا أنّهﷺ لم ييأس من دعوة قومه، ولم تصده المحن والعقبات التي لاقاها عن مواصلة سيره في الدعوة إلى اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة.

وهكذا نجد رسول اللّهﷺ يوظّف موسم الحجّ وفرصة تجمع الناس في صعيد مكة ومنى وعرفات لنشر دعوته بين القبائل الوافدة إلى رحاب بيت اللّه، «فكان رسول اللّهﷺ يعرض نفسه في المواسم، على قبائل العرب، يدعوهم إلى اللّه، ويخبرهم أنّه نبيّ مرسل، ويسألهم أن يصدّقوه حتى يبيّن لهم»[2].

فكانﷺ يبتغي أماكن تجمّع هذه القبائل ويقصدها، فيذهب إليهم في منازلهم ومحل سكناهم، ليبلّغهم دعوة الإسلام، ويدعوهم إلى الهدى والصلاح والإيمان..، فكانت بيعة العقبة الأُولى وبيعة العقبة الثانية ومن ثمّ الهجرة إلى المدينة، وهي من ثمرات تلك الجهود الدعوتية التي بذلها رسول اللّهﷺ.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٦٠ ـ ٦٣.

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٦٤.

وكانت المرحلة المدنية من سيرة رسول اللّهﷺ حافلة بالأحداث والوقائع والمناسبات، وعلى رأسها إرسال المبلغين والدعاة إلى القبائل النائية عن المدينة لدعوتهم إلى الإسلام والتوحيد، ونبذ الآلهة والأوثان، فكانﷺ يعدّ هؤلاء الدعاة من خلال التربية القرآنية ومعرفة الأحكام الشرعية والتعاليم النبوية.. ليكونوا مؤهلين لحمل الدعوة والتبليغ.

وقد سجلت لنا كتب السيرة النبوية الكثير من المفردات والوقائع حول ما قام به هؤلاء الصفوة من المبلغين والدعاة، وما تحملوه من مشاقّ وأذى في سبيل ذلك، وصل إلى حد القتل الفضيع على أيدي بعض القبائل الوثنية، كما في قصّة (الرجيع) حيث غدرت قبيلتا «عضل والقارة» بمجموعة المبلغين الذين أرسلهم رسول اللّه بناءً على طلبهم، فعدوا عليهم في وسط الطريق فقتلوا بعضهم، وباعوا آخرين لوثنيٍّ قريش في مكة فقتلوهم صبرا.

كذلك نجد تعرض هؤلاء الدعاة والمبلغين إلى جريمة فضيعة أُخرى حيث قتل أربعون مبلغا من خيار المسلمين ومن حفظة القرآن، وهم في مهمة تبليغية إلى أرض نجد، فأحاطت بهم قبائل سليم وقتلتهم عن آخرهم في قصة محزنة عرفت في التاريخ بواقعة «بئر معونة»[(١)].

وهنالك شواهد أُخرى كثيرة في كتب السيرة والتاريخ تفصح لنا بوضوح عن الأهمية التي كان يوليها النبيﷺ لمهمة التبليغ والدعوة إلى اللّه، وقد جمع الكثير منها الكتاني الإدريسي الفاسي في كتابه القيّم: «التراتيب الإدارية». وغيره من الكتّاب[(٢)].

---

(١) انظر: الواقدي، المغازي: ١ / ٣٥٤ ـ ٣٦٢، وابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ١٦٩ و ١٨٣ ـ ١٨٧، والمقريزي، امتاع الأسماع: ١ / ١٧٠ ـ ١٧٣.

(٢) انظر: التراتيب الإدارية: ١ / ٢١٥ و ٢ / ١٦٤، وفجر الإسلام لأحمد أمين المصري: ١٧٣.

هذه أهم ملامح الحركة العلمية والفكرية التي وضع أُسسها النبيﷺ في المدينة المنورة. والتي تواصلت ونمت واتسعت بعد رحيلهﷺ من خلال النابغين من أصحابه، وخاصة أهل البيتعليهم السلام والتي كانت تتمثل في شخص الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام.

المبحث الرابع

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

ومرجعيّته العلمية والفكرية بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله

بوفاة رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة بداية سنة إحدى عشرة انتهت المرحلة التأسيسية من مراحل التشريع الإسلامي في عهديها المكي والمدني، والتي استغرقت زهاء ثلاث وعشرين سنة؛ قام النبي صلى الله عليه وآله خلالها بوضع الأُسس اللازمة للتشريع الإسلامي، وتعيين المرجعية السياسية والعلمية التي تقوم بدور القيادة والاشراف على مختلف شؤون الأُمة الإسلامية بعد رحيله، وأبلغ الأُمة بذلك في أكثر من موطن ومناسبة؛ ومن أوضح ما يدل على ذلك حديث الثقلين المعروف عند الفريقين والذي روي بطرق متعددة وصلت حد التواتر، والذي جاء في بعض نصوصه عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «إنّي أوشك أن أُدعى فأُجيب وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لم يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض فانظروا بم تخلفوني فيهما»[1] وفي رواية صحيحة قال صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم أمرين لن تضلوا أن تبعتموهما وهما كتاب الله وأهل بيتي عترتي». قال ابن حجر في الصواعق: وزاد الطبراني: «إني سألت ذلك لهما فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم»[2].

---

(١) ابن حجر الهيثمي، الصواعق المحرقة: ١٤٩ ـ ١٥١، طبعة مكتبة القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م.

(٢) المرجع نفسه: ١٥٠، وأُنظر: الإمام أحمد بن حنبل، المسند: ٣ / ١٤، ١٧، ٢٦، ٥٩ و ٤ / ٣٦٦، وللتوسع: أُنظر موسوعة حديث الثقلين الصادر عن مركز الأبحاث العقائدية، المطلب الثاني، الفصل الأوى: ٢ / ٣٣٧ وما بعدها، طبعة مركز الأبحاث العقائدية ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٣١ هـ

وقد علّق ابن حجر على هذا الحديث بقوله: «اعلم أن لحديث (التمسك) طرقا كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابيا ومرّ له طرق مبسوطة..»[1].

وقد عمل النبيﷺ جاهدا على ترسيخ مرجعية القرآن والعترة في وجدان الأُمة ومن خلال خطوات عمليّة تتضح معالمها بما يلي:

أولاً: تبليغه القرآن للناس تبليغا كاملاً

لقد نزلت كلّ آيات القرآن الكريم قبل وفاتهﷺ، وكان جبريل الأمين يراجع مع رسول اللّهﷺ في كل شهر من شهور رمضان كل سور القرآن وآياته للتأكد من سلامته مبنى ومعنى.

فقد روى البخاري في صحيحه عن فاطمةعليها السلام قولها: «أَسَرَّ إليَّ النبيﷺ: أن جبريل يعارضني بالقرآن كل سنة، وأ نّه عارضني العام مرتين ولا أراهُ إلّا حضر أجلي»[2].

ثانيا: أمرهُ لبعض أصحابه بتدوين القرآن

الثابت عندنا أنّ القرآن دُوّن وجمع في عهد النبيﷺ وبأمره وتحت إشرافه ووفق تعليماته، لئلّا يُنسى أو لا يبقى بعد موت حامليه. وقد أشارت روايات كثيرة إلى هذا المعنى حيث جاء في طرف منها: «إنّ رسول اللّهﷺ.. كان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده، فيقول: ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وتنزل عليه الآيات فيقول: ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا..»[3].

---

(١) ابن حجر الهيثمي، الصواعق المحرقة: ١٥٠.

(٢) البخاري: المجلد الثالث، الجزء السادس: ١٢٣، باب كان جبريل يَعرض القرآن على النبيﷺ، طبعة دار الفكر ـ بيروت، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م، بتحقيق: عبد العزيز بن باز.

(٣) انظر: الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٢٤٩ ـ ٢٥٠، الطبعة الثالثة، ١٣٩٤ هـ

وجاء في بعض الروايات أن غير واحد من الصحابة قام بجمع القرآن على عهد رسول اللّهﷺ، ذكر بعضهم ابن النديم في الفهرست تحت عنوان: الجمّاع للقرآن في عهد النبيﷺ[1] بل إنّ بعض آيات القرآن الكريم نفسه تُشير إلى أ نّه كان مكتوبا ومدونا على عهد رسول اللّهﷺ.

إلّا أنّ بعضهم حاول أن يسجل للخليفة أبي بكر فضيلة، فنسب إليه جمع القرآن، وحدّد ذلك بعد وفاة رسول اللّهﷺ، بما يفهم منه أنّ القرآن لم يكن قد جمع على عهد رسول اللّهﷺ[2].

ولسنا في وارد الدخول في مناقشة هذه الروايات بعد أن كفانا بعض المحققين ذلك[3]. وبعد اتفاق المسلمين جميعا على أنَّ النبيﷺ بلّغ القرآن كاملاً، وأن ما بين الدفتين والمتداول بين المسلمين اليوم هو القرآن الذي نزل به جبريل الأمين على رسول اللّهﷺ، لم يزد فيه ولم ينقص منه، وما ورد على خلاف ذلك فهو من الشذوذ الذي لا يعتنى به، وهو معارض للقرآن المتواتر الذي: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾.

ثالثا: إبلاغه سنّته الشريفة لأُمته

تعتبر سنة النبيﷺ القطعية المتمثلة في قوله وفعله وتقريره ثاني عدلي التشريع الإسلامي، وبهما تتكامل وتتامُّ مجموعة نصوص الأحكام التشريعية.

---

(١) ابن النديم، الفهرست: ٣٠.

(٢) انظر: البخاري: ٦ / ١١٩، باب جمع القرآن.

(٣) الخوني، البيان في تفسير القرآن: ٢٤٢.

فبعد تأكيد القرآن الكريم على وجوب إتباع النبيﷺ في أوامره ونواهيه وإرشاداته وفي أكثر من آية من القرآن كقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1] حرص النبيﷺ من جانبه على أن يبلغ أُمته كل ما تحتاج إليه في حياتها الإيمانية والمعاشية، فجاءت سيرته لتشمل جوانب العقيدة والأخلاق والتشريع، بل كل ما يحتاج إليه الإنسان المسلم في حياته العملية، وقد روي عنهﷺ قوله: «ما من شيءٍ يُقرِّبكم مِنَ الجَنَّة ويُباعِدُكُم مِنَ النّار إلّا وقد نهيتُكُم عنه وأمرتُكُم بِه»[2].

كذلك حرص بعض أصحاب رسول اللّهﷺ على تقيُّد كل ما يصدر عن رسول اللّهﷺ من قول أو فعل أو تقرير رغم نهي بعضهم عن ذلك كما مرَّ بنا في فُصول سابقة.

وقد يطلق على قسم من السنة الشريفة بأحاديث الأحكام، وهي الأحاديث الواردة في الأحكام الفقهية والتي تشمل مساحة واسعة جدا من الفروع الفقهية العملية، وتغطي جميع أبواب الفقه، كذلك يطلق على بعض الآيات القرآنية المتعلقة بأحكام الفقه بـ (آيات الأحكام) والتي يبلغ عددها ـ على ما هو المشهور ـ خمسمائة آية، والتي تغطي بدورها جلّ أبواب الفقه، على نحو العموم والإجمال، وفي بعض الأحيان على نحو الاشارة والإلماح، مما يعني احتياجها إلى السنة واللغة لمعرفة دلالتها من كونها نصّا، أو ظاهرا، أو مجملاً...

والنصوص الشرعية في الكتاب والسنة ـ في رأي مدرسة أهل البيت ـ وافية بتزويد الفقه الإسلامي بجميع ما يحتاجه الفقيه في مجال استنباط الأحكام الشرعية الفرعية.

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) البرقي، المحاسن: ١ / ٤٣٣، والمجلسي، بحار الأنوار: ٢ / ١٧١.

وقد أكّد هذه الشمولية للنصوص أئمة أهل البيت عليهم السلام في أكثر من حديث، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «ما من شيءٍ إلّا وفيه كتاب أو سنة»[1].

وروي عن الإمام الكاظم عليه السلام قوله: «كلّ شيء نقوله في كتاب اللّه وسنته»[2].

رابعا: تأكيده على مرجعية أهل البيت عليهم السلام

وقد أخذ هذا الأمر حيزا واسعا من اهتمام النبي صلى الله عليه وآله، يتناسب مع الأهمية البالغة لها في مستقبل الدعوة الإسلامية بعد رحيله؛ وَكان لهذا التأكيد صيغا متعددة وخطوات عملية رافقت سنيّ رسالته المباركة، وخاصة في سنواتها الأخيرة. ويمكن الإشارة إلى بعض مظاهر هذا التأكيدات النبوية بما يلي:

١ ـ ترسيخ مصاديق الآيات القرآنية الدالة على عصمة «أهل البيت عليهم السلام»:

وأهم الآيات التي استدل بها على عصمة أهل البيت ومرجعيتهم آيتان:

الأُولى: آية التطهير وهي: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[3] حيث استدل بها على عصمة أهل البيت عليهم السلام من خلال أداة الحصر «إنما» واستحالة تخلف المراد عن الإرادة بالنسبة له تعالى، وغيرها من الدلالات المفصلة في محلها[4].

---

(١) الكليني، الكافي: ١ / ٥٩ الحديث رقم ٤.

(٢) الكليني، الكافي: ١ / ٦٢ باب الرد إلى الكتاب والسنة، الحديث رقم ١٠، والمفيد، الاختصاص: ٢٨١، وعنهما المجلسي في بحار الأنوار: ٢ / ١٧٤.

(٣) الأحزاب: ٣٣.

(٤) للتوسع انظر: الحكيم ـ محمد تقي، الأُصول العامة للفقه المقارن، فصل سنة أهل البيت: ١٤٩ وما بعدها، طبعة دار الأندلس ـ بيروت، د ـ ت.

وقد أكّد النبيﷺ تطبيق الآية المباركة على أهل البيتعليهم السلام في أكثر من مناسبة وفي حضور جلّ أصحابه وبعض نسائه، ففي رواية أُم سلمة، قالت: نزلت هذه الآية في بيتي ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وفي البيت سبعة: جبريل وميكائيل وعلي وفاطمة والحسن والحسين؛ وأنا على باب البيت، قلت: ألستُ من أهل البيت؟ قال: إنك على خير، إنك من أزواج النبيﷺ»[1].

وفي رواية أُخرى رواها المحدثون في كتبهم بطرق متعددة عن أُم سلمة أيضا قالت: «في بيتي نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ...﴾ وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين؛ فجللهم رسول اللّهﷺ بكساء كان عليه، ثمّ قال: هؤلاء أهل بيتي، فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»[2].

«وحديث الكساء، الذي كاد أن يتواتر مضمونه لتعدد رواته لدى الشيعة والسنة في جميع الطبقات، حافل بتطبيقها عليهم بالخصوص.. والذي يبدو أن الغرض من حصرهم تحت الكساء، وتطبيق الآية عليهم، ومنع حتى أُم سلمة من الدخول معهم ـ كما ورد في روايات كثيرة ـ هو التأكيد على اختصاصهم بالآية، وقطع الطريق على كلِّ ادعاءٍ بشمولها لغيرهم»[3].

وكأنّ النبيﷺ، قد خشي أن يستغل بعضهم قربه منه فيزعم شمول الآية له، فحاول قطع السبيل عليهم بالتأكيد على تطبيقها على هؤلاء بالخصوص، وتكرار هذا التطبيق حتى تألفه الأسماع، وتطمئن إليه القلوب، يقول أبو الحمراء: «حفظتُ من رسول اللّهﷺ ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرة يخرج إلى صلاة الغداة إلّا أتى إلى باب علي

---

(١) السيوطي، الدر المنثور: ٦ / ٥٣٢ ـ ٥٣٣ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الحكيم، الأُصول العامة: ١٥٦.

فوضع يده على جنبتي الباب، ثمّ قال: الصلاة الصلاة، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وفي رواية ابن عباس قال: «شهدنا رسول اللّهﷺ تسعة أشهر يأتي كلَّ يوم باب علي بن أبي طالب عليه السلام عند وقت كل صلاة، فيقول: السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته أهل البيت، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»[1].

فهذه الصحاح من الروايات وعشرات من أمثالها والتي حفلت بها كتب الحديث تؤكد مرجعية أهل البيت عليهم السلام والتي أكدها النبيﷺ قولاً وعملاً وقطع بذلك كل ادعاءٍ بشمولها لغيرهم.

كما أن تعامل النبيﷺ مع «الآية وشأن نزولها واتخاذه الاحتياطات اللازمة لذلك، تدل بوضوح تام بأن للآية شأنا يتجاوز المناحي العاطفية لأمر يتصل بصميم التشريع من إثبات العصمة لهم، وما يلازم ذلك من لزوم الرجوع إليهم والتأثر والتأسي بهم في أخذ الأحكام..»[2].

كذلك استدل على عصمة أُولي الأمر بالآية المباركة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ...﴾[3] وقد قرر بعض المفسرين دلالتها على عصمة أُولي الأمر بدلالات عقلية بعيدا عن الروايات الحاكية عن مصاديق أُولي الأمر[4].

---

(١) السيوطي، الدر المنثور: ٦ / ٥٣٢ ـ ٥٣٣، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، ط. الأُولى، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م.

(٢) الحكيم، الأُصول العامة: ١٥٩.

(٣) النساء: ٥٩.

(٤) انظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير: ١٠ / ١٤٤.

وقد شخص النبيﷺ لأُمته مصداق أُولي الأمر الذين ثبتت عصمتهم من خلال ما روي عنه كمصاديق للآية المباركة، وذلك في أكثر من حديث وواقعة أثبتها الرواة في صحاحهم ومسانيدهم وسننهم، كحديث الثقلين، المتواتر لدى الفريقين، والذي يدل بوضوح على عصمة أهل البيتعليهم السلام، لاقترانهم بالكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولأ نّهﷺ اعتبر التمسك بهم عاصما من الضلالة دائما وأبدا، كذلك تدل على تميزهم بالعلم بكل ما يتصل بالشريعة لقولهﷺ: «ولا تعلموهم فإنهم اعلم منكم».

يقول ابن حجر في بيان فهم حديث الثقلين: «ثمّ إنّ الذين وقع الحث عليهم منهم إنما هم العارفون بكتاب اللّه وسنة رسوله، إذ هم الذين لا يفارقون الكتاب إلى الحوض، ويؤيّده الخبر السابق: «ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم» وتميزوا بذلك عن بقية العلماء لأنّ اللّه أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وشرفهم بالكرامات الباهرة، والمزايا المتكاثرة، وقد مرّ بعضها»[1] بالاضافة إلى أحاديث أُخرى كثيرة يعبر فيها النبيﷺ عنهم بأنهم سفن النجاة، وأمانا للأُمة، وباب حطة.. والتي فيها الأوامر المؤكدة على الرجوع إليهم والاقتداء بهم، والتمسك بحبلهم، وأخذ الأحكام منهم.. وهذا يعني مرجعيتهم الجامعة لكل خصائص السنة وحيثياتها وتفاصيلها.

ومن الواضح أن أحاديث النبيﷺ يفسر بعضها البعض الآخر، كما أنها تعيِّن لنا المراد من تأويل بعض الآيات التي لا يعلم تأويلها إلّا اللّه والراسخون في العلم. ويكفينا في المقام تشخيص مصداق واحد لهذه المرجعية من خلال النصوص الواردة

---

(١) ابن حجر، الصواعق المحرقة: ١٤٩.

عنه‌ﷺ، وهو بدوره يعين الخلف الذي يأتي بعده، فتتضح للأُمة الإسلامية مرجعيتها بعد رحيل نبيهاﷺ.

«ومن هنا احتجنا إلى النص على من يقوم بوظيفة الإمامة ـ بعد وفاة النبيﷺ ـ لأنّ استيعاب السنة والأحكام الشرعية، وطبيعة الصيانة لحفظها التي تستدعي العصمة لصاحبها والعاصمية للآخرين، ليست من الصفات البارزة التي يدركها جميع الناس ليتركها مسرحا لاختيارهم وتمييزهم، ولو أمكن تركها لهم في مجال التشخيص فليس من الضروري أن يتفق الناس على اختيار صاحبها بالذات مع تباين عواطفهم وميولهم، وطبيعة الصيانة والحفظ ومراعاة استمرارها منهجا وتطبيقا في الحياة تستدعي اتخاذ مختلف الاحتياطات اللازمة لذلك»[1].

* مرجعية الإمام عليعليه السلام:

كلّ المعطيات التاريخية وما سجلته كتب السيرة النبوية من مواقف للنبيﷺ تؤكد على أ نّهﷺ كان قد أعدّ لمستقبل الدعوة ومرجعيتها وزعامتها من ينهض بأعبائها بعد رحيله.

«فالذي ينسجم مع طبيعة الأشياء، ومعقولاً على ضوء ظروف الدعوة والدعاة وسلوك النبيﷺ، هو أن يقف النبي من مستقبل الدعوة بعد وفاته موقفا ايجابيا، فيختار بأمر من اللّه سبحانه وتعالى شخصا يرشحه عمق وجوده في كيان الدعوة، فيعده إعدادا رساليا وقياديا خاصا؛ لتتمثل فيه المرجعية الفكرية والزعامة السياسية للتجربة، وليواصل بعده وبمساندة القاعدة الشعبية الواعية من المهاجرين والأنصار قيادة الأُمة

---

(١) الحكيم، الأُصول العامة: ١٧٥ ـ ١٧٦.

وبناءها عقائديا، وتقويتها باستمرار نحو المستوى الذي تؤهلها لتحمّل المسؤوليات القيادية»[١].

ونظرية النص في قضية الإمامة والولاية بعد رسول اللّهﷺ هي النظرية التي التزم بها الشيعة الإمامية، في مقابل من افترض أن النبيﷺ ترك الأُمة في مستقبلها للظروف والصدف؛ ولم يحدد لها قيادتها مع كل ما تواجهه من اخطار وتهديدات، أو من يفترض أن النبيﷺ قد ترك للأُمة اختيار قائدها على أساس الشورى. «إذ إنَّ طبيعة الأشياء والوضع العام الثابت عن الرسولﷺ.. يدحض كلا الفرضيتين وينفي أن يكون النبيﷺ سلبيا اتجاه مستقبل الدعوة، أو أنه جعل القيمومة على الدعوة بعده للأُمة. وأما نظرية النص فهو الاتجاه الوحيد الذي ينسجم مع طبيعة الدعوة الإسلامية والذي يضمن سلامة مستقبل الدعوة وصيانة التجربة من الانحراف في خط نموها».

«ولم يكن هذا الشخص المرشح للإعداد الرّسالي والقيادي والمنصوب لتسلم مستقبل الدعوة وتزعمها فكريا وسياسيا إلّا علي بن أبي طالبعليه السلام، الذي رشحه لذلك عمق وجوده في كيان الدعوة، وانه المسلم الأول والمجاهد الأول في سبيلها عبر كفاحها المرير ضد كل أعدائها.. والشواهد القولية والفعلية على أن النبيﷺ كان يعدّ الإمام اعدادا رساليا خاصا كثيرة جدا، فقد كان النبيﷺ يخصه بكثير من مفاهيم الدعوة وحقائقها، ويبدؤه بالعطاء الفكري، إذا استنفد الإمام أسئلته، ويختلي به الساعات الطوال في الليل والنهار، يفتح عينيه على مفاهيم الرسالة ومشاكل الطريق ومناهج العمل إلى آخر يوم من حياته الشريفة»[٢].

---

(١) الصدر ـ محمد باقر، بحث حول الولاية: ٦٣.

(٢) المرجع نفسه: ٦٤ ـ ٦٥.

والشواهد الروائية التي تؤكد الإعداد الرسالي الذي كان النبيﷺ يمارسه في سبيل اعداد الإمام للمستوى القيادي للدعوة كثيرة جدا. ولا يمكن استيعابها في هذا المختصر، وإنما نكتفي ببعض الشذرات منها:

روى الحاكم في المستدرك بسنده عن أبي إسحاق، سألت قثم بن العباس، كيف ورث علي رسول اللّهﷺ دونكم؟ قال: لأ نّه كان أولنا به لحوقا وأشدنا به لزوقا[١].

وروي ابن نُعيم في الحلية، عن ابن عباس أنه قال: كنا نتحدث أن النبيﷺ عهد إلى علي سبعين عهدا لم يعهده إلى غيره[٢].

وروي عن ابن عباس عن عليعليه السلام أنه يقول: «كانت لي منزلة من رسول اللّهﷺ لم تكن لأحد من الخلائق، كنتُ أدخل على نبي اللّه كل ليلة، فإن كان يصلي سبّح فدخلتُ، وإن لم يكن يصلي أذن لي فدخلت»[٣].

وروى عن الإمامعليه السلام أيضا إنه كان يقول: «كنت إذا سألتُ رسول اللّهﷺ أعطاني، وإذا سكت ابتدأني» ورواه الحاكم في المستدرك أيضا، وقال: صحيح على شرط الشيخين[٤].

وروي عن أنس بن مالك، أنّ النبيﷺ قال لعليّعليه السلام: «أنتَ تُبينُ لأُمتي ما اختلفوا فيه بَعدي». قال الحاكم في المستدرك: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»[٥].

---

(١) الحاكم، مستدرك الصحيحين: ٤ / ٩٥ حديث رقم ٤٦٩٠، طبعة دار المعرفة ـ بيروت.

(٢) ابن نعيم، حلية الأولياء: ١ / ١٠٩ حديث ٢١٦.

(٣) ابن عساكر، تاريخ بغداد: مجلد ٢٣، ٤٥: ٢٩٥، حديث ٩٧٥٧.

(٤) الحاكم، المستدرك على الصحيحين: ٤ / ٩٤، حديث رقم ٤٦٨٧.

(٥) المصدر نفسه: ٤ / ٩٠ حديث رقم ٤٦٧٨.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته «القاصعة» وهو يصف ارتباطه الفريد بالرسول القائد وعناية النبي صلى الله عليه وآله باعداده وتربيته: «.. وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره، وأنا وليد، يضمني إلى صدره ويكنفني في فراشه ويمسني جسده ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثمَّ يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل، وقد كنت اتبعه اتباع الفصيل لأثر أُمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاورني كل سنة بحراء فأراهُ ولا يراهُ غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة»[1].

فهذا النص والنصوص التي سبقته وغيرها الكثير من النصوص والشواهد، تقدم لنا صورة جلية واضحة عن ذلك الاعداد الرسالي الذي كان النبي صلى الله عليه وآله يمارسه في سبيل ضمان مستقبل الأُمة وهدايتها من خلال اعداد قائد مسيرتها للنهوض بأعباء الدعوة من بعده.

*** من مظاهر المرجعية الفكرية للإمام علي عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله:**

لقد كان الإمام علي عليه السلام يمثل المرجعية العلمية في حياة المسلمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله فبالرغم من اقصائه عن المسرح السياسي في حياة الخلفاء الثلاثة، لكنه كان يسهر على حماية تجربة الإسلام الفتية من النكوص والتداعي.

يقول السيّد الشهيد الصدر: «وإمامة أهل البيت والإمام علي عليهم السلام، التي تمثلها تلك الظاهرة الطبيعية تعبر عن مرجعيتين:

---

(١) نهج البلاغة، ترتيب صبحي الصالح: ٣٠٠، الخطبة: ١٩٢، طبعة أُفسيت، دار الهجرة ـ قم.

إحداهما المرجعية الفكرية، والأُخرى المرجعية في العمل القيادي والاجتماعي، وكلتا المرجعيتين كانتا تتمثلان في شخص النبيﷺ، وكان لابد ـ على ضوء ما درسنا من ظروف ـ أن يصمم الرسول الأعظمﷺ الامتداد الصالح له لتحمل كلتا المرجعيتين؛ لكي تقوم المرجعية الفكرية بملء الفراغات التي تواجهها ذهنية المسلمين، وتقديم المفهوم المناسب، ووجهة النظر الإسلامية فيما يستجد من قضايا الفكر والحياة، وتفسير كل ما يشكل ويغمض من معطيات الكتاب الكريم، الذي يشكل المصدر الأول للمرجعية الفكرية في الإسلام، ولكي تقوم المرجعية القيادية الاجتماعية بمواصلة المسيرة وقيادة التجربة الإسلامية في خطها الاجتماعي؛ وقد جمعت كلتا المرجعيتين لأهل البيتعليهم السلام وجاءت النصوص النبوية الشريفة تؤكد ذلك باستمرار»[1].

ولقد سجلت لنا أحداث ما بعد وفاة رسول اللّهﷺ حضورا مكثفا وفاعلاً ومشهودا للإمام عليعليه السلام وفي مواقف متنوعة، وهذا ما تحكيه بوضوح المراجع التاريخية، التي تحدثت عن تلك الحقبة، فحين تشير إلى طبيعة التحديات المختلفة، التي كانت تواجه المسلمين وقتئذٍ، تكشف عن الدور المتميز، الذي كان ينهض به الإمام عليعليه السلام، وهي كثيرة يمكن أن نشير إلى بعض معالمها وباختصار شديد:

أولاً: مرجعيته في حلِّ المشكلات والوقائع المستعصية:

«فقد كان الإمام عليعليه السلام هو المفزع والمرجع لحلِّ أي مشكلة يستعصي حلّها على القيادة الحاكمة وقتئذٍ، ولا نعرف في تاريخ التجربة الإسلامية على عهد الخلفاء

---

(١) الصدر ـ محمد باقر، بحث حول الولاية: ٨٢ ـ ٨٣.

الأربعة، واقعة واحدة رجع فيها الإمام إلى غيره لكي يتعرف على رأي الإسلام وطريقة علاجه للموقف، بينما في التاريخ عشرات الوقائع التي أحست القيادة الإسلامية الحاكمة فيها بضرورة الرجوع إلى الإمام بالرغم من تحفظاتها في الموضوع»[1].

ثانيا: مرجعيته في حلِّ المواقف الاستراتيجية للدولة الإسلامية:

لقد مرّت الدولة الإسلامية بعد وفاة رسول اللّهﷺ بمنعطفات سياسية وعسكرية خطرة، وتعرّض المسلمون لأخطار جسام أحاطت بهم من كل جانب، فمن جانب كانت الامبراطوريّتان الرومانية والفارسية تتربصان الدوائر بهذه الدولة الفتية، ومن جانب آخر نجد حركة قوى الشرك في الجزيرة العربية وما عرف بحروب الردة والتي قادها الأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب.. بالاضافة إلى الأخطار الداخلية، والتي كانت تتمثل في حركة المنافقين ومسلمة ما بعد الفتح.. أمام هذه التحديات وقف الإمامعليه السلام ليسجل موقفا مشهودا وليقول كلمته المعروفة: «.. فأمسكتُ يدي حتّى رأيتُ راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محقِ دين محمدﷺ فخشيتُ إن لم أنصُر الإسلام وأهلَهُ أَن أرى فيه ثلما أو هدما، تكونُ المصيبةُ به عليَّ أعظمَ مِن فوتِ ولايتكُم..»[2].

وليترجم ما قاله إلى واقع عملي يتحرك مع واقع حياة المسلمين.

ثالثا: مرجعيته الفكرية في مختلف العلوم الإسلامية:

لقد كان الإمام عليعليه السلام منهل العلم الفياض بعد رسول اللّهﷺ، وكان المدرِّس الأول في المدينة المنورة، فإنّ «أمير المؤمنين علَّمَ في مجلس واحد أربعمائة باب،

---

(١) الصدر ـ محمد باقر، بحث حول الولاية: ٦٩.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٤٥١، ترتيب صبحي الصالح.

مما يصلح للمسلم في دينه ودنياه»[1]، وقد نهل من علمه عليه السلام عدد وفير من الصحابة والتابعين، وإليه عليه السلام ينتهي تأسيس جملة من العلوم والمعارف الإسلامية، وفي هذا الصدد يقول ابن أبي الحديد في ديباجة شرحه القيِّم لكتاب نهج البلاغة: «ومن العلوم علم تفسير القرآن، وعنه أُخذ، ومنه فُرّع، وإذا رجعت إلى كتب التفسير علمت صحة ذلك، لأنّ أكثره عنه، وعن عبد اللّه بن عباس، وقد علم الناس حال ابن عباس في ملازمته له، وانقطاعه إليه، وأنه تلميذه وخرّيجه، وقيل له: «أين علمك من علم ابن عمّك؟ فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط»، ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوف، وقد عرفت أن أرباب هذا الفن في جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون، وعنده يقفون، وقد صرّح بذلك الشِّبلي والجُنيد، وسري، وأبو زيد البسطامي، وأبو محفوظ معروف الكرخي، وغيرهم... ومن العلوم علم النحو والعربية، وقد علم الناس كافة أنه هو الذي ابتدعه وأنشأه وأملى على أبي الأسود الدؤلي جوامعه»[2].

رابعا: مرجعيته في بيان الأحكام الشرعية:

تعتبر مرجعية الإمام علي عليه السلام في الفقه وبيان الأحكام الشرعية من المسلمات التي أذعن إليها حتى المخالفون لمرجعيته السياسية، وقد شهدوا لها في أكثر من موطن ومناسبة، وخاصة فيما يتعلق بالقضاء وحسم الخصومات بين الطرفين المتنازعين حين يتعذر على الخليفة اتخاذ موقف قضائي بذلك.

وقد رويت عن عمر بن الخطاب وفي أكثر من مناسبة شهادته بمرجعية علي في الفقه والفتوى فقد نقل عنه قوله: «لولا عليٌّ لهلك عمر» وقوله: «لا بقيت لمعضلة

---

(١) الصدوق ـ محمد بن علي بن بابويه، الخصال: ٦١٠ ـ ٦١١، تصحيح: علي أكبر الغفاري، طبعة مؤسسة النشر التابعة لجامعة المدرسين بقم، الطبعة الرابعة، ١٤١٤ هـ.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١ / ١٨ ـ ٢٠، تحقيق: محمد ابوالفضل إبراهيم.

ليس لها أبو الحسن» وقوله مخاطبا كبار صحابة رسول اللّهﷺ: «لا يُفتين أحد في المسجد وعليّ حاضر»[1].

ومن الكتاب الذين أشاروا إلى هذه الحقيقة الأُستاذ محمد أبو زهرة في كتابه: الإمام الصادق، فبعد أن أنكر ـ وبلا دليل واضح ـ دلالة حديث الثقلين على إمامة السياسة، سلَّم بدلالته على إمامة الفقه والعلم[2].

هذا وقد حوت كتب الفقه والأحكام الشرعية على جملة وفيرة من هذه الأحكام، وقد جمع طرفا منها المحقق الشيخ محمدتقي التستري في كتاب بعنوان: «قضاء أمير المؤمنين» وهو مطبوع ومتداول.

خامسا: مرجعيته في حفظ تراث النبوة

من أول المهام التي قام بها علي بن أبي طالبعليه السلام بعد رحيل رسول اللّهﷺ مهمة الحفاظ على تراث النبيﷺ العقائدي والتشريعي، والمتمثل في القرآن الكريم والسنة الشريفة وتعاليمها؛ وقد انبرى لهذه المهمة منذ اليوم الأول بعد وفاة رسول اللّهﷺ، وأما القرآن الكريم، فالمعروف تاريخيا أنَّ الإمام عليا هو أول من جمعه بعد وفاة رسول اللّهﷺ، ومن القريب جدا أن يكونعليه السلام قد جمعه في حياة رسول اللّهﷺ بعد أن واكب نزول آياته فترة نبوة النبيﷺ ونزول الوحي؛ ولهذا نجد ابن النديم في الفهرست يضع الإمام علياعليه السلام على رأس القائمة التي يذكر فيها الجمّاع للقرآن على عهد النبيﷺ، ثمّ يتحدث عن ترتيب سور القرآن في مصحف عليعليه السلام ويقول: إنَّ علياعليه السلام: «رأى من الناس طَيرةً عند وفاة النبيﷺ، فأقسم أنه لا يضع عن ظهره رداءه حتى يجمع القرآن،

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١ / ١٨.

(٢) أبو زهرة ـ محمد، الإمام الصادق: ١٩٩، طبعة دار الندوة ـ بيروت، بلا ـ ت.

فجلس في بيته ثلاثة أيام حتى جمع القرآن..»[1]. ويشير ابن أبي الحديد إلى ذلك بقوله: «اتفق الكلّ على أ نّه كان يحفظ القرآن على عهد رسول اللّهﷺ، ولم يكن غيره يحفظه، ثمّ هو أوّلُ مَنْ جَمَعه»[2].

ويقول الإمام عليعليه السلام في بيان مرجعيته للتفسير وعلوم القرآن بعد رسول اللّهﷺ: «سلوني قبل أن تفقدوني، فوالذي فلق الحبَّة وبرأ النسمة لو سألتموني عن آية في ليل نزلت أو في نهار أُنزلت، مكيّها ومدنيّها، سفريّها وحضريّها، ناسخها ومنسوخها، محكمها ومتشابهها، وتأويلها وتنزيلها، لأخبرتكم به»[3].

وأما عدل القرآن الآخر والمتمثّل في السنة الشريفة؛ فلقد كان الإمامعليه السلام ممن استوعبها بكافة تفاصيلها كما بلَّغها رسول اللّهﷺ لأُمته، وقد روى الصفار في البصائر بسنده عن سماعة بن مهران عن أبي عبد اللّهعليه السلام قال: «إنَّ اللّه علَّم رسول الحلال والحرام والتأويل، فعلَّم رسول اللّهﷺ علمه كله علياعليه السلام»[4].

---

(١) ابن النديم، الفهرست: ٣٠، تحقيق: رضا تجدد، طبعة طهران، ١٩٧١م، والأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ١ / ١٢٥.

(٢) ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١ / ٢٧، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار احياء التراث ـ بيروت، ط. ٢، ١٩٦٥م.

(٣) المفيد، الاختصاص: ٢٣٦، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ومحمود الزرندي، طبعة دار المفيد ـ بيروت، سلسلة مؤلفات الشيخ المفيد، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

(٤) الصفار ـ محمد بن الحسن بن فروخ، بصائر الدرجات: ٢ / ٥٤ ـ ٥٥، تحقيق: السيّد محمد حسين المعلم، طبعة المكتبة الحيدرية ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٦هـ.

وفي رواية أُخرى عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد اللّهعليه السلام قال: «إنّ اللّه تعالى علَّم رسوله القرآن وعلمه أشياءَ سوى ذلك، فما علَّم اللّه رسوله فقد عَلَّم رسوله علياعليه السلام»[(١)].

وقد مرَّ بنا سابقا بعض كلمات الإمام عليعليه السلام والتي يتحدث فيها عن ملازمته لرسول اللّهصلى الله عليه وآله والتي قال في بعضهاعليه السلام: «كنت أدخل على رسول اللّهصلى الله عليه وآله كل يوم دخلة، فيخليني فيها؛ أدور معه حيث دار،.. وكنت إذا سألته أجابني، وإذا سكتُّ وفنيت مسائلي ابتدأني، فما نزلت على رسول اللّهصلى الله عليه وآله آية من القرآن إلّا اقرأنيها وأملاها عليَّ، فكتبتها بخطي، وعلّمني تأويلها، وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصها وعامها، ودعا اللّه أن يعلمني فهمها وحفظها»[(٢)].

* ميراث علي العلمي

لقد كان من ثمرات تلك الملازمة الطويلة لرسول اللّهصلى الله عليه وآله ان خلف الإمام عليعليه السلام تراثا علميا واسعا وشاملاً لكل مناحي المعرفة. وقد احتفظت لنا كتب الحديث بعناوين جملة من الكتب، التي أملاها رسول اللّهصلى الله عليه وآله على علي بن أبي طالبعليه السلام، اشتهر منها «الصحيفة» و «كتاب علي» و «مصحف فاطمة»[(٣)].

---

(١) الصفار ـ محمد بن الحسن بن فروخ، بصائر الدرجات: ٢ / ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) الصدوق ـ محمد بن الحسين، الخصال: ٤٥١، تصحيح: علي أكبر غفاري، طبعة جامعة المدرسين ـ قم.

(٣) أُنظر: بصائر الدرجات للصفار: ١ / ٣٠٤ وما بعدها.

أما الصحيفة، فقد ذكرها كبار المحدثين وأخذوا عنها، وهي عبارة عن صحيفة صغيرة تشتمل على العَقل ـ أي مقادير الديات ـ وعلى أحكام فكاك الأسير، وكانعليه السلام يحملها معه في حمائل سيفه[1].

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي جعيفة قال: قلتُ لعليٍّ هل عندكم كِتاب؟ قال: لا، إلّا كتابُ اللّه، أَوفْهم أُعْطِيَهُ رجلٌ مسلم، أو ما في هذه الصحيفة، قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العَقْلُ، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر[2].

أما «كتاب علي» وهو الكتاب الآخر الذي ورثه الإمام عليعليه السلام، فقد روى النجاشي في كتابه قال: قال عُذافِر الصيرفي: «كنتُ مع الحكم بن عُتيبة عند أبي جعفرعليه السلام، فجعل يسأله، وكان أبو جعفرعليه السلام له مُكرما، فاختلفا في شيء، فقال أبو جعفرعليه السلام: يا بنيّ قم فأخرج كتاب علي، فأخرج كتابا مدروجا عظيما، وفتحه، وجعل ينظر حتى أخرج المسألة، فقال أبو جعفرعليه السلام: هذا خطّ عليعليه السلام واملاء رسول اللّهصلى الله عليه وآله، وأقبل على الحكم وقال: يا أبا محمد، إذهب أنت وسَلمة وأبو المقدام حيث شئتم يمينا وشمالاً فواللّه لا تجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبرئيلعليه السلام»[3].

---

(١) أُنظر، بصائر الدرجات للصفار: ١ / ٣٠٣، والبخاري، باب كتابة العلم، الحديث: ١١١.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، باب كتابة العلم من كتاب العلم: ١: ٤١، رقم الحديث: ١١١، طبعة دار الفكر ـ بيروت، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م.

(٣) النجاشي ـ أحمد بن علي، رجال النجاشي: ٣٦٠، تحقيق: السيّد موسى شبيري، طبعة جامعة المدرسين ـ قم، ١٤٠٧ هـ

وفي رواية الصفار في البصائر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «والله إن عندنا لصحيفة طولها سبعون ذراعا، فيها جميع ما يحتاج إليه الناس حتى أرش الخدش؛ إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وكتبها عليّ بيده صلوات الله عليهما»[1].

وفي رواية أُخرى عنه، عن (الفضيل بن يسار قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: يا فضيل: عندنا كتاب علي سبعون ذراعا؛ ما على الأرض شيء يحتاج إليه إلّا وهو فيه حتى أرش الخدش، ثمّ خطّه بيده على ابهامه)[2].

واما مصحف فاطمة عليها السلام، فهو كتاب آخر من أملاء رسول الله وخط علي عليه السلام، وتوارثه أهل البيت عليهم السلام كأحد ودائع النبوة.

روى علي بن الحسن عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قلتُ: إنّ عبد الله بن الحسن يزعم أ نّه ليس عنده من العلم إلّا ما عند الناس، فقال: صدق، والله عبد الله بن الحسن، ما عنده من العلم إلّا ما عند الناس، ولكن عندنا والله الجامعة فيها الحلال والحرام، وعندنا الجفر، أَيدري عبد الله بن الحسن ما الجفر؟ مَسك بَعيرٍ أم مَسك شاة؟ وعندنا مصحف فاطمة، أما والله ما فيه حرف من القرآن، ولكنه املاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخطُّ عليٍّ عليه السلام...»[3].

---

(١) أُنظر: الصفار، بصائر الدرجات: ١ / ٢٩٦.

(٢) أُنظر: الصفار، بصائر الدرجات: ١ / ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٣١٨ ـ ٣١٩، وللتوسع في معرفة هذه الكتب أُنظر أُصول الكافي للكليني: ١ / ٢٣٨ ـ ٢٤٢ باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة. كذلك أُنظر: أعيان الشيعة للأمين: ١ / ١٣١ وما بعدها.

هذا هو ميراث عليٍّ العلمي؛ إلى جانب خطبه ورسائله ومواعظه والتي جمع منها الشريف الرضي باقة عطرة سميت بكتاب «نهج البلاغة» والتي استدرك عليها بعض المحققين بأضعافها من الخطب والكتب والرسائل والمواعظ.

إلّا أنّ مما يؤسف له حقا أن لا تجد ما يروى عن تراث الإمام علي عليه السلام الفقهي في كتب الفقه إلّا الشيء اليسير الذي لا يتناسب مع منزلته العلمية الرفعية.

وقد حاول ابن قيّم الجوزية ان يعزو أسباب ذلك إلى الشيعة! فقال: «وأ مّا علي بن أبي طالب عليه السلام فانتشرت أحكامه وفتاويه، ولكن الشيعة أفسدوا كثيرا من علمه، ولهذا تجد أصحاب الحديث من أهل الصحيح لا يعتمدون من حديثه وفتواه إلّا ما كان من طريق أهل بيته وأصحاب عبد اللّه بن مسعود كعبيدة السلماني وشريح وأبي وائل وغيرهم»[1].

وارجع باحث آخر سبب ذلك إلى الإمام علي عليه السلام نفسه! فقال: «انّ علي بن أبي طالب مع أ نّه كان من أعلم الصحابة وأجلهم، فإنّ اشتغاله بالحرب والفتنة لم يمكنه من التفرغ لنشر العلم والفقه في الكوفة، وإن كان قد تلقى عنه الفقه والفتيا فريق من الصحابة والتابعين»[2].

إلّا أنّ كلا التعليلين عليلان، فلا الشيعة أفسدوا كثيرا من علمه، ولا انشغال عليٍّ بالحرب والفتنة منعه من أن يفيض العلم من جوانبه، والذي نعتقده ونقطع به أن السبب الرئيس والأساس في قلة المأثور من آراء عليّ الفقهية يرجع إلى محاربة الدولة الأموية لعلي وأبناء علي، والتي انعكست بدورها على آثار علي وتراثه، ومحاولة تلك

---

(١) ابن قيم، أعلام الموقعين: ١/ ٢٢.

(٢) مقدمة الطبعة الثانية من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة لعبد الرحمن الجزيري: ١٩.

الدولة ـ ومن سار على خطها من الرواة، والمحدثين والكتاب ـ طمس كل معالم فقهه في محاولتها الضارية على كل ما يتصل بأمجاد الإمام ومكارمه وفضائله ومعاليه[1].

سادسا: مرجعيته في تربية علماء الأُمة الإسلامية

لقد مكث الإمام علي عليه السلام في المدينة المنورة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله مدة ناهزت عقدين ونصف العقد من الزمن، عكف فيها على غرس بذرة العلوم الإسلامية، واعداد جيل من التلامذة، أسهم هذا الجيل فيما بعد في الامتداد بمدرسة علي عليه السلام من المدينة إلى بقية الأمصار الإسلامية، وتنمية العلوم التي غرسها. ومثلما كان للإمام علي الريادة في ارساء أسس مدرسة المدينة المنورة، والسهر على تربية طائفة من التلامذة من ذوي البصائر، كذلك فعل الشيء نفسه لما بويع بالخلافة واتخذ من الكوفة عاصمة له[2]. كما سوف يأتينا في محله المناسب.

وقد عدَّ الشيخ الطوسي في رجاله من روى عن علي عليه السلام (٤٤٨) راويا ممن عرف باسمه أو من عرف بكنيته أو بقبيلته[3].

---

(١) أُنظر: كتاب الدكتور حامد جامع الموسوم بـ «علي بن أبي طالب حاكما وفقيها»، طبعة القاهرة، ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م.

(٢) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٢٠.

(٣) الطوسي ـ محمد بن الحسن، رجال الطوسي: ٥٧ وما بعدها، تحقيق: جواد القيومي، طبعة جامعة المدرسين ـ قم، ١٤٢٠ هـ.

المبحث الخامس

ظهور مدرستي الرأي والنص بعد رحيل رسول اللّهﷺ وموقف الإمام عليعليه السلام منها

من أهم ما واجهته الشريعة الإسلامية بعد رحيل رسول اللّهﷺ؛ هو ظهور مدرسة الرأي في مجال التشريع وأحكام وقوانين الدولة الإسلامية، في مقابل مدرسة النص في مجالي التشريع والأحكام والقوانين الأُخرى.

وكان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب يمثل المدرسة الأُولى، والإمام علي بن أبي طالبعليه السلام يمثل المدرسة الثانية.

ولكل من المدرستين منهجها في استنباط الحكم الشرعي، ولهما آثارهما الواضحة في حياة المسلمين.

يقول الشيخ الفضلي وهو يؤرخ لمراحل التشريع الإسلامي: «كان عهد الإمام علي المرحلة الثانية من المراحل التاريخية للتشريع الإسلامي.. وفي هذه المرحلة ترسّخ مفهوما (اجتهاد النص) و (اجتهاد الرأي)، واتضحت معالمهما أكثر؛ مما جعلهما يأخذان شكل المنهج العلمي في مجال التشريع الإسلامي.

وتبنى الإمام علي منهج النص، وتبنى عمر منهج الرأي، والتف حول كل واحد منهما نفر من فقهاء الصحابة، بما حوّل المنهجين إلى مدرستين، ترأس الإمام علي إحداهما، وترأس عمر الأُخرى»[1].

---

(١) الفضلي ـ عبد الهادي، تاريخ التشريع الإسلامي: ٥٤، طبعة دار الكتاب الإسلامي.

وعندما نعود إلى النصوص التاريخية التي تؤرخ لهذه المرحلة من مراحل التشريع نجد وفرة من النصوص تشير إلى مجموعة من الوقائع التي استخدم فيها الرأي بأوضح صوره وأشكاله، في مقابل المنهج الذي سار عليه الإمام علي، واتباع مدرسته، وهو منهج الالتزام بالنص الشرعي.

ومن أقدم من أشار ـ من ناحية تاريخية ـ إلى الفرق في المنهج بين هاتين المدرستين هو ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه لنهج البلاغة؛ فقد جاء في معرض حديثه عن سيرة الإمام أمير المؤمنين قوله: «وأما الرأي والتدبير فكان أَسَدَّ الناس رأيا، وأصحَّهم تدبيرا... إنما قال اعداؤه لا رأي له، لأنه كان متقيدا بالشريعة، لا يرى خلافها، ولا يعمل بما يقتضي الدين تحريمه، وقد روي عنه: «لولا الدين والتقى لكنت أدهى العرب. وغيره من الخلفاء كان يعمل بمقتضى ما يستصلحه، ويستوفقه، سواءً كان مطابقا للشرع أو لم يكن!

ثمّ يعقب على ذلك بقوله: «ولا ريب أن من يعمل بما يؤدي إليه اجتهاده، ولا يقف مع ضوابط وقيود يمتنع لأجلها مما يرى الصلاح فيه، تكون أحواله الدنيوية إلى الانتظام أقرب؛ ومن كان بخلاف ذلك تكون أحواله الدنيوية إلى الانتثار أقرب»[1].

وفي مكان آخر من كتابه يقارن ابن أبي الحديد بين سياستي علي وعمر.. فيقول: «وأمير المؤمنين كان مقيدا بقيود الشريعة مدفوعا إلى اتباعها ورفض ما صلح اعتماده من آراء الحرب والكيد والتدبير إذا لم يكن للشرع موافقا؛ فلم تكن قاعدته في خلافته قاعدة غيره ممن لم يلتزم بذلك، ولسنا بهذا القول زارين على عمر بن الخطاب ولا ناسبين إليه ما هو منزه عنه، ولكنه كان مجتهدا يعمل بالقياس والاستحسان والمصالح

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١ / ٢٨، بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

المرسلة، ويرى تخصيص عمومات النص بالآراء وبالاستنباط من أُصول تقتضي خلاف ما يقتضيه عموم النصوص.. كل ذلك بقوة اجتهاده وما يؤديه إليه نظره. ولم يكن أمير المؤمنين يرى ذلك، وكان يقف مع النصوص والظواهر، ولا يتعداها إلى الاجتهاد والاقيسة، ويطبق أُمور الدنيا على الدين، ويسوق الكل مساقا واحدا، ولا يضع ولا يرفع إلّا بالكتاب والنص، فاختلفت طريقتاهما في الخلافة والسياسة»[1].

ومن تأكيد عمر لمنهج الرأي، وتأكيد علي لمنهج النص، جعل مؤرخي التشريع الإسلامي يعدون عليا رأس مدرسة النص، وعمر رأس مدرسة الرأي. فعلي(عليه السلام) كان يؤكد على منهج النص ويشجب منهج الرأي، وعمر كان يؤكد على منهج الرأي ويكتب لقضاته وولاته بالعمل به»[2].

ولم يكن عمل عمر بن الخطاب واتباع مدرسته من الصحابة بالعمل بالرأي يتوقف عند موارد عدم وجود نص شرعي لواقعة من الوقائع! وإنما كان يتعدى إلى أبعد من ذلك، حيث سجّل على هذه المدرسة مخالفتها للكتاب والسنة! وفي أكثر من مورد وواقعة.

يقول الكاتب المصري الدكتور أحمد أمين في كتابه «فجر الإسلام»: «وعلى الجملة فقد كان كثير من الصحابة يرى أن يستعمل الرأي حيث لا نص من كتاب أو سنة،.. ولعل عمر بن الخطاب كان أظهر الصحابة في هذا الباب، وهو استعمال (الرأي) فقد روي عنه الشيء الكثير... بل يظهر لي أن عمر كان يستعمل الرأي في أوسع من المعنى الذي ذكرنا، ذلك أن ما ذكرنا هو استعمال الرأي حيث لا نص من كتاب ولا سنة، ولكنا نرى عمر سار أبعد من ذلك، فكان يجتهد في تعرف المصلحة

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٠ / ٥٧٢.

(٢) الفضلي، تاريخ التشريع: ٥٨.

التي لأجلها كانت الآية أو الحديث، ثمّ يسترشد بتلك المصلحة في أحكامه، وهو أقرب شيء إلى ما يعبر عنه الآن بالاسترشاد بروح القانون لا بحرفيته»[1].

ويقول باحث اسلامي آخر: «ان الأُستاذ الأول لمدرسة الرأي هو عمر بن الخطاب، لأ نّه واجه من الأُمور المحتاجة إلى التشريع ما لم يواجه خليفة قبله ولا بعده..»[2].

ومن الوثائق التاريخية التي تنص على تأكيد عمر بن الخطاب على منهج الرأي ما روي عنه من قوله لشريح القاضي لما ولّاه القضاء في الكوفة: «انظر ما يتبين لك في كتاب اللّه فلا تسأل عنه أحدا، وما لم يتبين لك فاتبع فيه سنة رسول اللّهﷺ، وما لم يتبين لك في السنة فاجتهد فيه برأيك»[3].

ونجد نفس التأكيد على مبدأ الرأي في وثيقة أُخرى تمثلت في كتاب أرسله عمر بن الخطاب لواليه على الكوفة أبي موسى الأشعري يقول فيه: «الفَهم، الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، اعرف الأشباه والأمثال، وقس الأُمور عند ذلك»[4].

ولم يقتصر مبدأ اجتهاد الرأي على عمر بن الخطاب، وإنما أخذ به مجموعة من الصحابة، منهم: عبد اللّه بن مسعود الذي روي عنه قوله: «فإن جاء أمر ليس في كتاب اللّه ولا قضى به رسول اللّهﷺ فليقض بما قضى به الصالحون، فليجتهد رأيه»[5].

---

(١) أمين ـ أحمد، فجر الإسلام: ٢٣٨، طبعة مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة، الطبعة الخامسة عشر، بلا ـ ت.

(٢) قلعهچي ـ محمد رواس، موسوعة فقه ابراهيم النخعي: ١ / ١٢٧ المقدمة.

(٣) الخضري ـ محمد، تاريخ التشريع الإسلامي: ٨٣، طبعة دار القلم ـ بيروت، ١٩٨٣ م.

(٤) المرجع نفسه: ٨٣.

(٥) ابن حزم، ملخص إبطال القياس: ١٢.

ومنهم: زيد بن ثابت الذي نقل عنه الشعبي انه قال: «إنما اجتهد رأيي»[1].

وهنالك نصوص أُخرى كثيرة تؤكد على أن مبدأ اجتهاد الرأي كان قد برز بوضوح من قبل بعض الصحابة بعد رحيل رسول اللهﷺ، وصدرت على ضوئها الكثير من الفتاوى، حتى شاع هذا المنهج وأصبح له معالمه الذي تمسك به بعض أئمة المذاهب الإسلامية.

مدرسة النص:

في مقابل ذلك وقفت مدرسة أهل البيتعليهم السلام، والتي تمثلت في صدرها الأول بالإمام عليعليه السلام، موقفا حازما اتجاه مدرسة الرأي، وشجبت بشدة العمل به، لما فيه من خطورة بالغة على التشريع الإسلامي.

والنصوص الواردة عن علي، ثمَّ من بعده منَ الأئمةعليهم السلام، والتي تلتزم العمل بالنص كثيرة جدا، نذكر منها:

قولهعليه السلام من خطبة له: «وأنزل عليكم الكتاب تبيانا لكل شيءٍ، وَعمَّرَ فيكم نبيه أزمانا، حتى أكمل له ولكم فيما أنزل من كتابه دينه الذي رضي لنفسه، وأنهى إليكم على لسانه محابَّه من الأعمال ومكارهه، ونواهيه وأوامره، وأَلقى إليكم المعذرة واتخذ عليكم الحجة، وقدم إليكم بالوعيد، وانذركم بين يدي عذاب شديد»[2].

ومن كلام لهعليه السلام في ذم اختلاف العلماء في الفتيا: «تَرِدُ على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثمَّ تردُ تلكَ القضية بعينها على غيره فيحكم فيها

---

(١) ابن حزم، ملخص إبطال القياس: ٦٢.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٨٦، ترتيب وضبط الدكتور صبحي الصالح.

بخلاف قوله، ثمّ يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوّب آراءهم جميعا، وإلههم واحد، ونبيهم واحد، وكتابهم واحد.

افأمرهم اللّه تعالى بالاختلاف فأطاعوه، أم نهاهم عنه فعصوه، أم أنزل اللّه دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه، أم كانوا شركاء له، فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى، أم أنزل اللّه سبحانه دينا تاما فقصّر الرسولﷺ عن تبليغه وادائه؛ واللّه سبحانه يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[1]، وقال: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[2]، وذكر ان الكتاب يصدّق بعضه بعضا، وانه لا اختلاف فيه، يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[3] وأن القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلّا به»[4].

وعندما نتأمل في هذا النص، نجد أن الإمامعليه السلام يردّ على أهل اجتهاد الرأي في مجال التشريع واستنباط الأحكام، ويبين لهم فساد قولهم: كل مجتهد مصيب.

ومن خلال هذه النصوص وأمثالها يتبيّن لنا أيضا أَنَّ هنالك منهجا تشريعيا ظهرت معالمه بعد وفاة رسول اللّهﷺ في قبال منهج رسول اللّهﷺ والذي حاول الإمام عليعليه السلام والأئمة من بعده حفظه وصيانته من خلال الالتزام العملي به، وتبين حدوده ومعالمه وأبعاده.

وأما مصادر وطريقة كلٍّ من منهجي النص والرأي فهي باختصار:

---

(١) الأنعام: ٣٨.

(٢) النحل: ٨٩.

(٣) النساء: ٨٢.

(٤) المصدر نفسه: ١ / ٢٨٨.

أولاً: منهج النص

أ ـ مصادره: الكتاب والسنة فقط.

ب ـ طريقته إلى معرفة الحكم: الاجتهاد في فهم النص وداخل إطاره.

ثانيا: منهج الرأي

أ ـ مصادره: الكتاب والسنة والرأي.

ب ـ طريقته إلى معرفة الحكم: الاجتهاد في فهم النص.. والاجتهاد بالرأي خارج إطار النص فيما لا نص فيه، وكذلك فيما يوجد فيه نص إذا تطلبت المصلحة ذلك[1].

ولا نريد أن نتوسع كثيرا في ذكر الشواهد والأمثلة على اجتهاد الرأي بعد رحيل رسول اللهﷺ بعد ان كفانا بعض الباحثين مؤونة ذلك[2]. وبعد أن أكد عليها أصحابها، أصحابها، وحاولوا أن يجدوا المبررات المقنعة لها.

في قبال مدرسة أهل البيتعليهم السلام وخاصة الإمام علياًعليه السلام الذي حاول جاهدا أن يبقي مرجعية القرآن والسنة في استنباط الأحكام الشرعية.

---

(١) الفضلي، تاريخ التشريع الإسلامي: ٦٢.

(٢) أُنظر: المرجع نفسه: ٦٢ وما بعدها، وللتوسع أُنظر: النص والاجتهاد للسيّد عبد الحسين شرف الدين مع مقدّمة السيّد محمد تقي الحكيم.

المبحث السادس

أدوار مدرسة أهل البيت عليهم السلام في المدينة

الدور الأول

مدرسة المدينة في عهد الحسنين والسجاد عليهم السلام

لقد كانت مدرسة أهل البيت في المدينة تمثل الامتداد الطبيعي للمدرسة الإسلامية التي أسس اسسها النبي صلى الله عليه وآله وساهم معه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام والنخبة المنتجبة من النابهين من أصحابه، ولهذا كانت مدة حياة الإمام علي عليه السلام بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله بمثابة التوسعة والتنمية لمدرسة الرسول صلى الله عليه وآله فكان لابد لهذه المدرسة من أن تستمرَّ في عطائها بعد رحيل علي عليه السلام عنها من خلال أهل البيت عليهم السلام وتلامذتهم من الصحابة والتابعين ولهذا «لم تقفل مدرسة المدينة أبوابها بعد هجرة أمير المؤمنين عليه السلام عام (٣٥) للهجرة ثمّ استشهاده في مسجد الكوفة بعد خمس سنوات من هذا التاريخ، وإنما تعاقبت عليها عدة أجيال من تلامذة الإمام علي وتلامذتهم، إذ امتدت الحركة العلمية في المدينة بأبناء علي من الأئمة عليهم السلام، وبتلامذته الآخرين، الذين برز منهم عبد اللّه بن عباس الذي باشر تعليم التفسير والحديث والفقه والأدب وكان مجلسه يكتظُّ بالدارسين من مختلف الطبقات»[1].

روى الخطيب البغدادي في كتابه عن عطاء قوله: «ما رأيت مجلسا قط أكرم من مجلس ابن عَبَّاس أكثر علما وأعظم جَفنة، وان اصحاب القرآن عنده يسألونه،

---

(١) الرفاعي، مدرسة أهل البيت في المدينة: ٢٠.

وأصحاب النحو عنده يسألونه، وأصحاب الشعر عنده يسألونه، وأصحاب الفقه عنده يسألونه، كلهم يصدرهم من واد واسع»[1].

إلّا أن ابن عباس لم ينفرد في مدرسة المدينة، ولم يكن أعلم أهل زمانه في المدينة كما تحاول أن تصوره رواية الخطيب البغدادي عن عطاء، «وإنما سطع نجم الحسن والحسين(عليهما السلام)، اللذين ورثا ودائع النبوة والعلوم التي نهلها أمير المؤمنين(عليه السلام) من رسول اللّه(صلى الله عليه وآله) ثمّ أورثها الإمام الحسين لولده علي السجاد(عليه السلام)»، وصار السلف منهم يوصلها للخلف[2].

روى الصفار في البصائر: «عن عمر بن يزيد قال، قال أبو جعفر(عليه السلام): إنّ عليا كانَ عالِم هذه الأُمة، والعلم يتوارث، ولا يهلك أحد منّا إلّا ترك من أهله مَن يعلم مثل علمه أو ما شاء اللّه»[3].

وكان ابن عباس يدرك حقيقة هذا الأمر جيدا، ولهذا كان يبالغ كثيرا في احترام الحسن والحسين، ففي رواية مدرك بن عمارة والتي يرويها ابن عساكر في تاريخه ما يؤكد هذا المعنى، يقول: «رأيتُ ابن عباس آخذا بركاب الحسن والحسين، فقيل له: أتأخذ بركابهما وأنت أسنّ منهما؟ فقال: إنَّ هذين ابنا رسول اللّه(صلى الله عليه وآله)، أو ليس من سعادتي أن آخذ بركابهما»[4].

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١ / ١٨٦، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م.

(٢) مدرسة أهل البيت: ٢١.

(٣) الصفار، بصائر الدرجات: ١ / ٤٤٦.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ترجمة الإمام الحسين(عليه السلام)، المجلد السابع، الجزء الرابع عشر: ٤ / ١٨١، تحقيق: علي عاشور، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م.

وفي رواية مجاهد عن عبد الله بن عمر قال عن الحسنين: «إبنا رسول اللّهﷺ إنهما كانا يغرّان بالعلم غرّا» أي كان يلقمان العلم ويُزقان كما تزق الأفراخ[1].

«لقد واصل الحسنانعليهما السلام رعاية مدرسة أبيهما وجدهما في المدينة، والتفَّ حولهما نخبة من تلامذة أمير المؤمنين وغيرهم؛ ينهلون من حلقات دروسهما في المسجد النبوي، وذاع نبأ هذه الحلقات فرحل إليها طلّاب العلم من خارج المدينة»[2].

وقد عكست لنا الروايات الكثيرة جانبا من النشاط العلمي لمدرسة أهل البيت في عهد الإمامينعليهما السلام.

«عن الاربلي في كشف الغمة قال: فكان الحسن يجلس في مسجد رسول اللّهﷺ، ويجتمع الناس حوله، فيتكلم بما يشفي غليل السائلين، ويقطع حجج القائلين»[3].

ونالت حلقة درس الإمام الحسن بن عليعليهما السلام في المسجد النبوي اهتمام القادمين إلى المدينة، وتميزت على ما سواها من الحلقات الأُخرى في المسجد.

روى الاربلي عن الواحدي في تفسيره الوسيط ما يرفعه بسنده: «أنّ رجلاً قال: دخلت مسجد المدينة، فإذا برجل يحدّث عن رسول اللّهﷺ والناس حوله، فقلت له: اخبرني عن ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾[4]، فقال: نعم، أما الشاهد فيوم الجمعة، وأما المشهود فيوم عرفة، فجزته إلى آخر يُحدِّث، فقلتُ له: أخبرني عن «شاهد ومشهود» فقال:

---

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ترجمة الإمام الحسينعليه السلام: ١٤ / ١٧٧.

(٢) مدرسة أهل البيت: ٢٢.

(٣) الاربلي ـ علي بن عيسى، كشف الغمة في معرفة الأئمة: ٢ / ١٦٩، تحقيق: هاشم رسولي المحلاتي، طبعة دار الكتاب ـ قم.

(٤) البروج: ٣.

نعم، أما الشاهد فيوم الجمعة، وأما المشهود فيوم النحر، فجزتهما إلى غلام وجهه الدينار، وهو يُحدِّثُ عن رسول اللهﷺ، فقلت أخبرني عن «شاهد ومشهود»، فقال: نعم، أما الشاهد فمحمدﷺ، وأما المشهود فيوم القيامة، أما سمعته يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴾[2]، فسألت عن الأول؟ فقالوا: ابن عباس، وسألت عن الثاني؟ فقال: ابن عمر، وسألت عن الثالث؟ فقالوا: الحسن بن علي بن أبي طالبعليهما السلام، وكان قول الحسن أحسن»[3].

ويعبر السيّد الأمين في أعيانه عن الفترة التي استخلف فيها الحسنان أباهماعليهما السلام بأنها من الفترات الحرجة فيقول: وجاء بعد علي ولداه الحسنانعليهما السلامفي مدة تقرب من عشرين سنة، من سنة (٤٠ هـ) إلى أول سنة (٦١ هـ)؛ فكانا في حرج وضيق من دولة بني أُمية، ومع ذلك أ لّف الحسنعليه السلام في العلم، كما يظهر من كلام السيوطي في (تدريب الراوي) إنه وأباه أول من كتب في العلم، وظهر عنهما من علوم الإسلام ونفع المسلمين، ما ساعدهما الوقت على نشره»[4].

---

(١) الأحزاب: ٤٥.

(٢) هود: ١٠٢.

(٣) الاربلي، كشف الغمة: ٢ / ١٦٩.

(٤) أُنظر: الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ١ / ١٣٩، وكأنه يشير إلى ما ذكره السيوطي في تدريب الراوي بقوله: اختلف السلف من الصحابة والتابعين في كتابة الحديث فكرهها طائفة.. وأباحها طائفة وفعلوها منهم.. علي، وابنه الحسين. أُنظر: السيوطي ـ جلال الدين، تدريب الراوي: ٣٥٦، تحقيق: أبو قتيبة الفارابي، طبعة مؤسسة الريان ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م.

هذا وقد روي عن الإمام الحسن عليه السلام كلام في صفات اللّه سبحانه والتوحيد رواها الصدوق في كتاب التوحيد ونقل عنه السيد الأمين في الأعيان عند ترجمة الإمام الحسن عليه السلام[1].

وأما حلقة درس الإمام الحسين عليه السلام في المسجد النبوي، فقد اشتهرت وتفوّقت على نظائرها من حلقات الدرس في المسجد، حتى اضطر معاوية للاعتراف بذلك عندما قال لرجل من قريش: «إذا دخلت مسجد رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فرأيت حلقة فيها قوم كأنّ على رؤوسهم الطير، فتلك حلقة أبي عبد اللّه، مؤتزرا على انصاف ساقيه، ليس فيها من الهُزَّيلا[2]، شيءٌ»[3].

والذي نلاحظه في ترجمة الإمام الحسين عليه السلام أنه كان يتمتع بمرجعية علمية عند المسلمين، وتشمل هذه المرجعية، المرجعية الفقهية الفتوائية، والمرجعية العقائدية، فهو عليه السلام مرجع المسلمين في معرفة أحكام دينهم التشريعية من حلال وحرام، ومكروه ومستحب، ومباح، كما انه مرجعهم في دحض الشبهات العقائدية التي كانت تثار من بعض الزنادقة آنذاك، وأما مرجعيته في الفتوى وبيان الأحكام فقد أشارت إلى ذلك روايات كثيرة منها رواية الطبري، والتي ينقلها السيّد الأمين في الأعيان قال: «ولقي الفرزدق حين حجّ بأُمه الحسينَ عليه السلام في مكان يسمى الصفاح أو بستان بني عامر، قال: وسألته عن أشياء من نذور ومناسك فأخبرني بها، وحرّك راحلته وقال السلام عليك،

---

(١) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ١ / ٥٧٧، طبعة دار التعارف ـ بيروت، الطبعة الخامسة، بلا ـ ت.

(٢) الهزّيلا: نسبة إلى الهزل مقابل الجد، وهي اشارة إلى أن حلقة الإمام الحسين ليس فيها عبث وشعوذة وإنما كل ما فيها حق وصواب. مدرسة أهل البيت: ٢٣ الهامش.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق؛ ترجمة الإمام الحسين: ١٤ / ١٨١.

ويعلّق السيّد الأمين على هذه الرواية بقوله: «وهذا يدلنا على أنهم كانوا محلاً لاستفتاء المستفتين ومرجعا في أحكام الدين»[1].

وأما مرجعيته في دحض الشبهات العقائدية والتي كانت تثار آنذاك، فقد أشارت إلى ذلك أيضا روايات كثيرة، منها ما رواه ابن عساكر في تاريخه عن ترجمة الإمام الحسين عليه السلام، يقول: عن عكرمة عن ابن عباس: بينما هو يُحدِّث الناس، إذ قام إليه نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس تُفتي الناس في النملة والقملة، صف لي إلهك الذي تَعبد؟!

فأطرق ابن عباس اعظاما لقوله وكان الحسين بن علي جالسا ناحية، فقال: إليَّ يا ابن الأزرق، قال: لستُ اياك أسأل! قال ابن عباس: يا ابن الأزرق إنه من أهل بيت النبوة، وهم ورثة العلم، فأقبل نافع نحو الحسين، فقال له الحسين: يا نافع إن من وضع دينه على القياس، لم يزل الدهر في الالتباس، سائلاً ناكبا عن المنهاج، ظاعنا بالاعوجاج، ضالاً عن السبيل، قائلاً غير الجميل، يا ابن الأزرق أصف إلهي بما وصف به نفسه، وأُعرّفه بما عرّف به نفسه: لا يُدركُ بالحواس، ولا يُقاس بالناس، قريب غير ملتصق، وبعيد غير منتقص، يوحّد ولا يُبعّض، معروف بالآيات، موصوف بالعلامات، لا إله إلّا هو الكبير المتعال.

فبكى ابن الأزرق، وقال: يا حسين ما أحسن كلامك! قال له الحسين: بلغني أنك تشهد على أبي، وعلى أخي بالكفر، وعليَّ! قال ابن الأزرق: أما واللّه يا حسين لئن كان ذلك، لقد كنتم منار الإسلام، ونجوم الأحكام، فقال له الحسين: إني اسألك عن

---

(١) الطبري ـ محمد بن جرير، تاريخ الطبري: ٥ / ٣٨٦، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة روائع التراث العربي ـ بيروت، بلا ـ ت. والأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ١ / ٩٨.

مسألة، قال: سل، فسأله عن هذه الآية: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾[1] يا ابن الأزرق: من حُفِظَ في الغلامين؟ قال ابن الأزرق: أبوهما، قال الحسين: فأبوهما خير أم رسول الله ﷺ؟ قال ابن الأزرق: «قد أنبأ الله تعالى إنكم قوم خصمون»[2].

هذه الرواية ـ والتي نقلناها بطولها لأهميتها ـ ترسم لنا الخط الفكري والعقائدي الذي انتهجه الإمامان الحسنان عليهما السلام في محاججة خصومهم، لهدايتهم لما فيه صلاحهم وصلاح اتباعهم.

وينبغي أن نشير إلى أن الإمامين الحسنين عليهما السلام لم يكن لهما حرية القول في ملك بني أُمية العضوض، فلذلك قلَّ ما روي عنهما في الفقه وأُمور الدين[3].

*** الحركة العلمية في المدينة في عهد الإمام علي بن الحسين السجاد:**

وبعد الإمام الحسين عليه السلام انبرى ولده الإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بزين العابدين، والسجاد عليه السلام لتبني مدرسة المدينة ورعايتها.

وحظي الإمام السجاد عليه السلام بمقام المرجعية العلمية في هذه المدرسة، مثلما حظي أبوه وجده عليهما السلام قبل ذلك، وهذا ما تدلل عليه مجموعة شهادات صدرت من علماء معروفين من معاصريه[4].

---

(١) الكهف: ٨٢.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق؛ ترجمة الإمام الحسين: ١٤ / ١٨٤ ـ ١٨٥، والأمين ـ محسن: أعيان الشيعة: ٢ / ٣٩٤.

(٣) الفضلي، تاريخ التشريع: ٨٦.

(٤) مدرسة أهل البيت: ٢٤.

قال الذهبي في ترجمة الإمام السجاد: «السّيد الإمام، زين العابدين، وكان له جلالة عجيبة، وحقّ له ذلك، فقد كان أهلاً للإمامة العظمى؛ لشرفه، وسؤدده، وعلمه، وتألّهه، وكمال عقله»[١].

وفي رواية الزهري، قال: «ما كان أكثر مجالستي مع عليّ بن الحسين، وما رأيتَ أحدا كان أفقه منه..». وعنه أيضا: «لم أدرك من أفضل من علي بن الحسين»[٢].

وقيل انّ رجلاً قال لابن المسيّب: «ما رأيتُ أورع من فلان؛ قال: هل رأيتُ عليّ بن الحسين؟ قال: لا، قال: ما رأيتُ أورع منه»[٣].

وقال الشافعي في الرسالة في إثبات خبر الواحد: وجدت علي بن الحسين ـ وهو أفقه أهل المدينة ـ يعول على أخبار الآحاد[٤].

وقال الجاحظ: «فأين أنتم عن علي بن الحسين عليه السلام، زين العابدين الذي كان يقال له: علي الخير وعلي الأغر وعلي العابد، وما أَقسم على اللّه بشيءٍ إلّا وأبر قسمه؟»[٥].

قسمه؟»[٥].

ومهما يكن من أمر، فإنّ فضائل زين العابدين عليه السلام ومناقبه أكثر من أن تُحصَر، وقد ترجَم له أعلام علماء الرجال والتراجم، فلم يذكروه إلّا بالسيادة والشرف، والتقى والعلم، والعبادة والفضل، والحلم والكرم، والتدبير والحكمة.

---

(١) الذهبي ـ محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء: ٤ / ١٤٤، تحقيق: محمود شاكر، طبعة دار احياء التراث العربي، الطبعة الأُولى، ١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦ م.

(٢) المصدر نفسه: ٤ / ١٣٩.

(٣) المصدر نفسه: ٤ / ١٤٠.

(٤) الجاحظ، مجموعة رسائل الجاحظ: ١ / ٤٥٠.

(٥) المصدر نفسه: ١ / ٤٤٩.

وكان للإمام السجادعليه السلام نشاط علمي واسع في المدينة، فقد «انصرف إلى بث العلوم، وتعليم الناس، وتربية المحصلين، وتخريج العلماء والفقهاء، والأشراف على بناء الكتلة الشيعية»[1].

وقد اتخذ الإمامعليه السلام من المسجد النبوي مدرسة له، ففي كلّ جمعة يستثمر توافد المسلمين على المسجد فينبري للإرشاد والوعظ، يقول سعيد بن المسيب: «كان علي بن الحسينعليهما السلام، يعظ الناس، ويزهدهم في الدنيا، ويرغبهم في أعمال الآخرة، في كل جمعة، في مسجد رسول اللّهصلى الله عليه وآله، وحُفِظَ عنه وكُتِبَ، يقول: أيها الناس اتقوا اللّه»[2]، وكانت لهذه المواعظ البليغة تأثيرها الكبير بين المستمعين له، فكانوا يتفاعلون معها، وتهيج عواطفهم، وتسود المجلس موجة من البكاء، قال أبو حمزة: «كان الإمام علي بن الحسينعليهما السلام إذا تكلم في الزهد والوعظ، أبكى مَن بحضرته»[3].

«ويبدو أن الإمام السجاد كان يمضي قسطا وافرا من وقته يُعلِّم في المسجد النبوي، قال يزيد بن حازم: «رأيتُ علي بن الحسين وسليمان بن يسار، يجلسان بين القبر والمنبر، يتحدثان إلى ارتفاع الضحى ويتذاكران»[4].

وفي رواية الكليني عن ثوير بن فاختة، قال: سمعتُ علي بن الحسينعليهما السلام يُحدِّث في مسجد رسول اللّهصلى الله عليه وآله، قال: «حدثني أبي أ نّه سمع أباه علي بن أبي طالبعليه السلام يُحدِّث الناس، قال...»[5].

---

(١) حسين باقر، الإمام السجاد: ١٣ ـ ١٤.

(٢) الكليني ـ محمد بن يعقوب، الروضة من الكافي: ٦٠ ـ ٦٣، تحقيق: علي أكبر غفاري، طبعة دار الأضواء ـ بيروت، ١٤٠٥ هـ

(٣) المصدر نفسه: ١٣.

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٥ / ٢١٧.

(٥) الكليني، الروضة من الكافي: ٨٩ ـ ٩٠.

لقد خدمت بعض الظروف الموضوعية السياسية آنذاك الإمام السجادعليه السلام ووفرت له بعض السعة ـ النسبية ـ لنشر علومه التي ورثها عن أبيه عن أجداده عن النبيصلى الله عليه وآله.. إذ إن بني أُمية بعد قتل الحسينعليه السلام، لما رأوا نقمة الناس عليهم كفوا عن المجاهرة بظلم أهل البيت شيئا ما، ففسح لهم المجال في نشر علومهم، وقد أمنوا أيضا بعض الأمن من مطالبتهم بالخلافة والخروج عليهم.. فلذلك كثرت تلاميذ زين العابدين، والآخذون عنه في أنواع العلوم، وكانت مدرسته في داره وفي المسجد، وأخذ عنه فقهاء الحجاز وعلماؤه، ومن يأتي من الآفاق للحج، ودوّنوا ما أخذوه عنه، ورواه الناس»[1].

ولم يقتصر النشاط العلمي للإمام السجادعليه السلام على المسجد النبوي، وداره؛ بل توسع إلى أكثر من ذلك، وكان أهل العلم يقصدونه حيث مضى ولا ينفكّون عن طلب الافادة منه والارتشاف من معين علومه حتى في سفره، ففي رواية الكشي عن سعيد بن المسيب قال: «إنّ القراءَ كانوا لا يخرجون إلى مكة حتى يخرج علي ابن الحسين، فخرج وخرجنا معه ألف راكب»، وفي رواية ثانية عن سعيد بن المسيب أيضا، قال: «كان القوم لا يخرجون من مكة حتى يخرج علي بن الحسين»[2].

«إنّ خروج موكب يضم ألف رجل من القراء مع علي بن الحسين، يبرهن بدون شك على حاجة أهل القرآن إليه، وأ نّه هو المرجع الأول في التفسير وعلوم القرآن يومئذٍ، ويمكن أن نستنتج من هذا الرقم الكبير «ألف راكب»، وجود اجماع بين المسلمين على منزلته العلمية، ولا سيما إذا لاحظنا أن هذا الموكب لا يفارقه في رواحه ومجيئه. إنّ التفاف الناس وطلّاب العلم خاصة حول الإمام السجادعليه السلام

(١) الفضلي، تاريخ التشريع: ٨٧.

(٢) الكشي، اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشي: ١١٧، تصحيح: حسن المصطفوي، طبعة جامعة مشهد.

خصوصا أن السجادعليه السلام كان يخضع لرقابة السلطة الأموية باستمرار، لكن ذلك لم يُثنِ أهل العلم من الارتباط بمجالسه والحرص على مرافقته أينما رحل»[1].

*** من منجزات مدرسة المدينة في عهد الإمام السجادعليه السلام:**

تسجل لمدرسة الإمام علي بن الحسين السجادعليه السلام جملة من الانجازات العلمية المهمة تتلخص بما يلي:

أولاً: تربية النخبة الصالحة من العلماء:

رغم أن الظروف التي أحاطت بالإمامعليه السلام بعد واقعة كربلاء والتي لم تسمح للإمام السجاد بممارسة مهامه العلمية بحرية تامة، إلّا أ نّهعليه السلام لم يتخلَّ عن تلك المهام، فكثف جهوده على اعداد وتربية نخبة من الرجال الذين وعوا علومه ونشروها بين الناس، وكان لهم دور هام في مجالي التفسير والفقه، والحديث، حتى عرف سعيد بن جبير كأحد أبرز رجال التفسير في عصره»[2] وهو من تلامذة الإمام السجاد المبرزين، وهنالك نخبة من الصحابة والتابعين ممن يعدون من أصحاب الإمام السجادعليه السلام والراوين عنه[3].

ثانيا: ارساء قواعد فقه أهل البيتعليهم السلام:

«وقد تمكَّن الإمام زين العابدينعليه السلام من توضيح معالم فقه أهل البيتعليهم السلام وارساء قواعده، وإغناء معارفه.. حتّى أقرَّ كبار العلماء بأ نّه «الأفقه» من الجميع، قال أبو

---

(١) مدرسة أهل البيت: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) مدرسة أهل البيت: ٢٧ ـ ٢٨. بتصرف

(٣) أُنظر: رجال الشيخ الطوسي، أصحاب الإمام علي بن الحسين.

حازم: «ما رأيتُ هاشميّا أفضل من علي بن الحسين، وما رأيتُ أحدا كان أفقه منه، وقال الشافعي ـ إمام المذهب ـ إنّ علي بن الحسين أفقه أهل البيت»[1].

ثالثا: الآثار العلمية المدونة:

لقد خلفت لنا مدرسة أهل البيت عليهم السلام في عهد الإمام السجاد عليه السلام نصين هامين يعتبران من أوائل الآثار العلمية المدونة في صدر الإسلام، وهما:

١ ـ الصحيفة الكاملة السجادية: والتي تضمّ مجموعة من الأدعية التي طفحت بالتعاليم والمفاهيم الربانية، وبأعلى درجات البيان العربي بأُسلوبها ومعانيها، والتي اعتنى العلماء بروايتها، وضبط ألفاظها وشرح معانيها، حيث شرحت بأكثر من شرح ذكر منها الشيخ الطهراني في الذريعة[2] أكثر من ستين شرحا من أهمها وأطولها شرح السيّد علي خان المدني المتوفى سنة (١١٢٠ هـ) والمعروف بـ (رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين).

٢ ـ رسالة الحقوق: وهي وثيقة حقوقية نصّت على طائفة من الحقوق الأساسية، للّه تعالى، وللنفس، وللأئمة، وللرعية.. وقد رواها الشيخ الصدوق بسند معتبر، وأوردها ابن شعبة في تحف العقول، ولهذه الرسالة طبعات مستقلة، وشرحها بعض الأعلام.

وفي الختام نُذَّكِر بما قاله السيّد حسن الأمين في دائرة معارفه بقوله: «يعتبر علي بن الحسين المؤسس الثاني للمدرسة الإسلامية، إذ إن جدّه علي بن أبي طالب هو المؤسس الأول.

---

(١) الجلالي ـ محمد رضا، جهاد الإمام السجاد: ١٣١ ـ ١٣٢، طبعة قم، ١٤١٣ هـ

(٢) آقا بزرك الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٦ / ١٥٤ ـ ١٥٦ و ١٣ / ٣٤٥ ـ ٣٥٩.

وكما اتخذ جدّه من المسجد ومن بيته مكانا يلتف حوله فيه طلّاب العلم الوافدون من كل مكان، وكما كانت مجالس جدّه دروسا في شتى المعارف الإسلامية، فكان بذلك المؤسس الأول للدراسات الإسلامية، كذلك كان حفيده زين العابدين علي بن الحسين، فمنذ سنة (٦١ هـ) إلى سنة (٩٥ هـ)، أي طيلة خمس وثلاثين سنة كان منزله وكان المسجد مدرسته يزدحم فيها الطلّاب عليه..، وكان علي بن الحسين مشغولاً بنشر العلم وبث الثقافة وإنارة الأفكار، وتهذيب الأخلاق؛ فكثر تلاميذه والآخذون عنه في أنواع العلوم، وأصبح أُولئك التلاميذ وتلاميذهم بناة الحضارة الإسلامية، ورجال الفكر الإسلامي والتشريع الإسلامي والأدب الإسلامي، ولقد أخذ عنه علماء الحجاز ومن يأتي من البلاد البعيدة والقريبة في مواسم الحج ودونوا ما أخذوه عنه ورواه عنهم الناس»[1].

*** مدرسة المدينة في عصر الباقر والصادق عليهما السلام:**

بعد وفاة الإمام السجاد عليه السلام سنة (٩٥ هـ) جاء عهد الصادقين عليهما السلام، ويمتد هذا العهد إلى وفاة الإمام الصادق عليه السلام سنة (١٤٨ هـ).

«ويعتبر هذا العهد عهد الانفراج للنشاط الفكري لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، وسمّاه شيخنا الطهراني (عصر انتشار علوم آل محمد)، لأ نّه ـ كما يعلل ـ «عصر ضعف الدولتين واشتغال أهل الدولة بأُمور الملك عن أهل الدين...» فكان فضلاء الشيعة ورواتهم في تلك السنين آمنين على أنفسهم، مطمئنين، متجاهرين بولاء أهل البيت، معروفين بذلك بين الناس، ولم يكن للأئمة عليهم السلام مزاحم لنشر الأحكام، فيحضر

---

(١) الأمين ـ حسن، دائرة المعارف الشيعية: ١ / ٥٥٦.

شيعتهم مجالسهم العامة والخاصّة للاستفادة من علومهم. وفي تلك المدة القليلة كتبوا عن أنمتهم أكثر ما ألفوه، وبسعيهم نشرت علوم آل محمد..»[1].

«وعامل آخر ساعد الإمامين الصادقين على القيام بمهامهما الفكرية، هو ابتعادهما عن الطموح إلى تولي السلطة؛ لعلمهما بأنها لا تصل إليهما، وإنهما لا يصلان إليها، لأسباب أدركاها.. فلم يتدخلا بشأن سياسي يمتّ إلى النظام الأموي أو النظام العباسي بوجه من الوجوه»[2].

والحديث عن الإمامين الصادقين عليهما السلام حديث طويل ومتشعب، فلابد لنا من تلخيصه في محورين أساسيين:

الأول: نتحدث فيه عن المكانة العلمية والفكرية للإمامين عليهما السلام.

الثاني: نتحدث فيه عن أوجه النشاط العلمي والعطاء الفكري لهما عليهما السلام.

والحديث عن الإمامين عليهما السلام يتفرع إلى فرعين أساسيين:

أُولاهما: الحديث عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام.

وثانيهما: الحديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

أما الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام فهو الذي نهض بمهمة إدارة مدرسة المدينة بعد رحيل والده الإمام السجاد عليه السلام فاقتفى أثره في التربية والتعليم وإعداد الفقهاء والعلماء.

واشتهر الإمام محمد بن علي عليه السلام بـ (الباقر). يقول الذهبي في ترجمته: «وشُهِرَ أبو جعفر: بالباقر، مِن: بَقَرَ العلمَ، أي شقَّه فعَرفَ أصلَهُ وخفيَّه».

---

(١) الطهراني ـ آقا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٢ / ١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) الفضلي ـ عبد الهادي، تاريخ التشريع الإسلامي: ٩٦ وما بعدها.

قال الزُّبير بن بكّار: كان يقال لمحمد بن عليّ: باقر العلم.. وفيه يقول القرظي:

يـا بـاقرَ العِلـمِ لأَهـلِ التُقـى وَخَيرَ مَـن لبَّـى علـى الأُجبُـل[1]

وقد نص على هذا اللقب للإمام عليه السلام، المحدثون، والمؤرخون، وعلماء اللغة؛ يقول ابن منظور في لسان العرب: «التبقر التوسّع في العلم والمال، وكان يقال: محمد بن علي بن الحسين بن علي: الباقر (رضوان اللّه عليهم) لأ نّه بقر العلم، وعرف أصله، واستنبط فرعه»[2].

واعترف له بالتفوق العلمي وأهليته لإمامة المسلمين في عصره، كُلّ من ترجمه من علماء الرجال والمؤرخين، فيقول عنه الذهبي: «وكان أحدَ من جَمَع بين العلم والعمل والسؤدد، والشرف، والثقة، والرَّزانة، وكان أهلاً للخلافة،.. ولقد كان أبو جعفر، إماما، مجتهدا، تاليا لكتاب اللّه، كبير الشَّأن..»[3].

ويذكر المؤرخون من الخاصة والعامة من فضائل الإمام الباقر عليه السلام الشيء الكثير، منها ما روي عن جابر بن عبد اللّه الأنصاري الذي قال: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله أخبرني: أ نّك تبقى حتى ترى رجلاً من وُلدي أشبه الناس بي، اسمه على اسمي، إذا رأيته لم يَخل عليك فاقرئه منّي السلام»[4].

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٤ / ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) أُنظر: ابن منظور، لسان العرب: مادة: بقر، ذيل كلمة باقر، والشيخ الصدوق، علل الشرائع: ١ / ٢٣٣، واليعقوبي في تاريخه: ٢ / ٣٢٠، والراغب الإصفهاني في مفرداته: مادة: بقر.

(٣) الذهبي، المصدر نفسه: ٤ / ١٤٦.

(٤) المجلسي، بحار الأنوار: ٤٦ / ٢٩٤.

ويضيف اليعقوبي في تاريخه بعد أن يذكر هذه الرواية بقوله: «فلما كبر سنّ جابر وخاف الموت جعل يقول: يا باقر، يا باقر، أين أنت، حتى رآه، فوقع عليه يقبل يديه ورجليه ويقول: بأبي وأُمّي شبيه أبيه رسول اللّهﷺ إنّ أباك يقرأك السلام»[١].

ويقول الجاحظ: «كان محمد بن علي بن الحسين، سيّد أهل الحجاز، ومنه ومن ابنه تعلم الناس الفقه، وهو الملقّب بالباقر، باقر العلم، لقّبه به رسول اللّهﷺ ولم يخلق بعد، وبشّر به ووعد جابر بن عبد اللّه برؤيته، وقال: ستراه طفلاً فإذا رأيته فأبلغه عني السلام، فعاش جابر حتّى رآه وقال له ما وصيَّ به»[٢].

ويعترف لهعليه السلام بغزارة العلم والاحاطة الشاملة لكل العلوم الخاصّة والعامة، ولم ينفرد الشيعة بتوقير مقامه والافادة منه، وإنما كانت مدرسته تسع كل طالب علم، فيقول عنه ابن عنبه في عمدة الطالب: «كان واسع العلم وافر الحلم»[٣]، ويعبر عنه ابن أبي الحديد بقوله: «كان سيّد فقهاء الحجاز»[٤]. وفي رواية الزهري الذي ينقلها عنه الذهبي، قال: حجَّ الخليفة هشام، فدخل الحرم.. ومحمد بن علي ابن الحسين جالس، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا محمد بن علي، فقال: المَفْتُونُ به أهلُ العراق؟ قال: نعم..»[٥].

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي: ٢ / ٣٢٠، والذهبي، سير أعلام النبلاء: ٤ / ١٤٧، ومختصر تاريخ دمشق: ٢٣ / ٧٨.

(٢) الجاحظ: رسائل الجاحظ: ١ / ٤٥٢.

(٣) ابن عنبه، عمدة الطالب: ١٩٥.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح النهج: ١٥ / ٧٧.

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء.

لقد كان مجلس الإمام عليه السلام عامرا بالعلماء، وهم في غاية التواضع والاحترام له، قال عبد اللّه بن عطاء المكي: «ما رأيتُ العلماء عند أحدٍ قط أصغر منهم عند أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين عليهما السلام، ولقد رأيتُ الحكم بن عُيينة ـ مع جلالته في القوم ـ بين يديه كأنه صبيّ بين يدي مُعلِّمه. وكان جابر بن يزيد الجعفي إذا روى عن محمد بن علي عليه السلام شيئا، قال: حدّثني وصيُّ الأوصياء، ووارث علم الأنبياء محمد بن علي بن الحسين عليه السلام»[1].

ومهما يكن من أمر، فإنّ المقام العلمي الشامخ للإمام الباقر عليه السلام، ومرجعيته العلمية كلاهما مما اتفق عليه الجميع، ولا يمكن لنا استيعاب كل كلماتهم في هذا المجال، يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «كان محمد الباقر عليه السلام، وريث الإمام السجاد في إمامة أهله، ونيل الهداية، ولذا كان مقصد العلماء من كل البلاد الإسلامية، وما زار أحد المدينة إلّا عرج على بيت محمد الباقر عليه السلام يأخذ منه.. وكان يقصده من أئمة الفقه والحديث كثيرون»[2].

ويقول السيّد الأمين: «وكانت مدرسته بالمدينة في داره وفي المسجد، يأتيه فقهاء الحجاز وعلماؤه فيأخذون عنه ويدونون ما أخذوه، ويأتيه الناس من جميع الآفاق من العراق ومن قم وغيرهما في موسم الحج فيقيمون مدّة في المدينة ويأخذون عنه ويسألونه عما أشكل عليهم، وإذا عادوا إلى بلادهم حدثوا عنه بما سمعوه منه ودونوه، وكانوا في بحر السنة يحفظون ما أشكل عليهم، فإذا وردوا المدينة سألوه عما حفظوه من المسائل ومن لم يحج أوصى من يحج أن يسأل له عما أشكل عليه»[3].

---

(١) الشيخ المفيد، الإرشاد: ٢ / ١٦٠ ـ ١٦٣، تحقيق: مؤسسة آل البيت لاحياء التراث ـ قم.

(٢) أبو زهرة ـ محمد، الإمام الصادق عليه السلام: ٢٢، طبعة دار الفكر العربي ـ بيروت.

(٣) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ١ / ٩٩.

وأما الحديث عن شخصية الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، فهو حديث صعب مستصعب، لا يمكن استيعابه في هذا المختصر، فقد وصفه الشيخ المفيد بقوله: «نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الرُّكبان، وانتشر ذكره في البُلدان، ولم يُنقل عن أحد من أهل بيتهِ ما نُقِل عنه، ولا لقي أحدٌ منهم من أهل الآثار ونَقَلة الأخبار، ولا نقلوا عنهم كما نقلوا عن أبي عبد الله عليه السلام، فإنّ أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقات، على اختلافهم في الآراء والمقالات، فكانوا أربعة آلاف رجل..»[١].

لقد قام الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام بأمر الإمامة والمرجعية العلمية والفكرية للأُمة الإسلامية بعد رحيل والده سنة (١١٤ هـ)، وخلفه في توسعة وتعميق المدرسة العلمية والفكرية التي شيدها أجداده وآباؤه عليهم السلام، وفي عصره عليه السلام «اتسع نطاق مدرسته فاستوعبت عددا غفيرا من طلّاب العلم، وامتدت جغرافيا لتتخذ من المدينة مركزا لها في ذروة نموها وتطورها»[٢].

وعندما نعود إلى كلمات المترجمين للإمام الصادق عليه السلام من علماء الجرح والتعديل، وكذلك مواقف المعاصرين له من الفقهاء والرواة والمفسرين.. نجد أن هؤلاء جميعا يعترفون له بالفضل والفضيلة والمقام العلمي الشامخ، ويشهد له الجميع بمرجعيته الفكرية والعلمية.

ترجم له الذهبي في سير أعلام النبلاء فأثنى عليه وقال عنه: «قلت: جعفر ثقة صدوق» ثمّ ينقل روايات كثيرة تشير إلى مكانته وفضله منها:

---

(١) الشيخ المفيد، الإرشاد: ٢ / ١٧٩.

(٢) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٣٣.

رواية: عمرو بن أبي المِقدام قال: كنتُ إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين وقد رأيتهُ واقفا عند الجمرة يقول: سَلوني، سَلوني.

وعن صالح بن أبي الأسود، سمعتُ جعفر بن محمد يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني، فإنه لا يُحدِّثكم أحد بعدي بمثل حديثي».

ثمّ ينقل الرواية المشهورة عن أبي حنيفة، والتي يقول الراوي فيها: «سمعت أبا حنيفة، وسُئل: مَن أَفقه من رأيت؟ قال: ما رأيتُ أحدا أفقه من جعفر بن محمد، لما أقدمه المنصور الحيرة، بعث إليَّ فقال: يا أبا حنيفة، إنّ الناس قد فُتِنوا بجعفر بن محمد، فهيّيء له من مسائلكَ الصعاب، فهيأتُ له أربعين مسألة، ثمّ أتيتُ أبا جعفر، وجعفر جالس عن يمينه، فلما أبصرتُ بهما، دخلني بجعفر من الهيبة ما لا يدخلني لأبي جعفر، فسلمتُ وأُذن لي، ثمّ التفتَ إلى جعفر، فقال: يا أبا عبد اللّه، تعرف هذا؟ قال: نعم، هذا أبو حنيفة. ثمّ اتبعها: قد أتانا، ثمّ قال: يا أبا حنيفة، هات من مسائلك نسأل أبا عبد اللّه؛ فابتدأتُ أسأله، فكان يقول في المسألة: أنتم تقولون فيها كذا وكذا، وأهل المدينة يقولون كذا وكذا، ونحن نقول كذا وكذا، فربما تابَعنا وربما تابعَ أهل المدينة، وربما خالفنا جميعا، حتى أتيتُ على أربعين مسألة ما أُخرِمُ منها مسألة، ثمّ قال أبو حنيفة: أليس قد روينا أنّ أعلم الناسِ أعلمهم باختلاف الناس؟!»[1].

كذلك روي عن مالك بن أنس ـ إمام المذهب ـ قوله: «ما رأت عين، ولا سمعت أُذن، ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد، فضلاً وعلما وعبادة وورعا، وكان كثير الحديث، طيب المجالسة، كثير الفوائد»[2].

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٦ / ٤٣٨ وما بعدها، تحقيق: محب الدين العَمروي، طبعة دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م.

(٢) الأمين ـ حسن، دائرة المعارف الشيعية: ١ / ٥٦٥ ـ ٥٦٦.

لقد أمضى الإمام الصادقعليه السلام جُلَّ حياته في المدينة المنورة منصرفا لاحياء السنة الشريفة ونشر معارف الوحي[1]، وقد كتب الشهرستاني يصف الإمام الصادقعليه السلام بقوله: «وهو ذو علم غزير في الدين، وأدب كامل في الحكمة، وزهد بالغ في الدنيا، وورع تام عن الشهوات، وقد أقام بالمدينة مدة، يفيد الشيعة المنتمين إليه، ويفيض على الموالين له أسرار العلوم، ثمّ دخل العراق، وأقام بها مدّة»[2] ولم يكن مجلسهعليه السلام مقتصرا على شيعته ومواليه كما قد يفهم من كلام الشهرستاني، وإنما: «كان يجلس للعامة والخاصّة، ويأتيه الناس من الأقطار يسألونه عن الحلال والحرام، وعن تأويل القرآن، وفصل الخطاب، فلا يخرج أحد منهم إلّا راضيا بالجواب»[3].

بل إنّ مدرستهعليه السلام استقطبت الوافدين على المدينة من الأقطار الإسلامية وخاصّة حاضرة الإسلام آنذاك الكوفة، فكان أهل العلم لا يتركون الوفادة عليه على مدار السنة، وكان يزدحم وفدهم وقت موسم الحج، فقد عرف عن زرارة بن أعين واخوانه مجيئهم إليه من الكوفة باستمرار، للارتشاف من معارف الوحي عنده، بل إنّ بعض أصحابه قد هاجر إلى المدينة، عازفا عن وطنه، ملتحقا بهعليه السلام، مثلما فعل حماد بن عيسى الجهني البصري، الذي «لحق بأبي عبد اللّهعليه السلام، ومات بوادي قناة بالمدينة...، سنة تسع ومئتين»[4].

وقد أسهم تزايد وفود أصحاب الصادقعليه السلام إلى المدينة في تنامي الحركة العلمية فيها، وازدهار حلقات الدراسة والمناظرة في أروقة مسجد رسول اللّهصلى الله عليه وآله.. وما كان لهذه

---

(١) مدرسة أهل البيت: ٣٦.

(٢) الشهرستاني ـ محمد بن عبد الكريم، كتاب الملل والنحل: ١ / ١٤٧.

(٣) المسعودي ـ علي بن الحسين، إثبات الوصية: ١٩٦.

(٤) الشيخ المفيد، الاختصاص: ٢٠٥.

الحركة العلمية في المدينة أن تأخذ بالاتساع لو لم يكن الإمام مرشدا وهاديا لها، فقد كان أبو عبد اللّهعليه السلام، يقول لعبد الرحمن بن الحجاج: «يا عبد الرحمن كلِّم أهل المدينة، فإنني أحب أن يُرى في رجال الشيعة مثلك»[1].

هذا وقد كثر تلامذة الإمامين الصادقين الذين تخرجوا من مدرستهما، سواءً من مركزها الأصل (المدينة المنورة) أو من (الكوفة) عندما كان الإمام الصادقعليه السلام يستدعى من قبل الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور»[2].

وسوف يأتينا لاحقا الحديث عن مدرسة أهل البيت في الكوفة، ومدى تأثيرها في التربية والتعليم وإعداد العلماء والفقهاء، ونبقى مع الإمام الصادقعليه السلام ومدرسته في المدينة، وتلامذته الذين كانوا يحظون برعايته، وعطفه ومودته، بالاضافة إلى تكفله لشيءٍ من نفقاتهم، بل والقيام بضيافتهم في منزله إذا وردوا المدينة! وهذا ما تتحدث عنه الروايات المروية في كتب الرجال، منها: رواية زيد الشحّام: «رآني أبو عبد اللّهعليه السلام وأنا أُصلي، فأرسل إليّ ودعاني، فقال لي: من أين أنت؟ قلتُ: من مواليك، قال: فأيّ مواليّ؟ قلتُ: من الكوفة، فقال: من تعرف من الكوفة؟ قلتُ: بشير النبّال وشجرة، قال: وكيف صنيعتهما إليك؟ فقال: ما أحسن صنيعتهما إليّ! قال: خير المسلمين مَن وصل وأعان ونَفع، ما بتُّ ليلة قط وللّه في مالي حقّ يسألنيه. ثمّ قال: أي شيءٍ معك من النفقة؟ قلت: عندي مائتا درهم، قال: أرنيها، فأتيته بها فزادني فيها

---

(١) الكشي ـ محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بالكشيّ، اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشي: ٤٤٣ الحديث رقم ٨٣٠، بتحقيق العلّامة المصطفوي، الطبعة الأُولى، لبنان، ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م.

(٢) الفضلي، تاريخ التشريع: ١٠٥.

ثلاثين درهما ودينارين، ثمّ قال: تعشَّ عندي، فجئتُ فتعشّيت عنده. قال: فلما كان من القابلة لم أذهب إليه، فأرسل إليّ فدعاني من غده، فقال: مالك لم تأتني البارحة، قد شفقت عليَّ؟ فقلتُ: لم يجئني رسولك، قال: فأنا رسول نفسي إليك ما دمت مقيما في هذه البلدة، أي شيءٍ تشتهي من الطعام؟ قلت: اللبن، قال: فاشترى من أجلي شاة لبونا..»[1].

وفي نفس المصدر نجد رواية أُخرى يتكرر فيها هذا الجانب الإنساني والابوي والتربوي، مرّة أُخرى ومع شخص آخر من أصحابه جاء إلى المدينة. فعن المفضل بن قيس بن رمّانة، قال: «دخلتُ على أبي عبد اللّهعليه السلام، فشكوت إليه بعض حالي، وسألته الدعاء... فقال: هذا كيس فيه اربعمائة دينار، فاستعن به، قال: قلتُ: لا واللّه جُعلتُ فداك ما أردتُ هذا، ولكن أردت الدعاء لي..»[2].

وفي رواية ثالثة من المصدر نفسه نجد أن الإمام الصادقعليه السلام يبادر بنفسه بالإكرام لمن يدخل عليه من تلامذته ومريديه، كما في رواية جابر المكفوف، قال: «دخلت عليه ـ أي الإمام الصادق ـ فقال: أما يصلونك؟ قلت: بلى، ربما فعلوا، قال: فوصلني بثلاثين دينارا..»[3].

---

(١) الكشي، رجال الكشي: ٣٦٩.

(٢) المصدر نفسه: ١٨٤.

(٣) المصدر نفسه: ٣٣٥.

«بهذا الأُسلوب يتفقد أبو عبد اللهعليه السلام تلامذته، ويتولى تأمين نفقاتهم، ويقيهم الحاجة إلى غيره، وهو أُسلوب ينبأنا عن كيفية تمويل التعليم وتأمين نفقات المتعلم وقتئذٍ»[1].

* التراث العلمي للإمامين الصادقينعليهما السلام:

يتحدث ابن النديم في الفهرست عن الإمام الباقرعليه السلام وتراثه العلمي فيقول: «أبو جعفر محمد بن علي، له من الكتب كتاب الهداية»[2]، «وقد روي عنه في فنون العلم الشيء الكثير وألّف أصحابه في ذلك المؤلفات الكثيرة المذكورة في تراجمهم»[3]، ويكتب ابن شهر آشوب في المناقب عن الإمام الصادقعليه السلام:

«لم يظهر عن أحد من ولد الحسن والحسينعليهما السلام من العلوم ما ظهر منه من التفسير والكلام والفتيا والأحكام والحلال والحرام، قال محمد بن مسلم: سألته عن ثلاثين ألف حديث، وقد روى عنه معالم الدين بقايا الصحابة ووجوه التابعين ورؤساء فقهاء المسلمين»[4].

إنّ الفترة الزمنية التي عاشها الإمامانعليهما السلام ساعدت كثيرا في املاء العلوم، وتوضيح الغوامض، وتربية العلماء القادرين على حمل هذه الأفكار بأمانة، وتطويرها بعمق، ومن ثمّ جعلها المنطلق نحو بناء الحضارة الإسلامية المنشودة.

---

(١) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٣٩.

(٢) ابن النديم، الفهرست: ٢٤٦، تحقيق: رضا تجدد، طبعة طهران، ١٩٧١ م.

(٣) الأمين ـ حسن، دائرة المعارف الشيعية: ١ / ٥٦٩.

(٤) ابن شهر آشوب ـ رشيد الدين محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب: ٤ / ١٩٥، تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، طبعة المصطفوي ـ قم، بلا ـ ت.

«إنّ التراث العلمي الذي خلفه الإمامان الباقر والصادقعليهما السلام للأجيال المتعاقبة، تراث عظيم غني بالعمق والابتكار والجدة، وبعد الغور، ووسع المعرفة من كل جهاتها،.. فأثرى به الفكر الإنساني ثراء كبيرا، وانفتحت به أمام العقل آفاق لم يكن يدركها من قبل، ولم يسبق له التعمق فيها والاطلاع على ما تضمه من كنوز العلم والعرفان»[1].

وفيما يلي قائمة لأهم العناوين المذكورة في ترجمة الإمامينعليهما السلام:

أ ـ مؤلفات الإمام الباقرعليه السلام:

١ ـ كتاب التفسير، للإمام الباقرعليه السلام، قال ابن النديم عند ذكر الكتب المصنفة في التفسير: «كتاب الباقر محمد بن علي بن الحسينعليهما السلام رواه عنه أبو الجارود زياد بن منذر رئيس الجارودية الزيدية»[2]، وقال السيّد الأمين: «وقد روى هذا الكتاب عن أبي الجارود عند سلامة حاله، أبو بصير يحيى بن قاسم (أبو أبي القاسم) السدي، وكذا أخرجه علي بن إبراهيم بن هاشم في تفسيره»[3].

٤ ـ كتاب الهداية، ذكره ابن النديم في الفهرست[4].

---

(١) الأمين ـ حسن، دائرة المعارف الشيعية: ١ / ٥٦٩.

(٢) ابن النديم، الفهرست: ٣٦، والأمين ـ محسن، أعيان اليشعة: ٢ / ٥٠٢، والأمين ـ حسن، دائرة المعارف: ١ / ٥٦٣.

(٣) المصدر والمرجعين معا، والروضة من الكافي: ٨ / ٤٥ وما بعدها.

(٤) ابن النديم، الفهرست: ٢٤٦.

ب ـ مؤلفات الإمام الصادقعليه السلام:

لقد ذكر السيّد محسن الأمين في أعيانه قائمة طويلة لمؤلفات الإمام الصادقعليه السلام مقتبسة من مصادرها من كتب الفهارس والتراجم والببليوغرافيا، نذكرها باختصار عنه:

١ ـ رسالته إلى النجاشي والي الأهواز، المعروفة برسالة عبد اللّه بن النجاشي، يقول السيّد الأمين: وقد ذكر النجاشي صاحب الرجال «إنه لم يُرَ لأبي عبد اللّهعليه السلام مصنف غيرها»، ويمكن حمله على أ نّه لم يجمع هوعليه السلام بيده غيرها، والباقي مما حفظه الرواة عنه.

٢ ـ رسالته إلى سعد الخير من بني أُمية[1].

٣ ـ رسالة أُخرى منهعليه السلام إليه أوردها الكليني في الروضة من الكافي[2].

٤ ـ رسالة لهعليه السلام أوردها الصدوق في الخصال.

٥ ـ الكتاب المسمى بتوحيد المفضل لأ نّه راويه، وإلّا فهو من تأليف الصادقعليه السلام.

٦ ـ كتاب مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة المنسوب إلى الصادقعليه السلام، وهو مطبوع مع جامع الأخبار.

قال السيّد الأمين: «وقد شكك في نسبة الكتاب إلى الإمام جملة من العلماء، وقالوا إنه من مؤلفات بعض الصوفية»[3].

---

(١) الكليني، الروضة من الكافي: ٨ / ٤٥.

(٢) المصدر نفسه: ٨ / ٤٨.

(٣) أُنظر، مقدمة الدكتور جلال الدين المحدث الأرموي لشرح كتاب مصباح الشريعة: ٥ / ٣٠ بالفارسية، طبعة كتابخانة صدوق ـ طهران.

٧ ـ رسالته إلى أصحابه، رواها الكليني في أول روضة الكافي بسنده عن إسماعيل بن جابر.

٨ ـ كتاب الإهليجية برواية المفضل بن عمر،وهو موجود في ضمن البحار، ونفى ابن النديم نسبة الكتاب للإمام الصادق بشكل قاطع. حيث قال: «كتاب الهليجة، ويقال ألّفها الصادقعليه السلام، وهذا محال»[1].

٩ ـ رسالته إلى أصحاب الرأي والقياس.

١٠ ـ رسالته في الغنائم، ووجوب الخمس، أوردها في تحف العقول.

١١ ـ وصيته لعبد اللّه بن جندب.

١٢ ـ وصيته لأبي جعفر محمدبن النعمان الأحول.

١٣ ـ نثر الدرر، كما سماه بعض الشيعة.

١٤ ـ كلامه في وصف المحبة لأهل البيت والتوحيد والإيمان والإسلام والكفر والفسق.

١٥ ـ رسالته في وجوه معايش العباد ووجوه اخراج الأموال.

١٦ ـ رسالته في احتجاجه على الصوفية فيما ينهون عنه من طلب الرزق.

١٧ ـ كلامه في خلق الإنسان وتركيبه.

١٨ ـ حكمه القصيرة.

يقول السيّد الأمين: وهنالك كتب مروية عن الصادقعليه السلام جمعها أصحابه مما رووه عنه فيصبح بهذا الاعتبار نسبتها إليه لأنّ الإملاء أحد طرق التأليف، وقد ذكر خمسة منها النجاشي، وذكر سنده إليها، ويحتمل تداخلها مع بعض ما تقدم وهي:

---

(١) ابن النديم، الفهرست: ٣٧٩ بتحقيق: رضا تجدد، طبعة دانشكاه طهران، ١٩٧١ م.

١٩ ـ نسخة ذكرها النجاشي في ترجمة محمد بن ميمون.

٢٠ ـ نسخة رواها الفضيل بن عياش.

٢١ ـ نسخة رواها عبد اللّه بن أُويس بن مالك.

٢٢ ـ نسخة رواها سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي.

٢٣ ـ نسخة يرويها إبراهيم الشيباني.

٢٤ ـ كتاب يرويه جعفر بن بشير البجلي.

٢٥ ـ كتاب رسائله، رواه عنه جابر بن حيان الكوفي.

قال اليافعي في مرآة الجنان واصفا الإمام الصادقعليه السلام بقوله: «وإنما لقّب بالصادق لصدقه في مقالته، وله كلام نفيس في علوم التوحيد وغيرها، وقد أ لّف تلميذه جابر بن حيان كتابا يشتمل على ألف ورقة يتضمن رسائله وهي خمس مائة رسالة»[١].

٢٦ ـ تقسيم الرؤيا، في كشف الظنون: تقسيم الرؤيا للإمام جعفر الصادقعليه السلام، وفي الذريعة: لم نجد سندا لهذه النسبة في غيره، فالظاهر إنه من تصنيف بعض الشيعة بالرواية عنه[٢].

يقول السيّد الأمين: «هذا ما عرف من الكتب التي دونت وحدها، وعرفت باسماء مخصوصة، وإلّا فالذي جمع ما رواه عنه العلماء في فنون شتى من فنون العلم.. لا يكاد يحيط به الحصر، وتكفلت بجمعه كتب الأخبار والأحاديث»[٣].

---

(١) اليافعي ـ عبد اللّه بن أسعد اليمني المكي، مرآة الزمان وعبرة اليقظان: ١ / ٢٣٨، تحقيق: خليل منصور، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م.

(٢) الطهراني ـ آقا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٤ / ٢٨٢، وكاتب جلبي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: ١ / ٤٦٦، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، بلا ـ ت.

(٣) الأمين ـ محسن، أعيان اليشعة: ٢ / ٥١٩ ـ ٥٢١، والأمين ـ حسن، دائرة المعارف: ١ / ٥٦٨ ـ ٥٦٩.

*** مدرسة الصادقعليه السلام:**

تحت هذا العنوان كتب السيّد حسن الأمين في موسوعته «دائرة المعارف الشيعية» بحثا قيّما سلّط فيه الأضواء على معالم مدرسة أهل البيتعليهم السلام في عهد الإمام الصادقعليه السلام والتي ورثها عن أبيه وجده عليهم آلاف التحية والسلام. وقد وجدناه بحثا وافيا شاملاً لما نريد ان نسجله كمعالم لهذه المدرسة العلمية المباركة، ولهذا سوف ننقل هذا البحث مع الاختصار وبعض التوضيحات اللازمة.

«إنّ مدرسة الصادقعليه السلام كانت امتدادا لمدرسة أبيه وجده.

وهذه المدرسة كانت من الأحداث الخطيرة فهي لم تكن بأي حال من الأحوال مدرسة خاصة يلقى فيها لون خاص من المعارف والعلوم، وإنما كانت تبني عقولاً وتنشيء أجيالاً، وتؤسس صروحا من الثقافة ودنيا من التوجيه، وتضع دستورا شاملاً لإصلاح الحياة وتطويرها وتقدمها في جميع الميادين.

وفيما يلي عرضا موجزا لبعض معالم هذه المدرسة التي عملت على نمو الحركة الفكرية.

١ ـ سبب إنشائها:

أطل الإمام الصادق، على العالم الإسلامي وهو يموج بالاضطراب والفتن والنزاعات الخاصة التي لا يلمس فيها أي أثر محمود، فقد تحلل المجتمع وتفككت الروابط فيه إلى أبعد الحدود، ويعود السبب في ذلك إلى أن نار الحرب قد اشتعلت في معظم حواضره ونواحيه، وذلك لانهيار الامبراطورية الأموية التي كانت أبعد ما تكون عن النظر في أُمور الشعب والتحسس بإحساسه، وأشاعت ضروبا من الفساد والتحلل في جميع أنحاء البلاد، وقد قام للقضاء على تلك الدولة طائفة من

المصلحين كان هدفهم إعادة الحياة الإسلامية إلى مجراها الصحيح وكانت هتافات الثوار هو: (الرضا من آل محمد). ولكن الثورة اغتصبها العباسيون! فرأى الإمام الصادق أن لا وسيلة له لاستردادها فاعرض وطوى عنها كشحا وأقبل على تأسيس مدرسته، وقد اغتنم الإمام تلك الفرصة التي تطلب فيها الكل رضاءه، وتركه المسؤولون ينشر أهدافه وتوجيهاته لانشغالهم بتركيز أسس دولتهم وكيانهم.

لقد وجد الإمام الصادقعليه السلام في تلك الفترة المجال واسعا لأداء رسالته والقيام بواجبه من نشر الثقافة الإسلامية، وإفهام المجتمع نظم الإسلام الصحيحة.

٢ ـ مركزها:

واختار الإمام يثرب دار الهجرة ومهبط الوحي فجعل فيها معهده الكبير ومدرسته العظمى، أما محلّ التدريس وإلقاء المحاضرات فكان هو الجامع النبوي؛ ففيه كانت تزدحم حَمَلة الحديث ورواد العلم لاستماع دروس الإمام وتسجيل أبحاثه، وربما كان في بعض الأحيان يلقي محاضراته في بهو بيته، وقد ازدهرت يثرب بهذه الحوزة العلمية واستعادت نشاطها في توجيه الركب الإسلامي نحو الخير والسعادة.

٣ ـ عدد طلابها:

ولما فتح الإمام مدرسته لجميع المسلمين التحق به جمع غفير من رواد العلوم على اختلاف نزعاتهم وميولهم، فكان عددهم من أضخم ما ضمته المدارس العلمية في ذلك العهد.

قد ذكر الرواة أنهم كانوا أربعة آلاف شخص، وفيهم من كبار العلماء والمحدثين الذين أصبحوا أئمة ورؤوساء لبعض المذاهب الإسلامية.

٤ ـ البعثات العلمية:

وأسرع إلى الانتماء لمدرسة الصادق جميع عشاق الفضيلة والعلم من شتى الأقطار الإسلامية، عربا وغير عرب. ويحدثنا الأُستاذ عبد العزيز سيد الأهل عن مدى ذلك النشاط في الالتحاق بمدرسة الإمام بقوله: «وأرسلت الكوفة، والبصرة، وواسط، والحجاز إلى جعفر بن محمد أفلاذ أكبادها من كل قبيلة من بني أسد ومن غني، ومخارق، وطي، وسليم، وغطفان، وغفار، والأزد، وبني ضبّة، ومن قريش، ولا سيما بني الحارث بن عبد المطلب، وبني الحسن بن علي»[1].

٥ ـ تدوين العلوم:

وأقبل أصحاب الإمامعليه السلام على تدوين العلوم التي تلقوها وأخذوها من الإمام فألفوا في جميع الفنون والمعارف فقد أ لّف أبان بن تغلب (معاني القرآن)، وكتاب (القرآن) وأ لّف المفضل بن عمر كتاب (التوحيد) وأ لّف جابر بن حيان كتابا في علم الكيمياء.

وهكذا أ لّف جمع كثير من تلاميذه في مختلف الفنون كزرارة وأبي بصير، ومحمد بن مسلم، وإسماعيل بن أبي خالد، وغيرهم من الأعلام حتى بلغ عدد المؤلفات أربعمائة كتاب مولف، ودوّن الشيخ آغا بزرك الطهراني أكثر من مئتي مؤلف في علم الحديث فقط لأصحاب الإمام.

---

(١) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ١ / ٦٢ عن عبد العزيز سيد الأهل في كتابه: جعفر بن محمد: ٦.

٦ ـ علومها وآدابها:

تناولت محاضرات الصادق عليه السلام ودروسه جميع الفنون العلمية التي لها الأثر التام في التقدم الاجتماعي، ومن أبرز العلوم التي تناولها الإمام بالبسط والتحليل: الفقه الإسلامي بجميع أبوابه من العبادات والمعاملات.

ولم يقتصر الإمام في أبحاثه على الناحية العلمية، فقد توسع في محاضرات إلى بيان أُصول الآداب والقيم الاجتماعية، من مكارم الأخلاق، والإصلاح الشامل في جميع المجالات.

٧ ـ طابعها الخاص:

ومدرسة الصادق لها طابع خاص انفردت به عن بقية المدارس والمؤسسات العلمية فقد كان طابعها هو الاستقلال وعدم خضوعها للدولة فلم يكن لولاة الأُمور بأيِّ حال من الأحوال مجال للتدخل فيه فهي منفصلة عن الهيئة الحاكمة لأنّ الامتزاج بها معناه تدخل السلطة في شؤونها، وهذا ما عليه جامعة النجف الأشرف حتى اليوم فإنها منذ تأسيسها لم ترتبط بالدولة، وعلى هذا المنهاج تسير جامعة (قم) في إيران.

٨ ـ فروعها:

وفتحت في كثير من الأقاليم الإسلامية فروع لمدرسة الصادق أقامها كل من تخرج من تلك المدرسة ورجع إلى بلاده وأعظم الفروع التي أسست هو المعهد الكبير الذي أُقيم في «جامع الكوفة» فقد التحق به من كبار تلاميذ الإمام تسعمائة عالم كما حدثنا بذلك الحسن بن علي بن زياد الوشاء البجلي فقد قال لابن عيسى القمي: «أدركت في

هذا المسجد ـ يعني مسجد الكوفة ـ تسعمائة شيخ كل يقول: حدثني جعفر بن محمد»[1].

وبذلك اتسعت الحركة العلمية اتساعا هائلاً حتى شملت جميع المناطق الإسلامية.

وقال البحاثة الهندي الشهير السيّد أمير علي:

«أن انتشار العلم في ذلك الحين ـ أي في العهد الأموي ـ أطلق روح البحث والاستقصاء وأصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كل مجتمع من المجتمعات الإسلامية، والجدير بالذكر أن زعامة تلك الحركة الفكرية إنما وجدت في تلك المدرسة التي ازدهرت في المدينة والتي أسسها حفيد علي بن أبي طالب المسمى بالإمام «جعفر»، والملقب «بالصادق» وكان رجلاً بحاثة مفكرا كبيرا جيد الإلمام بعلوم عصره، ويعتبر أول من أسس المدارس الفلسفية الرئيسية في الإسلام، ولم يكن يحضر محاضراته، أُولئك الذين أسسوا فيما بعد المذاهب الفقهية فحسب، بل كان يحضرها الفلاسفة وطلّاب الفلسفة من الأنحاء القاصية»[2].

٩ ـ اعتزاز وافتخار:

لقد اعتز تلاميذ الإمام بالحضور في مدرسته، وافتخروا بذلك كثيرا فقد أهّلتهم تلك الدراسة إلى المراكز العليا في الإسلام فهذا الإمام أبو حنيفة قد أعلن فخره

---

(١) النجاشي، الرجال: ٤٠ رقم الترجمة ٨٠، والخوني، معجم رجال الحديث: ٦ / ٣٨، والبراقي، تاريخ الكوفة: ٤٦٦.

(٢) سيِّد أمير علي، مختصر تاريخ العرب: ١٩٣، نقله إلى العربية: عفيف البعلبكي، طبعة دار العلم للملايين ـ بيروت، أُفست، الطبعة الأُولى، ١٩٦١ م.

واعتزازه بذلك بقوله المشهور (لولا السنتان لهلك النعمان) لقد افتخر أبو حنيفة بالسنتين اللتين حضرهما عند الإمام وجعلهما من أفضل أدوار حياته العلمية التي سببت شهرته[1].

١٠ ـ أسباب نجاح هذه المدرسة:

وترجع الأسباب التي أدت إلى امتداد ظلال هذه المدرسة في العالم الإسلامي ونفوذها بين طبقات المسلمين إلى أُمور ثلاثة:

١ ـ شخصية الصادق.

٢ ـ المحتوى الفكري للمدرسة.

٣ ـ جذور المدرسة الفكرية.

وهذه الجهات الثلاث هي كل ما يهم الباحث في البحث عن المدارس الفكرية.

وقد قدر لهذه المدرسة أن تضم إلى أصالة الفكر شخصية الصادق عليه السلام الفذة.

وأُتيح لها أن تجمع بين هذه الجوانب الثلاثة، على ندرة ما يتفق ذلك لمذهب من المذاهب.

ولا أجدني بحاجة إلى أن أشير إلى تأثير شخصية الداعية في نجاح الدعوة وتوسعها. كما لا أجدني بحاجة إلى أن ألمح إلى شخصية الصادق الفذة بين معاصريه. فقد كان العلماء يقبلون على مجلسه من أقطار بعيدة ويتلقون عنه الفقه

(١) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ١ / ٦٩ ـ ٧٠، والحسني ـ هاشم معروف، سيرة الأئمة الاثني عشر: ٢ / ٢٣٨، طبعة الشريف الرضي ـ قم، ولم نجد هذه المقولة في ترجمة أبي حنيفة المطولة في تاريخ بغداد: ١٣ / ٣٢٥ ـ ٤٢٦ ولا في غيرها من كتب التراجم.

والحديث والتفسير ويلقون عليه ما يصعب عليهم من مسائل الفقه والتفسير، ثم يخرجون ليشيعوا ذلك عنه بين الناس، حتى كثر الحديث عنه.

أما فيما يختص بالمحتوى الفكري للمدرسة الجعفرية؛ فإن المحتوى الفكري لهذه المدرسة يمتاز بالتماسك الفكري الوثيق والترابط فيما بين أفكارها واتجاهاتها.

ومثل هذا التماسك يشد اتجاهات المدرسة بعضها إلى بعض، ويؤدي الالتزام بأي جزء منه إلى الالتزام بالجزء الآخر. فالمدرسة الجعفرية مثلاً فتحت باب الاجتهاد للعلماء؛ وقد كان لهذا العامل تأثير كبير على نمو المدرسة فيما بعد عصر الصادق عليه السلام، وإقبال الناس عليها لمسايرتها للأوضاع الاجتماعية المتجددة.

فعندما يغلق باب الاجتهاد على مذهب فكري، أيا كان المذهب الفكري فإنّ ذلك يؤدي إلى جمود المذهب عن التطور والنمو ومسايرة الأحوال والأوضاع المتجددة. ولذلك فإنّ هذه الميزة في المذهب الجعفري تعتبر ضمانا من الداخل لحياة المذهب وبقائه.

وقد سبقت الشيعة المذاهب الإسلامية الأُخرى إلى وضع أُصول الاجتهاد والاستنباط في الفقه وتحرير مباحثه، والإمام الباقر عليه السلام هو واضع علم الأُصول وفاتح بابه، وأول من صنّف فيه هو هشام بن الحكم، صنّف كتاب الألفاظ ومباحثها، وهو أهم مباحث علم الأُصول، ثمّ من بعده يونس بن عبد الرحمن، مولى آل يقطين، صنّف كتاب اختلاف الحديث ومسائله، وهو مبحث تعارض الحديثين، ومسائل التعادل والتراجيح، ثمّ أخذت حركة التأليف في الأُصول من بعدهما بالتوسعة واشتهر منهم أئمة أعلام منهم أبو سهل النوبختي والحسن بن موسى النوبختي.

يقول العالم المصري أبو زهرة: «ينمو المذهب بثلاثة عوامل؛ أولها: أن يكون باب الاجتهاد مفتوحا، فإن ذلك يفتح باب الدراسة لكل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية

والنفسية وعلاجها من الشريعة بما يناسبها من غير تجاوز لحدود النصوص وخروج عن المأثور.

وإننا نعتقد أنَّ المذهب الجعفري من الناحية الفقهية قد فتح فيه هذا الباب للدراسة وهو بهذا صالح للنمو المستمر الذي لا يتخلف مادام المجتهدون فيه ملتزمين الجادة والطريق المستقيم»[1].

وعراقة المذهب هي الأُخرى من أهم الأسباب التي أدت إلى نمو المدرسة وتوسعها فيما بعد عصر الصادقعليه السلام.

فليس الصادقعليه السلام هو الذي أنشأ هذه المدرسة وغرس فيها بذرتها الأُولى، وإنما تلقاها من آبائه، ليتعهدها برعايته.

منهج الصادقعليه السلام:

إنّ شخصية جعفر الصادق برزت بشكل جلي في مجالين:

أولهما: هذه القيادة الفكرية التي نصبته علما للفكر والعلم فباشرها على نطاق واسع مكشوف مبينا الحقائق العلمية الإسلامية والاصطلاحات الشرعية والمفاهيم والأحكام الدينية، وهو بهذا يجدد ويبعث الشريعة بعد فترة من الركود الفكري تحمل وزرها الأكبر الحكام والأُمراء والملوك. وقد خرج الإمام من معركة الاصطلاحات والمفاهيم بنصر وظفر حيث هيأ للمسلمين الاطلاع على الحقائق التشريعية.

ثانيهما: اعتزاله النشاط السياسي العلني للمستلزمات الظرفية التي عاصرت عهده، في الوقت الذي لم ينفك فيه عن تعضيد الحركات السياسية التي قادها الثوار العلويون

---

(١) أبو زهرة ـ محمد، الإمام الصادقعليه السلام حياته وعصره، آراؤه وفقهه: ٥٤١، طبعة دار الندوة الجديدة ـ بيروت، لبنان، بلا ـ ت.

محاولة منه لإسماع الأُمة صوته وإظهار سخطه على الحكام، ثمّ كشف حقيقتهم وانحرافهم عن القواعد الإسلامية في الحكم والسياسة والتشريع.

لقد استفاد الإمام الصادق من ضعف القوى السياسية التي كانت من قبل تضيِّق عليه وعلى الأئمة من آبائه؛ نظرا لأنَّ عصره شهد ضعف وانهيار الكيان السياسي الأموي، ثمّ نشاط الحزب العباسي وتأسيس الدولة العباسية وسط خضمٍّ من المنازعات والفتن؛ فانشغل الحكام بأُمورهم هذه عنه، مما مكَّنه من فتح أبوابه لطلّاب العلم والحقيقة وجعله على اتصال مباشر مع الأُمة يشحنها بمقومات الفكر والإصلاح والهداية.

نشأ الصادق عليه السلام في عهد دولة بني أُمية ذلك العهد الذي فاضت جوانبه في مطاردة الأحرار؛ لا سيما شيعة علي بن أبي طالب واضطهاد آل الرسول، والاستهتار بكل القيم الإنسانية حتى جاء عهد عمر بن عبد العزيز الملك الإنساني الذي رفع الظلم عن الشعب؛ ولكنَّ عهده لم يطل، فعادت الأُمور إلى السيء والأسوأ، فكثرت الفوضى وتقلّص الأمن وانتشر الخوف عندما ولي الحكم يزيد بن عبد الملك، وهشام والوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد الذي انمحى في خلافته ظل بني أُمية، حيث وقع الصراع بين الأمويين والعباسيين على طلب الخلافة.

وهنا لازم الصادق عليه السلام الصمت وعدم الانحياز إلى إحدى الفئتين غير أ نّه دعا الناس إلى طلب العلم والمعرفة.

وفي هذه الفترة كثر الطامعون في استعباد الأُمة فخضع الضعيف ملبيا أصوات الجبابرة الطامعين وانقسم ذوو الأطماع والغايات، من داعٍ إلى حكم الأمويين، ومن داعٍ إلى بني العباس حنقا على بني أُمية؛ لأنهم ضلّوا سواءِ السبيل.

في تلك الساعة طولب الإمام الصادق أن يبايع إلى بعض أبناء عمّه فأبى، فاتُّهم بالحقد والحسد ـ فاعتزل واتخذ مسجد النبيﷺ في المدينة مدرسة له ينشر منها العلم إلى جميع الآفاق.

وأعلنت الثورة العباسية، وكان شعارها الإصلاح، فسالت الدماء وطاحت الرؤوس والصادقعليه السلام لم يتحوّل عن رأيه، غير أنه تحول إلى جامع أبيه في الكوفة[1] حيث وجد مجموعة خيرة من المتعلمين، فاندفع إلى نشر المعارف والعلوم فوزع طلّابه، بعد أن درس نفسياتهم واتجاهاتهم وقابلياتهم، فصرف قوما إلى الفلسفة، وآخرين إلى المناظرة والمحاججة، وقوما إلى الفقه، وآخرين إلى الكيمياء، وهذا إلى الطب، وذاك إلى رغبته من طلب العلم وإلى ما يهوى.

فقد ارتأى الصادقعليه السلام أنَّ السلاح في ذلك الوقت لا يحلُّ مشكلة اجتماعية، ولا يرفع ظلامة مظلوم، ولا يتقلّص ظلُّ الزمرة الحاكمة الجائرة بالسيف.

فقد كان يرى أن لا ثورة مع الجهل ولا خنوع مع العلم؛ أنه يرتأي أن تتثقف الأُمة فتطالب بحقوقها، حيث لا يقضي على المتنفذين الظالمين إلّا العلم، لذا وجَّه الناس توجيها علميا.

بهذا أراد الصادقعليه السلام محاربة طغيان بني أُمية وبني العباس، حتى كان بين يديه أربعة آلاف طالب كلّ يقول درست على جعفر بن محمد الصادق.

وبهؤلاء عزم الصادق على أن يقضي على المتزعمين المخربين ويدكَّ عهدهم ويقوِّض سلطانهم؛ ليعيد الحقَّ إلى نصابه والإنسان إلى حقوقه يتمتع بها كيف شاء وأ نّى شاء.

---

(١) سوف يأتينا لاحقا دور الإمام الصادقعليه السلام في مدرسة الكوفة العلمية.

لقد كانت الفترة التي عاشها الصادق(عليه السلام) فترة مضطربة تتميز بالغليان من ناحية سياسية واجتماعية. فإلى جنب الحركات السياسية المتضاربة، المذاهب العقائدية المختلفة التي تولدت داخل الأُمة من أثر الواقع الذي تعيشه آنذاك والذي كانت السلطة في انحرافها وفي ما تبنته من سياسة التجهيل مع الأُمة سببا مباشرا فيه.

فقد كثرت النظريات الفاسدة المنحرفة واندس بين المسلمين أُناس كل هدفهم أن يفسدوا على المسلمين عقيدتهم، وتكاثر الوضاعون من جهة، والغلاة والملحدون من جهة أُخرى، وساهموا جميعا في إبعاد الأُمة عن واقع الإسلام، وكادت العقيدة الإسلامية والتشريع الإسلامي أن يضيعا وسط هذه التيارات المتباينة، هذا إلى جنب انحراف السلطة وطغيانها وبعدها عن الإسلام.

وقد كان على الإمام الصادق أن يواجه كل ذلك؛ أن يواجه أسباب الانحراف العقائدي والتشريعي، وأن يواجه أيضا الفساد في شؤون الدولة والحكم، فماذا فعل الصادق(عليه السلام)؟ وكيف نهض بهذه المسؤولية الضخمة؟

لا شك أن امتلاك الأداة السياسية أمر مهم، وإزالة هذه الأجهزة الفاسدة المنحرفة أمر يسهل إنجاز الأهداف الإصلاحية التي يرمي إليها في جميع المجالات، ويضع حدا لكل أنواع الفساد التي ابتليت بها الأُمة باعتبار أن فساد السلطة وابتعادها عن الإسلام سبب مهم في وجودها واستمرارها بشكل مباشر أو غير مباشر.

فهل خاض الصادق(عليه السلام) المعركة السياسية لهذا السبيل؟

وهل استثمر ذلك الظرف لتحقيق هذه الغاية؟ لا لم يفعل ذلك!!

لقد ذكر المؤرخون أ نّه رفض كلَّ العروض التي جاءته من بعض الزعماء السياسيين رفضا باتا وشديدا فقد جاء رسول أبي سلمة الخلال يحمل منه كتابا يذكر فيه للصادق(عليه السلام) استعداده للدعوة إليه، وتخليه عن بني العباس.

فقال الصادق عليه السلام: «مالي ولأبي سلمة، وهو شيعةٌ لغيري. فقال له الرسول: اقرأ الكتاب. فقال الصادق عليه السلام لخادمه: اذْنِ السراجَ مني، فأدناه، فوضع الكتاب على النار حتى احترق. فقال الرسول: ألّا تجيبه؟ قال: قد رأيت الجواب»[1].

ولم يستطع أصحابه أن يحوّلوا رأيه إلى دخول المعركة برغم رغبتهم وإلحاحهم، فقد كانت الوضعية التي عليها الأُمة من الانقسام السياسي المذهبي والاضطراب الفكري الذي يشملها بصورة عامة، تجعل الصادق يجزم مقدما بأن الدخول في معركة كهذه لا يعدو أن يكون مغامرة مؤكدة الفشل وبالتالي فإنه يعرّض نفسه، ومن ثَمَّ البقية الباقية من المؤمنين والفكرة الإسلامية الصحيحة التي يمثلها هو إلى خطر لا حدَّ له، ولهذا أبى أن يخوض المعركة بنفسه.

لقد كان الأُسلوب والطريقة التي سلكها الصادق عليه السلام من أدق وأحكم الطرق الإصلاحية، فالصادق عليه السلام ليس من بغاة المغامرة والظهور وإنما هو مسؤول يحاول القيام بالمسؤولية، ومصلح يريد الوصول إلى الإصلاح، ولهذا رأى ـ على ضوء الواقع الذي تحياه الأُمة ـ أن يصرف جهده، بالدرجة الأُولى في عملية إيجابية هامة. رأى أن ينصرف ليقيم الكيان الفكري الإسلامي، وليوضح أُسس العقيدة الإسلامية، وأُصول التشريع الإسلامي.

لقد بلغ تلامذة الصادق عليه السلام «أربعة آلاف بينهم أئمة المذاهب الإسلامية كمالك وسفيان الثوري وأبي حنيفة ـ كما رأينا ـ»[2].

---

(١) ابن طقطقا ـ محمد بن علي، الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية: ١٥٤، طبعة دار صعب ـ بيروت، بلا ـ ت. والمسعودي، مروج الذهب: ٣ / ٢٥٤، أُفست، طبعة دار الأندلس ـ بيروت، (بلا ـ ت).

(٢) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ١ / ٦٩.

إنّ الصادق عليه السلام وهو يبني بأحاديثه الشريعة الإسلامية في واقعها النقي الأصيل ويدلل على شمولها واستيعابها ويحمِّلها عددا وفيرا من العلماء لم يكتف بذلك بل حرص أيضا على أن يجعل من شيعته في أقوالهم وأعمالهم وتفكيرهم تجسيدا للفكرة الإسلامية.

وقد كان يخاطبهم بالقول: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم»[1]. (أي بأفعالكم).

وكان يقول لهم: «أُوصيكم بتقوى اللّه، واجتناب معاصيه وأداء الأمانة لمن ائتمنكم وحسن الصحبة لمن صحبتموه وأن تكونوا لنا دعاة صامتين. فقالوا: كيف ندعو ونحن صامتون؟ قال: تعملون بما أمرناكم به من العمل بطاعة اللّه، وتعاملون الناس بالصدق والعدل وتؤدون الأمانة وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ولا يطلع الناس منكم إلّا على خير. فإذا رأوا ما أنتم عليه علموا فضل ما عندنا فتنازعوا إليه»[2].

لقد وقف الصادق عليه السلام موقفا شديدا وصارما، وباشر بنفسه المعركة الفكرية وعبأ تلامذته وشيعته في هذا المجال، لقد حارب الخطابيّة وغيرها من فرق الغلاة حربا لا هوادة فيها وتبرأ منهم ومن أتباعهم الغلاة.

وقد بدأت في عصره تطغى الروح الانهزامية في المجتمع بدعوى الزهد والايغال في التصوف والاستغراق فيه استغراقا يخرجه عن حقيقته الخيرة؛ لذلك كان الصادق يحثُّ على الجدية في الحياة، والكفاح من أجل العيش الكريم. فكان من أقواله: «إن اللّه يحبُّ الجمال والتجمل ويبغض البؤس والتَّباؤس؛ فإنّ اللّه عزَّوجلَّ إذا أنعم على

---

(١) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ٤ / ٣٢٢.

(٢) المرجع نفسه: ٤ / ٣٢٢.

عبدٍ نعمة أحبَّ أن يرى عليه أثرها». قيل وكيف ذلك؟ قال: ينظِّف ثوبه، ويطيِّب ريحه، ويجصِّص داره ويكنس أفنيته»[1].

وكان يقول لأصحابه: «كونوا زينا لنا ولا تكونوا شينا علينا ليقول الناس: رحم اللّه جعفر بن محمد لنعم ما أدب أصحابه»[2].

قال المفضل بن مزيد [يزيد]: قال لي الصادق وذكر أصحاب أبي الخطاب والغلاة: «يا مفضل لا تقاعدوهم ولا تواكلوهم ولا تشاربوهم ولا تصافحوهم ولا توارثوهم»[3].

كذلك حارب الملحدين أمثال أبي العوجاء، وابن طالوت وغيرهم، وله معهم محاورات كثيرة أحرجهم بها. وقد كان هؤلاء يحترمون جانب الصادق ويقدرون سعة علمه وسمو شخصيته قال: ابن المقفع لابن أبي العوجاء وكانا معا في المسجد الحرام ينظران الناس: (لا واحد من هؤلاء يستحق اسم الإنسانية إلّا هذا الشيخ الجالس) (مشيرا إلى جعفر الصادق)[4].

أما مقاومة الصادق للسلطة الحاكمة التي انحرفت عن الإسلام في سلوكها الشخصي وفي معاملتها للأُمة، حيث تلاعبت بمقدراتها، وساستها بالجور والطغيان فهي مقاومة تتجلى في مقاطعته لها، وعدم تعاونه معها، ولكن هناك مقاومة كان يقوم

---

(١) الطوسي ـ محمد بن الحسن، الأمالي: ١ / ٢٨١، وعنه في الوسائل: ٥ / ٧، باب استحباب التجمل الحديث رقم ٩.

(٢) الصدوق ـ محمد بن علي، الأمالي: ٣٢٦ حديث رقم ١٧ ومشكاة الأنوار: ٦٧.

(٣) الطوسي ـ محمد بن الحسن، رجال الكشي: ٣٠٩ حديث رقم ٥٢٥.

(٤) الأمين ـ حسن، دائرة المعارف الشيعية: المجلد الأول، الجزء الثاني: ٤٩ ـ ٥٠، طبعة دار التعارف ـ بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩ م.

بها الصادق بشكل غير مباشر وغير ظاهر، وذلك مثل عمله على بث الوعي الإسلامي في الأُمة ونشر المفاهيم الإسلامية وإيحائه للأُمة بمظلوميته، وبعدم شرعية الحكومة القائمة في كلمات كثيرة متناثرة.

وعدا ذلك فقد عمل على تربية جيلٍ صالحٍ أعده لتولي وظائف الدولة بحيث يكون منه وسيلة للتخفيف من ويلات الحكام على الشعب ودفع الظلم عن المظلومين؛ وخير مثل على ذلك عبد اللّه النجاشي المعروف بأبي بجير الأسدي الذي كان من قبل أخلص المخلصين للصادقعليه السلام وأصبح واليا على الأهواز من قبل المنصور. ولما تسلم عمله أرسل إلى الصادق يطلب إليه فيها أن يضع له منهجا يسير عليه في ولايته. فكان مما أجابه به الصادق: «... أن خلاصك ونجاتك في حقن الدماء وكف الأذى والرفق بالرعية والتأنّي، وحسن المعاشرة، وارتق فتق رعيتك بأن توفقهم على ما وافق الحق والعدل. إياك والسعاة وأهل النمائم فلا يلتزقنَّ منهم بكَ أحدٌ، ولا يراك اللّه يوما وليلة وأنت تقبل منهم صرفا ولا عدلاً...»[1] إلى غير ذلك مما وضع له من التعاليم التي يسير عليها. والتي طبقها عبد اللّه. وقد كان الصادق يكتب إليه في شأن بعض الأشخاص المظلومين فيرفع ظلامتهم في الحال.

هذا، ومرد سلامة جعفر الصادقعليه السلام فيما نرى إلى منهجه البعيد عن العنف في معارضة بني العباس ـ كما رأينا ـ وإلى أخذ نفسه بالقصد والاحتياط التام، يدل على ذلك ردُّه للأموال ورفضه للرسائل التي أمر المنصور بكتابتها إليه وإلى غيره من العلويين على لسان أنصارهم وأوليائهم؛ لتكون حجة له عليهم، فالصادق من هذه

---

(١) أُنظر نص الرسالة مع جواب الإمامعليه السلام: المجلسي، بحار الأنوار: ٧٢ / ٣٦٠ و ٧٥ / ٢٧١ عن كتاب الغيبة للشهيد الثاني: ٨٥ وما بعدها من الطبعة الحجرية.

الناحية منقطع النظير بين العلويين وقد يتوهم متوهم أن منهجه والحالة هذه كان منهجا سلبيا بالنسبة إلى منهج بني عمه الحسن، والواقع غير ذلك، ومن يستبطن أسرار التاريخ ويقف على روح ذلك العصر يتضح له أن الصادق كان من رأيه عقم تلك الثورة على الدولة العباسية في مرحلة شبابها وعنفوان قوتها وغلبتها، هذا مضافا إلى ضعف العلويين وأن ثورتهم كانت ثورة محلية في الحجاز وفي البصرة بعد ذلك وإن أيدها أهل العلم والفتوى في العراق والحجاز[1].

هذا وبالإضافة إلى ما تقدم من توضيح موقف الصادقعليه السلام وشرح منهجه الإيجابي انقطاع الصادقعليه السلام لبث العلم والأثر النبوي وتأسيس مدرسة أهل البيت في هذا الشأن.

هذا ويميل بعضهم إلى تعليل تلك البادرة؛ بأنها بادرة حسنة من قبل المنصور للصادقعليه السلام وقلة اكتراثه بتلك السعايات بعلل لا يخلو بعضها من المبالغة، وقد يستند بعض الرواة في ذلك إلى روايات ضعيفة لا يصمد أكثرها للنقد والتمحيص[2].

كان الخطر محدقا بالصادقعليه السلام في عهد العباسيين ما في ذلك شك، ولكنه على كل حال سلم، وكانت سلامته وسلامة كثير من أهل بيته وأصحابه أُعجوبة في الواقع، على أنه لم يسلم إلّا بشق النفس وتوطينها على كثير من التحرز والتوقي، يدل على ذلك حديثه المشهور، بل كلمته البليغة الحكيمة التي قال فيها: «عزّت السلامة حتى لقد خفي مطلبها، فإن تكن في شيء فيوشك أن تكون في الخمول، فإن طلبت في

---

(١) أُنظر، المجلسي، بحار الأنوار: ٤٧ / ١٦٢ وما بعدها.

(٢) أُنظر، أبو زهرة، الإمام الصادقعليه السلام وما بعدها، والجندي ـ عبد الحليم، الإمام جعفر الصادقعليه السلام: ١٠٩ وما بعدها، تحقيق: أحمد جاسم المالكي، طبعة المجمع العالمي لأهل البيتعليهم السلام، الطبعة الأُولى، ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٤ م.

الخمول فلم توجد فيوشك أن تكون في الصمت، والسعيد من وجد في نفسه خلوة يشتغل بها»[1].

من أهم انجازات الصادق(عليه السلام):

من أهم الإنجازات التي حققها جعفر الصادق(عليه السلام): وضع أساس التأليف في الإسلام، فانطلق الناس بعده يؤلفون ويدونون تبعا لتعليماته، ولم يكن تأليف الكتب معروفا قبل الصادق، بل كان نادر الوقوع، فإذا بالصادق ينهض بهذا العبء ويحرض على التدوين والتأليف. ويكون هو البادىء بذلك، ثمّ يتداعى طلابه إلى التدوين والتأليف حتى يبلغ عدد ما ألفوه أربعمائة كتاب لأربعمائة مؤلف وتبرز دعوته إلى التدوين بمثل قوله لتلاميذه: «اكتبوا؛ فإنكم لا تحفظون حتّى تكتبوا»[2]، ومثل قوله للمفضل بن عمر: «اكتب وبث علمك في إخوانك، فإن متَّ فأورث كتبك بنيك فإنه يأتي على الناس زمان هرج لا يأنسون فيه إلّا بكتبهم»[3].

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٧٨ / ٣٥ ـ ٢٠٢ وعنه الري شهري، ميزان الحكمة: ٣ / ١٠٩٩، وابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة: ٢ / ٩١٦.

(٢) الكليني، الكافي: ١ / ٥٢ كتاب فضل العلم، باب رواية الكتب والحديث وفضل الكتابة والتمسك بالكتب، الحديث رقم ٩ و ١١. وأُنظر، السيّد الأمين، دائرة المعارف الشيعية: ١ / ٥٧٢ ـ ٥٧٧.

(٣) الكليني، الكافي: ١ / ٥٢ كتاب فضل العلم، باب رواية الكتب والحديث وفضل الكتابة والتمسك بالكتب، الحديث رقم ٩ و ١١. وأُنظر، السيّد الأمين، دائرة المعارف الشيعية: ١ / ٥٧٢ ـ ٥٧٧.

وإلى جانب حركة التأليف والكتابة الذي انطلق بشكل واسع في هذا العصر، هنالك انجازات كبيرة أُخرى يمكن أن نسجلها لهذه المدرسة العظيمة، وقد أشرنا إلى بعض منها في ثنايا البحث ونلخصها بما يلي:

١ ـ اعتبار هذا العهد ـ تاريخيا ـ عهد الانفراج بالنسبة إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وانتشار علومهم وآثارهم، وهذا محل اتفاق عند كلٍّ من أرّخ للفقه الإسلامي الشيعي وأدواره وأطواره.

٢ ـ ارتفاع وازدياد نسبة الرواة والرواية ارتفاعا ملحوظا لم تشهده مدرسة أهل البيت في عهودها الأُخرى، وسوف يأتينا المزيد حول هذه النقطة عند حديثنا عن مدرسة الإمام الصادق عليه السلام في الكوفة.

٣ ـ توسع مدرسة أهل البيت في مواد التعليم، حيث أضافت إلى العلوم الشرعية: المعارف العقلية والعلوم الطبيعية، والعلوم الإنسانية، ولم يقتصر على رواية الحديث والفتوى في بعض الأحكام الشرعية.

٤ ـ كثرة التلامذة والوافدين من العلماء على الإمامين الصادقين عليهما السلام بما لم يُقَدَّر أن يتهيّأ مثله للأئمة من آبائهما وأبنائهما، فلم تشهد المدينة بعد عهد الصادقين عليهما السلام هذه الكثرة من وفود طلّاب العلم والمعرفة.

٥ ـ بروز حرية الرأي في الحوار والمناقشة والنقد وطرح الآراء حول ما كان يدور من قضايا ومسائل علمية في حلقات ولقاءات الدرس، واستمر هذا الأُسلوب والمنهج من خلال النابهين من أصحاب الإماميين كهشام بن الحكم، ومؤمن الطاق وغيرهما.

٦ ـ تغيير أُسلوب التعليم من الحفظ والاستظهار إلى البحث والاستقراء، وبان هذا بشكل واضح في حلقات التعليم.

٧ ـ التأكيد على منهج النص ومقاومة منهج الرأي، فكان الإمامان وتلامذتهما يقولون: ليس لنا أن نعدو كتاب الله وسنة رسوله، ولسنا من أصحاب الرأي والقياس.

٨ ـ وضع الأُسس لتقعيد القواعد الأُصولية والفقهية، فكثير من القواعد الأُصولية والفقهية نجدها في كلمات وروايات أهل البيتعليهم السلام، وقد جمعها الحرّ العاملي وغيره في مؤلفات مستقلة.

٩ ـ انبثاق مدرسة الفقهاء الرواة، وذلك لاعتماد فقهاء هذه المدرسة على الرواية.

١٠ ـ تأسيس المدرسة الفلسفية الإسلامية والمدرسة الكلامية، والتي قد تخرّج منها من أمثال هشام بن الحكم، وحمران بن أعين... وغيرهما.

١١ ـ بروز مدينة الكوفة مجتمعا لشيعة آل محمدصلى الله عليه وآله وسلم ومركزا علميا لنشر وتعليم وتربية الرواة والفقهاء والعلماء[1]. وهذا ما سوف يأتينا الحديث عنه لاحقا.

*** الإمام الصادقعليه السلام أُستاذ أئمة المذاهب الإسلامية:**

تعتبر مدرسة أهل البيتعليهم السلام في المدينة المدرسة الراندة، والمنطلق الرحب لحركة المذاهب الفقهية الإسلامية التي ظهرت في القرن الثاني من الهجرة وفي عصر الإمام الصادقعليه السلام ومع تابعي التابعين، وهو العصر الذي عرف بعصر تكوين المذاهب الفقهية. وهي المدرسة التي كان من أبرز خريجيها بصورة مباشرة أو غير مباشرة بعض أئمة المذاهب الإسلامية وكبارهم، كأبي حنيفة، ومالك بن أنس، والسفياني، وشعبة بن الحجاج، ويحيى بن سعيد، وأيوب السختياني، وابن جريح.. وغيرهم من أئمة الحديث والفقه.

---

(١) الفضلي، تاريخ التشريع الإسلامي: ١٥٩ بتلخيص وتصرف.

وأما محمد بن ادريس الشافعي، وأحمد بن حنبل فقد تخرجا على بعض تلامذة الإمام وخريجي مدرسته.

ويرجع ابن أبي الحديد جذور المدارس الفقهية إلى مدرسة الإمام عليعليه السلام في المدينة فيقول في ديباجة شرحه الكبير: «ومن العلوم علم الفقه، وهو (الإمام عليعليه السلام) أصله وأساسه، وكلُّ فقيه في الإسلام عيال عليه، ومستفيد من فقهه.. أما أصحاب أبي حنيفة، كأبي يوسف، ومحمد، وغيرهما.. فأخذوا عن أبي حنيفة، وأما الشافعي فقرأ على محمد بن الحسن، فيرجع فقهه أيضا إلى أبي حنيفة، وأما أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعي، فيرجع فقهه إلى أبي حنيفة، وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمدعليه السلام، وقرأ جعفر على أبيهعليه السلام. وينتهي الأمر إلى عليعليه السلام، وأما مالك بن أنس فقرأ على ربيعة الرأي، وقرأ ربيعة على عكرمة، وقرأ عكرمة على عبد اللّه بن عباس، وقرأ عبد اللّه بن عباس على علي بن أبي طالب، وإن شئت فرددت إليه فقه الشافعي بقراءته على مالك كان لك ذلك.. فهؤلاء الفقهاء الأربعة»[1].

والذي يبدو أن قَلم ابن أبي الحديد قد سهى ولم يذكر تتلمذ مالك بن أنس على الإمام الصادقعليه السلام مباشرة، وتخرجه عليه، وهذا ما يعترف به مالك نفسه، حيث يقول: «جعفر بن محمد.. اختلفت إليه زمانا فما كنت أراهُ إلّا على إحدى ثلاث خصال: إما مصل، وإما صائم، وإما يقرأ القرآن..»[2].

كذلك نجد كل من ترجم لمالك أو للإمام الصادقعليه السلام يذكر تتلمذه على الإمام الصادق وتخرّجه عليه وروايته عنه.

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١ / ١٨ المقدمة.

(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب: ٢ / ١٠٤.

يقول ابن حجر في ترجمة الإمام الصادقعليه السلام: «وروى عنه الأئمة الأكابر كيحيى بن سعيد وابن جريح، ومالك، والسفيانين، وأبي حنيفة وشعبة وأيوب السختياني»[1].

وفي مطالب السؤول: «نقل عنه ـ أي الإمام الصادق ـ الحديث، واستفاد منه العلم جماعة من أعيان الأُمة وأعلامها، مثل: يحيى بن سعيد الأنصاري.. ومالك ابن أنس»[2].

وهكذا نجد الأمر نفسه عند غيرهم من المؤرخين والمحدثين والرجاليين ممن ترجموا للإمامعليه السلام أو لمالك، فإنهم يذكرون هذه الحقيقة وكأنها من المسلمات التي لا نقاش فيها.

فمدرسة الإمام الصادقعليه السلام هي المنهل العذب الذي استقى منها مالك بن أنس، وارتوى من معينها.. والواسطة المهمة التي يرتفع بها مالك في فقهه إلى الإمام عليعليه السلام.

ومهما يكن من أمر، فإنّ أئمة المذاهب الإسلامية يرجعون في جذورهم القريبة والبعيدة إلى مدرسة الإمام الصادقعليه السلام، وهذا لا يعني أنّ هؤلاء الأئمة ومذاهبهم الفقهية ما هي إلّا نسخة مكررة من مدرسة الإمام الصادقعليه السلام أو «أن تلك المذاهب تستقي في عطائها من ورده، وتنتسب إليه في محتواها... بل ما نعنيه بالذات: أنّ نضوج أئمتها علميا، وانفتاحهم فكريا، كان نتيجة جهود الإمام التي بذلها في سبيل رفع مستوى الأُمة فكريا، ودفعها للانفتاح على مجالات المعرفة والتمرس في منطلقاتها»[3].

---

(١) ابن حجر، الصواعق المحرقة: ٢٠١.

(٢) الشافعي، مطالب السؤول: ٢ / ٥٥.

(٣) فضل اللّه ـ محمد جواد، الإمام الصادق: ٣٠٩ ـ ٣١٠، طبعة دار الزهراء ـ بيروت، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.

فدور مدرسة الإمام الصادقعليه السلام مع ائمة المذاهب الإسلامية الأُخرى هو دور الاعداد والتثقيف والتنشئة.. وإلّا فإنّ تلك المدارس قد اتخذت لنفسها طابعا آخر يختلف عن طابع مدرسة أهل البيتعليهم السلام.

ولهذا كان الإمام الصادقعليه السلام يستنكر على أبي حنيفة منهجه الفقهي في العمل بالقياس والرأي كقاعدة أساسية في الاستنباط، كذلك نجد بقية ائمة المذاهب وتلامذتهم الذين لهم منهجهم وطريقتهم في التعامل مع الحكم الشرعي من خلال ينبوعه الذي يستنبطون الحكم الشرعي منه، والذي قد يختلف في بعض مبانيه عن منهج الإمام الصادقعليه السلام.

*** مع الشيخ محمد أبو زهرة في تقييمه للإمام الصادقعليه السلام:**

يعتبر الإمام محمد أبو زهرةرحمه الله من علماء الأزهر البارزين، وله الكثير من المؤلفات القيمة وفي مختلف شؤون المعرفة، وقد كتب عن أئمة المذاهب الفقهية، وخصّ كلّ واحد منهم بمجلد فيقول: «فقد وفقني اللّه لأن أكتب مجلدات في أئمة ثمانية من أئمة الإسلام الذين نشروا العلم الإسلامي، واستنبطوا واجتهدوا فيه، وكان ممن يتبع طريقهم جموع متكاثرة من المسلمين.. وهؤلاء الأئمة الثمانية نذكرهم على حسب سبقهم في الزمان، الإمام زيد بن علي زين العابدين، والإمام أبو عبد اللّه جعفر الصادق بن محمد الباقر، والإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت، والإمام مالك بن أنس، والإمام محمد بن ادريس الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، والإمام ابن حزم الأندلسي، والإمام تقي الدين ابن تيمية»[1].

---

(١) أبو زهرة ـ محمد، تاريخ المذاهب الإسلامية: ٢٣٣، طبعة دار الفكر العربي، ١٩٨٩ م.

وألَّف الشيخ أبو زهرة من الكتب المرجعية التي سهلت السبيل على الباحثين والمتخصصين، بل وغير المتخصصين ممن يبتغون دراسة تاريخ الفقه الإسلامي ومذاهبه الكبرى. وهو جهد مشكور يحمد عليه الشيخ ولا يمكن أن نبخس له حقه أو نستهين بجهوده.

ويسجل لأبي زهرة أنه نقل آراء أئمة المذاهب بدقة، وحاول جاهدا أن يدفع عنهم ما يتوهم من كلماتهم وآرائهم، وأن يوجهها الوجهة التي يراها مناسبة.. إلّا أنه فيما كتبه عن الإمام الصادقعليه السلام لم يكن بهذه الدقة، ولم يكن موفقا في رسم شخصية الإمام العلمية، ولم يكن صائبا في النتائج التي انتهى إليها بالنسبة إلى فقهاء مدرسة أهل البيتعليهم السلام. ومن أهم ما يسجل عليه من هَنات:

أولاً: إنه أَخَّر الكتابة عن الإمام الصادقعليه السلام إلى ما بعد أن انتهى من الكتابة عن الشخصيات التي اعتنى بدراسة حياتهم، وهذا التأخير يبعث على الاستغراب، إذ الواجب يقضي عليه تقديم الكتابة عن الإمام الصادق قبل غيره من رؤساء المذاهب الإسلامية وغيرهم، فهو مقدم عليهم بالرتبة الزمنية، والرتبة العلمية.. إلّا أنّ المؤلف اعتذر عن الكتابة في حياة الإمام الصادق بقلة المصادر كما جاء في كتابه الإمام زيد[1].

وهو اعتذار يمكن أن نقبله منه، لأنه اعتذار وجيه في نفسه؛ لأن قلّة المصادر تجعل الكاتب في أفق ضيق لا يستطيع أن يستمدَّ معلوماته الكافية للدراسة، إلّا أنّ المؤلف عندما كتب عن الإمام الصادق كتابه المعنون (الإمام الصادق حياته وعصره، آراؤه وفقهه) قدّم لكتابه بمقدّمة اعتذر فيها عن تأخير الكتابة عن الإمام الصادقعليه السلام

---

(١) أبو زهرة ـ محمد، الإمام زيد حياته وعصره، آراؤه وفقهه: ٤، طبعة دار الفكر العربي، بلا ـ ت.

بقوله: «لأ نّه الأجدر به أن يقدم..» إلّا أ نّه لم يعلل ذلك بقلّة المصادر كما في السابق، وإنما علل ذلك بقوله: «تأخذنا في الكتابة عنه تهيبا لمقامه، ولأنّ طائفة من الناس قد غالوا في تقديره، ومنهم من انحرفوا فادعوا له الأُلوهية، وكثيرون ادعوا أنه في مرتبة قريبة من مرتبة النبوة..»[1].

وليت المؤلف اكتفى بما ذكره سابقا من قلة المصادر، الذي قبلناه منه لوجاهته، ولم يذكر هذه الأسباب الواهية، والتي لا تصلح أن تكون مانعة من الكتابة حتى على فرض وجودها ـ وهي غير موجودة قطعا ـ وهل يوجد اليوم من يؤله الأئمة؟ ومتى أ لّه الشيعة أئمتهم؟ ثمّ لماذا لم تكن هذه الأسباب الموهومة مانعة عن الكتابة في أبي حنيفة النعمان الذي رفعته أخباره إلى مرتبة النبوة، بل فوقها!! والمؤلف نفسه يقول عنه: «ان اتباع مذهبه غالوا في الثناء عليه حتى تجاوزوا فيه رتبة الفقيه المجتهد»[2] ثمّ أخذ يوجه ويدافع عن أصحاب هؤلاء المذاهب وعزى ما قيل فيهم إلى التعصب.

ثانيا: نجد الأُستاذ أبا زهرة ينسب إلى الإمام الصادقعليه السلام بعض الأقوال الفقهية، مع أن الواقع الثابت خلاف ما ذهب إليه من قبيل نسبة الأثر عن الإمام الصادق بعدم الوصية للوارث[3]، مع أن الأثر الصحيح والذي تعكسه الروايات المروية هو «اجازة الوصية للوارث» وهو الموافق لنص القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾[4].

---

(١) الإمام الصادق: ٣ / ٤.

(٢) أبو زهرة، مقدمة كتاب أبو حنيفة.

(٣) أبو زهرة، الإمام الصادق: ١٤.

(٤) البقرة: ١٨٠.

كذلك يتحدث أبو زهرة عن نكاح المتعة فينسب للإمام الصادق عن كتب الزيدية بأنه قال: «هي الزنى»، ثمّ يحاول أن يجد تأييدا لقول الإمام فيقول: «إنّ المتعة من «المخادنة» التي نهى اللّه عنها»[1]. مع أن هذه المسألة من المسائل التي قد حررها العلماء وبسطوا القول فيها، وكثر فيها النقاش والجدل، والذي نسبه أبو زهرة للإمام الصادق من قوله عن المتعة «إنها الزنا»، لا صحة له ومكذوب عليه، والثابت من روايات الشيعة الإمامية، بل ويظهر من كتب الزيدية أيضا أنّ الإمامين الباقر والصادقعليهما السلام كانا يقولان بجواز المتعة[2].

ثالثا: من المعلوم أن أبا حنيفة النعمان ـ إمام المذهب ـ قد أخذ العلم عن الإمام الصادق وانتفع بوصاياه عندما أقام في المدينة مدّة سنتين، ولهذا أعلنها واضحة لا لبسَ فيها بقوله: «لولا السنتان لهلك النعمان» إلّا أ نّنا نجد الشيخ أبا زهرة يحاول جاهدا أن يظهر تفوق أبي حنيفة على الإمام في المناظرة! فنجده ينقل حوارا يزعم أنه جرى بين الإمام الباقر وأبي حنيفة حول القياس حيث تصور الرواية أن السائل هو أبو حنيفة والمجيب الإمام الباقرعليه السلام ومن ثمّ المنتصر هو أبو حنيفة[3]! هكذا ومن دون أن يذكر لهذه المحاورة المزعومة مصدرا أو سندا.

والقضية مقلوبة ومفتعلة، إذ إن أصل المحاورة كانت بين الإمام الصادقعليه السلام وبين أبي حنيفة، وكان الإمام الصادق هو الذي ساق هذه المسائل على أبي حنيفة مستنكرا عمله بالقياس، وأبو حنيفة يجيب. والعجيب من الشيخ أبي زهرة أنه يذكر الرواية الثانية الصحيحة من الكافي على وجهها الصحيح، إلّا أ نّه يحاول أن يوازن بين

---

(١) أبو زهرة، الإمام الصادق: ١٤.

(٢) أُنظر: الشوكاني، نيل الأوطار: ٦ / ١٣٦، وطبعة دار المدار في مجلد واحد: ١٢٩٣.

(٣) أبو زهرة، الإمام الصادق: ٢٢ ـ ٢٣ و ٢٩١ ـ ٢٩٣.

الروايتين فيقدم الرواية الأُولى التي يكون فيها أبو حنيفة هو السائل والمنتصر في نظره، مع أنّ الرواية الثانية ليس مصدرها الوحيد الشيخ الكليني ـ والذي يتحامل عليه الشيخ أبو زهرة ولا يقبل بروايته ـ وإنما رواها غير الكليني من علماء العامة كأبي نعيم في حلية الأولياء، والقاضي أبي حنيفة النعمان المغربي[1]، وغيرهم، فكيف ترك هؤلاء وأخذ الرواية من مصدر لم يشر إليه من قريب ولا من بعيد!

رابعا: في موضوع علم الإمام الصادقعليه السلام نجد الشيخ أبا زهرة يدور في دائرة الافتراضات والتحسينات، فهو لا يتفق مع علماء الإمامية القائلين باستقلالية علم أهل البيتعليهم السلام، وإنّ الأئمةعليهم السلام يأخذ بعضهم عن البعض الآخر، ويروي بعضهم عن البعض الآخر، فهم حلقة متماسكة، ومدرسة مستقلة تتصل برسول اللّهصلى الله عليه وآله بأوضح السبل، وأقرب الطرق.

والشيخ أبو زهرة يعدّ هذا الاستقلال العلمي أمرا غريبا لا يهضمه تفكيره!

فيقول: «إنّ الإمامية يرون أن علمه ـ أي الإمام الصادق ـ إلهامي لا كسب فيه، ونحن نقول: إنّ علمه كسبي فيه اشراق الإخلاص، ونور الحكمة.. ولذلك نحن نفرض أنه تلقى على شيوخ، وأخذ عنهم ودارسهم.. واتصل بمعاصريه في سبيل الحصول على هذه المجموعة العلمية، كما كان بيته بيت الحكمة والعلم».

ثمّ يضيف قائلاً: «واننا لابد أن نفترض أن أساتذته ثلاثة، تلقى عليهم، وكلّهم له قدم ثابتة في العلم.. أولهم جدّه علي زين العابدين.. فلابد إنّه أخذ عنه.. وإنّ زين العابدين هذا كان يأخذ علم آل البيت ويضيف إليه علم التابعين الذين

---

(١) أبو نعيم، حلية الأولياء: ٣ / ٢٢٩ ـ ٢٣٠ طبعة دار الكتب العلمية، والقاضي أبو حنيفة النعمان، دعائم الإسلام: ١ / ١٣١ طبعة دار الاضواء.

عاصروه..» ويقول أيضا بعد أن يذكر الفقهاء السبعة في المدينة: «وهم كانوا أبرز أساتذته.. وأحدهم كان جد الإمام جعفر الصادق لأُمه»[1].

فبعد أن يستغرب أبو زهرة الاستقلال العلمي للأئمة فلابد من أن يفترض وجود بعض الأساتذة لهم، فيفترض للإمام زين العابدينعليه السلام زيد بن أسلم أُستاذا، استنادا لرواية نافع بن جبير، ويفترض للإمام الصادقعليه السلام أُستاذا أيضا وهو القاسم بن محمد بن أبي بكر؛ لأنه جدُّ الإمام فلابد أن يكون من شيوخه وأنّ الإمام قد روى عنه. والحال أنّ رواية نافع بن جبير المروية في حلية الأولياء لابن نعيم[2]، والتي استند إليها الشيخ أبو زهرة وعبّر عنها بأنها صحيحة السند، من الروايات الضعيفة! وهنالك جهالة في معرفة رجالها، ومن عُرِّف منهم لم يُوَثَّق. كما أنّ الواقع التاريخي يكذب أن يكون هنالك حلقة درس لزيد بن أسلم في ذلك الوقت لحداثة سنّه ولوجود شيوخ المدينة وعلمائها، وسادات قريش، وكبار رجال العلم والمعرفة وعلى رأسهم الإمام زين العابدين السجادعليه السلام. الذي هو أفقه قريش في عصره، بل أفقه الأُمة على الإطلاق، وليس في الأُمة من يدانيه في منزلته، أو يماثله في علمه.

وأما دعوى تتلمذ الإمام الصادق على القاسم بن محمد فهي دعوى وافتراض لم يذكر أبو زهرة له مستندا، فالإمام الصادق يروي عن أبيه الباقر، عن أبيه زين العابدين، عن الحسين بن علي، عن علي بن أبي طالبعليهم السلام، وهذا الاسناد هو المعروف بالسلسلة الذهبية، وهو أصح الأسانيد وأقواها[3].

---

(١) أبو زهرة، الإمام الصادق: ٨٧ و ١٦٥.

(٢) ابن نعيم، حلية الأولياء: ٣ / ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٣) أُنظر: معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري: ٥٥.

وخلاصة الأمر في هذه النقطة، أنّ هؤلاء الفقهاء السبعة والذين حُصِرَ الفقه بهم ـ سياسيا ـ لم يكن الإمام الصادقعليه السلام راويا عن واحد منهم، ولم يأخذ العلم عنهم، بل كان أكثر هؤلاء رواة لحديث أبيه وجدّه ومن تلامذتهما[١].

خامسا: نفي الاجتهاد المطلق عن علماء مدرسة أهل البيتعليهم السلام:

يعتقد الشيخ أبو زهرة أن اجتهاد الشِّيعة ليس من قبيل الاجتهاد المطلق، وإنّما هو من قبيل الاجتهاد المُنتسب، لاعتقاده بأ نّه: «رسمت له المناهج، من بيان أحكام النسخ والعموم وطريق الاستنباط، والتعارض بين الأخبار، وحكم العقل.. وكل هذا يقتضي ـ من المجتهد ـ أن يطبق في اجتهاده لا أن يرسم ويخطّط، فهو يسير في اجتهاده على خط مرسوم لا يعدوه، ولا يبتعد عنه يمنة ولا يسرة، وبهذا النظر يكون في درجة المجتهد المنتسب»[٢].

هكذا صور الشيخ أبو زهرة حركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية، ويرد عليه:

أولاً: إنّ هذا التقسيم للاجتهاد بلحاظ مراتب المجتهدين من مختصات المدارس السنية واتباع المذاهب الأربعة، وحوتها كتبهم الأُصولية، وليس لدى علماء الأُصول من اتباع مدرسة أهل البيتعليهم السلام مثل هكذا تقسيم، فالمجتهد عندهم، هو: المجتهد المطلق: وذلك بأن تكون له أهلية علمية لاستنباط الحكم الشرعي من مداركه المقرَّرة، وبعبارة أُخرى يكون له منهج مستقل في استنباط الأحكام، وكما يعبر العلماء: «مجتهد في الأُصول والفروع».

---

(١) للتوسع أُنظر: أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ٥ / ٧٧ وما بعدها، الطبعة الثانية، ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧١ م.

(٢) أبو زهرة، الإمام الصادق: ٥٤٠.

أما ما يذكر في مقابل ذلك من أقسام فهو ليس من الاجتهاد المصطلح عند الشيعة، لسبب بسيط وهو أن المجتهد المنتسب أو المجتهد من أهل التخريج أو الترجيح.. لا ينتهي في استنباطه إلى الحكم الشرعي، وغاية ما ينتهي إليه هو رأي امامه»[1]. فهو مقلد لإمامه وليس بمجتهد وإن إدّعى أو أُدعي له ذلك.

ثانيا: إنّ هذا التصوير للاجتهاد عند الشيعة الإمامية ونتيجته في نفي الاجتهاد المطلق عنهم، ينطبق على أتباع المذاهب الأُخرى، إذ لا يوجد ـ على هذا الرأي ـ مجتهد مطلق عندهم سوى امام ذلك المذهب، فهل يلتزم الشيخ أبو زهرة بهذه النتيجة؟

ثالثا: إنّ كلام الشيخ أبي زهرة فيه غفلة أو تغافل عن وظيفة الإمامة الكبرى لأهل البيتعليهم السلام عند اتباعهم من الشيعة الإمامية.

يقول السيّد محمدتقي الحكيم في ردِّه على أبي زهرة: «الذي يبدو أنّ الأُستاذ أبا زهرة كان يرى في أئمة أهل البيتعليهم السلام إنهم مجتهدون في كل ما يأتون به من أحكام وحسابهم حساب بقية أئمة المذاهب! مع أنّ الشيعة لا يرون في أئمتهم ذلك. وإنّما يرونهم مصادر تشريع يرجع إليهم لاستسقاء الأحكام من منابعها الأصليّة، ولذلك اعتبروا ما يأتون به من السنّة.. فأقوال أهل البيت مصدر من مصادر التشريع لديهم، وهم مجتهدون في حجيتها كسائر المصادر والأُصول، أ مّا بقية أئمة المذاهب، فهم لا يعدون كونهم من المجتهدين الذين يجوز عليهم الخطأ، ولذا كان ما يأتون به من أُصول قابلاً للنظر فيه، فلا يكون حجة على الغير».

---

(١) الحكيم ـ محمد تقي، الأُصول العامة للفقه المقارن: ٥٩٣ ـ ٥٩٤.

ثمّ يضيف السيّد الحكيم: «إنّ أدلة الشيعة على الحجج ـ على اختلافها ـ لم يقتصر على أحاديث أهل البيتعليهم السلام، بل تجاوزتها إلى: الكتاب العزيز، والسنّة النبوية، والسيرة القطعيّة، وبناء العقلاء، وحكم العقل.. وغيرها.. وإنّ مجتهدي الشيعة لا يسوغون نسبة أيّ رأي يكون وليد الاجتهاد إلى المذهب ككل،.. بل يتحمل كلّ مجتهد مسؤولية رأيه الخاصّ».

ثمّ يخرج السيّد بهذه النتيجة المهمة في ردّه على أبي زهرة: «إنّ تسمية الشّيعة مذهبا في مقابل المذاهب لا نعرف له أساسا، ماداموا لا يعتبرون ما يأتي به أئمتهم عاكسا لآرائهم الخاصّة؛ وإنما هو تعبير عن واقع الإسلام من أصفى منابعه، فهم في الحقيقة مجتهدون ضمن اطار الإسلام، وهو معنى الاجتهاد المطلق، وانكار أبي زهرة لهذه الصّفة في أئمتهم، ومناقشته لبعض ما جاؤوا به من أدلّة على عصمتهم، وكونهم من مصادر التشريع، لا يخرج مجتهدي الشيعة عن كونهم مجتهدين مطلقين، حتى مع فرض الخطأ في اجتهادهم كمجتهدين؛ لأنّ اختلاف أبي حنيفة مثلاً، مع الشافعي في بعض أُصوله، لا يخرجه عن كونه مجتهدا مطلقا، مادام أبو حنيفة مؤمنا بمصدره التشريعي»[1].

---

(١) الحكيم ـ محمدتقي، الأُصول العامة: ٥٥٤ ـ ٥٥٦ بتلخيص.

الدور الثاني

مدرسة المدينة في عهد الإمامين الكاظم والرضاعليهما السلام

بوفاة الإمام جعفر بن محمد الصادقعليه السلام سنة (١٤٨ هـ)[١]، انتهى الدور الأول (دور التأسيس) من أدوار مدرسة أهل البيتعليهم السلام في المدينة، بحسب تقسيمنا المنهجي لأدوارهم، ويبدأ الدور الثاني بالإمام موسى بن جعفر الكاظمعليه السلام.

ولنا عودة للإمام الصادقعليه السلام من خلال حديثنا عن مدرسة أهل البيتعليهم السلام في الكوفة.

لقد كان عهد الصادقينعليهما السلام من العهود والأدوار الذهبية لمدرسة أهل البيتعليهم السلام، إذ شهدت هذه المدرسة انفراجا نسبيا، بعد أن أتاحت لها الظروف السياسية والثقافية فرصة للتكامل والتوسع وفق الأُسس التي أرساها الأئمة من قبلهما.

لقد جاء دور الإمام الكاظمعليه السلام والأئمة من بعدهم استمرارا لهذه المسيرة المباركة وتأكيدا عليها في خطوطها التفصيلية.

إلّا أنّ هنالك ظروفا موضوعية حالت دون الارتقاء إلى مستوى أعلى وأوسع مما وصلت إليه هذه المدرسة في عهد الصادقينعليهما السلام! ويمكن أن نجمل الأسباب التي دعت إلى ذلك فيما يأتي:

أولاً: قسوة الأحوال الأمنية: لقد كانت رقابة خلفاء بني العباس المعاصرين للإمام موسى الكاظمعليه السلام، شديدة على الشيعة وعلى امامهم موسىعليه السلام، فهيمنت حالة من الخوف والذعر على أتباع مدرسة أهل البيت في المدينة، نتيجة لقسوة الأحوال

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٥ / ٢٣٤.

الأمنية التي عاشوها، مما أدى بهم إلى التكتم، واحاطة نشاطهم بالسرية، قال هشام بن سالم: «كنا بالمدينة بعد وفاة أبي عبد اللّهعليه السلام، أنا، ومحمّد ابن النعمان مؤمن الطاق، والناسُ مجمعون على عبد اللّه بن جعفر انَّه صاحبُ الأمر بعد أبيه.. فقعدنا في بعض أزقة المدينة باكين لا ندري أين نتوجه وإلى من نقصد... فنحن كذلك إذ رأيت رجلاً شيخا لا أعرفه يومئِاليَّ بيده، فخفتُ أن يكون عينا من عيون أبي جعفر المنصور، وذلك أنه كان له بالمدينة جواسيس على من يجتمعُ بعدَ جعفرٍ الناسُ، فيؤخذُ فيضرب عنقه، فخفت أن يكون منهم، فقلت للأحول: تنحَّ فإنِّي خائفٌ على نفسي وعليك، وإنّما يريدني ليس يريدك، فتنحَّ عني لا تهلك فتعين على نفسك، فتنحّى عني بعيدا. وتبعت الشيخ، وذلك أني ظننت أني لا أقدر على التخلّص منه، فما زلت أتبعه حتى ورَدَ بي على باب أبي الحسن موسىعليه السلام، ثمّ خلاني ومضى، فإذا خادم بالباب، فقال لي: أُدخل رحمك اللّه، قال: فدخلت فإذا أبو الحسنعليه السلام،... قلتُ: جُعلتُ فداك، أسألك كما كنتُ أَسأل أباكَ؟ قال: سَل تخبر ولا تُذع، فإن أذعت فهو الذبح، قال: فسألته فإذا هو بحر لا يُنزَفُ، قال: قلت: جُلعت فداك شيعةُ أبيكَ ضُلّال، فأُلقي إليهم هذا الأمر، وادعوهم إليك؟ فقد أخذت عليَّ بالكتمان؟ قال: مَن آنست منهم رشدا فألق إليهم، وخذ عليه بالكتمان؛ فإن أذاع فهو الذبح، وأشار بيده إلى حلقه..»[1].

ثانيا: انشغال الإمام علي بن موسى الرضاعليه السلام فترة من حياته في المراسم الشكلية السياسية، والتي أقحم فيها، وذلك حين ولّاه المأمون ولاية العهد واستقدمه لخراسان حيث توفي هناك.

---

(١) الشيخ المفيد، الإرشاد: ٢ / ٢٢١ ـ ٢٢٣، والكليني، الكافي: ١ / ٢٧.

ثالثا: تجديد وتشديد رقابة الخلفاء العباسيين، وخاصة المتوكل، على أئمة الشيعة في عهده، وحمل المتوكل الإمام العاشر من المدينة إلى سامراء... لمنع اتصال شيعته به... بالاضافة إلى الاجراءات المشددة التي اتخذها ضد مؤسسات الشيعة ومزاراتهم بما فيها قبر الحسين عليه السلام بكربلاء[1].

«إنّ هذه الظروف حالت بين الإمام الكاظم عليه السلام واتصال أصحابه به بنحو طبيعي، ذلك أن غياب الحرية ينتج ضمور الحركة العلمية وتراجعها، ومع ذلك فإنّ الإمام الكاظم عليه السلام لم يتخلّ عن مهمة بثّ معارف الوحي ونشرها بين خاصة أصحابه، كما حرص تلامذته على الافادة من أية فرصة تتاح لهم بلقائه، وتسجيل كلّ شيء يتفوّه به»[2].

ومن الأساليب التي اتخذها الإمام الكاظم عليه السلام لتعليم شيعته والاتصال بهم:

أولاً: أُسلوب التدريس والمناظرة:

«كان كل من الإمامين الكاظمين عندما كانا في المدينة المنورة يتخذ من المسجد النبوي الشريف مركز تدريس، وكذلك بيته تماما كما كان الأمر في العهود السابقة على عهدها»[3] بل إنّ الإمام الكاظم عليه السلام قد اتخذ من محل سجنه مدرسا، للتعليم والرواية، «ومن أشهر تلامذته موسى بن إبراهيم المروزي مؤدب أولاد السندي بن شاهك الذي أوكلت له رقابة الإمام موسى في السجن ببغداد، وكان موسى بن إبراهيم

---

(١) الفياض ـ عبد الله، تاريخ التربية عند الإمامية: ١٤٢ ـ ١٤٣ بتصرف، طبعة الدار المتحدة للنشر ـ بيروت، الطبعة الثانية، (١٩٨٣ م).

(٢) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٤١.

(٣) الفضلي، تاريخ التشريع: ١٦٢.

يروي الحديث عن الكاظم، وألّف كتابا ضمنه ما سمعه من أحاديث الإمام وهو في الحبس»[1]. واتصل بالإمام في سجنه هند بن الحجاج وغيره من قادة الفكر الإسلامي كما دخل عليه في غلس الليل أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني، صاحبا أبي حنيفة وقد أرادا اختباره في بعض المسائل المهمة ليطلعا على مدى علمه..»[2].

ثانيا: أُسلوب الإملاء للفقه والحديث على خاصة أصحابه:

روى أبو الوضاح أن أباه قال: «كان جماعة من خاصة أبي الحسن‌عليه السلام، من أهل البيت والشيعة يحضرون ومعهم في اكمامهم الواح آبنوس لطاف وأميال، فإذا نطق أبو الحسن بكلمة أو أفتى في نازلة أثبت القوم ما سمعوا منه في ذلك»[3].

ثالثا: أُسلوب المراسلة السرية:

وهو أُسلوب جديد مبتكر اتخذه الشيعة كوسيلة للاتصال بالإمام موسى بن جعفرعليه السلام وهو في سجنه، وكانت هذه المراسلات تجري بطريقة سرية للغاية، بعيدا عن عين الرقابة المشددة على الإمام في سجنه، يقول علي بن سويد: «كتبت إلى أبي الحسن‌عليه السلام وهو في الحبس، أسأله عن حاله، وعن مسائل كثيرة، فاحتبس الجواب عليَّ أشهرا ثمّ أجابني بجواب هذه نسخته..»[4]. بل ربما بادر الإمام‌عليه السلام في بعض

---

(١) النجاشي، الرجال: ٤٠٧ ـ ٤٠٨، رقم الترجمة ١٠٨٢، والطوسي، الفهرست: ١٦٣ رقم الترجمة (٧٢٢).

(٢) أُنظر، الشبراوي الشافعي، الاتحاف بحب الاشراف: ٣٠٧ ـ ٣٠٨ بتحقيق: سامي الغريري، طبعة مؤسسة الكتاب الإسلامي، الطبعة الأُولى، المحققة، ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م. والبحار: ٤٨ / ٦٤، الحديث (٨٣).

(٣) المجلسي، البحار: ١٢ / ٢٧٨.

(٤) الكشي، الرجال: ٤٥٤، والكليني، الكافي: ٨ / ١٢٤.

المرات واتخذ هذا الأُسلوب للاتصال بشيعته، فبعث إليهم برسائله من سجنه لتجلية وتوضيح بعض الأُمور الضرورية لئلّا يلتبس الموقف عليهم من بعده، كما هو الأمر في مسألة الإمام من بعده والتي كانت من الأُمور الحساسة والدقيقة. يقول الحسين بن المختار: «خرجت إلينا الواح من أبي إبراهيم موسى عليه السلام وهو في الحبس، فإذا فيها مكتوب: عهدي إلى أكبر ولدي»[1].

فرغم الظروف القاسية وأُسلوب الترهيب الذي تعرض له الإمام الكاظم عليه السلام والتي آلت في خاتمة المطاف إلى الحبس ثمّ الشهادة، إلّا أنّ هذا لم يمنعه من الاتصال بشيعته، أو اتصالهم به في سجنه مواجهة ومكاتبة.

وقد أحصى الشيخ الطوسي في رجاله من أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام ما يربو على مئتين وخمسين راويا[2]، ومع أنّ هذا العدد من التلامذة يعدّ قليلاً بالمقارنة مع عدد تلامذة أبيه جعفر الصادق عليه السلام والذي قدر بأربعة آلاف، لكن هذا العدد يعتبر كبيرا بالنسبة إلى طبيعة الظروف السياسية التي عاشها الإمام وأصحابه في ظل الحكم العباسي»[3].

رابعا: عقد مجالس العلم بواسطة طلّاب الإمام في المسجد النبوي:

فبالرغم من أنّ الظروف السياسية والأمنية قد اعاقت الإمام الكاظم عن التصدي للتدريس وإدارة الحلقات العلمية في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وبشكل مستمر وبحرية كاملة، كما كان يفعل سلفه الصالح، إلّا أنّه عليه السلام عمد إلى تبني أُسلوبا آخر لا يثير كثيرا

---

(١) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا: ٣٠.

(٢) رجال الطوسي: ٣٤٢ ـ ٣٦٦.

(٣) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٤٢ ـ ٤٣.

السلطة الحاكمة وعيونهم آنذاك، وذلك من خلال انتخاب بعض أصحابه، وممن تتوفر فيهم المزايا العلمية المتميزة، فيوجهه لعقد مجالس العلم في المسجد، لكي لا يقفل مسجد رسول اللّه أبوابه تماما عن حلقات الدراسة، ولئلّا يغيب صوت الهدى عن هذا المكان الشريف، روى حماد قال: «كان أبو الحسنعليه السلام يأمر محمد بن الحكيم أن يجالس أهل المدينة في مسجد رسول اللّهصلى الله عليه وآله وان يكلّمهم ويخاصمهم، حتى كلمهم في صاحب القبر، فكان إذا انصرف إليه، قال له: ما قلتَ لهم؟ وما قالوا لك؟ ويرضى بذلك منه»[1].

خامسا: أُسلوب التأليف والكتابة:

يذكر الرواة والمترجمون للإمام الكاظمعليه السلام فضائل ومناقب كثيرة، وعلى رأس هذه الفضائل، فضيلة «العلم». يقول السيّد الأمين في الأعيان: «فقد روى عنه العلماء في فنون العلم، من علم الدين وغيره ما ملأ بطون الدفاتر، وألفوا في ذلك المؤلفات الكثيرة المروية عنهم بالأسانيد المتصلة؛ وكان يعرف بين الرواة بالعالم»[2].

ويقول الشيخ المفيد: «وقد روى الناس عن أبي الحسن موسىعليه السلام فأكثروا، وكان أفقه أهل زمانه»[3].

لقد اتخذ الإمام الكاظمعليه السلام أُسلوب الكتابة والتأليف لتربية وتعليم تلامذته، وللأجيال الآتية من بعدهم، فقد «روى الناس عنه من أنواع العلم ما دُوِّنَ وامتلأت به

---

(١) الكشي، الرجال: ٤٤٩، وأُنظر: الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٤٤.

(٢) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ٢ / ٥٣٢.

(٣) الشيخ المفيد، الإرشاد: ٢ / ٢٣٥.

بطون الدفاتر، ومن مؤلفاته وصيته لهشام بن الحكم، وصفته للعقل، وهي وصية طويلة أوردها الحسن بن علي بن شعبة في تحف العقول»[1].

هذا وقد ذكر النجاشي في كتابه (الرجال)، طائفة من أسماء تلامذة الإمام الكاظمعليه السلام مع بيان لأسماء كتبهم التي تلقوها من الإمام الكاظمعليه السلام؛ ومن هؤلاء: محمد بن تميم النهشلي، ومحمد بن صدقة العنبري البصري، وعلي بن عبيد اللّه بن حسين، والحسن بن علي بن يقطين، وأخو الإمام الكاظم علي بن جعفر، ومحمد بن الفرج الرُخَّجي، وعبد اللّه بن محمد الأهوازي، وعلي بن يقطين، وموسى بن إبراهيم المروزي، وعلي بن حمزة بن الحسن، ومحمد بن زُرقان، ومحمد بن ثابت، ومحمد بن فضيل بن كثير الصيرفي الأزدي، وغيرهم الكثير من تلامذة الإمام والرواة عنه[2].

وروى الشيخ الطوسي في الفهرست: أنّ الحسن بن علي بن يقطين كان من تلامذة موسى الكاظم وله كتاب: «مسائل موسى بن جعفر، وكان علي بن جعفر شديد التمسك بأخيه موسى الكاظمعليه السلام، والانقطاع إليه والتوفر على أخذ معالم الدين منه، وله مسائل مشهودة عنه، وجوابات رواها سماعا منه. وكان محمد بن عمير ممن لقي موسى الكاظم وسمع منه أحاديث، وقال الشيخ الطوسي: إنَّ عبد اللّه بن موسى بن جعفر روى عن أبيه كذلك يذكر الشيخ في الفهرست «مسائل» ليونس بن عبد الرحمن، ولصفوان بن يحيى، روياها عن موسى بن جعفرعليه السلام»[3].

(١) الأمين، أعيان الشيعة: ٢ / ٥٣٩، وأُنظر: علي بن شعبة، تحف العقول: ٣٨٣ وما بعدها، طبعة جامعة المدرسين ـ قم.

(٢) للتوسع أُنظر: تراجمهم عند النجاشي في كتابه: الرجال. والطوسي في الفهرست.

(٣) أُنظر: الفهرست للطوسي: ٧٣، والإرشاد للمفيد: ٢٦٦، والحلي ـ الحسن بن يوسف، الرجال: ٦٨، ورجال الطوسي: ٣٥٣، والفهرست: ٨٣ و ١٨١.

«وقد وردت أسماء طائفة كبيرة من أصحاب الإمام‰ ذكرهم الشيخ محمد بن الحسن الطوسي. ورتب قائمة بأسماء الرجال المذكورين حسب حروف الهجاء... ثمّ الحقها بقائمة أُخرى مرتبة حسب الكنى والألقاب للذين يورد أسماءهم»[1].

ولكن مما يلاحظ على قوائم الشيخ الطوسي والتي أورد فيها اسماء من أصحاب الإمام الكاظم‰، أن المعلومات التي أوردها عن أصحاب الإمام مقتضبة ومختصرة إلى حد كبير، ويظهر ذلك بوضوح عندما نقارن المعلومات التي أوردها، بالمعلومات التي وردت في كتاب الرجال للنجاشي، حيث كانت المعلومات التي وردت في الكتاب الأخير أكثر اتقانا واغزر مادة. بل اننا نجد الشيخ الطوسي يورد أسماء عدد من الرجال دون أن يورد معلومات تساعد الباحث على دراستهم، ومن أمثلة ذلك: يحيى بن عبد الرحمن، ويحيى بن عبد اللّه البصري، ويحيى بن سماعة الخياط، ويحيى بن الفضل النوفلي، وأبو سعيد القمّاط، وأبو مليك وغيرهم[2]. إلّا أنّ هذا لا يعني خلو كتاب الشيخ الطوسي عن أي معلومات عن أصحاب الإمام، فلقد أورد الشيخ ـ أحيانا ـ معلومات عن بعض أصحاب الكاظم الذين ترجم لهم، لها أهميتها بالنسبة لمن يدرس جهود الإمام الكاظم في التربية والتعليم»[3].

ومهما يكن من أمر، فإنّ الإمام موسى بن جعفر الكاظم‰ رغم كل الظروف الأمنية القاسية، والاضطهاد الذي تعرّض له، والتي انتهت به إلى سجن ورقابة شديدة من خلفاء بني العباس المعاصرين له، فإنّ له جهودا كبيرة في التربية والتعليم، وأسهم بقسط كبير في هذا المجال، «واستأثر بمقام المرجعية العلمية خلفا لسلفه من آبائه

---

(١) أُنظر: الطوسي، الرجال: ٣٣١ ـ ٣٤٧.

(٢) الطوسي، الرجال: ٣٦٤ ـ ٣٦٥.

(٣) الأمين ـ حسن، دائرة المعارف الشيعية: ١ / ٥٦٩ ـ ٥٧٠ نقلاً عن عبد اللّه فياض.

الأئمة(عليهم السلام) واعترف له بذلك قطّاع كبير ممن عاصره او جاءَ بعده، فمثلاً: «كان أحمد بن حنبل مع انحرافه عن أهل البيت(عليهم السلام) لما روي عنه، قال: حدثني موسى بن جعفر، قال: حدثني أبي جعفر بن محمد، قال: حدثني أبي محمد بن علي، قال: حدثني أبي علي بن الحسين، قال: حدثني أبي الحسين بن علي، قال: حدثني أبي علي بن أبي طالب، قال: قال: رسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) ثمّ قال أحمد: وهذا اسناد قوي لو قرئ على مجنون لأفاق»[1].

بل إنّ هارون الرشيد الذي حبس موسى بن جعفر(عليه السلام) فيما بعد، يعترف بمقامه العلمي لما دخل عليه الإمام في المدينة، فبالغ الرشيد في احترامه، سأله ولده المأمون عن دوافع هذا الاحترام بدهشة! (لقد رأيتك عملتَ بهذا الرجل شيئا ما رأيتكَ فعلته بأحد من أبناء المهاجرين والأنصار، ولا ببني هاشم! فمَن هذا الرجل؟ فقال: يا بني هذا وارث علم النبيين، هذا موسى بن جعفر بن محمد(عليهم السلام)، إن أردت العلم الصحيح فعند هذا. قال المأمون: فحينئذٍ انغرس في قلبي محبتهم)[2].

*** دور الإمام علي بن موسى الرضا العلمي في مدرسة المدينة:**

استشهد الإمام الكاظم موسى بن جعفر(عليه السلام) في سجن هارون الرشيد ببغداد ودفن في مقابر قريش وذلك سنة (١٨٣ هـ) على المشهور من الروايات[3].

فقام بالأمر من بعده ولده الإمام علي بن موسى الرضا(عليه السلام)، «وحياة الإمام الرضا(عليه السلام)» تمثل حلقة من حلقات مراحل حياة أئمة أهل البيت(عليهم السلام) وهي مرحلة

---

(١) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٤ / ٣١٦ ـ ٣١٧.

(٢) الصدوق، عيون أخبار الرضا: ١ / ٧٦.

(٣) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ١ / ١٠ و ٢ / ١٢.

التوسع في القواعد الشيعية، والتي بلغت في عصره أوج عظمتها واتساعها نتيجة لجهود أئمة المرحلة السابقة، والتي كان من أهم مظاهرها ذلك الجهد العلمي والتخطيط الفكري والتوعية العقائدية التي مارسها الأئمة من سلفه الصالح عليهم السلام، بأنفسهم مباشرة، أو من خلال النابهين من تلامذتهم؛ تلك الممارسة التي أعطت الكتلة الشيعية معالمها وخصائصها الفكرية ونتاجها الروحي ومفاهيما لكل جوانب الإسلام»[1].

لقد كان على الإمام الرضا عليه السلام وفي تلك الظروف الأمنية العصيبة، أن يتصدى لرعاية مدرسة المدينة، وأن ينهج منهج سلفه في اشاعة تعاليم الوحي لتلامذته وخواص أصحابه، وكان حذرا من محاولات السلطة العباسية، التي اغتالت والده، وكثّفت جهودها لاجهاض مدرسته «ولذلك لم تعد حلقات مدرسة أهل البيت عليهم السلام في مسجد رسول اللّه صلى الله عليه وآله في هذه الحقبة إلى عصر ازدهارها السابق في أيام جعفر الصادق، وأبيه محمد الباقر عليهما السلام»[2].

لقد عكست لنا الروايات المروية من بعض تلامذة الإمام الرضا عليه السلام، حالة الخوف من السلطة الحاكمة التي كانوا يعيشونها عقيب وفاة الإمام الكاظم عليه السلام، يقول الراوي: «لما مضى أبو الحسن موسى عليه السلام»، وتكلم الرضا خفنا عليه من ذلك، وقلنا له: إنك أظهرت أمرا عظيما، وإنّا نخاف عليك هذا الطاغية، فقال: «ليجهد جهده ولا سبيل له

---

(١) الأديب ـ عادل، الأئمة الاثنا عشر دراسة تحليلية: ١٩٧ بتصرف، طبعة الدار الإسلامية ـ بيروت.

(٢) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٤٥.

عليّ». قال صفوان: فأخبرنا الثقة أن يحيى بن خالد، قال للطاغي؛ هذا عليّ ابنه قد قعد وادّعى الأمر لنفسه، فقال: ما يكفينا ما صنعنا بأبيه، تريد أن نقتلهم جميعا»[1]؟

لقد عاصر الإمام الرضا عليه السلام عصر هارون الرشيد العباسي ولفترة تنوف عن العشر سنوات[2]، اضطر معها أن يقتفي أثر أبيه عليه السلام في التكتم على المهم من حركته العلمية خلال هذه الفترة، «وكان عليه السلام يكلم الناس قليلاً وكان كلامه وجوابه وتمثله انتزاعات من القرآن المجيد»[3].

وبعد هلاك هارون الرشيد وما أعقبها من فترة الصراع على الحكم بين أولاده حتى استقر الأمر لولده المأمون الذي جلس على منصة الخلافة وأظهر الولاء لأهل البيت عليهم السلام و «اشاع مناخا مناسبا من الحرية للإمام الرضا عليه السلام وتلامذته وأتاح لهم ممارسة حياتهم الفكرية من دون خشية السلطان، برز الدور العلمي للإمام عليه السلام بالتدريج بحيث أضحى مقامه العلمي في المدينة، هو المرجع الذي يتلقى جميع أهل العلم منه، ويرجع إليه طلّاب العلم دون غيره من علماء التابعين، الذين كان عددهم كبيرا في المدينة آنذاك. ففي رواية الشيخ الطبرسي المروية عن أبي الصلت الهروي قال: «.. ولقد سمعتُ علي بن موسى الرضا عليهما السلام يقول: كنتُ أجلس في الروضة، والعلماء بالمدينة متوافرون، فإذا أُعيي الواحد منهم عن مسألة، أشاروا إليَّ بأجمعهم، وبعثوا إليَّ بالمسائل، فأُجبتُ عنها»[4].

---

(١) الطبرسي، اعلام الورى بأعلام الهدى: ٢ / ٦٠، طبعة مؤسسة آل البيت لاحياء التراث،ط. الأُولى، ١٤١٧ هـ

(٢) الأمين ـ حسن، دائرة المعارف الشيعية: ١ / ٥٨٥.

(٣) القمي ـ عباس، الأنوار البهية: ١٧٩.

(٤) الطبرسي، اعلام الورى: ٢ / ٦٤.

ويوم كان الإمام الرضا(عليه السلام) في المدينة المنورة اتخذ من المسجد النبوي الشريف مركزا لتدريسه، وكذلك من بيته، تماما كما كان الأمر في العهود التي سبقت عهده. روي عن الحاكم النيسابوري أنه قال في كتابه (تاريخ نيسابور): إنّ الإمام الرضا(عليه السلام): «كان يفتي في مسجد رسول اللّه(صلى الله عليه وآله) وهو ابن نيف وعشرين سنة»[1].

لقد أذعن للإمام الرضا علي بن موسى(عليهما السلام) علماءُ عصره بتفوقه العلمي ومن أُولئك علماء المذاهب العقائدية والأديان، حيث أدحض حججهم، وفنّد مقولاتهم، بعد أن ناظرهم وتغلب عليهم، ففي رواية الحاكم أبي عبد اللّه الحافظ عن الفضل بن العباس، عن أبي الصلت الهرويّ قال: «ما رأيتُ أعلم من علي بن موسى الرضا(عليهما السلام)، ولا رآه عالم إلّا شهدَ له بمثل شهادتي، وقد جمع المأمون في مجلس له ذوات عدد علماء الأديان وفقهاء الشريعة والمتكلمين، فغلبهم عن آخرهم حتّى ما بقي أحد منهم إلّا أقرَّ له بالفضل وأقرَّ على نفسه بالقصور..»[2].

وفي رواية أكّد فيها إبراهيم بن العباس تفوق علي بن موسى الرضا(عليهما السلام) العلمي على كافة علماء عصره بقوله: «ما رأيت الرضا(عليه السلام) سئل عن شيءٍ قطّ إلّا علمه، ولا رأيتُ أعلم منه بما كان في الزمان إلى وقته وعصره، وكان المأمون يمتحنه بالسؤال عن كل شيءٍ فيجيب عنه...»[3].

---

(١) الأمين، أعيان الشيعة: ١ / ١٤٣.

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٦٤ وعنه في البحار: ٤٩ / ١٠٠.

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ٦٣.

* معالم مدرسة الإمام الرضا العلمية وتلامذته:

لقد انطلقت مدرسة أهل البيت عليهم السلام ـ نسبيا ـ في عهد الإمام الرضا عليه السلام وخاصة في الفترة التي عاصر فيها المأمون العباسي، حيث توفرت بعض أجواء الحرية النسبية للإمام عليه السلام فوظفها لنشر السنة الشريفة بين الرواة وطلّاب العلم والمعرفة الذين ازدلفوا عليه من شتى البلدان لينهلوا من منهله العذب معارف الوحي، ولهذا كانوا يقتفون أثره للتزود منه أينما حلَّ، كما في رواية أبي الصلت الهروي الذي قال: «كنتُ مع علي بن موسى الرضا عليه السلام، وقد دخل نيسابور، وهو راكب بغلة شهباء، فغدا في طلبه علماء البلد: أحمد بن حرب، وياسين بن النضر، ويحيى بن يحيى، وعدة من أهل العلم، فتعلقوا بلجامه في المربعة، فقالوا: بحق آبائك الطاهرين حدثنا بحديث سمعته من أبيك، قال: حدّثني أبي العبد الصالح موسى ابن جعفر، قال: حدّثني أبي الصادق جعفر بن محمد، قال: حدّثني أبي باقر علم الأنبياء محمد بن علي، قال: حدّثني أبي سيد العابدين علي بن الحسين، قال: حدّثني أبي سيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي، قال: سمعت أبي سيد العرب علي بن أبي طالب، قال: سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول: «الإيمان معرفة بالقلب، واقرار باللسان وعمل بالأركان»، قال ـ الراوي ـ وقال أحمد بن حنبل: لو قرأت هذا الاسناد على مجنون لبرئ من جنونه»[1].

وبنفس المضمون روى الشيخ الطوسي في أماليه عن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر، قال: كنت في مجلس أخي طاهر بن عبد اللّه بن طاهر بخراسان، وفي مجلسه يومئذٍ إسحاق بن راهويه.. وأبو الصلت عبد السلام بن صالح الهرويّ وجماعةٌ من الفقهاء وأصحاب الحديث، فتذاكروا الإيمان فابتدء إسحاق بن راهويه فتحدث فيه

---

(1) الاربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة: ٣ / ٩٧، وللتوسع في الحديث وأطرافه أُنظر الصدوق،عيون أخبار الرضا: ١ / ٤٤١ ـ ٤٤٥، طبعة المؤتمر العالمي للإمام الرضا، ١٤١٣ هـ.

بعدّة أحاديث، وخاضَ الفقهاء وأصحاب الحديث في ذلك، وأبو الصلت ساكتٌ، فقيل له: يا أبا الصلت ألا تحدثنا؟ قال: حدثني الرضا... ـ فذكر الحديث السابق ـ قال: فخرس أهل المجلس كلُّهم، ونهضَ أبو الصَّلت، فنهض معه إسحاق بن راهويه والفقهاء، فأقبل إسحاق بن راهويه على أبي الصَّلت وقال له ونحن نسمع: يا أبا الصَّلت أي اسنادٍ هذا؟ فقال: يا ابن راهويه هذا سُعُوط المجانين، هذا عطر الرِّجال ذوي الألباب»[1].

وقد كان الإمام الرضاعليه السلام يحثّ أصحابه ومريديه على تعلم معارف أهل البيتعليهم السلام، واذاعتها ونشرها بين الناس، كيما يتعرف الناس على معالم مدرسة الوحي عبر قنواتها الأصلية[2]. فقد روى الشيخ الصدوق في كتابه عيون أخبار الرضا: «أن عبيد بن هلال قال: سمعت أبا الحسن الرضاعليه السلام يقول: إني أُحب أن يكون المؤمن محدثا، قال: قلت: وأي شيءٍ المحدث؟ قال: المفهم»[3]، ومن الواضح أن المراد من المفهم هو الذي يتعلم ويدرك علومهمعليهم السلام ويعلمها الناس.

وفي رواية أُخرى نجد الإمامعليه السلام يستنهض أصحابه لاحياء أمر الإسلام من خلال احياء أمر أهل البيتعليهم السلام ففي المصدر نفسه يروي الصدوق عن عبد السلام بن صالح الهروي قال:

«سمعت أبا الحسن علي بن موسى الرضاعليه السلام يقول: رحم اللّه عبدا أحيا أمرنا فقلت له: وكيف يحيي أمركم؟ قال: يتعلم علومنا ويعلمها الناس، فإنّ الناس، لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا، قال: قلت: يا ابن رسول اللّه، فقد روي لنا عن أبي عبد

(١) الطوسي ـ محمد بن الحسن، الأمالي: ٦٦٦ ـ ٦٦٧، تحقيق: علي أكبر الغفاري وزميله، طبعة الإسلامية ـ طهران، الطبعة الأُولى، ١٣٨٠ ش.

(٢) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٤٨.

(٣) الصدوق، عيون أخبار الرضا: ١ / ٣٠٧ والحاشية.

اللّهعليه السلام، أنه قال: من تعلم علما ليماري به السفهاء أو يباهي به العلماء أو ليقبل بوجوه الناس إليه فهو في النار». فقالعليه السلام: صدق جديعليه السلام، افتدري من السفهاء؟ فقلت: لا، يابن رسول اللّه، قال: هم قصاص مخالفينا، أَوَ تدري من العلماء؟ قلت: لا، يابن رسول اللّهصلى الله عليه وآله، فقال: هم علماء آل محمدعليهم السلام الذي فرض اللّه طاعتهم وأوجب مودتهم، ثمّ قال: أَوَ تدري ما معنى قوله: أو ليقبل بوجوه الناس إليه؟ فقلت: لا، فقالعليه السلام: «يعني واللّه بذلك ادعاء الإمامة بغير حقها، ومن فعل ذلك فهو في النار»[1].

ويمكننا أن نستنتج من النصين السابقين ما يأتي:

أولاً: إنّ الراوي استعمل في كلا النصين عبارة «سمعتُ» وهي ارفع الطرق الواقعة في التحمل عند جمهور المحدثين... يضاف إلى ذلك طريقة الأسئلة والأجوبة.. وقد استعملت في النص الثاني بوضوح.

ثانيا: إنّ الإمام أوضح في النصّ الثاني لتلميذه أن الذي يحيي أمر الإمام هو من يتعلم علوم آل البيت ويعلمها للناس، ومن هذا يظهر أن تعلم تلك العلوم وتعليمها.. من الأُمور التي يثاب عليها المؤمنون.

ثالثا: لقد وصف الإمامعليه السلام قصاص المخالفين للشيعة بأنهم السفهاء، كما فسر عبارة «العلماء» الواردة بحديث جدّه الصادق والذي ذكره به تلميذه، بأ نّها تعني «علماء آل محمد» أي علماء شيعتهم[2].

تلامذة الإمام الرضاعليه السلام والراوون عنه:

ذكر الشيخ الطوسي في رجاله الرواة عن الإمام الرضاعليه السلام ضمن قائمة أبجدية

---

(١) الصدوق، عيون أخبار الرضا: ١ / ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(٢) الفياض ـ عبد اللّه، تاريخ التربية عند الإمامية: ١٤٦ ـ ١٤٧.

تضمنت (٣١٧) اسما[1]. ووثق الكثير منهم، وذكر لبعضهم بعض الكتب والمؤلفات، ولم يكن الشيخ الطوسي في موارد الاستقصاء التام لكلّ الرواة عن الإمامعليه السلام، إذ يمكن الاستدراك عليه من خلال التتبع في كتب التراجم والرجال.

ومهما يكن من أمر فالملاحظ اهتمام الإمام بتربية الطلّاب وتلامذة العلم والمعرفة، حيث وردت اشارات يستفاد منها أن الإمام الرضاعليه السلام كان يطلب من بعض تلامذته التصدي لمهمة التعليم في مواطنهم، وكان يشير على بعض تلامذته بتلقي العلم عن بعض النابهين من تلامذته، ففي رواية الكشي المروية عن عبد العزيز بن المهتدي ـ الذي كان من خاصة أصحاب الإمامعليه السلام ـ قال: «قلت: إني لا ألقاك في كلِّ وقت، فعمن آخذ معالم ديني قال: خُذ من يونس بن عبد الرحمن»[2].

وفي رواية ثانية عن علي بن المسيب الهمداني قال: «قلت للرضاعليه السلام شقتي بعيدة، ولستُ أصل إليك في كلِّ وقت، فممَّن آخذ معالم ديني؟ قال: من زكريا بن آدم القمي المأمون على الدين والدنيا، قال ابن المسيب: فلما انصرفت، قدمت على زكريا بن آدم فسألته عما احتجت إليه»[3].

«إنّ توجيه الإمام الرضاعليه السلام أصحابه لتعلم معالم دينهم من النابهين من تلامذته من أمثال يونس بن عبد الرحمن، وزكريا بن آدم، يدلل على اهتمام الإمامعليه السلام بتنمية

---

(١) الطوسي ـ محمد بن الحسن، الرجال: ٣٥٢ ـ ٣٧٠، تحقيق: جواد القيومي، طبعة جامعة المدرسين ـ قم، الطبعة الثانية، ١٤٢٠ هـ

(٢) الكشي، رجال الكشي: ٤٨٣.

(٣) المجلسي، البحار: ٤٩ / ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

النبتة الفتية للحركة العلمية في الأمصار الشيعية، والتي غُرست بذرتها من قِبَل آبائه الطاهرينعليهم السلام، وتلامذتهم المخلصين»[1].

فقد وردت اشارتان في كلمات الإمام جعفر الصادقعليه السلام شبيهتان باشارات الإمام الرضاعليه السلام حيث قال في احداهما لسليم بن أبي حبة لما ودعه: «ائت ابان بن تغلب فإنه سمع مني حديثا كثيرا، فما روى لك عني فاروه عني»[2].

وقال في الثانية، اجابة لعبد اللّه بن يعفور حين قال له: «إنه ليس كل ساعة ألقاك ويمكن القدوم، ويجيء الرجل من أصحابنا فيسألني وليس عندي كل ما يسألني عنه، قال الصادق: «فما يمنعك من محمد بن مسلم الثقفي؛ فإنه قد سمع من أبي وكان عنده وجيها»[3].

وهذه الاشارات التي أَوكل فيها الأئمة تعليم الشيعة للنابهين من تلامذتهم، وإن كانت قليلة جدا إلى عصر الإمام الرضاعليه السلام، وتكاد تنحصر بما أوردناه هنا من روايات، ومعها لا يمكن أن نستنتج منها قاعدة عامة في مجال التعليم[4]، إلّا أنّ طريقة الإيكال والاحالة إلى الرواة والتلامذة النابهين، قد تطورت وتوسعت فيما بعد إلى ما يعرف «بالوكالة» في عصر الإمامين العسكريين وعصر الغيبة، كما سوف يأتينا لاحقا.

---

(١) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٤٩.

(٢) الحلي، ابن داود، الرجال: ١١.

(٣) الكشي، الرجال: ١٤٥.

(٤) الفياض ـ عبد اللّه: ١٤٨.

* **التراث العلمي للإمامين الكاظمين عليهما السلام:**

لقد اتسم عصر الإمام الرضا عليه السلام بالازدهار العلمي، وانطلاق العلوم العقلية والفلسفية، كما وشهد هذا العصر تأسيس المراكز العلمية الهامة لدى المسلمين، والتي كان من أبرزها بيت الحكمة ببغداد، الذي باشر فيه جملة من المترجمين نقل العلوم اليونانية وغيرها من علوم الأوائل إلى العربية، وقد رافق هذه الحركة ولادة وانبعاث مجموعة تيارات فكرية كانت تموج بها الحياة العقلية وقتئذ، وولدت في هذا الفضاء الثقافي أسئلة متنوعة، حار أهل العلم في تقديم اجابات شافية عنها، فتكفل علي بن موسى الرضا عليه السلام ببيان إجابات دقيقة عن تلك الأسئلة الحائرة..»[1].

ذكر محمد بن عيسى اليقطيني في تقدير عدد الأسئلة، فقال: «لما اختلف الناس في أمر أبي الحسن الرضا عليه السلام، جمعت من مسائله، مما سئل عنه وأجاب عنه، خمس عشرة ألف مسألة»[2]. «وهو عدد كبير، ولا سيما إذا لاحظنا طبيعة العصر آنذاك وبدائية وسائل الاتصال فيه، بيد أن هذا العدد من المسائل يكشف عن مدى نمو الحياة العقلية في ذلك العصر، والموقع الذي كان يحتله الإمام في توجيهها»[3].

ونختم ما ذكرناه من شذرات حول جهود الإمامين الكاظمين عليهما السلام وخاصة جهود الإمام الرضا عليه السلام في مجال التربية والتعليم ونشر المعارف الإلهية، بذكر بعض التراث

---

(١) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٤٠٩.

(٢) الطوسي ـ محمد بن الحسن، كتاب الغيبة: ٧٣، تحقيق: عباد الطهراني وزميله، طبعة مؤسسة المعارف ـ قم، ١٤١١ هـ.

(٣) مدرسة أهل البيت: ٤٩ ـ ٥٠.

العلمي الذي وصلنا من عصرهما عليهما السلام والذي انتسب إليهما مباشرة أو الذي دُوِّنَ من قبل أصحابهما، ومن أبرزها:

١ ـ مسند الإمام موسى بن جعفر عليه السلام:

ذكره الشيخ الطوسي في الفهرست، في ترجمة راوي المسند وهو موسى بن إبراهيم المروزيّ، وذكره أيضا النجاشي في الرجال بعنوان: «(له كتاب) ذكر انه سمعه وأبو الحسن عليه السلام محبوس عند السِنْدِيّ بن شاهك وهو (يعني المروزي) معلم ولد السِنْدِيّ بن شاهك»[1].

ونشر هذا المسند السيّد المحقّق محمد حسين الجلالي سنة (١٣٨٩ هـ) في طبعته الأُولى عن مخطوطة دار الكتب الظاهرية بدمشق.. بعنوان: (مسند الإمام موسى بن جعفر، تأليف أبي عمران موسى بن إبراهيم المروزي، تقديم وتعليق محمدحسين الجلالي)، وعني عناية موفقة في دراسة أسانيد هذا المسند عن طريق محدثي الشيعة وطريق محدثي أهل السنة.

ويشتمل هذا المسند على (٥٩) حديثا رواها الإمام موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين الشهيد عن أبيه علي أمير المؤمنين عن أخيه محمد رسول اللّه صلى الله عليه وآله[2].

---

(١) الطوسي، الفهرست: ٤٥٥ بتحقيق: السيّد عبد العزيز الطباطباني، طبعة مكتبة المحقق الطباطباني، الطبعة الأُولى، ١٤٢٠هـ ورجال النجاشي: ٤٠٧ ـ ٤٠٨، تحقق: السيّد موسى الشبيري الزنجاني، طبعة جامعة المدرسين ـ قم، بلا ـ ت.

(٢) الفضلي ـ عبد الهادي، تاريخ التشريع الإسلامي: ١٧١ ـ ١٧٢.

٢ ـ الجعفريات:

ويعرف بـ (الأشعثيات) ويشتمل على ألف حديث، مبوبة بتويب كتب الفقه، رواه محمد بن محمد بن الأشعث الكوفي نزيل مصر، عن موسى بن إسماعيل، عن أبيه إسماعيل بن موسى، عن أبيه موسى بن جعفر الكاظم، عن أبيه جعفر بن محمد الصادق، عن آبائه. ولأنه برواية ابن الأشعث سمي بـ (الأشعثيات)، وسمي (بالجعفريات) لاتصال سند روايته بالإمام جعفر بن محمد الصادقعليه السلام، وهو في أصله مجموعة كتب جمعها فيه السيّد الأجل إسماعيل بن الإمام الكاظم المتوفى (٢١٠ هـ) وكلها يرويها عن أبيه الإمام موسى الكاظمعليه السلام، عن آبائه، وقد طبع كتاب الجعفريات مع كتاب قرب الإسناد للحميري[١].

٣ ـ مسائل علي بن جعفر:

التي رواها السيّد الأجل علي بن الإمام جعفر الصادق المعروف في كتب الحديث والرجال والفقه بـ (علي بن جعفر)، عن أخيه الإمام موسى بن جعفر الكاظمعليه السلام، وكان من خواص أصحابه، وثقات رواة حديثه، ومن فقهاء الطائفة ومحدثيها الاجلاء[٢]. ذكره الشيخ الطوسي في الفهرست قائلاً: «جليل القدر، ثقة، وله: كتاب المناسك، ومسائل لأخيه موسى الكاظم بن جعفرعليه السلام سأله عنها»[٣].

---

(١) الفضلي ـ عبد الهادي، تاريخ التشريع الإسلامي: ١٧٢ ـ ١٧٤.

(٢) المرجع نفسه: ١٧٤.

(٣) الطوسي، الفهرست: ٢٦٤ بتحقيق السيّد عبد العزيز الطباطبائي، ونسخة أُخرى للفهرست: ٨٧ بتحقيق السيّد محمد صادق بحر العلوم، طبعة أُفست المكتبة المرتضوية.

٤ ـ مسند الإمام الرضا:

وهو المعروف بـ (صحيفة الرضا) والمعبر عنه بـ (الرضويات) و (صحيفة أهل البيت)، ويشتمل على (٢٤٠) حديثا، رواها عنه عبد اللّه بن أحمد بن عامر الطائي[١].

٥ ـ فقه الرضا:

قال الميرزا النوري في خاتمة المستدرك: «وقف عليه الأصحاب في عصر المجلسيّين، واختلفوا في صحّته، واعتباره، وحجيته غاية الاختلاف، وصار معركة لآراء الناظرين وإنكار المتبحّرين النقّادين:

ـ فبين من صَحَّحَهُ وجعله حجّة.

ـ وبين من عدّه من (الأخبار) الضعاف المفتقرة إلى جابر ذي قوة.

وثالث؛ أخرجه من صنوف الأخبار، وأدرجه في مؤلفات أصحابنا الأخيار. ولهم في تحقيق الحق كلمات في رسائل منفردة وغير منفردة»[٢].

وذهب بعض إلى القول بأن الكتاب في واقعه هو رسالة علي بن موسى بن بابويه القمي إلى ولده محمد المعروف بالصدوق، والموسومة بـ (الشرائع) أو (رسالة علي بن بابويه)[٣].

٦ ـ حديث سلسلة الذهب:

يضاف إلى ما سبق هذا الحديث الشريف المروي عن الإمام علي بن موسى الرضاعليه السلام، عن أبيه عن أجداده عن رسول اللّهصلى الله عليه وآله؛ نذكره هنا تبركا وتشرفا به:

---

(١) أُنظر: الذريعة إلى تصانيف الشيعة: تحت عنوان صحيفة الرضا: ١٥ / ١٤، وخاتمة المستدرك للمحدث النوري: ١ / ٢١٧، طبعة مؤسسة آل البيت ـ قم.

(٢) النوري، خاتمة مستدرك وسائل الشيعة: ١ / ٢٣٠.

(٣) الفضلي، تاريخ التشريع: ١٧٥.

يروي السيّد الأمين في الأعيان عن كتاب الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي قال: «حدث المولى السعيد إمام الدنيا عماد الدين محمد بن أبي سعيد الوزان، في محرم سنة ست وتسعين وخمسمائة، أورد صاحب كتاب تاريخ نيشابور في كتابه أن علي بن موسى الرضاعليه السلام لما دخل إلى نيشابور في السفرة التي خص فيها بفضيلة الشهادة؛ كان في قبة مستورة بالسقلاط[1]، على بغلة شهباء، وقد شق نيسابور، فعرض له الامامان الحافظان.. أبو زرعة الرازي، ومحمد بن أسلم الطوسي، ومعهما خلائق لا يحصون من طلبة العلم وأهل الأحاديث، وأهل الرواية والدراية، فقالا: أيها السيّد الجليل ابن السادة الأئمة، بحق آبائك الأطهرين، وأسلافك الأكرمين، إلّا ما رأيتنا وجهك الميمون المبارك، ورويت لنا حديثا عن آبائك عن جدّك محمدصلى الله عليه وآله نذكرك به.

فاستوقف البغلة، وأمر غلمانه بكشف المظلة عن القبة، وأقرّ عيون تلك الخلائق برؤية طلعته المباركة.. والناس كلهم قيام على طبقاتهم ينظرون إليه، وهم ما بين صارخ وباك ومتمرغ في التراب، ومقبل لحافر بغلته، وعلا الضجيج فصاح الأئمة والعلماء والفقهاء: معاشر الناس اسمعوا وعوا وانصتوا سماع ما ينفعكم ولا تؤذونا بكثرة صراخكم وبكائكم. وكان المستملي أبو زرعة، ومحمد بن أسلم. وكان من جملة الحاضرين محمد بن رافع، وأحمد بن الحارث، ويحيى بن إسحاق بن راهويه، وهم أيضا من أجلة علماء أهل السنة ورواتهم.

فقال علي بن موسى الرضاعليه السلام: حدّثني أبي موسى الكاظم، عن أبيه جعفر الصادق، عن أبيه محمد الباقر، عن أبيه علي زين العابدين، عن أبيه الحسين شهيد كربلاء، عن أبيه علي بن أبي طالب: أنه قال: حدّثني حبيبي وقرة عيني رسول اللّهصلى الله عليه وآله، قال: حدّثني جبرائيل، قال: سمعت ربَّ العزّة سبحانه وتعالى يقول: «كلمة (لا إله إلّا اللّه) حصني، فمن قالها دخل حصني، ومن دخل حصني أمِنَ من عذابي»، ثمّ ارخى

---

(١) السقلاط، ويقال: السجلاط: الياسمين والرياحين تلقى على الهودج.

الستر على القبة وسار، فعدوا أهل المحابر والدوي الذين كانوا يكتبون فأنافوا على عشرين ألفا، «وفي رواية» عد من المحابر أربعة وعشرين ألفا سوى الدوي»[1].

والمحبرة: هي الدواة الكبيرة، وصاحبها لا يكون إلّا عالما كبيرا.

والدوي: جمع دواة، وصاحبها أقل درجة من صاحب المحبرة[2].

وكان الإمام أحمد بن حنبل إذا روى عن الإمام موسى بن جعفرعليهما السلام، يذكر هذا السند الشريف، ثمّ يقول: «وهذا إسناد لو قرئ على المجنون لأفاق»[3].

هذه أهم الآثار العلمية للإمام الرضاعليه السلام، بالاضافة إلى مؤلفات أُخرى ذكرها السيّد الأمين في الأعيان وعقب عليها بقوله: «وأُثرت عنه مؤلفات كثيرة في علوم الدين وفي الطب، رواها عنه أكابر العلماء بأسانيدهم المتصلة.. منها: الرسالة الذهبية، والصحيفة الرضوية، وكتاب الاهليجية، ونسب إليه الفقه الرضوي، وروي عنه كثير من المواعظ والحكم والأدعية»[4].

ويذكر السيّد الأمين أيضا: «له ـ أي للإمام الرضاعليه السلام ـ مؤلفات كثيرة ذكرها العلماء إجمالاً وتفصيلاً، ففي خلاصة تهذيب الكمال عن سنن ابن ماجة عنه: عبد السلام بن صالح وجماعة عدّة نسخ، وفي تهذيب التهذيب: عن علي بن مهدي له عنه نسخة، وداود بن سليمان له عنه نسخة وعامر بن سليمان الطائي له عنه نسخة كبيرة،

---

(١) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ١ / ١٤٤ و ٢ / ٥٥٣، وأُنظر الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ٢ / ١٠٠١ وما بعدها، بتحقيق: سامي الغريري، طبعة دار الحديث ـ قم، الطبعة الثانية، ١٣٨٤ هـ ش، وطبعة أُخرى: ٣٨٧، المجمع العالمي لأهل البيت، الطبعة الأُولى، ١٤٢٧ هـ. وذكر الصدوق في عيون أخبار الرضاعليه السلام، مجموعة روايات لهذه الحادثة: ٢ / ١٣٢ وما بعدها.

(٢) الفضلي، تاريخ التشريع الإسلامي: ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٣) الأمين، الأعيان: ١ / ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٤) المصدر نفسه.

أما مؤلفاته على التفصيل فهي..»[1] ثمّ أخذ بسرد المؤلفات التي ذكرناها سابقا، بالاضافة إلى رسالة العلل، التي ذكر الفضل بن شاذان إنه سمعها من الرضاعليه السلام.. فإنها في الحقيقة من تأليف الرضا فهو كالمؤلف الذي يملي على الكاتب، ومنها ما كتبه إلى محمد بن سنان في جواب مسائله عن علل الأحكام الشرعية، ومنها ما كتبه إلى المأمون في محض الإسلام وشرائع الدين، وأيضا ما كتبه إلى المأمون في جوامع الشريعة[2]، والتي رواها ابن شعبة الحراني في تحف العقول.. بالاضافة إلى مجالس علمية كثيرة عقدها المأمون العباسي، وحضرها جمهور العلماء والفضلاء وأجاب فيها الإمام عليه السلام على مختلف الأسئلة التي وجهت إليه، ومن هذه المجالس مجلسه عند المأمون والذي أجاب فيه عن الآيات الموهمة عدم عصمة الأنبياء، والتي يرويها الشيخ الصدوق في عيون أخبار الرضا[3] حيث حوى هذا الكتاب على تفصيلات عن جهود الإمام الرضاعليه السلام في حقلي الوعظ والتعليم، ودون المؤلف جانبا مهما من جهود الإمام في حقل العلم والمعرفة.

أما مؤلفات العلماء والنابهين من أصحاب الإمامينعليهما السلام فهي كثيرة حوتها كتب الفهارس والمعاجم والتراجم ومن أبرزها:

١ ـ مؤلفات يونس بن عبد الرحمن، والذي له أكثر من عشرين مؤلفا، منها كتاب (يوم وليلة)، الذي يرويه الشيخ المفيد في كتابه (مصابيح النور) باسناده عن داود بن القاسم الجعفري، قال: «عرضتُ على أبي محمد صاحب العسكرعليه السلام، كتاب (يوم وليلة) ليونس؛ فقال لي: تصنيف من هذا؟ فقلت: تصنيف يونس مولى آل يقطين.

---

(١) الأمين، الأعيان: ٢ / ٥٦٦.

(٢) الصدوق، عيون أخبار الرضا: ١ / ١٥٥ و ٢ / ٧٤، ٨٦، ١٢٠، تقديم: محمدمهدي الخرسان، طبعة الحيدرية ـ النجف، ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ١٥٥ وما بعدها.

فقال عليه السلام: اعطاه الله بكل حرف نورا يوم القيامة»[1].

٢ ـ مؤلفات صفوان بن يحيى:

قال النجاشي: «صنّف ثلاثين كتابا، كما ذكر أصحابنا، يعرف منها الآن...»[2].

٣ ـ مؤلفات الحسن بن محبوب:

قال الشيخ الطوسي في الفهرست: له كتب كثيرة منها... وزاد ابن النديم بعض العناوين الأُخرى[3].

٤ ـ عثمان بن عيسى الرؤاسي:

وله مجموعة من المؤلفات ذكرها النجاشي في كتابه[4].

٥ ـ علي بن يقطين:

وله كتاب المسائل[5].

٦ ـ محمد بن أبي عمير:

قال النجاشي: صنّف محمد بن أبي عمير أربعة وتسعين كتابا، منها...[6].

٧ ـ محمد بن عيسى اليقطيني:

في مناقب ابن شهر آشوب عن كتاب الجلاء والشفاء عن محمد بن عيسى اليقطيني قال: جمعت من مسائل أبي الحسن الرضا مما سئل عنه وأجاب فيه ثماني

---

(١) الفضلي، تاريخ التشريع: ١٧٧ ـ ١٧٨، وأُنظر القهباني مجمع الرجال: ٦ / ٢٩٩.

(٢) النجاشي، الرجال: ١٩٧ وما بعدها.

(٣) أُنظر: فهرست الشيخ الطوسي: ١٢٢ بتحقيق السيّد عبد العزيز الطباطبائي، وابن النديم: ٢٧٦ بتحقيق رضا تجدّد.

(٤) النجاشي، الرجال: ٣٠٠.

(٥) المصدر نفسه: ٢٧٣.

(٦) المصدر نفسه: ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

عشرة ألف مسألة أو خمس عشرة ألف مسألة»[1].

خلاصة في الملامح العامة لمدرسة أهل البيت في عهد الإمامين الكاظمين:

من خلال استعراضنا الموجز للنشاط العلمي لمدرسة أهل البيت في المدينة، والذي امتد بعضها إلى نيشابور وخراسان، وفي عصر الامامين موسى بن جعفر الكاظم، وعلي بن موسى الرضا عليهما السلام، نخرج بالنتائج التالية:

أولاً: عودة الضغط في هذا العهد على أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، وبخاصة في أيام الإمام موسى بن جعفر عليه السلام الذي عاصر الرشيد العباسي.

ثانيا: عودة الانفراج النسبي إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم في أيام الإمام الرضا عليه السلام الذي عاصر المأمون العباسي، وبعض اضطرابات الدولة العباسية.

ثالثا: ازدياد انتشار التشيع وازدياد عدد الشيعة، في الأمصار الإسلامية خارج المدينة إلى الكوفة، والبصرة، وخراسان ونيشابور، وبغداد.

رابعا: ازدياد نشاط الشيعة العلمي، وشموله لجميع الحقول المعرفية المعروفة آنذاك، لتشمل العلوم الطبية والطبيعية.

خامسا: استمرارية مدرسة الفقهاء الرواة وازدياد عددهم ووفرة نشاطهم العلمي في جوانب الحديث والفقه والكلام.

سادسا: وفرة التأليف والكتابة في شتى شؤون المعرفة الدينية، كالفقه والحديث[2].

---

(١) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٤ / ٣٥٠، طبعة مصطفوي، والأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ١ / ١٤٤.

(٢) الفضلي ـ عبد الهادي، تاريخ التشريع الإسلامي: ١٨١ بتصرف. وللتوسع أُنظر السيّد حسن الصدر، تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام.

الدور الثالث

عهد الأئمة أبناء الرضا عليه السلام (الجواد والهادي والعسكري عليهم السلام)

ويبدأ هذا الدور بوفاة الإمام الرضا عليه السلام سنة (٢٠٣ هـ) ويمتد إلى وفاة الإمام الحسن العسكري عليه السلام سنة (٢٦٠ هـ).

«وسمينا هذا الدور بدور (عهد الأئمة أبناء الرضا) لما ورد تاريخيا من أن كل واحد من هؤلاء الأئمة الثلاثة عليهم السلام كان يعرف في زمانه بـ (ابن الرضا)»[1].

يذكر ابن شهر آشوب المازندراني في مناقبه في ترجمة الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه «كان هو وأبوه وجده يعرف كل منهم في زمانه بابن الرضا»[2].

لقد كانت ولادة أُولئك الأئمة الأطهار عليهم السلام في المدينة المنورة، إلّا أنَّ بعض الظروف القاهرة حملتهم إلى بغداد وسامراء، فتوزع نشاطهم العلمي ما بين مسقط رأسهم المدينة المنورة، وما بين بغداد أو سامراء، ولهذا سوف نوجز الحديث عن كل امام من أُولئك الأئمة (سلام اللّه عليهم) وعن أبرز نشاطاتهم العلمية ما بين المدينة، وبين بغداد أو سامراء.

* حياة الإمام محمد بن علي الجواد عليهما السلام ومرجعيته العلمية:

يقول الشيخ المفيد: «وكان الإمام بعد الرضا علي بن موسى عليهما السلام ابنَه محمّد بن علي، المرتضى بالنصّ عليه والاشارة من أبيه إليه، وتكامل الفضل فيه، وكان مولده عليه السلام في شهر رمضان سنة خمس وتسعين ومائة، وقُبض ببغداد في ذي القعدة سنة عشرين

---

(١) الفضلي، تاريخ التشريع: ١٨٣.

(٢) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٤ / ٤٢١، وعنه في البحار: ٥٠ / ٢٣٦.

ومائتين وله يومئذٍ خمس وعشرون سنة، وكانت مُدَّة خلافته لأبيه وإمامتهِ من بعده سبع عشرة سنة» وهنالك روايات أُخرى في سنة ولادته تراجع في محلها[1].

هذا وقد ورد النص على امامته من أبيه عليه السلام عن معمر بن خلّاد قال: سمعت الرضا عليه السلام وذكر شيئا فقال: «ما حاجتكم إلى ذلك، هذا أبو جعفر قد أجلستهُ مجلسي وصيرته مكاني» وقال: «إنا أهلُ بيتٍ يتوارثُ أصاغِرُنا عن أكابِرنا القُذَّةُ بالقُذَّة»[2]، وفي رواية الصنعاني قال: كنتُ عند أبي الحسن عليه السلام فجيء بابنه أبي جعفر عليه السلام وهو صغير، فقال: «هذا المولود الذي لم يُولَد مولودٌ أعظمُ على شيعتنا بركةً منه»[3].

لقد عاش الإمام الجواد محمد بن علي عليهما السلام حياة قصيرة في عمر الزمن، إذ لم تتجاوز سني عمره عن الخمس والعشرين عاما حين وفاته؛ قضى معظمها في المدينة المنورة، ولم يغادرها في أوائل أيام حياته إذ إ نّه عليه السلام «لم يحضر مع أبيه إلى خراسان حينما استدعاهُ المأمون؛ فتوفي الرضا وابنه الجواد بالمدينة، قال المسعودي في إثبات الوصية: لما توفي الرضا وجه المأمون إلى ولده الجواد فحمله إلى بغداد وأنزله بالقرب من داره، وأجمع أن يزوجه ابنته أُم الفضل»[4].

وبعد أن تزوج الإمام الجواد من أُم الفضل ابنة المأمون، «استأذن المأمون في الحج، وخرج من بغداد متوجها إلى المدينة ومعه زوجته، وبعد توجه الجواد إلى المدينة توفي المأمون.. ثمَّ إن المعتصم طلب الجواد وأحضره إلى بغداد.. فورد بغداد

---

(١) المفيد، الارشاد: ٢ / ٢٧٣، تحقيق: مؤسسة آل البيت، طبعة دار المفيد ـ بيروت، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م. وأُنظر البحار: ٢٠ / ٢١٧ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٢٧٦، وأُنظر رواية الكافي: ١ / ٢٥٦.

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ٢٧٩. .

(٤) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ٢ / ٥٧٦.

لليلتين بقيتا من المحرم سنة (٢٢٠ هـ) وتوفي بها في ذي القعدة من هذه السنة..»[1].

إلّا أنّ هنالك رواية انفرد بها صاحب كتاب تاريخ بيهق، علي بن زيد، ينص فيها على مجيء الإمام الجواد إلى خراسان لزيارة أبيهعليه‌السلام، قال: «وكان محمد بن علي بن موسىعليه‌السلام الملقّب بالتَّقي، قد عبر البحر عن طريق طبس مسينا [هكذا] حيث لم يكن طريق قومس مسلوكا آنذاك، إذ أصبح هذا الطريق مسلوكا منذ عهد قريب، فوصل بيهق ونزل في قريته ششتمد ومن هناك ذهب لزيارة والده علي بن موسى الرضا، وذلك في سنة اثنتين وثلاثين ومئتين»[2].

وهذه الرواية بالاضافة إلى تفرد البيهقي بها ولم يذكر لنا مصدرها، قد ذكرت تاريخ هذه السفرة سنة اثنين وثلاثين ومئتين في الوقت الذي تنص الروايات التاريخية على وفاة الإمام الجواد سنة عشرين ومائتين هجرية! ولعلّه خطأ في الترجمة أو تصحيف.

وقد نقل السيّد الأمين رواية البيهقي وجاء فيها: «... وذهب لزيارة أبيه علي بن موسى الرضا سنة (٢٠٢ هـ)...» ثمّ قال: وهذا يقتضي أنه حضر لزيارة أبيه في حياته سنة موته أو قبلها بسنة أو لزيارة قبره بعد موته للخلاف في سنة وفاته أنها سنة (٢٠٢ هـ) أو (٢٠٣ هـ).. ولم نر من ذكر ذلك غيره، وستعرف أن المأمون استدعاه إلى بغداد بعد وفاة أبيه وزوجّه ابنته. فإن صحّ ما ذكره البيهقي فيكون قد عاد من خراسان إلى المدينة ثمّ منها إلى بغداد باستدعاء المأمون واللّه العالم»[3].

---

(١) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ٢ / ٥٧٨ ـ ٥٧٩.

(٢) البيهقي ـ علي بن زيد، تاريخ بيهق، وذكر العلماء والأئمة والأفاضل الذين نبغوا فيها، أو انتقلوا إليها: ١٤٧، ترجمه عن الفارسية وحققه: يوسف هادي، طبعة ابن النديم لروائع التراث ـ سوريا، الطبعة الأُولى، ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤ م.

(٣) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ٢ / ٥٧٦.

*** مرجعيته الإمام الجواد عليه السلام العلمية:**

لقد قام الإمام الجواد عليه السلام بأعباء مدرسة أهل البيت عليهم السلام في المدينة بعد أن رحل عنها الإمام الرضا إلى خراسان، وقام بمهام الإمامة بعد وفاة الإمام، وقد مرَّ بنا قول الإمام الرضا: «هذا أبو جعفر، قد أجلسته مجلسي، وصيّرته مكاني».

«وقد تصدى أبو جعفر عليه السلام للمهام التي كان يضطلع بها أبوه من قبل في سن مبكرة، وبرهن للعامة والخاصة تقدمه على من سواه، وحمله لمواريث النبوة، فكان إذا دخل مسجد رسول اللّه صلى الله عليه وآله هرع إليه أهل العلم للافادة منه، وتؤكد بعض المواقف أنّ التبجيل والاحترام اللذين يعامله بهما هؤلاء، يعبران عن اعترافهم بفضله وتقدمه على غيره»[1].

ومن مصاديق هذا الاحترام والتبجيل رواية الكافي عن: «محمد بن الحسن ابن عمار، قال: كنتُ عند علي بن جعفر بن محمد جالسا بالمدينة، وكنت أقمت عنده سنين أكتب عنه ما يسمع من أخيه ـ يعني أبا الحسن عليه السلام ـ إذ دخل عليه أبو جعفر محمد بن علي الرضا المسجد ـ مسجد رسول اللّه صلى الله عليه وآله ـ فوثب علي بن جعفر بلا حذاء ولا رداء، فقبّل يده وعظّمه، فقال له أبو جعفر عليه السلام: يا عم، اجلس رحمك اللّه، فقال: يا سيدي كيف أجلس وأنت قائم، فلما رجع علي بن جعفر إلى مجلسه جعل أصحابه يوبخونه ويقولون: أنت عم أبيه، وأنت تفعل به هذا الفعل؟ فقال: اسكتوا، إذا كان اللّه عزّ وجل ـ وقبض على لحيته ـ لم يؤهل هذه الشيبة، وأهّلَ هذا الفتى، ووضعه حيث وضعه، أنكر فضله؟ نعوذ باللّه مما تقولون، بل أنا له عبد»[2].

---

(١) الرفاعي ـ عبد الجبار، مدرسة أهل البيت في المدينة: ٥٠.

(٢) الكليني، الكافي: ١ / ٢٢٢ وعنه في البحار: ٢٠ / ٢٣٧ الطبعة الحديثة.

مع العلم أنّ علي بن جعفر كان من العلماء المعروفين في مدرسة أهل البيت عليهم السلام في ذلك الوقت، حتى أنّ بعض التلامذة كان يبقى سنوات متتلمذا عليه. وهو في هذا المقام العلمي الشامخ نراه يبالغ في تعظيم الإمام الجواد عليه السلام. وهذا يكشف عن الإذعان لمرجعيته العلمية لمدرسة المدينة، والاعتراف بتفوقه على مَن عاصره من أهل العلم»[1].

وفي رواية البحار عن المناقب روى عبد اللّه بن زرين، قال: «كنتُ مجاورا بالمدينة مدينة الرَّسول، وكان أبو جعفر عليه السلام يجيء في كلِّ يوم مع الزّوال إلى المسجد» وفي رواية أُخرى يقول الراوي: دخلت المدينة فوجدت محمد بن عليّ الرضا يطوف عند قبر النبي فناظرته في مسائل فأجابني..»[2] وهذا يعني أن الإمام الجواد عليه السلام كان دائم الحضور في مسجد رسول اللّه صلى الله عليه وآله للتدريس والافتاء والاتصال بشيعته وبالوافدين إلى المدينة من الحجاج والمعتمرين والمسافرين.

ومما يؤيّد ذلك رواية أُخرى ينقلها المجلسي في البحار عن اختصاص الشيخ المفيد بروايته عن: «علي بن إبراهيم عن أبيه، قال: لما مات أبو الحسن الرضا عليه السلام حججنا، فدخلنا على أبي جعفر (الجواد) وقد حضر خلق من الشيعة، من كل بلد، لينظروا إلى أبي جعفر عليه السلام، فدخل عمه عبد اللّه بن موسى، وكان شيخا كبيرا نبيلاً، عليه ثياب خشنة، وبين عينيه سجادة، فجلس. وخرج أبو جعفر من الحجرة، وعليه قميص قصب، ورداء قصب، ونعل جدد بيضاء، فقام عبد اللّه واستقبله، وقبّل بين

(١) مدرسة أهل البيت: ٥١.

(٢) ابن شهر آشوب المازندراني، مناقب آل أبي طالب: ٤ / ٣٩٣ ـ ٣٩٥، طبعة مصطفوي ـ قم، وعنه المجلسي، بحار الأنوار: ٢٠ / ٢٥٢.

عينيه، وقامت الشيعة، وقعد أبو جعفر على كرسي، ونظر الناس بعضهم إلى بعض تحيرا لصغر سنه.

فانتدب رجل من القوم لعمه؛ فقال: أصلحك اللّه، ما تقول في رجل أتى بهيمة؟ فقال: تقطع يمينه، ويضرب الحد.

فغضب أبو جعفرعليه السلام، ثمّ نظر إليه، فقال: يا عم، اتق اللّه، اتق اللّه، إنه لعظيم أن تقف يوم القيامة بين يدي اللّه عزّ وجل، فيقول لك: لِمَ أتيتَ الناس بما لا تعلم؟

فقال له عمّه: يا سيدي، أليس قال هذا أبوك صلوات اللّه عليه؟

فقال أبو جعفرعليه السلام: إنما سئل أبي عن رجل نبش قبر امرأة فنكحها، فقال أبي: تقطع يمينه للنبش، ويضرب حد الزنا، فإنّ حرمة الميتة كحرمة الحية، فقال: صدقت يا سيدي وأنا استغفر اللّه.

فتعجب الناس، فقالوا: يا سيدنا اتأذن لنا أن نسألك؟

فقال: نعم.

فسألوه (مسائلهم) فأجابهم فيها، وله تسع سنين»[١].

وفي رواية الطبري في دلائل الإمامة: «وقرب الحجّ، واجتمع من فقهاء بغداد والأمصار وعلمائهم ثمانون رجلاً، وخرجوا إلى المدينة، واتوا دار أبي عبد اللّه ـ الصادق ـعليه السلام، فدخلوها...»[٢].

ومن المؤكد أن هذا العدد الكبير من العلماء والفقهاء سوف يحملون أجوبة الإمام الفقهية إلى بلدانهم، وسوف يتحدثون باسهاب عن لقائهم به، لأنها من الأحداث

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٥٠ / ٨٥ عن الاختصاص للشيخ المفيد، وقارن ذلك برواية أبي جعفر الطبري في دلائل الإمامة: ٣٨٨ ـ ٣٤٣.

(٢) الطبري ـ أبو جعفر، دلائل الإمامة: ٣٨٨ وما بعدها.

المهمة، وهذا ما حصل إذ نجد أنه «قد تجاوزت شهرة الإمامعليه السلام حدود المدينة، فعرفه أهل العلم في بقية الأمصار، وخاصة في عاصمة الخلافة يومئذ بغداد، ولهذا يقول الشيخ المفيد في الإرشاد «وكان المأمون قد شُغِفَ بأبي جعفرعليه السلام لما رأى من فضله مع صغر سنِّه، وبلوغِه في العلم والحكمة والأدب وكمال العقلِ ما لم يساوه فيه أحد من مشايخ أهل الزمان، فزوَّجه ابنته أُم الفضل، وحملها معه إلى المدينة، وكان متوفِّرا على اكرامه وتعظيمه واجلال قدره»[1].

لقد واجه المأمون العباسي معارضة شديدة من أقطاب العباسيين الذين أقلقهم اعجاب المأمون بابن الرضا ومن قبله بوالده الرضاعليهما السلام فأخذوا يلحون عليه بالعدول عن رأيه من مصاهرته خشية على سلطانهم من أن يذهب إلى أهل البيتعليهم السلام.

ففي رواية يرويها الشيخ المفيد في الإرشاد عن الريان بن شبيب، قال: «لما أراد المأمون أن يُزوِّج ابنته أُمّ الفضل أبا جعفر محمد بن عليعليهما السلام بلغ ذلك العباسيين فغلظ عليهم واستكبروه، وخافوا أن ينتهي الأمر معه إلى ما انتهى مع الرضا فخاضوا في ذلك، واجتمع منهم أهل بيته الأدنون منه، فقالوا له: ننشدك اللّه ـ يا أمير المؤمنين ـ (أن تقيم)[2]، على هذا الأمر الذي عزمت عليه..»[3].

فاضطر المأمون أن يُفصح لهم عن الأسباب التي دعته للإقدام على ذلك، فقال لهم: «وأما أبو جعفر محمد بن علي فقد اخترته لتبريزه على كافّة أهل الفضل في

---

(١) المفيد، الارشاد: ٢ / ٢٨١.

(٢) في هامش النسخة المخطوطة: أي أن لا تقيم، الإرشاد: ٢ / ٢٨١.

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ٢٨١.

العلم والفَضل مع صِغَرِ سنّه، والأُعجوبة فيه بذلك، وأنا أرجو أن يظهر للناس ما قد عرفته منه فيعلموا أن الرأي ما رأيتُ فيه»[1].

إلّا أنّ هؤلاء المعترضين لم يقنعهم جواب المأمون على اعتراضهم، فحاولوا معه بطريقة أُخرى، «فقالوا: إنّ هذا الصبيّ وإن راقك منه هَديهُ، فإنّه صبيٌّ لا معرفة له ولا فِقه، فأمهله يتأدب ويتفقَّه في الدين، ثمّ اصنع ما تراه بعد ذلك.. فقال لهم:... فإن شئتم فامتحنوا أبا جعفر، بما يتبيَّن لكم به ما وصفتُ من حاله»[2].

فتم الاتفاق بينهم وبين المأمون على ذلك، واختاروا يوما للاجتماع، وانتدبوا قاضي القضاة يحيى بن أكثم لامتحان الإمام، وطلبوا منه: «أن يسأله مسألةً لا يعرف الجواب فيها، ووعدوه بأموال نفيسة على ذلك» واجتمعوا في اليوم الذي اتفقوا عليه.. وقام الناس في مراتبهم والمأمون جالس... فأقبل عليه ـ أي الإمام ـ يحيى بن أكثم،... فقال: ما تقولُ ـ جُلعت فداك ـ في مُحرمٍ قتل صيدا؟

فقال له أبو جعفر: «قتله في حِلٍّ أو حرم؟ عالما كان المحرم أم جاهلاً؟ قَتله عمدا أو خطأً؟ حُرّا كان المحرمُ أم عبدا؟ صغيرا كان أم كبيرا؟ مبتدئا بالقتل أم معيدا؟ من ذَواتِ الطير كانَ الصيدُ أم من غيرها؟ من صغار الصيد كان أم من كبارها؟ مصرا على ما فَعَلَ أو نادما؟ في الليل كان قتلهُ للصيد أم نهارا؟ محرما كانَ بالعمرةِ إذ قتله أو بالحجّ كان محرما؟

(١) المفيد، الارشاد: ٢ / ٢٨٢.

(٢) المصدر نفسه.

فتحيَّر يحيى بن أكثم وبانَ في وجهه العجز والانقطاعُ ولجلجَ حتى عَرَفَ جماعة أهل المجلس أمره، فقال المأمون: الحمدُ للّه على هذه النعمة والتوفيق لي في الرأي، ثمّ نظر إلى أهل بيته وقال لهم: أعرفتم الآن ما كنتم تنكرونه؟»[1].

ثمّ تضيف الرواية: «.. فلما تفرَّق الناسُ وبقي من الخاصة من بقي، قال المأمون لأبي جعفر: إن رأيت ـ جعلت فداك ـ أن تذكر الفِقه فيما فصلته من وجوه قتل المحرم الصيد لنعلمه ونستفيده»، فأجابه أبو جعفرعليه السلام على هذه الفروع بالتفصيل، ثمّ سأل الإمام يحيى بن أكثم سؤلاً فلم يحر ابن أكثم جوابا، وقال: «لا واللّه ما أهتدي إلى جواب هذا السؤال، ولا أعرف الوجه فيه، فإن رأيت أن تفيدنا» فأجاب عليه الإمام مثلما فعل في سابقتهما، «فأقبل المأمون على من حَضَرهُ من أهل بيته فقال لهم: هل فيكم أحدٌ يجيب عن هذه المسألة بمثل هذا الجواب؟ أو يعرف القولَ فيما تقدَّم من السؤال؟

قالوا: لا واللّه، إنّ أمير المؤمنين أعلمُ وما رأى.

فقال لهم: ويحكم، إنّ أهل هذا البيت خُصُّوا من الخَلق بما ترونَ من الفَضل، وإنّ صغر السنُّ فيهم لا يمنعُهُم من الكمال، أما علمتُم أنَّ رسول اللّهصلى الله عليه وآله افتتح دعوته بدعاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام وهو ابن عشر سنين، وقبلَ منه الإسلام وحكم له به، ولم يدعُ أحدا في سنّه غيره، وبايع الحسن والحسينعليهما السلام وهما ابنا دون الستِّ سنين ولم يبايع صبيا غيرهما، أفلا تعلمون الآن ما اختصَّ اللّه به هؤلاء القوم، وإنّهم

---

(١) المفيد، الارشاد: ٢ / ٢٨٤.

ذريّةٌ بعضُها من بعضٍ يجري لآخرهِم ما يجري لأولهم؟! قالوا: صدقت يا أمير المؤمنين، ثمّ نهض القوم»[1].

وفي رواية ابن شعبة الحراني في تحف العقول، أن المأمون قد خاطب القوم معرفا بأبي جعفر ومنزلته العلمية حيث قال: «إنّه لأفقه منكم، واعلم باللّه ورسوله وسنّته وأحكامه وأقرأ لكتاب اللّه منكم، وأعلم بمحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، وظاهره وباطنه، وخاصّه وعامّه، وتنزيله وتأويله منكم»[2].

*** الإمام الجوادعليه السلام في بغداد:**

لقد اقتضت الاستراتيجية السياسية لدولة بني العباس مراقبة حركة ونشاطات أئمة أهل البيتعليهم السلام وأتباعهم عن قرب، وذلك من خلال استدعائهم إلى مركز الخلافة في العراق أو خراسان.

وبدأ هذا الأمر مع الإمام جعفر بن محمد الصادقعليه السلام، الذي استدعي إلى العراق، ومكث فيها فترة من الزمن، وتطور الأمر مع الإمام موسى بن جعفرعليه السلام الذي اعتقله هارون الرشيد في المدينة وحمله إلى البصرة ومنها إلى بغداد حتى استشهد فيها على يدي السندي بن شاهك، ولم يكن المأمون العباسي ـ الذي استلم الخلافة بعد حرب دامية مع أخيه الأمين ـ في غفلة عن هذه الاستراتيجية، إلّا أنّ الأساليب التي اتبعها لضمان تحركات الإمام تختلف في تفاصيلها عن أُسلوب والده. والذي يبدو أن المأمون العباسي كان أكثر دهاءً وحنكة من والده! فبدلاً من استخدام أُسلوب السجن والاعتقال.. استخدم أُسلوبا يتصف بالدهاء والمكر، من خلال اظهار المحبة لأهل

---

(١) المفيد، الارشاد: ٢ / ٢٨٧.

(٢) ابن شعبة، تحف العقول: ٤٥١، والاختصاص للمفيد: ٩٩.

البيت عليهم السلام وذلك من خلال كلماته ومواقفه العملية والتي توّجها بولاية العهد للإمام الرضا ومصاهرته وولده الجواد عليهما السلام واظهار فضلهما من خلال المناظرات العلمية.. حتى جاء الوقت المناسب للتخلص من الإمام الرضا عليه السلام فأقدم على ذلك وقضى الإمام الرضا مسموما، قبل أن ينتقل إلى بغداد سنة (٢٠٤ هـ).

إلّا أنّ المأمون كان يعلم يقينا أنّ الإمامة سوف تنتقل إلى ولد الرضا محمد بن علي الجواد عليه السلام وهو في المدينة ولم يفد مع والده إلى خراسان إلّا على رواية ينفرد بها صاحب تاريخ بيهق ـ كما مرّ بنا سابقا ـ فكان عليه أن يتخذ الاجراءات اللازمة لضبط حركة الإمام الجواد عليه السلام في المدينة.

ولهذا استدعى الإمام الجواد عليه السلام إلى بغداد فور وصوله إليها سنة (٢٠٤ هـ)، كما في بعض الروايات[١]، وعلى رواية الطبري أنّ الإمام الجواد وصل بغداد سنة (٢١٥ هـ) وعند وصول الإمام الجواد عليه السلام إلى بغداد، كان المأمون العباسي في مدينة تكريت، فحمل الإمام إلى هناك، فاحتفى به المأمون وزوّجه من ابنته أُمّ الفضل في مدينة تكريت، ثمّ انتقل الإمام مع أُمّ الفضل إلى بغداد ونزل في دار أحمد بن يوسف، المحاذي لنهر دجلة، حتى قرب موسم الحج فاستأذن من المأمون للخروج إلى الحج فخرج إلى مكة وبعد انتهاء موسم الحج رجع إلى المدينة واستقرّ فيها»[٢].

والذي يبدو من خلال سياق الاجواء الاحتفالية الصاخبة التي اتخذها المأمون في تزويجه لابنته من الإمام عليه السلام أنه كان يسعى لتحقيق هدفين أساسيين وهما:

---

(١) الارشاد: ٢ / ٢٨٩، ٢٩٥.

(٢) الطبري: ٧ / ١٩٠، حوادث سنة ٢١٥ هـ تاريخ بغداد: ٣ / ٥٤ ـ ٥٥، ومسند الإمام الجواد: ٥٥.

أولاً: الظهور أمام الناس بالشخص المشفق المحب للإمام عليه السلام، فزوجه ابنته أُم الفضل، لكي يضمن تأييد الإمام له..[1].

ثانيا: تأمين استراتيجية مراقبة تحركات الإمام الجواد في المدينة واتصاله بشيعته، والذي يبدو من خلال بعض النصوص التاريخية إنها كانت ترصد حركات الإمام عليه السلام وترسل لوالدها التقارير الخبرية، وإنّ الإمام عليه السلام كان منتبها جيدا لتحركاتها ولهذا لم يكن منفتحا معها ولهذا شكته لوالدها في بعض هذه الرسائل[2].

ومهما يكن من أمر، فبعد وفاة المأمون العباسي سنة ثماني عشرة ومائتين للهجرة، بويع لمحمد المعتصم بن هارون الرشيد، فما أن استتب له الأمر «جعل يتفقد أحوال الإمام الجواد... فكتب إلى محمد بن عبد الملك الزيات.. يطلب منه أن ينفذ إليه الإمام الجواد عليه السلام مع زوجته أُمّ الفضل بنت المأمون... فتجهز من المدينة إلى بغداد ووردها ليلة الثامن والعشرين من المحرم سنة عشرين ومائتين، وأقام عشرة أشهر، وسمّه المعتصم في آخر ذي القعدة سنة عشرين ومائتين»[3].

ويذكر بعض المؤرخين أن أُمّ الفضل بنت المأمون هي التي سمّته، والسبب في ذلك غيرتها وانحرافها عنه، ولأنها لم ترزق منه ولدا...»[4]، ولهذا أكرمها المعتصم بأن

---

(١) الأديب ـ عادل، الأئمة الاثنا عشر: ٢١٨، طبعة الدار الإسلامية ـ بيروت، ١٩٧٩م.

(٢) الإرشاد: ٢ / ٢٨٨، وابن قتيبة، المعارف: ٣٩١.

(٣) الميلاني ـ محمد هادي، قادتنا كيف نعرفهم: ٧ / ٤٢ ـ ٤٣ عن المناقب لابن شهر آشوب: ٤ / ٣٨٤.

(٤) أُنظر المسعودي، إثبات الوصية: ٢١٩، والطبري الإمامي، دلائل الإمامة: ٢٠٩، وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة: ٢٧٦، والشبلنجي، نور الأبصار: ١٩١، والذهبي، تاريخ الإسلام، مجلد حوادث سنة ٢١١ ـ ٢٢٠ هـ: ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

أدخلها إلى قصره، وأسكنها مع حريمه[1].

وقد يكون السبب في اقدام المعتصم العباسي على سمِّ الإمام أعمق مما ذُكر، إذ يتعلق الأمر بسعة علم الإمام ومكانته العلمية والاجتماعية، إذ «كان الإمام عليه السلام على منهاج أبيه في العلم والتقى والزهد والجود»[2].

ففي رواية العياشي: «عن زُرقان صاحب ابن أبي داود.. قال: رجع ابن أبي داود ذات يوم من عند المعتصم وهو مغتمّ، فقلت له في ذلك، فقال: وددت اليوم أني متُّ منذ عشرين سنة قال، قلت له: ولم ذاك؟ قال: لما كان من هذا الأسود أبي جعفر محمد بن علي بن موسى اليوم بين يدي أمير المؤمنين [المعتصم]، قال: قلتُ له: وكيف كان ذلك؟ قال: إنَّ سارقا أقرَّ على نفسه بالسرقة، وسأل الخليفة تطهيره باقامة الحدّ عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه، وقد أُحضر محمد بن علي فسألنا عن القطع في أي موضع يجب أن يقطع؟ قال: قلت: من الكرسوع قال: وما الحجة في ذلك؟ قال: قلت: لأنّ اليد هي الأصابع والكفّ إلى الكرسوع، لقول اللّه في التيمّم: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم﴾[3] واتفق معي في ذلك القوم.

وقال آخرون: بل يجب القطع من المرفق، قال: وما الدَّليل على ذلك؟ قالوا: لأنّ اللّه لمّا قال: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾[4] فيالغسل، دلَّ ذلك على أنَّ حدّ اليد هو المرفق».

---

(١) الاربلي، كشف الغمة: ٢ / ٣٤٥ وعنه في البحار: ٢٠ / ٢٢٣ الطبعة الحديثة.

(٢) سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص: ٣٥٨.

(٣) المائدة: ٦.

(٤) المائدة: ٦.

قال: فالتفت إلى محمد بن علي عليه السلام فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟ فقال: «قد تكلّم القوم فيه يا أمير المؤمنين، قال: دعني ممّا تكلّموا به! أيُّ شيءٍ عندك؟ قال: اعفني من هذا يا أمير المؤمنين، قال: أقسمت عليك باللّه لما أخبرت بما عندك منه.

فقال: أما إذا أقسمت عليَّ باللّه إني أقول إنهم اخطأوا في السنة، فإنّ القطع يجب أن يكون من مفصل أُصول الأصابع، فيترك الكفُّ، قال: وما الحجّة في ذلك؟ قال: قول رسول اللّه: السجود على سبعة أعضاء: الوجه واليدين والركبتين والرجلين، فإذا قطعت يده من الكرسوع أو المرفق لم يبق له يد يسجد عليها وقال اللّه تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾[1]، يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها (فلا تدعوا مع اللّه أحدا) وما كان للّه لم يقطع.

قال: فأعجب المعتصم ذلك، وأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكفّ. قال ابن أبي داود: قامت قيامتي وتمنيتُ أني لم أك حيّا.

قال زرقان: قال ابن أبي داود: صرتُ إلى المعتصم بعد ثالثة فقلت: إنَّ نصيحة أمير المؤمنين عليَّ واجبة وأنا أُكلّمه بما أعلم أني أدخل به النار، قال: وما هو؟ قلت: إذا جمع أمير المؤمنين في مجلسه فقهاء رعيّته وعلماءهم لأمر واقع من أُمور الدّين، فسألهم عن الحكم فيه فأخبروه بما عندهم من الحكم في ذلك، وقد حضر مجلسه أهل بيته وقوّاده ووزراؤه وكتّابه، وقد تسامع الناس بذلك من وراء بابه، ثمّ يترك أقاويلهم كلّهم لقول رجل يقول شطر هذه الأُمة بإمامته، ويدّعون أنه أولى منه بمقامه ثمّ يحكم بحكمه دون حكم الفقهاء؟

---

(١) الجن: ١٨.

قال: فتغيّر لونه وانتبه لما نبهته له، وقال: جزاك اللّه عن نصيحتك خيرا، قال: فأمر في اليوم الرابع فلانا من كتاب وزرانه بأن يدعوه ـ أي الإمام ـ إلى منزله فدعاه، فأبى أن يجيبه،.. فقال: إنما أدعوك إلى طعام،.. فصار إليه، فلما طعم منها أحسَّ السم، فدعا بدابته، فسأله ربُّ المنزل أن يقيم، قال: خروجي من دارك خير لك، فلم يزل يومه ذلك وليله في خلفة حتى قبض»[1].

*** تلامذة الإمام الجواد والراوون عنه:**

يقول الشيخ المفيد: «وقُبضَ ـ أي الإمام الجواد ـ ببغداد في ذي القعدة سنة عشرين ومائتين وله يومئذٍ خمس وعشرون سنة، وكانت مُدَّةُ خلافته لأبيه وإمامته من بعده سبع عشرة سنة..»[2].

لقد مكث أبو جعفر محمد بن علي الجواد عليه السلام خلال فترة امامته مضطلعا بالمرجعية العلمية في أوساط الأُمة الإسلامية، وكان طيلة فترة مكوثه في المدينة ـ وهي الأطول في فترة امامته ـ محط أنظار الفقهاء والمحدثين حيث استقطب القادمين منهم إلى الحج من الأقطار الإسلامية كما مرّ بنا في ثنايا البحث.

لقد كانت عملية انتقال الإمامة من إمام إلى إمام آخر تصاحبها بعض الظروف الخاصة والمشاكل؛ والتي بدورها تحدّ من ارتباط الأئمة بشيعتهم ومواليهم، بل إنّ بعض وكلاء الأئمة كانوا يواجهون صعوبات كثيرة للارتباط بالإمام عليه السلام.

---

(١) العياشي ـ محمد بن مسعود السمرقندي، التفسير: ١ / ٣١٩ ـ ٣٢٠ تحقيق: السيّد هاشم رسول المحلاتي، طبعة المكتبة العلمية الإسلامية ـ طهران، بلا ـ ت، وعنه في البحار: ١٩ / ٢٩ و ٢٠ / ٢١٩ ـ ٢٢٠ الطبعة الحديثة.

(٢) المفيد، الإرشاد: ٢ / ٢٧٣.

وتختلف هذه المشاكل والظروف الموضوعية الخاصّة من إمام إلى إمام آخر، وفي خصوص الإمام الجوادعليه السلام، كان صغر سنّهعليه السلام حين تبوّأ الإمامة على رأس هذه المشاكل، إذ إنّ بعض أصحاب الإمام الرضاعليه السلام وبعض الشيعة عاشوا حالة من الشك والتردد والحيرة، قال الشيخ حسين بن عبد الوهاب ـ من علماء القرن الخامس الهجري ـ «لما قبض الرضاعليه السلام كان سنّ أبي جعفر نحو سبع سنين، فاختلفت الكلمة بين الناس ببغداد والأمصار، واجتمع الريّان بن الصلت وصفوان بن يحيى ويونس بن عبد الرحمن.. وجماعة من وجوه الشيعة وثقاتهم في دار عبد الرحمن بن الحجاج.. يبكون ويتوجعون من المصيبة، فقال لهم يونس بن عبد الرحمن: دعوا البكاء من لهذا الأمر؟ وإلى من نقصد بالمسائل إلى أن يكبر هذا؟ يعني أبا جعفرعليه السلام...»[1] وفي إثبات الوصية للمسعودي: «أنّ الإمام قد أخفى امامته إلى سن العاشرة»[2].

ومن جانب آخر كان لتشديد المراقبة على الإمام من قبل الجهاز الحاكم، آثار سيئة على شيعته إذ كان يعيق ارتباطهم المستمر بالإمام بشكل طبيعي، ولهذا اتخذ الإمام الجواد والأئمة من بعدهعليهم السلام أُسلوب المكاتبة والمراسلة، كوسيلة ارتباط بينهم وبين شيعتهم.

مع كل هذه الظروف والمشاكل التي اكتنفت عصر الإمام الجوادعليه السلام فقد وصلتنا عنهعليه السلام أكثر من مائتين وعشرين حديثا تتوزع على مختلف المسائل الإسلامية، ومن الطبيعي، وفي ضوء تلك الظروف، قد ضاعت أو تلفت الكثير من هذه المراسلات وأجوبتها.

(١) الميلاني، قادتنا: ٦ / ٣١ نقلاً عن عيون المعجزات: ١٠٨.

(٢) المسعودي، اثبات الوصية: ٢١٥.

أما عدد الرواة عن الإمام الجوادعليه السلام، فقد ذكر الشيخ الطوسي في رجاله عدد مائة وثلاثة عشر راويا[1]، بينما ذكر الشيخ العطاردي في مسند الإمام الجواد عدد (١٢٠) راويا عنهعليه السلام[2].

هذا العدد الكبير من الروايات المروية عن الإمام الجوادعليه السلام والتي تشمل المسائل الفقهية والأحكام الشرعية، والتفسير وعلوم القرآن، والعقائد والكلام.. بالاضافة إلى نصوص الأدعية والمناجات، والتي أُطّرت بهالة من التعاليم الأخلاقية.. إن دلت على شيءٍ فإنما تدل بشكل واضح على عظمة الإمام العلمية ومرجعيته وافاضته على ابناء الأُمة الإسلامية من نمير علمه الدفاق.

وينبغي أن نشير إلى أن صاحب الفصول المهمة ابن الصباغ المالكي قد نقل الكثير من الكلمات القصار للإمام الجوادعليه السلام في كتابه، كذلك نجد بعض هذه الكلمات في كتاب تحف العقول لابن شعبة الحراني.

أما أصحاب الإمام المبرزين، فيمكن أن نشير إلى بعضهم، ممن عاصر الإمام وبعضهم كان من أصحاب والده أو جدهعليهما السلام ومن أُولئك:

أولاً: السيّد عبد العظيم الحسني، نزيل الريّ والمدفون فيها، والذي نشر حديث أهل البيتعليهم السلام في بلاد الريّ وصار سببا في انتشار التشيع والشيعة في تلك البلاد، وقد روى عن الإمام الجواد مجموعة يعتد بها من الأحاديث[3].

---

(١) الطوسي ـ محمد بن الحسن، رجال الطوسي: ٣٧٣ ـ ٣٨٠.

(٢) العطاردي ـ عزيز اللّه، مسند الإمام الجواد: ٢ / ٤١٥ ـ ٥١٠ باب الرواة عن الإمام أبي محمد علي بن الحسينعليهما السلام، طبعة انتشارات عطارد ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٣٧٩ ش ق.

(٣) للتوسع أُنظر: العطاردي في كتابه الموسوم: «عبد العظيم الحسني، حياته ومسنده»: ٢٩٨ ـ ٣٠٧.

ثانيا: داود بن قاسم، يكنى أبا هاشم الجعفري، وهو من ولد جعفر بن أبي طالب عليه السلام، قال عنه الشيخ الطوسي: ثقة جليل[1].

وقد روى أحاديث كثيرة عن الإمامين الرضا والجواد عليهما السلام[2].

ثالثا: علي بن مهزيار الأهوازي، من أصحاب الإمام الرضا والجواد، قال عنه الشيخ الطوسي ثقة، صحيح[3]، وذكره النجاشي فأثنى عليه، وكان ابن مهزيار من خواص الإمام الجواد، وروى عنه روايات كثيرة[4].

رابعا: يعقوب بن إسحاق، ابن السكيت: وكان متقدما عند أبي جعفر رواية ومسائل، قتله المتوكل لتشيعه[5].

خامسا: أحمد بن إسحاق بن سعد الأشعري القمي، روى عن أبي جعفر الثاني عليه السلام وأبي الحسن عليه السلام[6].

سادسا: أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي، قال عنه الطوسي: ثقة، مولى السكوني، له كتاب الجامع، روى عن أبي الحسن موسى عليه السلام[7].

والذي يلفت النظر في أصحاب الإمام الجواد ومن بعده الإمامان العسكريان عليهما السلام أنهم كانوا من الرواة الفقهاء، حيث استمرت هذه المدرسة في عطاءها العلمي على نفس الخط والأُسس التي رسمها لها الإمامان الصادقان عليهما السلام لتتكامل في عطائها،

---

(١) الطوسي، الرجال: ٢٧٥.

(٢) أُنظر: العطاردي، مسند الإمام الجواد: ٣١٦.

(٣) الطوسي، الرجال: ٣٦٠.

(٤) النجاشي، الرجال: ١٧٧، والعطاردي، المسند: ٣١٦.

(٥) الحلي، ابن داود، الرجال: ٩٠.

(٦) المصدر نفسه: ٩، والطوسي، الرجال: ٣٧٣.

(٧) الطوسي، الرجال: ٣٥١، ٣٧٤.

وتكتمل فيعهد الجواد والعسكريين مستوفية كل متطلبات المدرسة العلمية من حيث المنهج والمصدر والمادة، ممهدة به لعهد الغيبة الصغرى، لتنبثق عنها مدرسة الفقهاء المحدثين، بعد ذلك»[1] كما أنّ لهؤلاء الرواة الفقهاء وفرة في الانتاج العلمي في مجال التأليف، حيث ذكر في تراجم الكثير منهم إنه له أصل أو كتاب..[2].

* عصر الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام:

قال الشيخ المفيد: «وكان الإمام بعد أبي جعفر الجواد عليه السلام ابنه أبا الحسن عليّ بن محمد، لاجتماع خصال الإمامة فيه، وتكامل فضله، وأ نّه لا وارث لمقام أبيه سواه، وثبوت النص عليه بالإمامة والإشارة إليه من أبيه بالخلافة.. وكان مولده في المدينة للنصف من ذي الحجة سنة اثنتي عشرة ومائتين، وتوفّي بسرَّ مَن رأى في رجب سنة أربع وخمسين ومائتين، وله يومئذٍ إحدى وأربعون سنة وأشهر، وكان المتوكّل قد أشخصه.. من المدينة إلى سُرَّ مَن رأى، فأقام بها حتى مضى لسبيله، وكانت مُدّةُ إمامته ثلاثا وثلاثين سنة.. وكان مقامه بسُرَّ مَن رأى إلى أن قبضَ عشر سنين وأشهرا»[3].

رغم المدة الطويلة ـ نسبيا ـ لإمامة الإمام الهادي عليه السلام، والتي قضى الشطر الأكبر منها في المدينة، والعشر سنوات الأخيرة في سُرَّ من رأى، إلّا أنّ الشيخ المفيد لا يذكر له أي نشاط علمي في المدينة ولا في سُرّ من رأى، ولا يتعرض للرواة عنه! والذي يبدو أنّ الشيخ المفيد رحمه الله لم تتوفر لديه المعلومات الكافية حول الإمام الهادي عليه السلام.

---

(١) الفضلي، تاريخ التشريع: ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٢) أُنظر: تراجم أصحاب الإمام الجواد عند الطوسي في رجاله، والنجاشي في رجاله.

(٣) المفيد، الارشاد: ٢ / ٢٩٧، ٣١٢.

مهما يكن من أمر، فقد «خلَّف الإمام الجوادعليه السلام بعد وفاته ولده الإمام أبا الحسن علي الهاديعليه السلام الذي شغل مقام أبيه في رعاية مدرسة المدينة»[1].

والفترة الزمنية التي عاصرها الإمام الهادي ومن بعده الإمام العسكريعليهما السلام من الفترات العصيبة في حياة الأئمةعليهم السلام حيث شددت الرقابة عليهما من قبل السلطة العباسية، وضيق الخناق على شيعتهم، بل عاش الإمامان العسكريان في إقامة جبرية أشبه ما تكون بالسجن، وخاصة الإمام الهادي الذي طالت مدة إمامته، «فعاصر ستة من ملوك بني العباس، المعتصم، والواثق، والمتوكل، والمستنصر، والمستعين، والمعتز، وكانت أيامه أيام عسر وشدة وضيق منهم»[2].

والفترة التي قضاها الإمام الهاديعليه السلام في المدينة بعد وفاة أبيه تقارب الثلاث والعشرين سنة، قبل أن يشخصه المتوكل العباسي إلى سُرَّ من رأى.

ومن المؤكد أن هذه الفترة المدنية من حياة الإمامعليه السلام كان فيها بعض الحرية النسبية، استطاع الإمام خلالها أن يتولى رعاية مدرسة المدينة، ويرعى تلامذة والده وتلامذته، ويشرف على نشاطاتهم، ويتابع أعمالهم، وكذلك مكنته تلك الظروف للاتصال بشيعته من خلال مقابلتهم حال وفودهم إلى المدينة، أو من خلال وكلاءه في بعض الأمصار، أو من خلال مكاتبتهم، حيث كانت المراسلة والمكاتبة هي الوسيلة المفضلة، في حال فقدان وسيلة المشافهة.

ولعل هذا النشاط العلمي والاجتماعي للإمام الهادي هو الذي حمل المتوكل العباسي على إشخاصه إلى سُرَّ من رأى كما يقول السيّد الأمين في الأعيان[3]: «وسعي

---

(١) الرفاعي، مدرسة أهل البيت في المدينة: ٥٤.

(٢) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ١ / ١٤٥.

(٣) المرجع نفسه.

به ـ أي الإمام الهادي ـ إلى المتوكل فأحضره إلى سامراء وابقاه فيها خوفا على ملكه منه، لما رأى ميل الناس إليه لفضله وعلمه.. وكان الهادي أفضل أهل زمانه وأعلمهم»[1].

*** آثار الإمام الهادي العلمية:**

لقد وصلتنا عن الإمام الهادي عليه السلام جملة من الآثار العلمية منها:

١ ـ رسالته عليه السلام في الردّ على أهل الجبر والتفويض، وإثبات العدل والمنزلة بين المنزلتين، والتي جاء في مقطع منها: «من علي بن محمد، سلام عليكم، وعلى من اتبع الهدى، ورحمة اللّه وبركاته، فإنه ورد عليَّ كتابكم، وفهمتُ ما ذكرتُم من اختلافكم في دينكم، وخوضكم في القَدر، ومقالة من يقول منكم بالجبر، ومَن يقول منكم بالتفويض، وتفرقكم فيذلك وتقاطعكم، وما ظهر من العداوة بينكم، ثمَّ سألتموني عنه، وبيانه لكم، وفهمت ذلك كلّه، اعلموا رحمكم اللّه...»[2].

٢ ـ أجوبته ليحيى بن أكثم عن مسائله، وهذه أيضا أوردها ابن شعبة في تحف العقول، وقد جاء في بعض هذه الأسئلة والأجوبة:

سأل عن قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾[3]، نبي اللّه كان محتاجا إلى علم آصف (فأجاب): لم يعجز سليمان عن معرفة ما عرف آصف، ولكنه أحبّ أن يعرف أُمته أ نّه الحجة من بعده.

---

(١) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ١ / ١٤٥.

(٢) أُنظر نص الرسالة، عن الحسن بن علي بن شعبة الحراني، تُحف العقول عن آل الرّسول: ٤٥٨ ـ ٤٧٥، تصحيح: علي أكبر غفاري، طبعة جامعة مدرسين في الحوزة العلمية ـ قم، ١٤٠٤ هـ.

(٣) النمل: ٤٠.

وسأله عن قوله: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾[1] كيف سجد يعقوب وهو نبي وولده ليوسف وهو نبي ولا يجوز السجود لغير اللّه.

(فأجاب): إنَّ السجود لم يكن ليوسف وإنما كان شكرا وطاعة للّه ومحبة ليوسف، كما أنّ السجود من الملائكة لم يكن لآدم وإنما طاعة للّه ومحبة لآدم، أي وخروا سجدا للّه لأجل يوسف.

وسأله عن قوله: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[2] والنبي لا يشك.

فأجاب: بأن المخاطب الرَّسول والمقصود الجملة حيث قالوا: كيف لم يبعث اللّه نبيا من الملائكة[3].

٣ ـ قطعة من أحكام الدين ذكرها ابن شهر آشوب في المناقب عن الخيبري أو الحميري في كتاب مكاتبات الرجال عن العسكريين.

٤ ـ روي عنه في أجوبة المسائل في الفقه وغيره من أنواع العلوم الشيء الكثير وتكفلت به كتب الأخبار[4]. كما نقل عنه مجموعة من الحكم والآداب والمواعظ تجدها في كتب الحديث والأثر، كتحف العقول، أو الدرة الباهرة، أو أعلام الدين للديلمي بالاضافة إلى بعض الأدعية القصار التي نقل بعضها الشيخ الطوسي في أماليه[5].

---

(١) يوسف: ١٠٠.

(٢) يونس: ٩٤.

(٣) ابن شعبة، تحف العقول: ٤٧٦ وما بعدها.

(٤) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ٢ / ٥٨٤.

(٥) المرجع نفسه: ٢ / ٥٨٥.

٥ ـ اشرافه على النتاج العلمي لأصحابه والرواة عنه وعن آبائه:

لقد كانت الحركة العلمية عند الشيعة تحضى برعاية الإمام بكافة نشاطاتها وفعالياتها، وحرص الشيعة في عصره على الرجوع إليه فيما التبس من مواقف وأفكار في حياتهم، واطلاعه على التراث الذي بأيديهم، لمعرفة مدى أصالته ومطابقته لهدي أهل البيتعليهم السلام[1].

روى الكشي عن الجعفري قال: «أدخلتُ كتاب يوم وليلة الذي أ لّفه يونس بن عبد الرحمن على أبي الحسن العسكريعليه السلام فنظر فيه، وتصفحه كلّه، ثمّ قال: هذا ديني ودين آبائي، وهو الحق كلّه..»[2].

ومن جملة المواقف التي التبست على بعض أصحابه فالتجأوا إليه يسألونه عنها ما كتبه إليه بعضهم: «جُعلتُ فداك يا سيّدي، إنّ علي بن حسكة يدعي أنه من أوليائك، وإنك أنت الأول القديم، وإنه بابك ونبيك أمرته أن يدعو إلى ذلك، ويزعم.. فكتبعليه السلام: كَذِبَ ابن حسكة عليه لعنة اللّه، وبحسبك أني لا أعرفه في مواليَّ، مالَهُ لعنه اللّه، فواللّه ما بعث اللّه محمدا والأنبياء قبله إلّا بالحنيفية»[3].

تلامذته والراوون عنهعليه السلام:

رغم الظروف الأمنية القاسية والرقابة الشديدة التي رافقت فترة إمامة الإمام الهاديعليه السلام والتي بدورها انعكست على نشاطه العلمي في المدينة حيث سكتت المصادر التاريخية عن الحديث عن هذا النشاط في مسجد رسول اللّهصلى الله عليه وآله، وكذلك

---

(١) مدرسة أهل البيت: ٥٥.

(٢) الكشي، رجال الكشي: ٤٨٤ ـ ٤٨٥.

(٣) المصدر نفسه: ٥١٨ ـ ٥١٩.

وجود الإمام(عليه السلام) في سامراء التي انتقل إليها سنة (٢٣٦ هـ) وبقي فيها إلى حين استشهاده سنة (٢٥٤ هـ)، أي أن اقامته في سامراء امتدت إلى ثمانية عشر عاما، وهي إقامة جبرية لم يكن يسمح للإمام بالسفر فيها، بل «كان أكثر أيامه سجين الدار لا يصل إليه شيعته إلّا اختلاسا، على كثرة الشيعة في هذا العهد وكثرة احتياجهم إلى رؤية الإمام وأخذ معالم الدين عنه، وكان جلَّ استفاداتهم منه بتوسط رجال معدودين من قوامه يترددون عليه، وربما قصدوا الشيعة في بلادهم»[١].

رغم هذا الحصار، فإنّ المصادر الرجالية ترجمت لأكثر من مائة وثمانين راويا وتلميذا من أصحاب الإمام الهادي(عليه السلام)، يتوزعون على رقعة جغرافية تشمل كافة بلدان التشيع وقتئذ[٢]. فتجد فيهم القمي، والأهوازي، والنيسابوري، والبغدادي، والبصري، والمدائني، والكوفي، والرازي، والقزويني.. مما يعني أن الجهود التي بذلها الإمام الهادي(عليه السلام) في التربية والتعليم، والتي هي امتداد لجهود آبائه وأجداده (سلام اللّه عليهم) قد أثمرت، وأتت اكلها بإذن ربها، حيث انتشرت مدرسة أهل البيت وكثرت شيعتهم(عليهم السلام).

*** عصر الإمام الحسن بن علي العسكري(عليه السلام):**

«كان الإمام بعد أبي الحسن علي بن محمد الهادي(عليهما السلام) ابنه أبا محمد الحسن ابن علي لاجتماع خلال الفضل فيه.. من العلم والزهد وكمال العقل.. ولنص أبيه عليه.. وكان مولده بالمدينة في شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين ومائتين»[٣].

---

(١) المظفر ـ محمد حسين، تاريخ الشيعة: ٦١، طبعة مكتبة بصيرتي ـ قم، بلا ـ ت.

(٢) الطوسي، الرجال: ٣٨١ ـ ٣٩٤.

(٣) المفيد، الإرشاد: ٢ / ٣٢١، والطبرسي، أعلام الورى: ٢ / ١٣١.

وفي مناقب ابن شهر آشوب: «.. وقيل ولد بسرَّ من رأى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين..»[1].

وقال المسعودي: «.. وشخّص بشخوص والده إلى العراق [باستدعاء المتوكل] في سنة ست وثلاثين ومائتين وله أربع سنين وشهور»[2].

فالإمام العسكري عليه السلام مدني المولد إلّا أ نّه قضى معظم سني حياته الشريفة في سامراء، إذ ما زال مع أبيه الهادي إلى أن التحق أبوه بالرفيق الأعلى، وبقي هو مدّة إمامته القصيرة في سامراء.

ومن الواضح أنّ المدينة المنورة وبغياب الإمام علي الهادي عنها، طويت فيها «صفحة متلألئة من تاريخ مدرسة الوحي، تعاقب على إدارتها سلسلة مطهرة من الهداة بدءا بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعد هجرته للمدينة حتى العقد الخامس من القرن الثالث الهجري، بعد أن غادر الإمام العاشر عليه السلام من أئمة أهل البيت عليهم السلام إلى سامراء»[3].

فمن المستبعد أن يكون هنالك نشاط علمي للإمام العسكري في المدينة المنورة، كما أنّ مدة إمامته القصيرة، والظروف العصيبة القاهرة التي قضاها مع أبيه الهادي عليهما السلام مع ما لاقاه من التضييق والإقامة الجبرية.. كلَّ هذا حدَّ من النشاط العلمي والاجتماعي للإمام العسكري عليه السلام.

إلّا أنّ الإمام العسكري ـ ورغم كل هذه الظروف ـ استطاع أن يجد بعض السبل للاتصال بشيعته في مختلف الأمصار الإسلامية عن طريق المراسلة والمكاتبة والوكلاء... ولهذا نجد الكثير من وصايا الإمام وأجوبته على المسائل الفقهية

---

(١) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٤ /٤٢١ ـ ٤٢٢.

(٢) المسعودي، اثبات الوصية: ٢٣٦.

(٣) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٥٦ ـ ٥٧.

والعقائدية بواسطة المراسلة والمكاتبة، فتجد في رواية أبي هاشم الجعفري قال: «شكوتُ إلى أبي محمدعليه السلام ضيقَ الحبس وكَلَبَ القيد، فكتبَ إليَّ... وكنتُ مضيقا فأردتُ أن أطلبَ منه معونَةَ في الكتاب الذي كتبته فاستحييت، فلما صرتُ إلى منزلي وجَّه لي بمائة دينارٍ وكتبَ إليَّ..»[1] وفي رواية أُخرى: «عن الحسن بن طريف قال: اختلج في صدري مسألتان أردتُ الكتاب بهما إلى أبي محمدعليه السلام، فكتبتُ أسأله.. وأردت أن أسأله.. فجاء الجواب..»[2]، وفي رواية ثالثة عن أحمد بن محمد قال: كتبتُ إلى أبي محمدعليه السلام حين أَخذ المهتدي في قتل الموالي فوقع أبو محمدعليه السلام بخطه..»[3].

وفي رواية المناقب: «كتب أبو محمدعليه السلام إلى أهل قم وآبة»[4].

وفي رواية الصدوق.. «قال أبو الحسن علي بن محمد.. حدّثنا أبو الأديان قال: كنتُ أخدم الحسن بن عليعليه السلام..، وأحمل كتبه إلى الأمصار، فدخلتُ إليه في علّته التي توفي فيها صلوات اللّه عليه. فكتب معي كتبا وقال: تمضي بها إلى المدائن.. قال: وخرجتُ بالكتب إلى المدائن وأخذت جواباتها..»[5].

وكان أصحاب الإمام العسكريعليه السلام يتحينون الفرص للاتصال بالإمام مباشرة فكانوا يلتمسون الأوقات التي تكون فيها عين الرقيب نائمة، ففي رواية يقول الراوي: «..

---

(١) المفيد، الإرشاد: ٢ / ٣٣٠ ـ ٣٣٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن شهر آشوب، المناقب: ٤ / ٤٢٥.

(٥) البحار: ٢٠ / ٤٠٣ عن كمال الدين للصدوق: ٢ / ٤٧٥.

فوافينا سرَّ من رأى وقد بقي من الليل ثلثه.. فصرنا إلى بابه قبل الأذان، ففتح الباب وخرج إلينا غلام..»[1].

وكان زوار الإمامعليه السلام في أغلب الأحيان من الأمصار الإسلامية التي انتشر فيها الشيعة والتشيع، ففي رواية عن جعفر ابن الشريف الجرجاني قال: حججت سنة، فدخلت على أبي محمدعليه السلام بسرَّ من رأى.. فقلت: يا ابن رسول اللّهصلى الله عليه وآله وسلم إنّ إبراهيم بن إسماعيل الجرجاني هو من شيعتك، كثير المعروف إلى أوليائك.. فقال: شكر اللّه لأبي إسحاق إبراهيم بن إسماعيل صنيعه إلى شيعتنا، وغفر اللّه له ذنوبه..»[2]. وروي عن علي بن زيد قال: صحبت أبا محمد من دار العامة إلى منزله، فلما صار إلى الدار وأردت الانصراف، قال: أمهل..»[3].

وكان الإمامعليه السلام يتخوف على أصحابه من عيون السلطة الحاكمة، فكان يحذرهم من لقائه أو السلام عليه وهو خارج من داره، كما في رواية: «علي بن جعفر، عن الحلبي قال: اجتمعنا بالعسكر وترصدنا لأبي محمدعليه السلام يوم ركوبه، فخرج توقيعه: ألا لا يسلّمنَّ عليَّ أحد، ولا يشير إليَّ بيده، ولا يومىء، فإنكم لا تؤمنون على أنفسكم، قال: وإلى جانبي شابٌ فقلتُ: من أين أنت؟ قال: من المدينة، قلت: ما تصنع هاهنا؟ قال: اختلفوا عندنا في أبي محمدعليه السلام فجئتُ لأراهُ واسمع منه..»[4]. والذي يبدو أنه كان من عيون وجواسيس السلطة الحاكمة.

---

(١) البحار: ٢٠ / ٣٦٢.

(٢) المصدر نفسه: ٢٠ / ٣٦٣.

(٣) المصدر نفسه: ٢٠ / ٣٦٤.

(٤) المصدر نفسه: ٢٠ / ٣٦٧.

* تلامذة الإمام العسكري(ع) والراوون عنه:

رغم كلّ الظروف السياسية والأمنية القاسية التي أحاطت بالإمام العسكري(ع) إلّا أ نّه قام بمهام الإمامة وتواصل مع شيعته في مختلف الأمصار، بالطرق المتاحة له آنذاك، فنقل لهم علوم أهل البيت(ع)، حيث ذكر الشيخ الطوسي من أصحاب الإمام العسكري والراوين عنه أسماء أكثر من مائة راوي[1]، بعضهم روى عن أبيه وجده كأبي هاشم داود بن قاسم الجعفري، وعلي بن جعفر، والفضل بن شاذان، وعبد العظيم الحسني، وعثمان بن سعيد العمري الزيات، (جليل القدر ثقة، ووكيله(ع))[2].

ويتوزع هؤلاء الرواة على رقعة جغرافية واسعة تشمل الأمصار والمدن التي يقطنها شيعة أهل البيت(ع)، وخاصة مدينة «قم» حيث «أصبحت ـ قم ـ في عهده، وعهد أبيه من قبل عاصمة كبرى من عواصم العلوم الشيعية، وفيها من رواتهما ما لا عدّ له، ومن المؤلفين في الحديث وفنون العلم جم غفير، وكان في سامراء وما جاورها من الشيعة عدد لا يستهان به، وفي بغداد خلق كثير، وكانت المدائن يومئذٍ عامرة، وللتشيع فيها القدح المعلى، وما زالت المواصلات بينهم وبين الإمام متولية، ولعل سلمان الفارسي أول من وضع فيها حجر التشيع، وبنى عليه حذيفة بن اليمان، ولا تسل عن الكوفة في ذلك اليوم، بل وفيما قبله وما بعده فإنها من أكبر مدن الشيعة في الولاء..»[3].

---

(١) الطوسي، الرجال: ٣٩٧ ـ ٤٠٣.

(٢) المصدر نفسه: ٤٠٠ ـ ٤٠١.

(٣) المظفر ـ محمد حسين، تاريخ الشيعة: ٦٢.

* مؤلفات الإمام العسكري عليه السلام وآثاره العلمية:

يقول السيّد الأمين في الأعيان: عاصر ـ أي الإمام العسكري ـ ثلاثة من ملوك بني العباس.. وكانت أيامه أيام شدة وضيق وخوف، ومع ذلك أخذ عنه من العلوم الشيء الكثير.. وقد روي عنه من أنواع العلوم ومن المواعظ والحكم والآداب وغيرها ما ملأ بطون الدفاتر..»[1].

ومما يذكر للإمام العسكري من مؤلفات:

١ ـ التفسير المعروف بتفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام.

وهو تفسير غير مكتمل لبعض سور القرآن، منسوب إلى الإمام عليه السلام، وقد حاول بعضهم إثبات نسبته إليه كالمجلسي في البحار، والمحدث النوري في خاتمة مستدرك وسائل الشيعة، وغيرهما، ونفى عنه بعض آخر هذه النسبة، وإنه مروي عن مجاهيل.. ومما لا شك فيه أنَّ الإمام قد قدم للأُمة ثروة علمية في التفسير وعلوم القرآن، بغضّ النظر عن ثبوت نسبة هذا التفسير إليه أو عدم ثبوت نسبته[2].

٢ ـ كتابه عليه السلام إلى إسحاق بن إسماعيل النيسابوري، أورده ابن شعبة في تحف العقول.

٣ ـ رسالة المنقبة، ذكرها المجلسي في البحار عن مناقب بن شهر آشوب، قال: وخرج من عند أبيمحمد في سنة خمس وخمسين ومائتين كتاب ترجمته! رسالة المنقبة، يشتمل على أكثر علم الحلال والحرام.

٤ ـ مكاتبات الرجال عن العسكريين:

---

(١) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ١ / ١٤٦.

(٢) أُنظر: حياة الإمام العسكري للشيخ محمد جواد الطبسي: ١٩٩ وما بعدها.

ذكر قطعة منها في أحكام الدين الشيخ ابن شهر آشوب في المناقب.

٥ ـ ما روي عنه من المواعظ القصار أورد بعضها ابن شعبة في تحف العقول، والديلمي في أعلام الدين، وصاحب الدرَّة الباهرة.

وقد روى عنه أصحابه من الروايات في أنواع العلوم الشيء الكثير[١].

ومما روي عنه، ما رواه ابن شهر آشوب في المناقب: عن أبي القاسم الكوفي، في كتاب التبديل: إنّ إسحاق الكندي كان فيلسوف العراق في زمانه، أخذ في تأليف (تناقض القرآن) وشغل نفسه بذلك وتفرد به في منزله وإنَّ بعض تلامذته دخل يوما على الإمام العسكري فقال له أبو محمدعليه السلام: «أما فيكم رجل رشيد يردع أُستاذكم الكندي عمّا أخذَ فيه من تشاغله بالقرآن؟ فقال التلميذ: نحن من تلامذته كيف يجوز منّا الاعتراض عليه في هذا، أو في غيره؟ فقال أبو محمدعليه السلام: أتؤدي إليه ما أُلقيه إليك؟ قال: نعم.

قالعليه السلام: «فصر إليه وتلطّف في مؤانسته ومعونته على ما هو بسبيله، فإذا وقعت الأُنسة في ذلك فقل: قد حضرني مسألة اسألك عنها، فإنه يستدعي ذلك منك، فقل له: إن أتاك هذا المتكلم بهذا القرآن، هل يجوز أن يكون مراده بما تكلم منه غير المعاني التي قد ظننتها أنك ذهبت إليها؟ فإنه سيقول لك؟ إنه من الجائز، لأنه رجل يفهم إذا سمع، فإذا أوجب ذلك فقل له: فما يدريك لعلّه قد أراد غير الذي ذهبت أنت إليه، فيكون واضعا لغير معانيه».

فصار الرَّجل إلى الكندي وتلطّف إلى أن ألقى عليه هذه المسألة.

---

(١) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ٢ / ٥٨٨، والفضلي، تاريخ التشريع: ١٩٧ ـ ١٩٨.

فقال له: أعد عليَّ، فأعاد عليه، فتفكر فينفسه ورأى ذلك محتملاً في اللغة وسائغا في النظر.

فقال: أقسمت عليك إلّا أخبرتني من أين لك؟

فقال: إنه شيء عرض بقلبي فأوردته عليك.

فقال: كلّا، ما مثلك من اهتدى إلى هذا، ولا من بلغ هذه المنزلة، فعرفني من أين لك هذا؟

فقال: أمرني به أبو محمدعليه السلام.

فقال: الآن جئت به، وما كان ليخرج مثل هذا إلّا من ذلك البيت. ثمّ إنه دعا بالنار وأحرق جميع ما كان ألّفه»[1].

---

(١) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب: ٤ / ٤٢٤.

المبحث السابع

الحركة العلمية في المدينة بعد عصر الأئمة عليهم السلام

لقد قامت مدرسة أهل البيت في المدينة بالقسط الوافر من عملية تعليم المسلمين وخاصة شيعتهم واستمر ذلك إلى ما يقارب منتصف القرن الثالث الهجري، «وكانوا عليهم السلام يعلمون كتاب اللّه وسنة نبيه.. وقد استهدفوا من وراء التعليم رضا اللّه، ولم يؤثر عنهم أنهم أخذوا أُجرة على تعليمهم، يضاف إلى ذلك أنهم كانوا مستقلين اقتصاديا فلاحاجة فيهم لأخذ الأُجرة»[1].

إلّا أنّ هذه المرحلة، ودور الأئمة في التربية والتعليم والتبليغ للعلوم الإسلامية فيها، كان لها أهميتها وعظيم شأنها، لأنها مرحلة تأسيسية، تفتح لمراحل أُخرى أكثر سعة وشمولاً من خلال تلامذة الأئمة والعلماء الذين يسيرون على خطى مذهب أهل البيت عليهم السلام؛ وسوف يأتينا لاحقا رواد الفقاهة والاجتهاد من علماء الشيعة اتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام والتي «بلغ ذروتها في القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الهجري»[2].

ويمكن اجمال عدم توسع مدرسة أهل البيت كثيرا خلال عصر المعصومين بما يلي:

أولاً: يظهر أن الضغط الذي مارسته السلطات المتعاقبة خلال عهد الأئمة، جعل أُولئك الأئمة في وضع لا يستطيعون معه القيام برسالتهم التعليمية على الوجه

---

(١) الفياض ـ عبد اللّه، تاريخ التربية عند الإمامية: ١٧٧.

(٢) المرجع نفسه: ١٥٠.

المطلوب، وقد ضربنا أمثلة كثيرة لأنواع الضغط الذي مورس بحقهم في مواضعه من هذا البحث.

ثانيا: إنّ سكنى الأئمة كلهم في الحجاز [المدينة] ما عدا فترات قصيرة استقدم بعضهم فيها الخلفاء للعراق أو إلى خراسان، لتشديد المراقبة عليهم، حدد من نشاطهم في تبليغ علوم آل البيت ونشرها.

ثالثا: قد يكون لتمركز علماء أهل الحديث والرأي من السنة في الحجاز، سبب من أسباب عدم توسع مدرسة أهل البيت عليهم السلام؛ إذ كان أُولئك العلماء يتعاونون مع السلطان لمقاومة انتشار العلوم المذكورة؛ لأنها كانت في نظرهم من «البدع» التي يجب مقاومتها.

رابعا: إنّ وجود الأئمة في الحجاز أيضا جعلهم بعيدين عن المراكز التي ينتشر فيها مواليهم أو شيعتهم كالعراق ومنطقة قم في إيران، لذا كان تعليمهم عليهم السلام مقتصرا في الغالب على الجماعة المحدودة التي تيسر لها لقاؤهم في الحجاز»[1].

والسؤال الذي يطرح نفسه عن مصير مدرسة أهل البيت عليهم السلام في المدينة بعد أن طويت صفحة حضور أئمة أهل البيت فيها، إذ ربما يسأل: هل أقفلت هذه المدرسة أبوابها، وانصرف طلّابها منذ منتصف القرن الثالث؟ أم واصلت رسالتها في نشر معارف الوحي في القرون التالية؟ في الجواب عن هذا السؤال، يمكن القول: إنّنا نستطيع أن نجزم بعدم خلو المدينة من وجود أعلام معروفين من الشيعة في فترات مختلفة، وهذا ما يورده بصراحة المؤرخون وكتّاب التراجم، فمثلاً أحصينا ما ترجمهم السيّد محسن الأمين في كتابه «أعيان الشيعة» من أعلام الشيعة المنسوبين إلى

---

(١) الفياض ـ عبد اللّه، تاريخ التربية عند الإمامية: ١٥٠ بتصرف.

المدينة منذ عصر الصحابة إلى القرن الرابع عشر الهجري، فوجدنا الرقم يقترب من الأربعمائة، بيد أن ذلك لا يمنعنا من القول: أنّ المدينة لم تعد حاضرة علمية أساسية للتشيع بعد عصر الأئمةعليهم السلام لغلبة الآخرين عليها، وانتقال المركز العلمي منها إلى الكوفة، وقم، والري، وبغداد، وبقاء الشيعة فيها أقلية إلى عصرنا هذا[1].

يضاف إلى ما ذكر هذا الباحث من أسباب لضمور مدرسة أهل البيتعليهم السلام في المدينة والحجاز بصورة عامة، أنّ السلطات الحاكمة من الأمويين والعباسيين وكذلك الدولة الأيوبية، ودولة المماليك، ودولة آل عثمان ودولة آل سعود، بل وحتى في عهد الدولة البويهية ـ والتي تحسب على الشيعة ـ «كانوا ينظرون إلى تعاليم الشيعة بأنها تخالف ما اتفقوا عليه من تقاليد مذهبية، لذا لم يقلدوا شيوخ الشيعة وظائف التدريس والافتاء ولم يبيحوا تدريس فقههم في المساجد وفي المدارس بعد ظهورها. ولعلّ النص التالي يلقي ضوءا على وجهة نظر أكثرية فقهاء العامة أو أهل السنة عن الشيعة، روى الخونساري أنه عرضت ذات مرة مسألة فقهية للشاه خدا بنده فسأل فيها من حضره من فقهاء العامة فلم يعجبه ما قالوا في الموضوع، ولما ذُكر له العلّامة الحلي (ت ٧٢٦ هـ) أرسل عليه ليستفتيه: «فلما بعث إليه، قال علماء العامة: إنّ له مذهبا باطلاً ولا عقل للروافض..»[2].

وكان الموقف الرسمي السابق جزءا من سياسة الدول السنيّة، ما عدا فترة الحكم البويهي في إيران والعراق، [بل] وحتى في العهد البويهي امتنع الخلفاء.. عن إسناد منصب قاضي القضاة لرجل شيعي. وكان الخلفاء يحتفظون في معظم فترات العهد

---

(١) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٥٧.

(٢) الخونساري ـ محمد باقر، روضات الجنات: ٢ / ٢٧٩ طبعة مكتبة إسماعيليان ـ قم، بلا ـ ت.

البويهي، بنفوذهم الديني، لذا عملوا على ابعاد الشيعة ـ كما كان جاريا من قبل ـ عن المناصب الدينية بما فيها التدريس، ونتج عن موقف الخلفاء المذكور.. أن حرم المعلمون الشيعة من شغل الوظائف التدريسية في مؤسسات الدولة من مساجد وغيرها، ومن ثمّ حرموا الدخول المالية التي كانت تدرها تلك الوظائف. ولما كانت الأُجور التي تدفعها الدولة، بكونها أكبر مؤسسة تنفق على التعليم، يذهب معظمها أو كلّها تقريبا للمعلمين السنة، لم يبق للمعلمين الشيعة نصيب من ذلك المورد الكبير[1].

وقد حوت كتب التاريخ والتراجم والطبقات.. على مجموعة كبيرة من الأخبار التي تشير إلى أن استراتيجية السلطات الحاكمة ـ ومعهم علماء السلطة ـ كانت موجهة في الغالب اتجاه تقريب اتباع المذاهب السنية، وابعاد اتباع وعلماء الإمامية!

وفيما يلي بعض الشذرات من هذه الأخبار:

روى ياقوت الحموي في المعجم: «وَحَدَّث المرزُباني عن الصوليّ عن أبي العيناء، قال: قال لي المُتَوكِّلُ: بَلَغني أنك رافضيٌّ! فقلت يا أمير المؤمنين، وكيف أكون رافضيّا وبلدي البَصْرةُ، ومنشئي مسجدُ جامعها، وأُستاذي الأصمعي..»[2].

ويقول الجاحظ: «وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاما، وهو لا يعد فقيها، ولا يُجعل قاضيا، فما هو إلّا أن ينظر في كتب أبي حنيفة، واشباه أبي حنيفة، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين، حتى تمر

---

(١) الفياض، تاريخ التربية: ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٢) الحموي ـ أبي عبد اللّه ياقوت ت ٦٢٦ هـ مُعجَم الأُدباء: ١ / ٩٦ ـ ٩٧، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م).

ببابه فتظن أنه من بعض العمال، وبالحري أن لا يمر عليه من الأيام إلّا اليسير حتى يصير حاكما على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان»[١].

ويروى عن العلّامة الحلي (ت ٧٢٦ هـ) في (منهاج الكرامة) قوله: «وما أظن أحدا من المحصلين وقف على هذه المذاهب، فاختار غير مذهب الإمامية باطنا، وإن كان في الظاهر يصير إلى غيره طلبا للدنيا، حيث وضعت لهم المدارس والربط والأوقاف حتّى تستمرّ لبني العباس الدعوة، ويشيدوا للعامّة اعتقاد إمامتهم وكثيرا ما رأينا ـ والقول للعلّامة ـ مَن يدين في الباطن بمذهب الإمامية، ويمنعه من اظهاره حبّ الدنيا وطلب الرياسة، وقد رأيتُ بعض أئمة الحنابلة يقول: إني على مذهب الإمامية، فقلت له: لم تدرس على مذهب الحنابلة؟ فقال: ليس في مذهبكم البغلاة والمشاهرات»[٢].

هذه النصوص وأمثالها ـ وهي كثيرة جدا ـ تدل بوضوح على أن السلطة الحاكمة كانت تعد دراسة فقه أهل السنة من الأُمور المؤهلة للعمل في دواوين الحكام والخلفاء، ويترتب على ذلك أن الإمامي الذي لا يدرس فقه أهل السنة لا يجد مجالاً واسعا للعمل في الدواوين المذكورة.

ولم يشذ عن استراتيجية الأبعاد والاقصاء لعلماء الشيعة في جميع الأقطار الإسلامية وعلى أيدي الحكام أو الأُمراء والخلفاء وعلماء السلطة وعلى مرّ العصور، إلّا بعض الفلتات النادرة في تاريخ التشيع، كما حصل مع الشيخ محمد ابن الحسن

---

(١) الجاحظ، الحيوان: ١ / ٦٩، طبعة دار احياء العلوم ـ بيروت، ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م.

(٢) العلّامة الحلّي ـ الحسن بن يوسف، منهاج الكرامة: ٧٨ ـ ٧٩، تحقيق: عبد الرحيم مبارك، طبعة قم، ١٤٢٥ هـ

الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) حيث أُعطي كرسي الكلام في بغداد لفترة وجيزة من الزمن، ثمّ حشدوا الغوغاء عليه وأحرقوا كرسيّه ومكتبته وداره.. كما سوف يأتينا لاحقا.

كذلك جرى الأمر مع الشهيد الثاني زين الدين بن أحمد العاملي (ت ٩٦٥ هـ) الذي عيّن مدرسا في المدرسة النورية في بعلبك، وكان يدرس الفقه على المذاهب الخمسة.. ثمّ انقلبوا عليه ولاحقوه وقتلوه فذهب إلى ربّه شهيدا محتسبا، كما سوف يأتينا أيضا.

*** نظرة سريعة لتاريخ الحركة العلمية في المدينة:**

إنّ وجود الشيعة الإمامية في الحجاز قديم كقدم التشيع نفسه، «إذ إن ظهور التشيع كان في الحجاز بلد المتشيع له ـ كما يقول محمد كرد علي في كتابه خطط الشام[١] ـ فإن النبي ﷺ هو الذي حثّ على ولاء علي وأهل بيته عليهم السلام، وهو أول من سمّى أولياءهم بالشيعة، وفي عهده ظهر التشيع وتسمى جماعةٌ بالشيعة.. فكان مبدأ تلك الدعوة، وهاتيك التسمية في الحجاز»[٢].

وسوف يأتينا مزيد بحث حول الحركة العلمية في الحجاز من خلال استعراض الحوزات العلمية والمدارس الدينية، في القطيف، والاحساء، والمنطقة الشرقية.. وأبرز أعلامها، وتراثهم العلمي.

والذي نريد أن نشير إليه في هذه الجولة السريعة يختص بحاضرة المدينة المنورة في القرون اللاحقة لعصر الأئمة عليهم السلام.

---

(١) كرد علي ـ محمد، خطط الشام: ٥ / ٢٥١.

(٢) المظفر ـ محمد حسين، تاريخ الشيعة: ١١١.

والذي يبدو من خلال التاريخ العلمي للمدينة أن الحركة العلمية فيها بقيت مستمرة من خلال تعاقب أجيال من العلماء من أهل المدينة، أو من المهاجرين إليها من الأقطار الأُخرى، أو من المهاجرين منها إلى الأقطار الأُخرى وخاصة العراق وبلاد فارس، وقد غطى كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) جوانب من تراجم العلماء المدنيين الذين قصدوا العراق، أو العلماء الذين قصدوا المدينة من العراق أمثال الواقدي، ومحمد بن إسحاق.. وغيرهم، ومن جاء من بعد الخطيب البغدادي كالذهبي (ت ٧٤٨ هـ) وابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) وغيرهما قد توسعا في ترجمة علماء المدينة في مختلف عصورهم، وبعض المؤرخين خصص بعض مؤلفاته لعلماء المدينة، من أمثال شمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢ هـ) صاحب كتاب: «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة» كذلك كتاب: «تحفة الازهار وزلال الأنهار في نسب أبناء الأئمة الأطهار» لضامن بن شدقم الحسيني المدني (ت القرن ١١ هـ) وهو كتاب ضخم في أربع مجلدات يسلط الاضواء فيه على الحركة العلمية في المدينة إلى القرن الحادي عشر الهجري. وهنالك كتاب (تاريخ أُمراء المدينة) لعارف أحمد عبد الغني، و «التاريخ الأَمين لبلد سيد المرسلين» لعبد العزيز بن صالح المدني.. وكتاب: «تاريخ المدينة، نصيحة المشاور وتعزية المجاور» لأبي محمد عبد بن فرحون المالكي.. والقائمة طويلة في بيان العلماء والكتب التي أشارت إلى الحركة العلمية في المدينة.

وقد مرّ بنا سابقا أنّ السيّد محسن الأمين في كتاب أعيان الشيعة قد ذكر في كتابه (الأَعيان) ترجمة لما يقارب الاربعمائة من أعلام الشيعة ممن ينتسبون للمدينة[1].

ولو استدركنا على السيّد الأمين لارتفع الرقم إلى أكثر من ذلك بكثير، ولو ضممنا إلى جهد السيّد الأمين جهود صاحب الذريعة والطبقات للشيخ الطهراني آغا بزرك، أو ما ذكره صاحب أمل الآمل في تراجم علماء جبل عامل، وأحصينا المهاجرين من المدينة وإليها.. وهكذا كتاب الروضات للخوانساري، ورياض العلماء للأفندي، لحصلنا على قائمة طويلة من علماء المدينة على مرّ العصور.

*** قضاة وأُمراء وخطباء وفقهاء المدينة من الشيعة الإمامية:**

لقد كان للشيعة في المدينة وفي فترات زمنية متلاحقة حضور فاعل في الحياة السياسية والعلمية والدينية. فكان الكثير من قضاة المدينة من شيعة أهل البيت عليهم السلام ومن السادة الحسنيين أو الحسينيين، يقول ابن فرحون المالكي: «كان القضاء في المدينة قبل العصر المملوكي بأيدي الشيعة الإمامية من بني سنان.. واستمر القضاء في أيدي الشيعة الإمامية من بني سنان حتى أواخر القرن السابع الهجري، أي في الفترة الأُولى للعصر المملوكي»[2].

وممن يذكر من قضاة المدينة، القاضي يحيى البركات.. صاحب صدقات النبي صلى الله عليه وآله، يقول الشريف ضامن بن شدقم: «والقاضي وجيه الدين يحيى بن محمد

---

(١) أُنظر: الأمين، أعيان الشيعة: ١١ / ٥ ـ ٢٠٩ الفهارس، وحامد عليّ الحُسيني، فهارس أعيان الشيعة: ١ / ٦٣٦ ـ ٦٤١، طبعة مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي ـ إيران، الطبعة الأُولى، ١٤١٦ هـ.

(٢) الحربي ـ عبد الرحيم، قضاة المدينة المنورة: ٢١٤ نقلاً عن عبد الرحمن المدرسي في كتابه: المدينة المنورة في العصر المملوكي: ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

المعروف بابن الجلال، وقد أذنوا له في التدريس والافتاء بعد ملازمته لهم، وعلمهم بحقيقة علوّ رتبته، وعظم ارتفاع درجته، وكان البدر بن فرحون يعترف بفضيلته مع غزارة علمه»[1].

ومنهم: القاضي محمد بن أبي البركات بن أسعد بن علي.. الذي يتصل نسبه بالإمام السجاد علي بن الحسين عليه السلام وصفه ابن عنبه في عمدة الطالب: «النقيب القاضي النسابة» أدركته المنية في المدينة في شهر رمضان سنة (٧٤٣ هـ) وقبره بازاء قبر إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وآله[2].

ومنهم: القاضي عبد الوهاب بن سنان بن نميلة الوحادي المدني: «وكان قاضيا بالمدينة، وهو رأس عائلة آل سنان الذين تعاقبوا على سدّة القضاء بالمدينة المنورة»[3].

ومنهم: القاضي نجم الدين مهنا بن شمس الدين بن سنان كان في منصب القضاء في سنة (٧٢٠ هـ) وهو من أبرز الشخصيات العلمية في المدينة، زار العراق في زمن مرجعية العلّامة الحلّي (٧٢٦ هـ) وعرض عليه المسائل التي اشتهرت بالمسائل المهنائية وأجوبتها، ثمّ أجازه العلّامة وأثنى عليه كثيرا في جواب مسائله وفي إجازته، وهنالك رسائل متبادلة بينهما[4]، ترجم له السيّد الأمين في الأعيان وقال عنه: «كان

---

(١) الحربي ـ عبد الرحيم، قضاة المدينة المنورة: ٢٠٦ عن ابن شدقم، تحفة الأزهار: ٣٧٥، وابن عنبه في عمدة الطالب: ٣٢٩.

(٢) المرجع نفسه: ٢٠٧، وعمدة الطالب: ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٣) المرجع نفسه: ٢١٤.

(٤) أُنظر: الأمين، أعيان الشيعة: ١٠ / ١٦٨، والحر العاملي، أمل الآمل: ٢ / ٣٢٨ ـ ٣٢٩، وآغا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ١ / ١٧٨، والطبقات، الحقائق الراهنة في المائة الثامنة: ٣ / ٢٢٣، ومقدمة كتاب أجوبة المسائل المهنائية بقلم: محيي الدين الممقاني.

قاضي المدينة المنورة وكان جملة من أجداده قضاتها.. [له مسائل] تعرف بالمسائل المدنيّات سأل عنها العلّامة الحلّي لما زار أئمة العراق وأجابه عنها العلّامة، وهي تدل على فضله، وقد مدحه العلّامة في جوابها مدحا بليغا» وفي أمل الآمل ذكر في ترجمته: «.. فاضل فقيه محقق له مسائل..». والذي ينص عليه الشيخ الطهراني في الذريعة والطبقات أن المترجم له، قد حصل على أكثر من إجازة من العلّامة الحلّي ومن ولده فخر المحققين، وعقب على ذلك الشيخ الطهراني بقوله: «والاجازات كلّها موجودة وفيها المدح والثناء الكثير، ويظهر منها أنه كان مرجعا للأحكام والقضاء في المدينة»[1].

وترجم له العسقلاني في الدرر الكامنة فقال: «مهنا بن سنان... الحسيني الإمامي المدني قاضي المدينة، اشتغل كثيرا ـ وكان حسن الفهم، جيد النظم، ولامراء المدينة فيه اعتقاد، وكانوا لا يقطعون أمرا دونه.. ومات سنة (٧٥٤ هـ)»[2].

ومنهم: القاضي علي بن سنان: قال ابن فرحون المعاصر له: «كان إذا عقد في البلد عقد نكاح بغير إذن علي بن سنان وأمره، طلب الفاعلين بذلك وعزرهم وسلط عليهم الاشراف.. وكان علي بن سنان قاضيا في امارة ابن فليتة القاسم بن مهنا.. الذي كان أمير المدينة في أيام الخليفة المستضيء بأمر اللّه»[3].

ومنهم: القاضي علي بن يوسف بن عزيز الإمامي، قال السخاوي: عليّ بن يوسف.. الإمامي [روى] عنه الأقشهري كيفيّة السلام على رسول اللّهﷺ، ووصفه بالقاضي المشاور، صفي الاشراف، صفي الدّين، وقال: أصلح اللّه سريرته كما أصلح

---

(١) آغا بزرك، الذريعة: ١ / ١٧٨، والطبقات المائة الثامنة: ٢٢٤.

(٢) العسقلاني، الدرر الكامنة: ٤ / ٣٦٨.

(٣) المرجع نفسه: ٢٣٠ ـ ٢٣١ عن تاريخ المدينة لابن فرحون: ١٩٤.

علانيته، وإنه أملاها عليه بالحرم الشريف المدنيّ من لفظه، وذكره ابن صالح فقال: كان فقيها ذا جاه ومال ودربة ودراية، حسن الملتقى والهيئة، بشوشا قاضيا لحاجة سائله من أهل السنة، معظّما عند أهل المدينة المجاورين وغيرهم، حاكما يرجع إليه الوالي في الصلح بين الناس»[1].

ومنهم: القاضي يوسف الشر بشير، ترجم له ابن فرحون في نصيحة المشاور فقال: «شيخ الشيعة وفقيههم، وكان جدّهم مغربيّا سنّيا، تزوج من بنات المدينة، ومات عن أولاد صغار، فنشأوا في مذهب أُمِّهم، ثمّ كثروا وانتشروا وتمذهبوا بمذهب الشيعة وغلوا فيه. وكان القاضي يوسف.. معاصرا للأمير جماز الذي حاول ارجاع الإمامية إلى ما كانوا عليه من تولّيهم مناصب القضاء بالمدينة، وأذن له أن يحكم بين الغرماء، وظهرت كلمتهم، وارتفعت رايتهم،.. فسافر الناس في أثناء السنة إلى مصر وتحدّثوا بذلك فبلغ السلطان فاغتاظ لذلك،.. فبعث مع الموسم شخصين أشقرين شقيّين فقتلاه، وانتقل إلى رحمة اللّه شهيدا»[2].

وهكذا تعاقب قضاة الشيعة الإمامية على دفة القضاء ورفع الخصومات في المدينة المنورة ولقرون من الزمن، وكانت العائلة الواحدة تتوارث منصب القضاء بعضهم عن بعض، يقول الشريف ضامن بن شدقم الحسيني: «إنّ عبد الوهاب بن الأمير أبي عمارة المهنّا الأكبر كان قاضي المدينة الشريفة، خلّف إبراهيم قاضيها، ثمّ إبراهيم خلّف محمدا قاضيها، ثمّ محمد خلّف نميلة قاضيها، ثمّ نميلة خلّف عبد الوهاب قاضيها، ثمّ عبد الوهاب خلّف سنان قاضيها، ثمّ سنان خلّف أربعة بنين: هاشما،

---

(١) العسقلاني، الدرر الكامنة: ٢٤١ عن التحفة اللطيفة: ٢ / ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(٢) المرجع نفسه: ٢٤٢ عن نصيحة المشاور لابن فرحون: ٢١٠.

وقاسما..، ومهنّا، ونور الدين علي...، فهؤلاء كانوا قضاة المدينة المنورة.. بعد كثرة وثروة وحكومة وصولة ودولة ومهابة بصلاح وتقوى وعلم وفضل وسماحة وسيرة حسنة، كذا ذكره مؤرخو المدينة سابقا ولاحقا»[1].

*** أُمراء المدينة من الشيعة الإمامية:**

وأما أُمراء المدينة من الشيعة الإمامية فقد حكم وفي حقبات زمنية متلاحقة بعض الأُمراء من الشيعة وبعضهم: من سلالة أهل البيت عليهم السلام:

منهم: إسحاق بن محمد بن يوسف الجعفري من سلالة جعفر بن أبي طالب، أمير المدينة المنورة ووادي القرى ونواحيها في سنة (٢٧١ هـ) في خلافة المعتمد العباسي، وقام بعده بأمرة المدينة أخوه موسى بن محمد..[2].

ومنهم: الحسن بن موسى الكاظم.. أمير المدينة بعد إسحاق وأخوه موسى[3].

ومنهم: أحمد بن محمد بن إسماعيل بن زيد...

ومنهم: محمد وعلي ابنا الحسن بن جعفر بن موسى.. قام هذا وأخوه على ابني الحسن.. بدخول المدينة..[4] وأُولئك كانوا من الثوار في المدينة على الحكم العباسي.

ومنهم عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسين بن جعفر.. بن علي بن أبي طالب عليه السلام أمير المدينة والعتيق، توفي سنة (٣٢٩ هـ)، يقول مؤلف كتاب أُمراء

---

(١) العسقلاني، الدرر الكامنة: ٢٣٧ ـ ٣٣٨ عن تحفة الأزهار: ٢ / ٢٠٧ والمستطابة في نسب سادات طابه: ٦٠.

(٢) أُنظر: ترجمة تاريخ الطبري: ٩ / ٥٥٢، ومقاتل الطالبيين: ١٧٧، وعمدة الطالب: ٤٦، وأُمراء المدينة: ١٩٧.

(٣) الفخري في النسب: ١٨ وأُمراء المدينة: ١٩٨.

(٤) أُمراء المدينة: ٢٠٠.

المدينة: إنّ استلام عبيد اللّه بن طاهر للمدينة كان بداية لحكم الحسينيين للمدينة الذي استمر فيما بعد من نسله إلى عدّة قرون حتى حوالي سنة (١٠٠٠ هـ)[١].

ولا نريد أن نسترسل كثيرا في ذكر الأسماء لأُمراء المدينة لأنّ القائمة طويلة وقد تكفي فيها بعض الاشارات الخاطفة.

ومهما يكن من أمر، فقد يكون تولي الامارة في المدينة من قبل بعض الشيعة أو بعض السادة الحسنيين أو الحسينيين هو الثورة والاستيلاء بالسيف.. إلّا أنّ منصب القضاء والذي هو شعبة من شعب الحكم، كان عن جدارة واستحقاق علمي، يذكر العسقلاني في ترجمة سراج الدين عمر بن أحمد الأنصاري، فيقول: «وولّاه المنصور قلاون الخطابة بالمدينة الشريفة نحو أربعين عاما، فقدمها سنة (٦٨٢ هـ) فانتزعها من أيدي الرافضة، وكانت الخطابة والقضاء مع آل سنان بن عبد الوهاب.. فلما استقر في الخطابة، استمروا في الحكم، وكان السبب في ولايته أنّ الرافضة كانوا يؤذون أهل السنة كثيرا لغلبة الرفض على أُمراء البلد، وإقامتهم الحكام من قبلهم.. فلما استقر السراج رسخت قدمه وصبر على الأذى.. وكان إذا خطب اصطف الخدام قدامه صفا يحمونه من الرجم! ثمّ صاهر السراج بعض الإمامية فخفّ عنه الأذى، ثمّ جاء تقليده بولاية القضاء، فأخذ الخلعة وتوجه بها إلى الأمير منصور بن جماز، وقال له: جائني مرسوم السلطان بكذا، وأنا لا أقبل حتى تأذن، فقال: رضيت وأَذن بشرط ان لا تتعرض لحكامنا ولا لأحكامنا. فاستمر على ذلك، وبقي آل سنان على حالهم، وغالب الأُمور الأحكامية مناطة بهم، حتى الحبس والاستجلاب»[٢].

(١) عارف ـ أحمد عبد الغني، أُمراء المدينة: ٢١٧ ـ ٢١٨، أُفست دار الاقليم ـ قم، ١٤١٨ هـ.

(٢) العسقلاني ـ ابن حجر، أحمد بن علي، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ٣ / ١٤٩ ـ ١٥٠، طبعة أُفست على طبعة دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن.

وكان السبب لاستقلال الاشراف الحسينيين الإماميين من آل سنان ومن جاء من بعدهم بالقضاة لهذه الفترة الزمنية بالمدينة ـ على ما يبدو ـ هو انشغال السلطة الحاكمة بالحروب والغزواة، فقد عاصر هؤلاء القضاة من آل سنان دولتي المماليك والدولة الأيوبية، ويذكر أن صلاح الدين الأيوبي كان يصحب معه في غزواته الأمير أبو فليتة القاسم بن مهنّا بن الحسين الحسيني الإمامي، يتبرك به، حتى حضر أكثر فتوحاته[1].

ويُعد هذا السكوت من قبل دولة المماليك والأيوبيين خروجا على مبدأهم في تضييق الفرص على المذهب الشيعي، بل قد دأبوا على محاربة التشيع! فالإدارة السياسية لدولة المماليك عملت على تعزيز مكانة أهل السنة في المدينة بإرسال القضاة والخطباء والأئمة. والمحاولة نفسها بذلها الأيوبيون لتغليب مذهب السنة على مذهب الشيعة وذلك من خلال التشجيع على هجرة السنة إلى المدينة وسمّوهم بالمجاورين، وخاصة العلماء، وأتاحوا لهم فرصة عقد حلقات التدريس والتعليم في المسجد النبويّ والأربطة والتكايا حتى قوى مذهب التسنن وضعف مقابل ذلك التشيع بفعل الأيوبيين.

لقد تشجع أُولئك المهاجرون والذين اصطلح عليهم بـ (المجاورين) واندفعوا لأسباب نفعيةً تارةً، وسياسية تارةً أُخرى، أو علمية أو مذهبية أو وظيفية..، على بعض المذاهب أو لتولي بعض الوظائف الدينية كالقضاء والخطابة والإمامة، وما تحمله تلك الوظائف من طابع سياسي[2].

---

(١) الحربي، قضاة المدينة: ٢٤٥ نقلاً عن التحفة اللطيفة: ٢ / ٣٧٨.

(٢) المرجع نفسه: ٢٤٥ ـ ٢٤٦ عن عبد الرحمن المديرسي، المدينة المنورة في العصر المملوكي: ١٩٣.

وفي المقابل نجد أن هنالك هجرة لبعض الأُسر الشيعية اتجاه المدينة، والذين عرفوا بأُسرة «القيشانيين» الذين عاصرهم المؤرخ ابن فرحون، ووصفهم بأنهم: «كانوا أهل مال عظيم، فصاروا يؤلفون ضعفة الناس بالمال، ويعلّمونهم قواعد مذهبهم، ولم يزالوا على ذلك حتى ظهر مذهبهم وكثر المشتغلون به، وعضده الأشراف في ذلك الزمان، وأن القاضي سراج الدين الدمنهوري لم يسلم من مضايقتهم له إلّا بعد أن تزوج بنت القيشاني الذي كان رئيس الإمامية وفقيهها»[١].

ويشير صاحب كتاب المدينة المنورة في العصر المملوكي، إلى الدور الذي لعبته الأُسر الشيعية المهاجرة من العراق إلى المدينة في تقوية المذهب الشيعي وانتشاره فيقول: «ففي أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجريين كانت علاقة الشيعة بالمجاورين طيّبة، وكان المذهب السائد المعمول به في الأحكام في المدينة في العصرين الفاطمي والأيوبي وأوائل العصر المملوكي هو المذهب الجعفري أو الإمامي الاثنا عشري. ولقد كان للتطورات السياسية في مصر أثر في انتشار المذهب الشيعي في الحجاز، وبخاصة في مدنها الرئيسية مثل: مكة والمدينة وينبع، وبدأ المذهب الشيعي الإمامي في الانتشار منذ تلك الفترة، ووصلت قوة المذهب ذروتها بقدوم أُسرة القيشاني من العراق، ووضح مدى تحكّم فقهاء الإمامية في أُمور المدينة.. وقد انتشر بين الأشراف والعامة، وبخاصة الفلاحين من أهل المدينة، وقد أَخذ بالانحسار التدريجي ابتداءً من أواخر القرن السابع الهجري، مع بقاء اتباعه ومعتنقيه دون نفوذ، ويعود الضعف لدور الإدارة السياسية لدولة المماليك»[٢].

---

(١) الحربي، قضاة المدينة: ٢٤٤ ـ ٢٤٥ عن التحفة اللطيفة: ٢ / ٣٧٨.

(٢) المدينة المنورة في العصر المملوكي: ١٩٣ ـ ١٩٨.

رغم انحسار التشيع عن المدينة وبعض المدن الكبرى في الحجاز بسبب السياسية الحاكمة؛ إلّا أنّ التشيع بقي في بعض المدن وخاصة في المدينة وأطرافها، يقول أحد الباحثين من أهالي المدينة: «إنّ التشيع بقي في خليص وعسفان والبرزة إلى أوّل النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، فقد كانت الهجرة منها واليها مستمرة.. وإذا وضعنا بعين الاعتبار أن شبه الجزيرة العربية كانت كلّها شيعيّة عدا بعض المدن الكبرى، فبعد أن زادت الضغوط على التشيّع، هاجر كثير من سكان هذه القرى إلى المدينة وانضموا إلى قبائل النخليّين، لذا نجد كثيرا من الأُسر وبطون بعض قبائل النخليين يرجعون في أُصولهم إلى قبيلة زبيد، وهاجر البعض الآخر إلى العراق، مثل الشيخ عبد الحسين الأعسم، والشيخ عباس الأعسم، يقول الشيخ الطهراني: «وآل الأعسم من الأُسر المعروفة في النجف، نبغ فيها الكثير من أهل العلم والفضل والأدب، بل من المجتهدين الأجلاء والفقهاء الكبار، ولهم في تاريخ النجف العلمي والأدبي مقام سامي»[1].

ومهما يكن من أمر فقد شهدت المدينة بعد مرحلة عصر الأئمة من أهل البيت عليهم السلام حركة علمية، سواءً من أهلها أو من المهاجرين إليها من الأقطار الأُخرى، حيث عرف بعضهم بالمدني مسكنا، أو بالمدني مدفنا، أو بالمدني مولدا، ومن أُولئك الأفذاذ السيّد: «علي خان الحسيني المدني الشيرازي» صاحب المؤلفات الكثيرة القيمة والتي على رأسها شرحه الكبير للصحيفة السجادية الموسوم بـ (رياض السالكين).

---

(١) الحربي ـ عبد الرحيم، خطباء المنبر الحسيني في المدينة: ٥٠ ـ ٥١، والطهراني ـ آغا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٩ / ٦٧٨.

كذلك له كتاب سلافة العصر، والطراز الأول، والدرجات الرفيعة، وغيرها من المؤلفات القيّمة، ولد في المدينة المنورة سنة (١٠٥٢ هـ) ونشأ وترعرع فيها ثمّ هاجر منها إلى مكة والهند وإيران حتى استقرّ في مدينة شيراز وتوفي فيها سنة (١١١٩ هـ).

ومن هؤلاء العلماء الفقهاء الأفذاذ السيّد زين الدين علي بن بدر الدين حسن الحسيني المدني، الذي ولد سنة (٩١٥ هـ) وتوفي في المدينة سنة (٩٩٦ هـ) عبَّر عنه حفيده ضامن بن شدقم بن زين الدين.. في كتابه تحفة الأذهان فقال: «كان.. فقيها عالما فاضلاً حائزا لفنون العلم وأُصوله» وقال في رياض العلماء: «كان من مشاهير أكابر علماء الإمامية وأنّ له مسائل جيدة معروفة سأل عنها الشيخ البهائي..»[١].

ومن أُولئك العلماء السيّد الميرزا محمد أمين الأسترآبادي الأخباري، صاحب كتاب «الفوائد المدنية» والذي يعتبر المرجع الواسع لنظريات المدرسة الاخبارية، حيث أودع في كتابه هذا آراءه في الاجتهاد والاجماع وحكم العقل وعلم الأُصول.. وقد ردّ عليه السيّد علي بن أبي الحسن أخو صاحب المدارك بكتاب سمّاه الشواهد المكية وكان السيّد الأسترآبادي حين كتابة كتابه مجاورا في المدينة المنورة لذا سمّاه بـ «الفوائد المدنية» كما أنَّ صاحب الرد السيّد علي كان مجاورا بمكة المكرمة فلذلك سمى كتابه الشواهد المكية[٢]، توفي الميرزا محمد أمين الأسترآبادي في سنة (١٠٣٣ هـ).

إلّا أنّ المدينة المنورة لم تعد إلى سالف مجدها العلمي بعد أن انتهت دولة الشريف الحسين بن علي على أيدي أبناء ابن سعود حيث زحف هؤلاء على الحرمين

---

(١) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ٨ / ١٨٥.

(٢) المرجع نفسه: ٩ / ١٣٧.

الشريفين واحدثوا فيها ألوانا من الفتك وسفك الدماء والسلب والنهب، بعد أن حكم فيهم بعض من ينسب نفسه إلى العلم، من أهل نحلتهم، بكفر أهل القبلة من فرق المسلمين كافة، واباحة النفوس والأموال منهم، فاستغلوا منهم هذه العقيدة للسيطرة والملك، فقضوا مآربهم بما أودعوه في هذه النفوس الضعيفة من باطل الاعتقاد، وبهذه الوحشية الكاسرة، وتلكم الطباع الفظة الغليظة.. ذلّل جماح أهل الحجاز.. فلا تسمع للشيعة بل ولا لغيرها بعد تلك الأعمال القاسية حسا ولا حركة.. وليتهم اكتفوا بوحشي الأعمال تلك، دون أن يتعرضوا لقباب أئمة البقيع وأهل البيتعليهم السلام بشيءٍ، فبتلك المعاول التي هدموا بها صروح الايمان، نقضوا قباب آل محمدصلى الله عليه وآله وتركوها أثرا بعد عين، فإذا كانت هذه حرمة أهل البيت وساداتهم عندهم فكيف يكون شأن شيعتهم وأوليائهم»[1].

وكلّ من يتشرف لحج بيت اللّه الحرام، وزيارة رسول اللّهصلى الله عليه وآله وأئمة البقيع يسجل نفس الانطباعات التي سجلها الشيخ المظفر في سفره إلى الحج حيث يقول: «ولكني لما توفقت للحج عام (١٣٦٥ هـ) شاهدت الشر أفظع مما أسمع، فالحاج الشيعي إذا وضع قدمه في الحجاز لا يصبح أمينا على دينه ودمه، فإنه لا يقدر أن يؤدي فرضا أو نفلاً يخالف آراءهم، وما بينه وبين اهراق دمه إلّا شهادة رجل جاهل أو معاند.. بأنه شيعي يريد مخالفة الشريعة..»[2].

وحال الشيعة في أيامنا هذه والتي شاهدناها من خلال زياراتنا المتكررة للمدينة خلال موسم الحج لا يختلف كثيرا عن الحالة التي وصفها الشيخ المظفر، فلا يسمح

---

(١) المظفر، تاريخ الشيعة: ١١٧ ـ ١١٨ وكان تاريخ تهديم قباب البقيع في الثامن من شوال سنة ١٣٤٤ هـ

(٢) المرجع نفسه: ١١٩ ـ ١٢٠ الهامش.

لهم بتشييد مسجد لهم في المدينة، فضلاً عن فتح حسينية أو مركز تعليمي من قبيل مدرسة علمية أو حوزة دينية.. وإذا كان هنالك بعض النشاطات العلمية فهي تجري بعيدا عن عيون السلطة الدينية الوهابية، وبحذر شديد واحتياط كامل.

بل إنّ شيعة المدينة ـ وهم طبقة واسعة يسكنون جنوب المدينة في العالية أو العوالي ـ قد حرموا من أبسط حقوقهم المدنية والتي أقرتها الشرائع الدولية.. «فليس لأهل المدينة محاكم للأحوال المدنية خاصة بالشيعة، فإن كان القطيف والإحساء فيها محاكم للأحوال الشخصية (الأوقاف والمواريث) فإنّ المدينة المنوّرة محرومة من هذا الحق، وقد تقدّم سكان المدينة من الشيعة للملك عبد اللّه يطالبونه بمنحهم هذا الحق الذي اقرته لائحة حقوق الإنسان الدولية في العالم، فكل الأقليات في العالم تتمتع بهذا الحق إلّا المدينة المنورة، فالطائفة الشيعية يفرض عليها اعطاء (العصب) في المواريث، وايقاع الطلاق بثلاث طلقات في مجلس واحد، وقبول طعن السني في شهادة الشيعي لتشيّعه فقط»[1].

*** المرجعية الدينية وشيعة المدينة:**

مرّ بنا ومن خلال أبواب وفصول هذا البحث دور مرجعية أهل البيت العلمية في المدينة، هذه المرجعية العلمية والتي كانت تتمثل في شخص رسول اللّهﷺ أيام حياته إلى جانب مرجعيته السياسية والولائية، وتجسدت في أهل بيته من بعده إذ مثلوا مرجعية للأُمة، وبعد عصر الأئمة وفي عصر الغيبة الكبرى والذي يمتد إلى عصرنا هذا تكون هذه المرجعية للفقيه الجامع للشرائط، والذي رسمت لنا النصوص الروائية معالم مواصفاته من العلم، والعدالة، والفقاهة، والاستقامة...

---

(١) الحربي ـ عبد الرحيم، قضاة المدينة المنورة: ٢٥١.

وهذه المرجعية ـ كما سوف يأتينا مفصلاً ـ تمتد في وسط الأُمة الإسلامية، وخاصة اتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام من خلال وكلائهم ومعتمديهم في بلدان تواجد الشيعة، والناس يرجعون إلى أُولئك الوكلاءِ بصفتهم العلمية، وإنهم يشكلون حلقة الوصل بين المرجع وبين أبناء الأُمة الإسلامية.

وللمرجعية دور كبير ومهم وحساس تقوم به باعتبارها نائبة عن الإمام عليه السلام وهنالك وظائف كثيرة مناطة بالمرجعية يقوم بها المرجع من خلال وكلائه أو مؤسساته التي أُسست لهذا الغرض، ومن أهم هذه الوظائف:

أولاً: إدارة شؤون التعليم الديني (الحوزات والمدارس العلمية الدينية) في مركزه الرئيسي، أو في المراكز الفرعية.

ثانيا: قيام المرجع نفسه بالتعليم العالي (بحث الخارج) من خلال القاء المحاضرات الفقهية والأُصولية، وعقد المجالس للمناظرات والإملاءات العلمية.

ثالثا: تشييد المدارس العلمية والدور السكنية والمراكز العلمية والمكتبات والمؤسسات الخيرية لتدريس وسكن الطلّاب ورعاية شؤونهم العلمية والاجتماعية.

رابعا: اجراء الرواتب الشهرية اللازمة لمعيشة الأساتذة والطلّاب كذلك تخصيص المبالغ اللازمة لإدارة المؤسسات العلمية والخدمية.

خامسا: تعيين الوكلاء والمعتمدين في المناطق والبلدان الإسلامية الشيعية كذلك ارسال المبلغين والأساتذة إلى تلك المناطق.

سادسا: الافتاء والرد على الأسئلة والاستفسارات[1].

---

(١) الفضلي ـ عبد الهادي، تاريخ التشريع الإسلامي: ٣٢٤ ـ ٣٢٥ بتصرف.

وبخصوص شيعة المدينة المنورة، فإنّ تواصل المراجع معهم مستمر من خلال الاتصال المباشر بهم، أو من خلال وكلائهم ومعتمديهم في المدينة، أو من خلال بعثات الحج السنوية.

يقول أحد الباحثين في شؤون المدينة المنورة: «وممّن أدركتهم من المرجعيات الدينية التي يرجع إليها شيعة المدينة المنورة: آية اللّه السيّد أبو الحسن الاصفهاني ثمّ آية اللّه مرتضى آل ياسين، ثمّ السيد محسن الحكيم، فالسيّد أبو القاسم الخوئي (قدّس اللّه أرواحهم)، ثمّ السيّد السيستاني ـ دام ظله ـ..

والذين سمعت بهم أو ادركتهم وكلاء لهؤلاء المراجع مثل: الشيخ حسن بن مجلي، والشيخ محمد بن حسن مجلي، والشيخ علي مجلي، والشيخ أحمد التميري، وسالم بن معلا الجراري، والشيخ مبارك بن حسين العبيدي، والشيخ علي بن أحمد العمري، والشيخ جبر بن أحمد جبر الجبد، والشيخ محمد بن علي الهاجوج، والشيخ عطيّة بن حسن ناجي الداودي، والشيخ محمد بن علي العمري، والشيخ حسين بن محمد سلمى العيساوي، وغيرهم»[1].

وفي أيامنا هذه هنالك جيل ناهض من شباب أهل المدينة المنورة وضواحيها، هاجروا إلى مراكز الحوزات العلمية الكبرى في النجف الأشرف وقم المقدّسة، وبعضهم هاجر إلى بلاد الشام وواصلوا دراستهم بجد واجتهاد فوصل البعض منهم إلى درجات رفيعة من العلم والمعرفة فأصبحوا من الأساتذة الذين يشار إليهم بالتعظيم، أو من الخطباء اللامعين، أو من الكتّاب البارزين، وعاد بعضهم إلى محل سكناهم في المدينة وضواحيها وأخذوا يمارسون وظائفهم الدينية في التدريس

(١) الحربي، قضاة المدينة المنورة: ٢٤٦. وأُنظر كتاب أهل الدار والايمان للمؤلف نفسه.

والتبليغ، والمواعظ والخطابة[1]، أو تأسيس بعض الحوزات الصغيرة وبشكل غير علني.. وقد زرت بعض أُولئك العلماء واطلعت على جانب من نشاطاتهم العلمية، وتربطنا معهم صلات جيدة والحمد للّه.

تلخيص واستنتاج:

تأسيسا على ما سبق يمكن استخلاص النقاط التالية؛ لبيان معالم مدرسة المدينة:

١ـ مؤسس مدرسة المدينة هو رسول اللّه ﷺ، بعد الهجرة الشريفة، ثمّ ورثه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وورث الحسنان أباهما عليهما السلام، ولم يزل أبناؤه الأئمة عليهم السلام يرث الخلف منهم السلف إلى أن هاجر الإمام العاشر أبو الحسن الهادي عليه السلام تاركا المدينة إلى سامراء مكرها بأمر المتوكل العباسي.

٢ـ مركز الحركة العلمية في المدينة هو مسجد رسول اللّه ﷺ، ففيه كانت تُعقد حلقات الدروس، وفيه يتلقى الرواة الأحاديث الشريفة، ويتعلم أهل القرآن تلاوته، وتفسيره، وناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه. وفيه أيضا كانت تجري المناظرات العلمية، وإليه ترد البعثات من سائر الأمصار، ممن يرحلون في طلب العلم. وربما علّم الأئمة عليهم السلام في منازلهم أحيانا خاصة شيعتهم، حذرا من أعين السلطان.

٣ـ لم تقتصر مهمة التعليم في مسجد رسول اللّه ﷺ على الأئمة عليهم السلام فقط، بل كانت تعقد حلقات لتلامذتهم البارزين أيضا، مثل حلقة عبد اللّه بن عباس كما ذكرنا فيما سبق، وغيره. وبموازاة ذلك عُقدت حلقات لرجال معروفين من الصحابة في هذا المسجد كعبد اللّه بن عمر، وآخرين من التابعين بعد ذلك. وتميز فيما بعد دور مالك

---

(١) أُنظر: الحربي ـ عبد الرحيم، خطباء المنبر الحسيني في المدينة المنورة: ٣٠ ـ ٩٦.

بن أنس الذي انطلق مذهبه من أروقة مسجد رسول اللّهﷺ، وتليمذه محمد بن إدريس الشافعي.

٤ـ كانت مدرسة المدينة هي الينبوع الذي تدفقت منه علوم أهل البيتعليهم السلام إلى المراكز العلمية الأُخرى عند الشيعة، فمنها فاض العلم إلى الكوفة، ومنها فاض العلم إلى البصرة، ومنها فاض العلم إلى قم والري، ثمّ انتشرت العلوم من هذه المراكز فيما بعد إلى غيرها من البلدان.

٥ـ علوم مدرسة المدينة تمحورت بالسُنة الشريفة، والتفسير وعلوم القرآن، بشكل أساسي، وظهرت فيها في فترة لاحقة بذور علم الكلام والفقه، واشتد عود العلمين الأخيرين في الدور الثاني من أدوار مدرسة المدينة.

٦ـ خَلَّفَت مدرسة أهل البيتعليهم السلام في المدينة ميراثا علميا هاما، تجسَّد في مجموعة كُتب توارثها أهل البيتعليهم السلام، هي: «صحيفة عليعليه السلام»، و «كتاب عليعليه السلام» أو «الجامعة»، و «مصحف فاطمةعليها السلام»، و «الصحيفة السجادية»، و «رسالة الحقوق». هذا غير الكُتب والمصنفات العديدة المنسوبة للأئمةعليهم السلام، التي رواها تلامذتهم عنهم[١].

٧ـ شهدت مدرسة المدينة أول تجارب للبعثات التعليمية في تاريخ التعليم عند المسلمين، إذ لاحظنا بعض تلامذة أهل البيتعليهم السلام يهاجر من موطنه في العراق، ويقيم في المدينة أربع سنوات لغرض الدراسة، بينما كان آخرون يمكثون فترات أقل، ويتكاثف وجود طلّاب العلم في موسم الحج.

---

(١) حول هذه الكتب، والمؤلفات المنسوبة للأئمةعليهم السلام، راجع كتاب: تدوين السنّة الشريفة: ٥٢ ـ ٧٨ و ١٣٤ ـ ١٨٧، للمحقّق السيّد محمد رضا الحسيني الجلالي.

٨ـ عرفت مدرسة المدينة بالمدرسة السيارة المتنقلة، كما لاحظنا ذلك في خروج عدد غفير من القراء بمعية علي بن الحسين عليه السلام إلى مكة ورجوعهم معه بعد الفراغ من الموسم، واهتمامهم بالتلقي منه طيلة الطريق، وهكذا فعل أهل العلم مع بقية أهل البيت عليهم السلام. حتى أضحت مدرسة المدينة تنتقل إلى مكة كل عام في موسم الحج مع قدوم إمام ذلك العصر إلى الحج، فيزدحم حوله المحدثون والفقهاء والمتكلمون للارتشاف من نمير علمه في حلقته بالمسجد الحرام طيلة مقامه بمكة.

٩ـ ظهرت في مدرسة المدينة التجارب الأُولى لتمويل التعليم عند المسلمين، بإيواء التلميذ القادم من خارج المدينة، واستضافته، والانفاق عليه.

أدوار مدرسة المدينة:

مرت مدرسة أهل البيت عليهم السلام بالمدينة تبعا للظروف السياسية والاجتماعية التي عاشها التشيع بالأدوار التالية:

أ ـ الدور الأول:

يبدأ هذا الدور بتأسيس مدرسة المدينة، ويمتد إلى وفاة الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام سنة (١٤٨ هـ)، ويمثل هذا الدور الذي استمر قرنا ونصف القرن تقريبا عصر نشأة هذه المدرسة ونموها وبلوغها ذروة تكاملها في حياة الإمام الصادق عليه السلام.

ب ـ الدور الثاني:

ويبدأ هذا الدور مع الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام بعد وفاة أبيه جعفر الصادق عليه السلام، ويمتد إلى مغادرة الإمام علي بن محمد الهادي المدينة إلى سامراء نحو سنة (٢٣٤ هـ)، ويمثل هذا الدور الذي استمر نحو قرن من الزمان عصر انكماش هذه المدرسة، واختفاء بعض نشاطاتها، وانتقال بعض حلقاتها من المسجد النبوي،

وغيابها في بيوت أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم بالمدينة، وتحول بعض فعالياتها العلمية، مثل بعض الاتصالات والمكاتبات إلى الحالة السرية، حذرا من السلطان الغاشم وجواسيسه على نشاطات الأئمة وشيعتهم.

ج ـ الدور الثالث:

ويبدأ هذا الدور في منتصف القرن الثالث الهجري، بعد هجرة الإمام الهادي عليه السلام من المدينة، وانتقال مركز علوم أهل البيت عليهم السلام قبل ذلك إلى الكوفة، وقم، والري، ثمّ بغداد. ويمثل هذا الدور عصر اضمحلال هذه المدرسة، وأُفولها، وقلة تعاطي دراسة علوم أهل البيت عليهم السلام فيها[1].

(١) أُنظر: الرفاعي، مدرسة أهل البيت في المدينة: ٥٧ ـ ٦١.

الباب الثاني:
نشأة الحوزة العلمية في الكوفة

الفصل الأول:
مدرسة الكوفة قبل وفود أمير المؤمنين إليها

المقدّمة

الكوفة، أحد المصرين العربيين اللذين تأسسا في العراق في عهد خلافة عمر ابن الخطاب، وثانيهما البصرة، وقد أنشئت لتكون مركزا يقيم فيه المقاتلة العرب الذين فتحوا العراق،.. وقضوا على الدولة الساسانية، وضموا بلادها إلى الدولة الإسلامية.

وكانت الكوفة من أعظم مراكز الحركة الفكرية في الدولة الإسلامية الأُولى، فازدهرت فيها دراسة الفقه والشعر والنحو، وكانت لها سمات مميزة في هذا المجال تميزها عن الأمصار الأُخرى، كما ازدهرت فيها علوم اللغة العربية والحديث والأخبار والتاريخ.

«وكان لعلمائها أثر كبير في تطوير هذه العلوم وتقدّمها وفي انماء الحركة الفكرية في بغداد بعد انشائها. غير أنّ نمو الحياة المادية والفكرية في بغداد واستقرار الحياة السياسية في العراق بعد قيام الدولة العباسية كان له أثر في تناقص أهمية الكوفة واضعاف دورها في متابعة الأسهام في نمو الحضارة العربية والإسلامية»[1].

ومما لا شك فيه أنّ الإحاطة والاستيعاب والشمول لكل جوانب الحياة الحضارية والفكرية لمدينة الكوفة في عصورها المختلفة، يتطلب دراسة واسعة مستقلة خارج نطاق هذا البحث، ولهذا سوف يقتصر بحثنا على دراسة الحياة الفكرية والثقافية وتطورها في الكوفة ابان عصر خلافة الإمام علي عليه السلام الذي اتخذ من الكوفة عاصمة للدولة الإسلامية، ثمّ ندرس دور الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وتلامذته في مدرسة الكوفة.

---

(١) العلي ـ أحمد صالح، الكوفة وأهلها في صدر الإسلام: ٥، طبعة شركة المطبوعات ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ٢٠٠٣ م.

المبحث الأول: نشأة الكوفة ومكانتها الحضارية

تحدّث المؤرخون باسهاب وتفصيل عن نشأة مدينة الكوفة وخططها الأُولى ومن ثمَّ توسعها العمراني والحضاري الذي امتدّ إلى قرون من الزمن.

فبعد الانتهاء من حروب الردّة في بلاد اليمن، توجّهت الجيوش الإسلامية إلى فتح الشام والعراق ومصر،.. وكانت الجيوش الإسلامية قد خاضت حروبا طويلة مع جيوش الدولة الساسانية، وسجل المؤرخون تفاصيل أيامها، كيوم الجسر، ويوم النخيلة، ويوم مهران، ويوم القادسية.. إلى اليوم الذي فتحت فيها المدائن بقيادة سعد بن أبي وقاص. يروي البلاذري في فتوح البلدان، قال الواقدي: «كان فراغ سعد من المدائن وجلولاء في سنة ست عشرة»[١].

وبعد الفراغ من فتح أرض السواد (العراق)، «أراد عمر بن الخطاب قسمة السواد بين المسلمين.. فشاور أصحاب رسول اللّهﷺ في ذلك، فقال عليعليه السلام: دعهم يكونوا مادة للمسلمين... فأقر أهل السواد في أرضهم وضرب على رؤوسهم الجزية وعلى أرضهم الطسق ولم تقسم بينهم»[٢].

وفي قصّة تمصير الكوفة ونشأتها يذكر البلاذري: «أنّ عمر بن الخطاب كتب إلى سعد ابن أبي وقاص يأمره أن يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيروانا»[٣]، ومعنى القيروان

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان: ٢٦٣، تحقيق: رضوان محمد رضوان، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٢) المصدر نفسه: ٢٦٦ ـ ٢٦٨.

(٣) المصدر نفسه: ٢٧٤.

معظم الكتيبة[1] وفي نص فضل الكوفة: «الكوفة دار هجرة»[2].

ولم يحدد له المكان الذي يتخذ لهذا الغرض، إلّا أنّ الروايات التاريخية التي تذكر قصّة اختيار موضع المدينة، روايات متعددة؛ منها، أنّ جيش المسلمين بعد فتح المدائن انتقلوا بين مناطقها «قالوا: فاصابهم البعوض، فكتب سعد إلى عمر يعلمهُ أنّ الناس قد بُعِّضوا وتأذوا بذلك، فكتب إليه عمر: إنّ العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلّا ما يصلح الإبل، فارتد لهم موضعا عدنا، ولا تجعل بيني وبينهم بحرا... ثمّ إنّ عبد المسيح بن بقيلة أتى سعدا وقال له: أدلك على أرض انحدرت عن الفلاة وارتفعت عن المباق، فدله على موضع الكوفة اليوم، وكان يقال لها سورستان»[3].

وفي رواية الهيثم بن عدي الطائي قال: «أقام المسلمون بالمدائن واختطوها وبنوا المساجد فيها، ثمّ إنّ المسلمين استوخموها واستوبؤوها، فكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر، فكتب إليه عمر أن تنزلهم منزلاً غربيا.. فخرجوا حتّى أتوا موضع الكوفة اليوم فانتهوا إلى الظهر، وكان يدعى خد العذراء ينبت فيها الخزامي والاقحوان والشيح والقيصوم والشقائق فاختطوها»[4].

أما تاريخ تمصير الكوفة فقد ذكرت رواية البلاذري عن ابن عبيدة: «وكان تكوين الكوفة في سنة ثمان عشرة»[5].

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: ١١ / ٣٧٠.

(٢) العلوي، فضل الكوفة: ١٢٥.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان: ٢٧٥.

(٤) المصدر نفسه: ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(٥) المصدر نفسه: ٢٧٦.

وأما الحموي فقد ذكر: «وأما تمصيرها وأوّليته فكانت... في السنة التي مصرت فيها البصرة، وهي سنة (١٧)»، وقال قوم: إنّها مصرت بعد البصرة بعامين في سنة (١٩)، وقيل سنة (١٨)[١]. إلّا أنّ بعض المحققين يقول: «كانت مدينة الكوفة كأُختها مدينة البصرة التي سبقتها في التأسيس ثلاث سنين، فقد تأسست مدينة البصرة عام (١٤ هـ)، ومدينة الكوفة عام (١٧ هـ) في أصح الروايات»[٢].

فالعوامل التي تجمعت في تأسيس مدينة الكوفة يمكن تلخيصها في جملة العوامل وعلى رأسها العامل العسكري، بالاضافة إلى العامل الجغرافي والبيئي، وهذا ما أكدته النصوص التاريخية التي تتحدث عن الكوفة وأهلها، فهي «كوفة الجند» وهي «دار هجرة ومنزل جهاد»، «فبعد الفراغ من السيطرة على العراق، شعروا بالحاجة إلى إنشاء دار هجرة على تخوم البلاد المفتوحة، تكون بمثابة المعسكر والمركز للهجرة في الوقت نفسه. وعلى ذلك، تشكل الكوفة ثمرة مباشرة لعملية من عمليات الفتح الخاطف... ذلك أنّ الكوفة تحتلُّ موقع القلب من المنطقة»[٣].

وكلٌّ من درس جغرافية الكوفة وخططها الأُولى أشاد بأهمية موقعها الجغرافي، وعمقها الحضاري والثقافي. يقول المستشرق الفرنسي المسيو لويس ماسينيون ـ والذي بذل جهدا كبيرا في رسم خارطة الكوفة مطابقا للقرنين الأولين من الهجرة،

(١) الحموي ـ شهاب الدين ياقوت بن عبد اللّه، معجم البلدان: ٧ / ١٦٠، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت.

(٢) الحكيم ـ حسن، الكوفة: ٢٦، طبعة دار العارف ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩ م.

(٣) جعيط ـ هشام، نشأة المدينة العربية الإسلامية الكوفة: ٦، طبعة دار الطليعة ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥ م.

ونشر بعنوان: «خطط الكوفة، وشرح خريطتها» ـ يقول: «فالكوفة كانت مركزا مهما لحادث اجتماعي عظيم، وعاصمة لتأسيس الحضارة الإسلامية آنذاك،.. ولم تكن أُختها البصرة ولا دمشق، حتى ولا الفساط والقيروان لتعرض لنا صورة واضحة رصينة كالكوفة، وذلك في التمصير وتثبيت القبائل البدوية الفاتحة المنتصرة، واستقرارها على حافة الصحراء، في ريف مماس إلى لسان من الرمل اليابس النافذ في منطقة تروى بمياه شط عظيم (الفرات) وفي جزء من ذلك القطر الذي كانت له مدينة زاهرة في الأزمنة الغابرة»[(١)].

*** فضل الكوفة:**

تميّزت الكوفة عن غيرها من الأمصار الإسلامية في ولائها لأهل البيت عليهم السلام وإخلاصها وتفانيها في هذا الولاء، بخلاف الانطباع السائد عند البعض حول هذه المدينة، وهو انطباع سلبي جاء نتيجة لبعض القراءات الناقصة لبعض الأحداث التاريخية.

وقد رويت روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام، تشيد بالكوفة وأهلها، مما حدى ببعض الرواة والمحدثين إلى إفراد ذلك في مؤلفات كثيرة تحت عنوان: «فضل الكوفة»[(٢)].

---

(١) ماسنيون ـ لويس، خطط الكوفة: ١٥ ـ ١٦، ترجمة: محمد تقي المصعبي، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، من منشورات جمعية منتدى النشر في النجف الأشرف، الطبعة الأُولى، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م.

(٢) وروايات فضل الكوفة رواها كبار علمائنا في كتبهم الروائية كالكليني في فروع الكافي: ٣ / ٤٨٩ باب مسجد الكوفة، وباب فضل المسجد الأعظم بالكوفة، كذلك روى الشيخ الطوسي في

ومن هذه الروايات:

١ ـ عن علي‌عليه‌السلام قال: «الكوفة جمجمة الإسلام، وكنز الإيمان، وسيف اللّه ورمحه، يضعه حيث يشاء، وايم اللّه لينصرن اللّه بأهلها في مشارق الأرض ومغاربها كما انتصر بالحجاز»[١].

٢ ـ وعنه‌عليه‌السلام ـ وهو بالكوفة ـ: «ما أشد بلايا الكوفة، لا تسبوا أهل الكوفة، فواللّه إنّ فيها لمصابيح الهدى، وأوتاد ذكر، ومتاع إلى حين، واللّه ليدقق اللّه بهم جناح الكفر، لا تنتخبوا أبدا غير مكة حرم إبراهيم، والمدينة حرم رسول اللّه‌صلى‌الله‌عليه‌وآله والكوفة حرمي، وما من مؤمن إلّا وهو من أهل الكوفة، أو هواهُ لينزع إليها..»[٢].

٣ ـ وفي كلمات الحسنين وزين العابدين‌عليهم‌السلام في فضل الكوفة وأهلها روي:

* ليأتين عليها ـ أي الكوفة ـ زمان لا يبقى مسلم إلّا حنّ إليها....

* أما إنهم ـ أي أهل الكوفة ـ الذين يعز اللّه بهم الدين، وهم دفتا العرب.

* وعن علي بن الحسين‌عليهما‌السلام، قال: «فيكم من يعزّ عليَّ علمه» يعني أهل الكوفة[٣].

←

التهذيب: ٣ / ٢٤٨ و٦ / ٣١ وما بعدها، باب فضل المساجد والصلاة فيها، الحديث: ٥ و ٧ ـ ١١ وغيرها، كذلك روى الشيخ الصدوق في الفقيه: ١ / ١٤٧ باب فضل المساجد. كذلك رواها ابن قالويه في كامل الزيارات: ٢٣، الباب الثامن، فضل الصلاة في مسجد الكوفة. للتوسع أُنظر: فضل الكوفة وفضل أهلها، لأبي عبد اللّه محمد بن علي.. العلوي ت ٤٤٥ هـ بتحقيق: محمد سعيد الطريحي، مقدمة المحقق: ١١ ـ ١٤، طبعة مؤسسة أهل البيت ـ بيروت، (١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م).

(١) المصدر نفسه: ٧١، والحموي، معجم البلدان: ٧ / ١٦١.

(٢) المصدر نفسه: ٧٠، والشيخ الطوسي، الأمالي: ٦٧٢.

(٣) المصدر نفسه: ١٢٤ ـ ١٢٥.

٤ ـ وروى عبد اللّه بن الوليد عن الإمام الصادق(عليه السلام)، قال: «دخلنا على أبي عبد اللّه(عليه السلام) زمن مروان، فقال لنا ممن أنتم؟ فقلنا له: من أهل الكوفة، فقال لنا: إنّه ليس بلد من البلدان، ومصر من الأمصار، أكثر محبا لنا من أهل الكوفة، إنّ اللّه هداكم لأمر جهله الناس، فأحببتمونا وأبغضنا الناس، وصدقتمونا وكذبنا الناس، واتبعتمونا وخالفنا الناس، فجعل اللّه تعالى محياكم محيانا ومماتكم مماتنا..»[١].

٥ ـ وروى عبد الأعلى الثعلبي أنّ محمد بن الحنفية قال: «إنّ الكوفة دار هجرة مرتين، قال، قلت له: وكيف ذاك؟ قال: كانوا وزراء أمير المؤمنين وأنصاره، وسيكونون وزراء المهدي وأنصاره»[٢].

٦ ـ وروي عن سلمان إنه كان يقول: «أهل الكوفة أهل اللّه، وهي قبة الإسلام، يحن إليها كل مؤمن»[٣].

٧ ـ وروي عن حذيفة بن اليمان قال: «الكوفة قبة الإيمان وأرض البقية» وفي حديث آخر عنه: «الكوفة قبة الإسلام، وأرض البلاء»[٤].

٨ ـ وفي رواية الشيخ الصدوق في الفقيه، والطوسي في التهذيب، والكليني في الكافي عن الصادق(عليه السلام) انه قال: «مكة حرم اللّه وحرم رسوله وحرم علي بن أبي طالب(عليه السلام) والصلاة فيها بمائة ألف صلاة..، والمدينة حرم اللّه وحرم رسوله وحرم علي

(١) القمي ـ عباس، سفينة البحار: ٧ / ٥٤٤، طبعة دار الأُسوة ـ قم، ١٤١٤ هـ

(٢) العلوي، فضل الكوفة وأهلها: ١٢٥.

(٣) المصدر نفسه: ١٠١، والحموي، معجم البلدان: ٧ / ١٦١ ـ ١٦٢.

(٤) المصدر نفسه: ١١٥.

بن أبي طالب عليه السلام، والصلاة فيها بعشرة آلاف صلاة..، والكوفة حرم اللّه وحرم رسوله وحرم علي بن أبي طالب عليه السلام والصلاة فيها بألف صلاة..»[1].

وينبغي أن نُشير بأن هذه الروايات لم تخضع للمناقشة السندية والدلالية من قبل أُولئك الأعلام الذين رووها في كتبهم، ولسنا في وارد مناقشة صحة أو سقم أسانيدها ودلالاتها.

* فضل مسجد الكوفة:

وأما مسجد الكوفة، فقد رويت فيه فضائل كثيرة منها:

٨ ـ روى عبد اللّه بن مسعود، قال، قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «يا ابن مسعود، لما أُسري بي إلى السماء الدنيا أراني جبريل مسجد كوفان، فقلتُ: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا مسجد مبارك كثير الخير عظيم البركة اختاره اللّه لأهله، وهو يشفع لهم يوم القيامة...» وذكر الحديث بطوله في فضل مسجد الكوفة[2].

ومنها: ما روي عن علي عليه السلام، روى حَبّةُ العُرني، قال: «كنتُ جالسا عند علي عليه السلام فأتاهُ رجل فقال: يا أمير المؤمنين هذه راحلتي وزادي أُريد هذا البيت، أعني بيت المقدس، فقال عليه السلام: «كُلْ زادك وبع راحلتك، وعليك بهذا المسجد ـ يعني مسجد الكوفة ـ فإنّه أحد المساجد الأربعة، ركعتان فيه تعدلان عشرا فيما سواهُ من المساجد، والبركة منه إلى اثني عشر ميلاً من حيث ما أتيتهُ،... وفي زاويته فار التنور، وعند الاسطوانة الخامسة صلّى إبراهيم عليه السلام، وقد صلّى فيه ألف نبيّ، وألف وصيّ، وفيه عصا

---

(١) الصدوق، الفقيه: ١ / ١٤٧، والطوسي، التهذيب: ٢ / ١١، والكليني، الكافي: ١ / ٣٢٦، وابن قالويه، كامل الزيارات: ٢٥، حديث رقم ٨.

(٢) المصدر نفسه: ٢٥، وأُنظر الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه: ١ / ٧٦.

موسى، والشجرةُ اليقطين... وفيه مصلى نوحعليه السلام ويحشرُ منه يوم القيامة سبعون ألفا ليس عليهم حساب، ووسطه على روضة من رياض الجنة.. لو يعلم الناس ما فيه من الفضل لأتوه حبوا..»[1].

وهنالك أحاديث كثيرة في فضل الكوفة وأهلها ومسجدها تجدها في مضانها من كتب الحديث والأثر.

والذي نستفيده من مجمل هذه الأحاديث وغيرها الكثير أنّ الكوفة وأهلها كانت عميقة الولاء لأهل البيتعليهم السلام، ولهذا دفعت ثمن هذا الولاء غاليا حيث: «امتحنت عبر تاريخها الطويل بويلات عظيمة صبّت عليها من الولاة الجائرين.. فلاقى أهلها الذبح، والصلب، والحبس، والتشريد في العصر الأموي، وكان بعضهم ينتقص أهلها ويسبهم يوم وجود أمير المؤمنينعليه السلام فيهم، فاستنكر عليهم فعلهم هذا ووبخهمعليه السلام بقوله: «... لا تسبوا أهل الكوفة...»»[2].

* مكانة الكوفة الحضارية:

أ مّا مكانة الكوفة الحضارية؛ فالكوفة لها عمق حضاري، «فقد تأسست مدينة الكوفة على انقاض مدينة الحيرة، تلك المدينة العربية العريقة التي كانت عاصمة لدولة المناذرة في عصر ما قبل الإسلام، فأصبحت الكوفة وريثة الحيرة... كما ورثت خصائصها العلمية والفكرية؛ فقد كانت (عاقولا) مركز الثقافة قبل الإسلام، وقد عدت الحيرة في عصرها الذهبي إحدى المدن العلمية الخمس التي تدرس الفلسفة

---

(١) الحموي، معجم البلدان: ٧ / ١٦٢، وبنفس المضمون رواية العلوي في فضل الكوفة: ٧٦ ـ ٧٧.

(٢) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٦٧.

اليونانية.. وقد امتدت هذه الحركة العلمية إلى الكوفة منذ تأسيسها عام (١٧ هـ / ٦٣٨ م))»[1].

يقول المؤرخ الشهير السيّد حسين البراقي النجفي في تاريخ الكوفة: «وانسكاب الحيرة في الكوفة يستلزم أن تتحول المزايا الأدبية من الحيرة إلى الكوفة، كما أنها ولا شك تحوّلت على مثل هذا من الكوفة إلى النجف، فتكون الحيرة قد انسكبت في الكوفة، والكوفة قد انسكبت في النجف، وعليه فإن خد العذراء الذي من أساريره اليوم مدينة النجف، وفي جنوبها على عشرة أميال الحيرة، وفي شرقيها على خمسة أميال الكوفة، كان ولا يزال محطة الأدب العالمي...»[2].

(١) الحكيم ـ حسن، الكوفة: ٢٦ ـ ٢٨.

(٢) البراقي ـ حسين، تاريخ الكوفة: ١٧١ استدراك: محمد صادق آل بحر العلوم، تحقيق: ماجد العطية، طبعة الحيدرية ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٤ هـ.

المبحث الثاني: انطلاق الحياة العلمية في الكوفة

لقد جمع المسلمون في الكوفة بين العلم والجهاد؛ فالكوفة وليدة حركة جهاد مستمرة قادها المسلمون لفتح البلدان ودخول أهلها في الإسلام، كما أنها شهدت جهادا آخر لا يقل شأنا عن الجهاد الأول، وهو الجهاد العلمي والتعليمي، ففاض منها الجهاد والعلم معا إلى بقية البلدان.

وقاد كلا الجهادين سادة الصحابة والتابعين، حيث «هبط على رمالها العدد الكثير من البدريين ومن أصحاب بيعة الشجرة، ومن المهاجرين والأنصار من صحابة رسول اللهﷺ»[1].

ويمكن أن نؤرخ للحركة العلمية في الكوفة من بدايات نشأة هذه المدينة وتمصيرها، فبعد أن نزلها جند الإسلام، واتخذوا منها مسكنا وقيروانا، تأسس مسجدها، واتخذ منه مكانا للعبادة والتعليم، حيث بعث إليها عمر بن الخطاب، الصحابيين عمار بن ياسر، وعبد اللّه بن مسعود، وجاء في كتاب عمر إلى أهل الكوفة: «وإني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميرا، وعبد اللّه بن مسعود معلما ووزيرا، وآثرتكم بعبد اللّه على نفسي، أثرةً وحبا لكم، وهما من النجباء من أصحاب محمدﷺ فاحسنوا مؤازرتهما»[2]. و «تشعرنا كلمة (معلم) إلى مكانة ابن مسعود العلمية في الإسلام

---

(١) أُنظر: ابن سعد، الطبقات: ٦ / ٣٦٧ وما بعدها.

(٢) العلوي، فضل الكوفة: ٨٩، والذهبي، سير أعلام النبلاء: ٢ / ٢٢٥، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، وابن سعد: ٦ / ٣٦٨.

حيث كان فقيها ومفسرا كبيرا وصاحب حلقة في مسجد المدينة، يلتف حوله عدد من الصحابة يسألونه في التفسير والفقه والتشريع»[1].

وعندما نعود إلى ترجمة ابن مسعود وخاصة فترة مكوثه في الكوفة نجد أ نّه قد تفرّغ لمهمة التربية والتعليم لأهل الكوفة، وضمن تخصّصه الذي عرف به وهو «القرآن الكريم» وبيان أُصول تلاوته، وتفسيره، فتخرج عليه بعض القرّاء المعروفين، مثلّ زِرّ بن حُبَيش الشكري العَطاردي الذي: «قرأ على عبد اللّه بن مسعود القرآن كلّه، في كل يوم آية واحدة، لا يزيد عليها شيئا، فإذا كانت آية قصيرة استقلّها زرّ من عبد اللّه، فيقول عبد اللّه: خُذها، فوالذي نفسي بيده، لهي خير من الدنيا وما فيها»[2].

وفي رواية الذهبي في سير أعلام النبلاء: «كان ـ ابن مسعود ـ معدودا في أذكياء العلماء» وقد روي عن رسول اللّهﷺ قوله: «مَنْ أَحبَّ أن يقرأَ القرآن غضّا كما أُنزل فليقرأ قراءةَ ابن أُمِّ عَبد» ويقصدﷺ عبد اللّه بن مسعود، وفي المصدر نفسه: «ما دخل الكوفة أحدٌ من الصحابة أنفع علما ولا أفقه صاحبا من عبد اللّه»[3]. والحديث ناظر إلى قدوم ابن مسعود المبكر إلى الكوفة إذ لم يكن أنفع علما ولا أفقه منه فيها، ولكن بعد عودة ابن مسعود إلى المدينة ووفاته فيها سنة اثنتين وثلاثين[4]، تغيّرت أوضاع الكوفة حيث دخلها الإمام عليعليه السلام سنة (٣٥ هـ) وفاض العلم من جوانبها كما سوف يأتينا لاحقا.

---

(١) الحكيم ـ حسن، الكوفة: ١١٢.

(٢) الحموي ـ ياقوت، معجم الأُدباء: ٧ / ٩٧ ـ ٩٨.

(٣) الذهبي ـ شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء: ٢ / ٢١٥ وما بعدها، تحقيق: محمود شاكر، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦ م.

(٤) المصدر نفسه: ٢ / ٢٣١.

ولم يقتصر الأمر في هجرة من هاجر إلى الكوفة على الجيش الذي جاء مع سعد بن أبي وقاص لفتح العراق، وإنّما شهدت الكوفة هجرة واسعة من الجزيرة العربية عامة، ومن بلاد اليمن خاصّة، بالاضافة إلى هجرة القوميات الأُخرى إليها، وخاصّة من طبقة الموالي الذين عرفوا فيها بالحمراء، الذين يذكرهم البلاذري في الفتوح بقوله: «كان مع رستم يوم القادسية أربعة آلاف يسمون جند شاهنشاه فاستأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبوا، ويحالفوا من أحبوا، ويفرض لهم في العطاء فأعطوا الذي سألوه، وحالفوا زهرة بن حوية السعدي من بني تميم، وأنزلهم سعد حيث اختاروا، وفرض لهم في ألف ألف، وكان لهم نقيب منهم يقال له ديلم، فقيل حمراء ديلم،.. قال ابن مسعود: والعرب تسمي العجم الحمراء، ويقولون جئتُ من حمراء ديلم كقولهم: جئت من جهينة وأشباه ذلك..»[1].

«وقد لعب ـ هؤلاء ـ دورا ثقافا أساسيا في الكوفة قبل سنة (٤٠ هجرية)، وفي البصرة إلى نهاية سنة (٨٣ هجرية)»[2].

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان: ٢١٩.

(٢) ماسينيون، خطط الكوفة: ٤٧ ـ ٤٨.

المبحث الثالث: طبقات المنتمين لمدرسة الكوفة

لعل أوسع من كتب عن الكوفة وطبقات الكوفيين هو محمد بن سعد الزهري صاحب كتاب الطبقات، حيث ذكر قوائم متعددة بأسماء الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ممن نزل الكوفة، تحت عنوان: «تسمية من نزل الكوفة من أصحاب رسول اللّهﷺ، ومن كان بها بعدهم من التابعين وغيرهم من أهل الفقه والعلم»، مبتدأ بطبقة الصحابة، ثمّ الطبقة الأُولى: «من أهل الكوفة بعد أصحاب رسول اللّهﷺ..» ثمّ يذكر الطبقات الأُخرى ويوصلها إلى الطبقة التاسعة[1].

يقول السيّد البراقي: «لقد أورد ابن سعد في الطبقات تراجم (٨٥٠) تابعيا ممّن نزل الكوفة،.. وكان لأكثرهم المكانة العليا الروحية، والمنزلة السامية في الزعامة، وكلهم رواة محدّثون تلقوا الحديث من الصحابة، وانتهلوا من المنبع الفيّاض باب مدينة العلم الإمام علي أمير المؤمنينعليه السلام، كما نزل الكوفة الجمّ الغفير من حفّاظ الحديث، وممّن تلقى العلم من الأئمة الهداة كالحسن والحسين وعليّ بن الحسين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وغيرهم من الأئمة، لا سيّما بعدما دخلوا الكوفة وبثوا العلم فيها، وخصوصا من روى عن الإمام الصادقعليه السلام يوم ازدهر العلم في عصره واتسع نطاقه»[2].

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ٦ / ٣٦٧ وما بعدها.

(٢) البراقي ـ حسين، تاريخ الكوفة: ٤٦٥.

ولهذا تميزت الكوفة عن غيرها من الأمصار والبلدان، بأنها: «رأس أهل الإسلام» وإنها: «رأس العرب»، وإنها: «قُبّة الإسلام وأهل الإسلام»، وإنّ: «بالكوفة وجوه الناس»[1] إلى غيرها من الكلمات الواردة بحق الكوفة وأهلها.

ومهما يكن من أمر، فالحياة العلمية وحركتها المتنامية في الكوفة بدأت مع تمصيرها، واستمرت في تألقها العلمي؛ والذي بلغ ذروته بقدوم الإمام علي عليه السلام إليها، متخذا منها عاصمة للعالم الإسلامي.

فالدرس القرآني والحديثي قد انطلق في الكوفة منذ بداية تمصيرها، وقد أشرنا إلى جهود ابن مسعود في ذلك باعتباره المعلم الأول في المدينة، وكان لبعض الصحابة الآخرين دور أيضا في ممارسة التعليم، منهم الصحابي حذيفة بن اليمان، الذي كان قد نزل الكوفة والمدائن بعدها، وكانت له حلقة درس واسعة في مسجد الكوفة، ففي رواية نصر بن عاصم الليثي قال: «أتيتُ اليشكري في رهط من بني ليث، فقال: قدمت الكوفة، فدخلت المسجد، فإذا فيه حلقة كأنما قُطِعت رؤوسهم، يستمعون إلى حديث رجل، فقمت عليهم، فقلتُ مَن هذا؟ فقيل: حذيفة بن اليمان صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، فدنوت منه، وسمعت بعض حديثه عن رسول الله صلى الله عليه وآله»[2].

وفي حديث آخر عن عمران بن سريع قال: «كنا مع حذيفة رضي الله عنه في مسجد الكوفة، فأنشأ يُحدِّث عن الأحزاب»[3].

(١) البراقي ـ حسين، تاريخ الكوفة: ٦ / ٣٦٧.

(٢) الطريحي ـ محمد سعيد، العتبات المقدّسة في الكوفة: ٤٨ عن حلية الأولياء.

(٣) المرجع نفسه: ٤٨ عن تاريخ البخاري: ٦ / ٤١٣.

المبحث الرابع: دور تلامذة مدرسة مكة والمدينة في الحركة العلمية في الكوفة

لقد كان لخريجي مدرسة مكة والمدينة دور كبير في انتقال بعض أوجه النشاط العلمي والحركة الثقافية والفكرية إلى الكوفة والبصرة بعد تمصيرها. «وكانت مدينة الكوفة قد بدأت بجامعها، وكان نواتها الصحابة الذين هبطوا أرضها، وكان عددهم ثلاثمائة من أصحاب الشجرة وسبعون من أهل بدر» وكانت هذه المدينة قد حفظت بيضة الإسلام من جهة، ونشرت علومه من جهة أُخرى، وقد حمل لواءها الصحابة، ثمّ التابعون، وتابعو التابعين، وأصبح لكل صحابي مدرسة من التابعين تأخذ عنه وتلتف حوله»[(١)].

وهكذا تتابع على هذه الحركة العلمية النابهون من الصحابة وتلامذتهم ومن تابعهم؛ فأعدوا جيلاً من العلماء الذين استطاعوا أن ينهضوا بالعلم نهضة واسعة في العصرين الأموي والعباسي[(٢)].

ويمكن أن نشير إلى بعض تلامذة مكة والمدينة؛ ممن كان لهم دور في اثراء الحركة العلمية في المدينة منهم:

١ ـ إسماعيل بن عبد الرحمن المعروف بالسدي الكوفي.

---

(١) الحكيم ـ حسن، الكوفة: ١٩٩ نقلاً عن ابن سعد في الطبقات: ٦ / ٩.

(٢) المرجع نفسه: ٢٠٠.

وهو حجازي الأصل، وسكن الكوفة ونسب إليها، وعرف بصاحب التفسير والمغازي والسير.. وقد وثقه جماعة من المحدثين وذكروه بخير، ووصفوه بالاستقامة والصدق وحسن الحديث[1].

وقد ترجمه الخوانساري في الروضات والسيّد الأمين في الأعيان[2]، ويقول عنه الشيخ القمي في الكنى والألقاب: «إنه المفسر المعروفة أقواله في كتاب (التبيان) للشيخ الطوسي وغيره، كان نظير مجاهد وقتادة والكلبي والشعبي..»[3].

وقد أخذ الشيخ الطوسي برأيه عند تفسير بعض الآيات القرآنية، وعبر عن آرائه بأ نّه «دلّ عليه أكثر محصلي المفسرين وهو الصحيح»[4]. ومن المحتمل أنّ الشيخ الطوسي بترجيحه لرأي السدي قد جعل ابن حجر يقول عنه: «إنّه رمي بالتشيع»[5].

وتنتهي رواية السدي في التفسير بعبد اللّه بن عباس، وعبد اللّه بن مسعود[6].

٢ ـ ومنهم: أبو النضر محمد بن السائب الكلبي.

وهو رائد النسابين في الكوفة، وينتسب إلى قبيلة كلب الحجازية، إلّا أ نّه عاش في الكوفة وأصبح من علمائها المشهورين بالتفسير والأخبار وأيام الناس، حتى قيل إنه

---

(١) أُنظر: ابن حجر، تقريب التقريب: ١ / ٧١، والمزي، تهذيب الكمال: ٣ / ٤٦٢، والذهبي، العبر: ١ / ١٦٥، وابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة: ١ / ٣٠٨.

(٢) الخوانساري، روضات الجنات: ٢ / ٩، والأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ٣ / ٣٨١.

(٣) القمي ـ عباس، الكنى والألقاب: ٢ / ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

(٤) الطوسي ـ محمد بن الحسن، التبيان: ١ / ٣٥٤.

(٥) ابن حجر، تقريب التقريب: ١ / ٧١.

(٦) الحكيم ـ حسن، الكوفة: ٢٥٢.

«مقدم الناس في الأنساب»، ويقول بعض العلماء: هو صاحب التفسير والأخبار والأنساب[1].

يقول الدكتور عبد العزيز الدوري: «وقد أجمع مترجموهُ أنه كان عالما بالأنساب فضلاً عن علمي التفسير والأخبار، وقد ورث ولده هشام الكلبي علم الأنساب وإليهما تعود التطورات الثقافية، والصلات الوثيقة بين الأنساب والأخبار والدراسات الأدبية»[2]. وكان محمد بن السائب الكلبي يجلس في الكوفة للحديث والرواية والتفسير[3].

وذهبت بعض المصادر إلى تشيع محمد بن السائب الكلبي، وإنه من أصحاب الإمامين الباقر والصادقعليهما السلام.

ومما يؤكد تشيعه أنّ جدّه (بشرا) وبنيه (السائب، وعبيد، وعبد الرحمن) قد شهدوا واقعتي الجمل وصفين مع الإمام عليعليه السلام. ويبدو أن أُسرته لم تكن متعاطفة مع الأمويين، حيث إنّ والده قد قتل مع مصعب بن الزبير في عهد عبد الملك بن مروان[4].

ومن المؤكد أن تشيع محمد بن السائب الكلبي وأُسرته جعلت بعض مترجميه يضعون علامات التضعيف والتكذيب حوله حتى اتهموه بالغلو، ونسبوه إلى أصحاب عبد اللّه بن سبأ، كما اتهموه بالكذب والرفض[5].

---

(١) الحكيم ـ حسن، الكوفة: ٢٥٤.

(٢) الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ: ٤٠.

(٣) الحكيم، الكوفة: ٢٥٤.

(٤) أُنظر: الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣ / ٣٥٩.

(٥) الحكيم، الكوفة: ٢٥٦.

ومهما يكن من أمر فقد كان ابن الكلبي علما من أعلام الإسلام في الكوفة، وكان أعلم أهل زمانه بالأنساب، كما أ نّه كان عالما في تفسير القرآن وعلومه، حتى قيل عنه: إنه كان آية في التفسير واسعا في العلم[1].

٣ ـ ومنهم: سليمان بن صرد الخزاعي الكوفي.

وهو الصحابي الجليل الذي أسلم على يد رسول اللّهﷺ، وكان اسمه في الجاهلية يسارا، فسماه النبيﷺ سليمان بعد اسلامه[2]. وقد شارك مع النبيﷺ في بعض المغازي ومنها غزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة.

لقد هاجر سليمان بن صرد إلى الكوفة واتخذها سكنا له منذ تأسيسها عام (١٧ هـ)[3].

«وقد ساعدت صحبته للنبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام على رواية الحديث الشريف، كما روى عن الإمامين علي والحسن وعن بعض الصحابة، وقد عدّه الشيخ الطوسي من رجال الشيعة»[4].

ولسليمان بن صرد حياة جهادية حافلة ختمها بالشهادة في (عين الوردة) من بلاد الشام.

---

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات: ٣ / ٨٣.

(٢) الحاكم، المستدرك: ٣ / ٥٣٠.

(٣) الحاكم، معرفة علوم الحديث: ١٩١، والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١ / ٢١٥.

(٤) الحكيم ـ حسن، الكوفة: ٢٤٩، وأُنظر رجال الطوسي: ٦٦ و ٩٤.

الفصل الثاني

مدرسة الكوفة بعد وفود أمير المؤمنين عليه السلام إليها

المبحث الأول: دور الإمام علي عليه السلام في تنمية العلوم الإسلامية في مدرسة الكوفة

المبحث الثاني: العلوم والمعارف التي رسخها الإمام علي عليه السلام في مدرسة الكوفة

المبحث الثالث: تلامذة الإمام علي عليه السلام في الكوفة

المبحث الأول: دور الإمام علي(عليه السلام) في تنمية العلوم الإسلامية في مدرسة الكوفة

في الثاني عشر من شهر رجب عام (٣٦ هـ) دخل الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) مدينة الكوفة قادما إليها من البصرة بعد فراغه من موقعة الجمل، وأصبحت الكوفة عاصمة للعالم الإسلامي، وقائدة للأُمة[١].

ولم يكن انتخاب الإمام علي(عليه السلام) للكوفة اعتباطيا، أو أنها محض صدفة، أو وليدة ظروف عسكرية ضاغطة، وإنما كان انتخابا مدروسا بعناية فائقة، وله خلفيته الحضارية والعقائدية، بالاضافة إلى أهمية الكوفة عسكريا، إذ إنها حلقة الوصل بين الجزيرة العربية وبلاد الشام، وبلاد الشرق.

وهذا ما أفصح عنه الإمام في أكثر من حديث عن الكوفة وأهلها والتي نقلنا شطرا منها فيما سبق من البحث.

لقد كانت الكوفة ـ ومنذ تأسيسها ـ منطلقا للدرس القرآني والحديثي الذي كان يحمله الصحابة في عمق وعيهم وإيمانهم، فانطلق من جوانحهم ليملأ اجواء هذه الأرض المباركة من عبق القرآن الكريم، وأحاديث وتعاليم الرسول الأمين(صلى الله عليه وآله).

«بيد أنّ الحياة العلمية افتتحت عهدا جديدا حالما وفد أمير المؤمنين(عليه السلام) إليها سنة (٣٥ هـ). وأضحت السنوات الخمس التي مكث فيها بالكوفة منذ وفوده إليها حتى استشهاده سنة (٤٠ هـ) تمثل العصر التأسيسي لغير واحد من العلوم الإسلامية؛ ذلك

---

(١) المسعودي ـ علي بن الحسين، مروج الذهب: ٢ / ٣٧٢، أُفست طبعة دار الأندلس، والشيخ راضي آل ياسين، صلح الحسن: ٦٤، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م.

أنّ الإمام علياً عليه السلام عنى عناية فائقة بغرس وتنمية الحياة العلمية، ولم تمنعه الحروب والاضطرابات التي استغرقت منه زمنا وجهدا كبيرا، من مهمته العلمية في هذه الحاضرة الجديدة، فكان نشر العلوم الإسلامية شاغله الأعظم، وكانت تربية وإعداد النخبة من حملة هذه العلوم وظيفته التي ما أنفك مواظبا عليها في السلم والحرب، وفي الحضر والسفر، وفي الكوفة وخارجها، ففي كل زمان كان معلما، وفي كل مكان حلّ فيه كان معلما أيضا، وحرص تلامذته على الإفادة منه وحفظ ما يلقيه إليهم أينما كانوا»[١].

---

(١) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٦٩.

المبحث الثاني: العلوم والمعارف التي رسخها الإمام عليعليه السلام في مدرسة الكوفة

لقد ظهرت في مدرسة الكوفة في عصر الإمام عليعليه السلام خلال فترة حضوره فيها، جملة من المعارف الإسلامية، فترسخت ونمت بعد ذلك بواسطة النابهين من تلامذته، ثمّ توسعت بشكل ملحوظ في فترة حضور الإمام جعفر بن محمد الصادقعليه السلام في الكوفة.

وقد سجّل لنا تاريخ العلوم والمعارف جملة من الاسهامات العلمية في ذلك العصر كان الإمام عليعليه السلام رائدها، والتي منها:

أولاً ـ علوم القرآن وتفسيره

ومن أهم العلوم والمعارف التي حظيت بالقسط الوافر من اهتمام الإمام عليعليه السلام هو القرآن الكريم وعلومه، والتي تتعلق بقراءته وتفسيره، ومعرفة محكمه ومتشابه، وأسباب نزوله، وناسخه ومنسوخه.. وما إلى ذلك من الموضوعات التي محورها الأساسي «القرآن الكريم».

يقول السيّد حسن الصدر: «.. لابدّ من التنبيه على تقدّم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب في تقسيم أنواع القرآن، فإنّه أملى ستّين نوعا من أنواع علوم القرآن، وذكر لكلٍّ نوع مثالاً يخصه، وذلك في كتاب نرويه عنه من عدّة طرق، موجود بأيدينا إلى اليوم، وهو الأصل لكلٍّ من كتب في أنواع علوم القرآن، وأوّل مصحف جُمع فيه القرآن على

ترتيب النزول بعد موت النبيﷺ هو مصحف أمير المؤمنين عليّعليه السلام والروايات في ذلك من طريق أهل البيتعليهم السلام متواترة، ومن طرق أهل السنة مستفيضة..»[1].

ويقول أحد الباحثين: «إنّ فترة إقامة أمير المؤمنينعليه السلام بالكوفة تميّزت بانعطاف ملحوظ في تعلّم القرآن والتعرّف على محكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، واستجلاء معانيه، ووعي مضامينه، ذلك أنّ علي بن أبي طالبعليه السلام وعى علوم الكتاب، وانفرد من بين سائر الصحابة الذين اهتموا بتعليم القرآن بعد وفاة رسول اللّهﷺ كتلميذه عبد اللّه بن عباس، وعبد اللّه بن مسعود، بأنه ورث تمام ما وعاه الرّسولﷺ من كتاب اللّه»[2].

ولهذا المعنى يشير الإمام في بعض كلماته التي أطلقها في معرض ردّه على المشككين، ونقضه لأقوال المنافقين، الذين ظهر أمرهم بشكل واضح في المجتمع الكوفي آنذاك، وكان لهم تأثيرهم السلبي على ذلك المجتمع.

روى الأصبغ بن نباتة، قال: «لما قدم أمير المؤمنين الكوفة صلّى بهم أربعين صباحا، يقرأ بهم: (سبح اسم ربك الأعلى)، قال: فقال المنافقون: لا واللّه، ما يحسن ابن أبي طالب أن يقرأ القرآن، لو أحسن أن يقرأ القرآن لقرأ بنا غير هذه السورة، قال: فبلغه ذلك، فقال: ويلٌ لهم، إني لأعرف ناسخه من منسوخه، ومحكمه من متشابهه، وفصله من فصاله، وحروفه من معانيه، واللّه ما من حرف نزل على محمدﷺ إلّا أني أعرف فيمن أنزل، وفي أي يوم، وفي أي موضع، ويل لهم، أما يقرأون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[3]. واللّه عندي، ورثتها من رسول اللّهﷺ، وقد

---

(١) الصدر ـ حسن، الشيعة وفنون الإسلام: ٦١ ـ ٦٢، والشيعة وعلوم الإسلام: ٣١٦.

(٢) الرفاعي، مدرسة أهل البيتعليهم السلام: ٧١.

(٣) سورة الأعلى: ١٨ ـ ١٩.

أنهى رسول اللّهﷺ من إبراهيم وموسىﷺ، ويلٌ لهم، واللّه أنا الذي أنزل اللّه فيَّ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾[1]، فإنما كنّا عند رسول اللّهﷺ، فيخبرنا بالوحي فأعيه أنا، ومَن يعيه، فإذا خرجنا قالوا: ماذا قال آنفا»[2].

ثانيا ـ علم النحو والعربية

ويعتبر علم النحو أحد أبرز العلوم التي غرس بذرتها أمير المؤمنينعليه السلام، وحرص على تنميتها تلميذه أبو الأسود الدؤلي، الذي تلقّى هذا العلم منه مباشرة، كما ينص على ذلك أغلب من أرخ لعلم النحو وبيَّن تاريخ انطلاقه ونشأته، يقول القفطي في كتابه انباء الرواة: «إنّ الجمهور من أهل الرواية، على أنّ أوّل من وضع النحو أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام. قال أبو الأسود: دخلت على أمير المؤمنين، فرأيتهُ مطرقا مفكّرا، قلت: فَبِمَ تَفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: سمعت في بلدكم لحنا، فأردتُ أن أضع كتابا في أُصول العربية، ثمَّ أتيتهُ بعد أيام، فألقى إليّ صحيفة، فيها: بسم اللّه الرحمن الرحيم، الكلام: اسم، وفعل، وحرف، فالاسم: ما أنبأ عن المسمّى، والفعل: ما أنبأ عن حركة المسمّى، والحرف: ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل، ثمّ قال: تتبعه وزد فيه ما وقع لك، واعلم، أنّ الأشياء ثلاثة، ظاهر، ومضمر، وشيءٌ ليس بظاهر مُضمر، وإنما العلماء في معرفة ما ليس بمضمر ولا ظاهر»[3].

---

(١) سورة الحاقة: ١٢.

(٢) العياشي ـ محمد بن مسعود، تفسير العياشي: ١ / ١٤، وللتوسع أُنظر: السيّد حسن الصدر، تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ٣١٦، والشيعة وفنون الإسلام: ٦١ وما بعدها.

(٣) القفطي، أنباء الرواة في إثبات النحاة: ١ / ٤.

وكتب ياقوت في المعجم: «أ نّه ـ أي الإمام عليعليه السلام ـ كان أوّل من وضع النحو، وسنّ العربية، وذلك أ نّه مرَّ برجل يقرأ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ بكسر اللام في رسوله، فوضع النحو، وألقاهُ إلى أبي الأسود الدؤلي»[1].

ويعدد ابن أبي الحديد بعض فضائل أمير المؤمنين، ويذكر منها العلوم التي ابتدعها وأنشأهاعليه السلام فيذكر منها: «علم النحو والعربية، وقد علم الناسُ كافّة أ نّه هو الذي ابتدعه وأنشأه، وأملى على أبي الأسود الدؤلي جوامعه وأُصوله، من جملتها: الكلام كلّه ثلاثة أشياء: اسم، وفعل، وحرف، ومن جملتها: تقسيم الكلمة إلى: معرفة ونكرة، وتقسيم وجوه الأعراب إلى: الرفع، والنصب، والجرّ، والجزم، وهذا يكادُ يلحقُ بالمعجزات، لأنّ القوة البشرية لا تفي بهذا الحصر، ولا تنهض بهذا الاستنباط»[2].

ولأبي حيان التوحيدي وصف لطيف لما قام به أمير المؤمنينعليه السلام في مجال علم النحو والعربية فيقول: «إنّ عليّ بن أبي طالبعليه السلام، سمع قارئا يقرأ على غير الصواب، فساءَهُ ذلك، فتقدّم إلى أبي الأسود الدؤلي، حتى وضع للناس أصلاً، ومثالاً، وقياسا، بعد أن فتق له حاشيته، ومهّد له مهادَهُ، وضرب له قواعِده»[3].

وهنالك عشرات النصوص من كبار علماء النحو واللغة تؤكد أولوية أمير المؤمنينعليه السلام في ابتداع وانشاء ووضع جوامع وأُصول علم النحو، بل حكي على ذلك الاجماع منهم[4].

---

(١) الحموي ـ ياقوت، معجم الأُدباء: ١٤ / ٤٢.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١ / ٥٥.

(٣) التوحيدي ـ أبو حيان، البصائر والذخائر: ١ / ١٧٥، طبعة بغداد، ١٩٥٤ م.

(٤) للتوسع أُنظر: حسن الصدر، الشيعة وفنون الإسلام: ٥٣٧، طبعة مؤسسة السبطين، والسيّد عبد الحسين شرف الدين، مؤلفو الشيعة في صدر الإسلام: ١٣ ـ ٢٧.

ثالثا ـ أُصول علم الكلام والتوحيد

يقول أحد الباحثين: «وتعود نشأة الحياة العقلية عند المسلمين إلى ما غرسه أمير المؤمنين من بذور صارت فيما بعد أُصولاً للفكر الإسلامي ولسائر تجليّات المنحى العقلي في الإسلام، فإنّ ما اشتملت عليه طائفة من خطبه وتعاليمه مثّلت رافدا أساسيا استقى منه المتكلمون مقولاتهم وآراءهم»[1].

ويؤيد ما ذهب إليه هذا الباحث كلمات بعض الأعلام من أئمة المذاهب الإسلامية.

يقول السيّد المرتضى علم الهدى: «إعلم أنّ أُصول التوحيد والعدل، مأخوذة من كلام أمير المؤمنين (صلوات اللّه عليه) وخطبه، فإنها تتضمن من ذلك ما لا زيادةَ عليه، ولا غايةَ وراءهُ، وَمن تأمّل المأثور في ذلك من كلامه عَلِمَ أنَّ جميع ما أسهب المتكلّمون من بعده في تصنيفه وجمعه، إنّما هو ما لا يُحاط به كثرةً»[2].

ويقر ابن أبي الحديد المعتزلي بأن سائر الفرق والنحل الكلامية قد اقتبست صفة الكلام من خطب أمير المؤمنين وكلامه، فيقول: «إنّ أشرف العلوم هو العلم الإلهي، لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم، ومعلومه أشرف الموجودات، فكان هو أشرف العلوم، ومن كلامه عليه السلام اقتبس، وعنهُ نُقل، وإليه انتهى، ومنه ابتدأ، فإنّ المعتزلة.. تلامذته وأصحابه، لأنّ كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم عبد اللّه ابن محمّد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذه عليه السلام وأما الأشعرية فإنهم ينتمون إلى أبي الحسن علي [إسماعيل بن] أبي بشر الأشعري، وهو تلميذ أبي علي الجبّائي، وأبو

(١) الرفاعي ـ عبد الجبار، مدرسة أهل البيت: ٧٤.

(٢) المرتضى، الأمالي: ١ / ١٤٨.

علي أحد مشايخ المعتزلة، فالأشعرية ينتهون بالآخرة إلى أُستاذ المعتزلة ومعلمهم، وهو علي بن أبي طالبعليه السلام، وأمّا الإمامية والزيدية فانتماؤهم إليه ظاهر»[١]. وهكذا يرجع ابن أبي الحديد جميع المدارس الكلامية من حيث مؤسسوها إلى الإمام عليعليه السلام، إذ إنّهعليه السلام معلمهم الأول من خلال خطبه وكلماته التي أطلق لها العنان في فترة خلافته الكوفية بعد أن كانت حبيسة صدره في فترة انزوائه في المدينة.

رابعا ـ الفقه والقضاء

وقد مرّ بنا في فصول سابقة من هذا الكتاب مرجعية أمير المؤمنينعليه السلام في الفقه والقضاء، حيث كان فقهاء الصحابة يرجعون إليه في كثير من المسائل التي أشكل عليهم حلها، وقد روت الخاصة والعامة عن رسول اللّهصلى الله عليه وآله: «أقضاكم عليّ»[٢].

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي: «ومن العلوم؛ علم الفقه، وهوعليه السلام، أصله وأساسه، وكل فقيه في الإسلام فهو عيال عليه، ومستفيد من فقهه، أما أصحابُ أبي حنيفة كأبي يوسف ومحمد وغيرهما فأخذوا عن أبي حنيفة، وأما الشافعي فقرأ على محمد بن الحسن، فيرجع فقهه أيضا إلى أبي حنيفة، وأما أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعي، فيرجع فقهه أيضا إلى أبي حنيفة؛ وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمدعليه السلام، وقرأ جعفر على أبيهعليه السلام، وينتهي الأمر إلى عليّعليه السلام، وأما مالك بن أنس فقرأ على ربيعة الرأي، وقرأ ربيعة على عكرمة، وقرأ عكرمة على عبد اللّه بن عباس، وقرأ عبد اللّه بن عباس

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١ / ١٧.

(٢) المرجع نفسه: ١ / ١٨.

على عليّ بن أبي طالب، وإن شئت فرددت إليه فقه الشافعيّ بقراءته على مالك كان لك ذلك؛ فهؤلاء الفقهاء الأربعة. وأما فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر»[1].

وضمن حوادث سنة (١٧ هـ)، يتحدث صاحب تاريخ المنتظم عن تخطيط الكوفة، وينقل نصا يتعلق بحلقات الدرس الفقهي في مسجد الكوفة، يقول الراوي: «رأيتُ بالكوفة في مسجد الجامع مائة حلقة فقه»[2].

خامسا ـ علم الفصاحة والبلاغة والبيان

تعتبر صفة الفصاحة والبلاغة والبيان من أبرز الصفات والخصائص التي اتصف بها أمير المؤمنين علي عليه السلام، فهو فارس مضمار البيان، بعد أن كان فارس مضمار الشجاعة والفروسية.

وكيف لا يكون كذلك وهو وارث علم النبي صلى الله عليه وآله ـ والذي هو أفصح من نطق بالضاد ـ «وأقرب الناس إلى فصاحته وبلاغته، وأحفظهم لقوله وجوامع كَلِمه»[3].

وكانت فترة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام مليئة بالمواقف والأحداث المتلاحقة، فسجل في تلك الأحداث والقضايا مواقفه المعروفة من خلال؛ خُطبه الرائعة، ورسائله الجامعة، ووصاياه النافعة، فتناقل البدو والحضر كلامه وخطبه، فكثرت رواته، وحفظه العلماء والدارسون؛ قال المسعودي: «والذي حفظ الناس عنه من خطبه في سائر

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١ / ١٨.

(٢) ابن الجوزي ـ عبد الرحمن ت ٥٩٧ هـ المنتظم في تاريخ الملوك والأُمم: ٤ / ٢١١، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٣) محمد أبو الفضل إبراهيم، مقدّمة شرح نهج البلاغة: ٤ / ١.

مقاماته أربعمائة خطبة ونيّف وثمانون خطبة، يوردها على البديهة؛ تداول عنه الناس ذلك قولاً وعملاً»[1].

ويقول ابن أبي الحديد: «وأ مّا الفصاحةُ فهوعليه‌السلام امام الفصحاء، وسيد البلغاء، وفي كلامه قيل: دون كلام الخالق، وفوقَ كلام المخلوقين، ومنه تعلّم الناس الخطابة والكتابة، قال عبد الحميد بن يحيى: حفظتُ سبعين خطبة من خطب الأصلع، ففاضت ثمَّ فاضت. وقال ابن نُباتة: حفظت من الخطابة كنزا لا يزيده الإنفاق إلّا سعة وكثرة، حفظت مائة فصل من مواعظ عليّ بن أبي طالب..»[2].

ولقد بقيت خطب أمير المؤمنينعليه‌السلام ووصاياه ومواعظه... محفوظة في صدور الرواة، ومروية شفاها عنهم، «حتى كان عصر التدوين والتأليف؛ فانتشرت خطبه ورسائله في كتب التاريخ والسِّير والمغازي والمحاضرات والأدب.. كما انتخبت كلماته ومأثور حكمه فيما وضعوه من أبواب المواعظ والدعاء.. وقد حاول كثير من العلماء والأُدباء على مرّ العصور أن يفردوا لكلامه كتبا خاصة ودواوين مستقلّة، بقي بعضها وذهب الكثير منها مع الأيام؛.. إلّا أنَّ أعظم هذه المحاولات خطرا، وأعلاها شأنا وأحسنها أبوابا، وأبعدها صيتا وشأوا، هو مجموع ما اختارهُ الشريف الرضيّ أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي؛ في كتابه (نهج البلاغة)»[3].

و «نهج البلاغة» ذلك الأثر الخالد من آثار أمير المؤمنينعليه‌السلام وإن لم يشتمل على جميع خطب وكلمات الإمامعليه‌السلام إلّا أ نّه: «ومنذ أن صدر هذا الكتاب عن جامعه سار في الناس ذكره، وتألق نجمه؛.. وأعجب به الناس حيث كان، وتدارسوهُ في كل مكان،

---

(١) المسعودي، مروج الذهب: ٢ / ٤٣١.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١ / ٢٤ المقدمة.

(٣) محمد أبو الفضل إبراهيم، مقدّمة نهج البلاغة: ٥ ـ ٦.

لما اشتمل عليه من اللفظ المنتقى، والمعنى المشرق؛ وما احتواهُ من جوامع الكلم، ونوابغ الحكم، في أُسلوب متساوق الأغراض، محكم السّبك، يُعد في الذّروة العليا من النثر العربيّ الرائع»[1].

ويشير ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة إلى مكانة هذا الكتاب فيقول: «ويكفي هذا الكتاب الذي نحن شارحوه دلالة على أنه لايجارى في الفصاحة، ولا يبارى في البلاغة، وحسبك أنه لم يدوّن لأحدٍ من فصحاء الصحابة العُشر، ولا نصف العُشر مما دوِّن له، وكفاكَ في هذا الباب ما يقوله أبو عثمان الجاحظ في مدحه في كتاب «البيان والتبيين» وفي غيره من كتبه»[2].

هذه أهم العلوم والمعارف التي أظهرها الإمام عليعليه السلام في الكوفة، ولسنا في صدد تحديدها بما ذكرنا، فعلم الإمام وسعة معارفه فوق هذا التحديد أو التحجيم، وإنما هي إشارات عابرة تتسق مع منهج البحث.

* أماكن التدريس والتربية والتعليم في مدرسة الإمام علي في الكوفة:

أولاً: مسجد الكوفة:

لقد كان مسجد الكوفة ولا زال هو المعلم الأساسي لهذه المدينة العريقة، والذي تأسس بتأسيسها، وبمرور الزمن تحول من مسجد جامع إلى جامعة إسلامية كبرى، فهو: «المركز التعليمي الذي كان يعلّم فيه علي بن أبي طالبعليه السلام تلامذته، حيث

---

(١) محمد أبو الفضل إبراهيم، مقدّمة نهج البلاغة: ١ / ٧.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، المقدمة: ١ / ٢٥.

انعقدت في أفيائه حلقات القرآن، ومن على منبره ألقى عليعليه السلام الكثير من خطبه الطافحة بالمعاني الربّانية العميقة، والتي اشتمل على بعضها كتاب (نهج البلاغة)»[1].

لقد اتخذ الإمامعليه السلام من مسجد الكوفة مكانا للتعليم العام، حيث يجتمع عامة المسلمين في أوقات الصلوات، وعند المناسبات، وفي الحالات التي توجه فيها دعوة عامة للحضور في المسجد، وكان الإمام يلقي عليهم خطبه وتعاليمه ومواعظه...

ثانيا: الأماكن العامة:

إلّا أننا نجد في بعض مفردات سيرة الإمام العلمية مع رعيته، أنهعليه السلام لم يكن يقتصر على المسجد في بثّ علومه، بل كان: «يطوف في أسواق الكوفة سوقا سوقا.. فيقف على أهل كلِّ سوق فينادي فيهم: يا معشر التجار، قدّموا الاستخارة، وتبرّكوا بالسهولة، واقتربوا من المبتاعين، وتزيّنوا بالحلم، وتناهوا عن اليمين، وجانبوا الكذب، وتجافوا عن الظلم، وانصفوا المظلومين، ولا تقربوا الربا، وأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، فيطوف في جميع الأسواق، ثمّ يرجع، فيقعد للناس...»[2].

لقد كانت هذه الطريقة المبتكرة من الإمامعليه السلام بمثابة المدرسة السيارة التي يدور بها الإمام على أرباب المكاسب والحرف فيفيض عليهم بعلمه ومواعظه.

ثالثا: الأماكن الخاصة لتعليم بعض أصحابه:

كما أن النصوص التاريخية تشير إلى أماكن خاصة وطريقة أُخرى للإمام في التربية والتعليم، يمكن أن نسميها: الأماكن الخاصة والتعليم الخاص، أو تربية بعض

---

(١) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٧٢.

(٢) الشيخ المفيد، الأمالي: ١٩٧ ـ ١٩٨، تحقيق: علي أكبر غفاري، طبعة جامعة المدرسين ـ قم.

الخواص من النابغين من أصحابه، إذ تشير بعض الوقائع إلى أنّ بعض تلامذة الإمام عليعليه السلام كان يحظى بإعداد وتأهيل خاصّ منه، كما يحكي كميل بن زياد النخعي نموذجا لذلك بقوله: «كنتُ مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام في مسجد الكوفة، وقد صلينا العشاء الآخرة، فأخذ بيدي، حتى خرجنا من المسجد، فمشى حتى خرج إلى ظهر الكوفة، لا يكلمني بكلمة، فلما أصحر، تنفس، ثمّ قال: يا كميل إنّ هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، احفظ عني ما أقول...»[1].

ومن المؤكد أنّ الإمامعليه السلام كان يتبع نفس الأماكن الخاصة أو غيرها، ونفس الطريقة في التعليم الخاص مع خواص أصحابه من أمثال: صعصعة بن صوحان، وعمار بن ياسر، وابن التيهان، وميثم التمار...، والذين هم من الأركان والأبدال، ومن خواص الإمام والحاملين لعلمه[2].

رابعا: بيت الإمامعليه السلام:

من المؤكد أنّ الإمامعليه السلام كان يستقبل بعض خواص أصحابه في بيته ويفيض عليهم من علومه ومعارفه إلّا أنّ النصوص التاريخية لا تسعفنا بشيءٍ سوى ما نقله الشيخ جعفر النقدي عن العلّامة السيّد نور الدين الجزائري في كتابه الخصائص الزينبية بقوله: «إنّ زينب [بنت علي]عليها السلام كان لها مجلس في بيتها أيام إقامة أبيهاعليه السلام في الكوفة، وكانت تفسر القرآن للنساء...»[3]. ومن المؤكد أنّ الحسن والحسينعليهما السلام كان لهما مجلس درس إلّا أنّ التاريخ أغفل ذلك!

---

(١) الشيخ المفيد، الأمالي: ٢٤٧.

(٢) أُنظر تراجمهم في كتب الرجال.

(٣) النَّقدي ـ جعفر، زينب الكبرى: ٥٤، طبعة مؤسسة الإمام الحسين ـ قم، ١٤١١ هـ.

المبحث الثالث: تلامذة مدرسة الإمام أمير المؤمنين في الكوفة وجهودهم العلمية بعد استشهاده عليه السلام

رغم الظروف الصعبة التي رافقت خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، وانشغاله بالحروب والفتن التي أثارها الناكثون والمارقون والقاسطون، والتي استوعبت كل وقته واهتمامه، إلّا أ نّه استطاع أن ينشيء مدرسة علمية في الكوفة كانت النواة لمدرسة كبرى تزعمها بعد ما يقارب القرن من الزمن حفيده الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

«إنّ مدرسة أمير المؤمنين في الكوفة تجذّرت بعد استشهاده بمرور الزمن، وتجلّت بأبهى صورة لها بعد ما يناهز القرن في العدد الكبير من التلامذة الذين ازدلفوا من أصقاع شتى للتتلمذ على حفيده جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وامتدّت هذه المدرسة جغرافيا من خلال انتشار مريديها وتلامذتها في البصرة، وقم، والريّ، وبغداد، فبسطت نفوذها، وشعّت أفكارها، لتهيمن على أبرز الحواضر العلمية الإسلامية وقتئذٍ»[1].

«وقد تربّى في فضاء مدرسة أمير المؤمنين، نخبة من التلاميذ عملوا على ارساء قواعد مدرسة أهل البيت عليهم السلام بالكوفة، مضافا إلى دورهم المتميز في غرس وتنمية بذرة غير واحد من العلوم عند المسلمين، فازدهرت على أيديهم الحركة الفكرية في الكوفة، وانتقلت بواسطتهم تلك العلوم إلى أمصارٍ أُخرى غيرها، وسجّل لنا تاريخ الحياة العلمية في الإسلام مساهمات رائدة لأسماء لامعة منهم»[2].

---

(١) مدرسة أهل البيت: ٧٥.

(٢) المرجع نفسه: ٧١ ـ ٧٢.

إلّا أنّ الحقبة الزمنية التي اعقبت استشهاد أمير المؤمنين سنة (٤٠) للهجرة، قد اتسمت بالكثير من الاضطرابات الداخلية، والثورات، والحروب الأهلية، والتي كان مسرحها الرئيسي مدينة الكوفة، هذه المدينة الثائرة على حكم بني أُمية والمتمردة على ولاته الظلمة.

ولقد شهدت فترة ما بعد استشهاد أمير المؤمنينعليه السلام خلافة الإمام الحسن بن عليعليه السلام والتي لم تدم لأكثر من ستة أشهر اضطر بعدها؛ وتحت وطأة الظروف القاهرة، إلى التنازل عن الخلافة لصالح معاوية بن أبي سفيان من خلال وثيقة الصلح المشهورة في التاريخ.

ولقد واكبت هذه المرحلة «حملة تصفيات واسعة شملت طليعة عالمة مجاهدة من تلامذة أمير المؤمنين وخاصة أصحابه، فيما اضطر آخرون منهم للهجرة من الكوفة واللجوء إلى بلدان أُخرى أبعد عن عيون السلطة الأموية، وأكثر أمنا من الكوفة، ونشأ عن تدهور الأمن انكماش وضمور أصحاب الحياة العلمية في مدرستها، استمر عشرات السنين، وإن لم يؤدِّ ذلك إلى اندثار هذه المدرسة»[1].

لقد واصلت مدرسة أهل البيتعليهم السلام في الكوفة مسيرتها العلمية بعد استشهاد أمير المؤمنينعليه السلام؛ ولكن ببطء وتأني وتقية وخوف، وهنالك إشارات تاريخية تكشف عن حظور علمي سجلته حلقات بعض تلامذة أهل البيتعليهم السلام في النصف الثاني من القرن الأول الهجري عقيب رحيل أمير المؤمنينعليه السلام.

روى الكشي في رجاله: أنّ المختار بن أبي عبيدة الثقفي «كان ليمرّ عند فاطمة بنت علي، يمهد لها الفراش، ويثني لها الوساند، ومنها أصاب الحديث»[2].

---

(١) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) الكشي، رجال الكشي: ١٢٦.

ورواية الكشي بحسب ظاهرها تحكي لنا حالة المختار قبل ثورته وقيامه بالثأر للإمام الحسينعليه السلام، وهذا يعني أ نّه بالرغم من حالة الإرهاب التي اتشحت بها مدينة الكوفة، وما تعرّض له اتباع أهل البيتعليهم السلام فيها من خوف واضطهاد، لم تحل هذه الظروف بينهم وبين السعي لتحصيل العلم ونشره.

لقد خلت الكوفة من أهل البيتعليهم السلام بعد استشهاد أمير المؤمنين، وتنازل الإمام الحسنعليه السلام عن الخلافة، إلّا أنّ مدرستهم استمرت من خلال تلامذتهم، وفي فرعي التفسير وعلومه، والحديث وعلومه، وكان من أبرز الأعلام الذين تصدّوا للتدريس بالكوفة في هذه الحقبة سعيد بن جبير تلميذ الإمام زين العابدينعليه السلام، وعبد اللّه بن عباس، فقد أقام بالكوفة «فجعل يُحدِّث»[1] وكان بعض التلامذة: «يختلف إلى سعيد بن جبير معه التفسير في كتاب، ومعه الدواة..»[2]، وقد سعى سعيد سعيا حثيثا لبثّ ما عنده من علوم، فكان يقول: «وددتُ أنّ الناس أخذوا ما عندي، فإنّه ممّا يهمّني»[3].

وسطع نجم سعيد بالكوفة، واشتهر بين أهل العلم، كأحد المفسّرين والمحدثين والفقهاء البارزين يومئذٍ، حتى «كان ابن عباس، بعد ما عمي، إذا أتاهُ أهل الكوفة يسألونه، قال: تسألوني وفيكم ابن أُمّ دهماء؟[4] يعني سعيد بن جبير»[5].

---

(١) المزي، تهذيب الكمال: ١٠ / ٣٦٢.

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٦ / ٢٦٦.

(٣) تهذيب الكمال: ١ / ٣٦٧.

(٤) ابن سعد، الطبقات: ٦ / ٢٥٧.

(٥) مدرسة أهل البيت: ٧٦.

الفصل الثالث:

مدرسة الكوفة في عصر الإمام الصادقعليه السلام

المبحث الأول: واقع الحركة العلمية في الكوفة قبل وفود الإمام الصادقعليه السلام إليها

المبحث الثاني: ازدهار الحركة العلمية ونموها واتساعها في عصر الإمام الصادقعليه السلام

المبحث الثالث: العلوم والمعارف التي رسخها الإمام الصادقعليه السلام في الكوفة

المبحث الرابع: انتشار تلامذة الإمام الصادقعليه السلام في البصرة وبغداد وقم والري

ـ أدوار مدرسة الكوفة

* الدور الأول: دور التأسيس

* الدور الثاني: دور الانكماش

* الدور الثالث: مرحلة الازدهار والتكامل

* الدور الرابع: مرحلة الاندثار..

ـ خلاصة وتقويم عام لمسار مدرسة الكوفة

المبحث الأول: واقع الحركة العلمية في الكوفة قبل رحيل الإمام الصادقعليه السلام إليها

يعتبر عصر الصادقين (محمد بن علي الباقر، وجعفر بن محمد الصادق)عليهما السلام من أهم عصور التشيع، لخصوصية العصر الذي عاشا فيه، والذي أدّى بدورهِ إلى توسع وازدهار الحركة العلمية وترسخها وتجذرها، وخاصة في مدرسة الكوفة العلمية.

وينص المؤرخون على أن عهد الصادقين هو عهد الانفراج للنشاط الفكري لمدرسة أهل البيت، وسماهُ بعضهم بـ (عصر انتشار علوم آل محمد) لأ نّه ـ كما يعلل ـ «عصر ضعف الدولتين ـ الأموية والعباسية ـ واشتغال أهل الدولة بأُمور الملك عن أهل الدين».. فكانت فضلاء الشيعة ورُواتهم في تلك السنين آمنين على أنفسهم، مطمئنين، متجاهرين بولاء أهل البيتعليهم السلام معروفين بذلك بين الناس، ولم يكن للأئمةعليهم السلام مزاحم لنشر الأحكام، فيحضر شيعتهم مجالسهم العامة والخاصة للاستفادة من علومهم»[١].

فحركة الزمن وعامله في عصر الإمامينعليهما السلام كان لصالحهما، فأنتج ذلك ـ نتيجة سعيهما الحثيث ـ نشاطا علميا واسعا، مع وفرة في عدد طلّاب العلم، وتنامي حلقات التدريس في مختلف شؤون المعرفة، وازدهار حركة تدوين العلوم والتأليف والابداع العلمي.

وقد تحدثنا في فصول سابقة عن مدرسة الصادقين في المدينة والنتاج العلمي الذي أثمرته مدرستهما في مدينة جدهما ومسجده المبارك.

---

(١) الطهراني ـ آقا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٢ / ١٣١ ـ ١٣٢.

واستكمالاً لذلك البحث لابدّ من الحديث هنا عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام في الكوفة، وما اتسمت به هذه المدرسة من خصائص وسمات.

وقبل الدخول في بعض تفاصيل الحركة العلمية للإمام الصادق عليه السلام في الكوفة لابدّ من الإشارة إلى خلفية هذه الحركة وممهداتها في الكوفة قبل رحيل الإمام الصادق عليه السلام إليها.

إلّا أنّ هذه الخلفية العلمية لا يمكن الإلمام بكل تفاصيلها لفقدان حلقات كثيرة منها، فلا يمكن للباحث في هذه الحقبة أن يدوّن جميع تفاصيل الحركة العلمية في الكوفة، وما حفلت به حلقات الدرس الشرعي في هذا العصر، لأنّ التاريخ لم يحتفظ لنا بالمصنفات العديدة المدوّنة في تلك الحقبة، والتي اهتمت بتاريخ الحركة العلمية فيها، إلّا أنّ ذلك لا يمنع من رسم ملامح وخطوط عامة لصورة الحياة العلمية بالكوفة، عبر التقاط بعض الإشارات من كتب الرجال، والتراجم والتاريخ، التي تحدثت عرضا عن ذلك عندما ذكرت أعلام الكوفة..»[(١)].

ومن أهم موارد البحث في تاريخ الحركة العلمية في الكوفة، كتب الرجال والتراجم وخاصة كتاب طبقات ابن سعد الذي خصّ الجزء السادس من طبقاته بمن نزل الكوفة من الصحابة التابعين وتابعي التابعين حتى أوصلهم إلى الطبقة التاسعة كذلك نجد عند السيّد بحر العلوم في رجاله تفاصيل وافية عن الأُسر العلمية الشيعية في الكوفة في عصر الإمام الصادق عليه السلام[(٢)].

---

(١) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٧٧.

(٢) للتوسع أُنظر، ابن سعد، الطبقات الكبرى، المجلد السادس بعنوان: طبقات الكوفيين، والسيّد محمد مهدي بحر العلوم، رجال السيّد بحر العلوم المعروف بالفوائد الرجالية، المجلد الأول، بتحقيق: محمد صادق بحر العلوم، وحسين بحر العلوم، طبعة أُفست مكتبة الصادق.

ويعد كتاب «تاريخ الكوفة» للسيّد حسين البراقي النجفي، مرجعا مهما لا يستغني عنه من أراد الحديث عن الكوفة في مجال التاريخ أو الآثار أو اللغة أو الآداب، وغير ذلك من العلوم والمعارف[1].

وتنص هذه المصادر والمراجع على استيطان ثلاثمائة من أصحاب الشجرة، وسبعين من أهل بدر الكوفة، واتخاذهم ايّاها وطنا دائميا لهم منذ تمصيرها[2].

كذلك أوردت تلك المصادر اسماء ما يربو على عشرين عائلة من العوائل المعروفة بولائها لأهل البيت بالكوفة من الصحابة وغيرهم، اشتهر أكثر المنتسبين إليها بطلب العلم، كآل أبي الجعد بن رافع الغطفائي الأشجعي مولاهم، وآل أبي الجهم القابوسي اللخمي، وآل أبي رافع، وآل أبي سارة، وآل أبي شعبة الحلبيين، وآل أبي صفية، واسم أبي صفية دينار، وهو أبو ثابت المعروف بأبي حمزة الثمالي، وآل أعين، وهم أكبر بيت في الكوفة من الشيعة، وأعظمهم شأنا، وأطولهم مدة وزمانا، بقي أواخرهم إلى الغيبة الكبرى، وآل حيان التغلبي مولى بني تغلب، وآل نعيم الأزدي الغامدي، وبني الحر الجعفي، وبني دراج، وبني عمار البجلي الدهني مولاهم... وغيرهم»[3].

وخلاصة الأمر، كانت هنالك حركة علمية ناهضة لدى شيعة الكوفة سبقت رحلة الإمام الصادقعليه السلام إليها. وقد تمثلت هذه الحركة في الشيعة والموالين لأهل البيتعليهم السلام وكانت بمثابة الأرضية للحركة العلمية الواسعة التي قادها الإمام الصادق بعد أن حطّ رحاله في الكوفة.

---

(١) الحكيم ـ حسن، الكوفة: ٣٠٠.

(٢) أُنظر: ابن سعد، الطبقات: ٦ / ٩.

(٣) البراقي ـ حسين، تاريخ الكوفة: ٣٦٩ ـ ٤١١، استدراك: محمد صادق بحر العلوم،تحقيق: ماجد العطية، طبعة المكتبة الحيدرية ـ النجف الأشرف، ١٩٦٠ م.

المبحث الثاني: ازدهار الحركة العلمية ونموها واتساعها زمن الإمام الصادقعليه السلام

مما لا شك فيه أنّ الإمام جعفر بن محمد الصادقعليه السلام مدني المولد والنشأة والمدفن، فبها ولد وفيها نشأ وترعرع، وبها مات ودفنعليه السلام ولم يرحل عنها إلّا في رحلته إلى العراق ثمّ عاد منها وقضى نحبه في المدينة في الخامس والعشرين من شهر شوال سنة (١٤٨ هـ) كما تحدثنا بذلك بعض النصوص التاريخية[1].

ولم يكن الإمام الصادقعليه السلام يحبذ الرحيل عن موطنه المدينة المنورة، لولا وجود الأرضية اللازمة لذلك، والتي تمثلت في وجود كتلة شيعية واسعة في الكوفة، وتوفر مناخ من الحرية قد تحقق فعلاً، مما يعني امكانية التحرك لنشر العلوم والمعارف الإسلامية وترسيخها في أذهان ووعي أبناء الأُمة الإسلامية، وهكذا حصل فقد رحل الإمام الصادقعليه السلام من المدينة، واستقر في الكوفة: «ولقد بقي في الكوفة سنتين، أيام أبي العباس السفاح، فازدلفت إليه الشيعة من كل فج زرافات ووحدانا، تسقى من العلم، وترتوي من منهله العذب الروي، وتروي عنه الأحاديث في مختلف العلوم، وكان منزلهعليه السلام في بني عبد قيس»[2].

لقد وفر وجود الإمامعليه السلام في الكوفة فرصة كبيرة لشيعته ولطلّاب العلم والمعرفة للتزود منه، والاغتراف من نمير علمه.

---

(١) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ٢ / ٥٠٧، طبعة دار التعارف ـ بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨م.

(٢) البراقي ـ حسين، تاريخ الكوفة: ٣٦٩ ـ ٤١١، تحقيق: محمد صادق بحر العلوم، ط. الحيدرية.

ولهذا شهدت الكوفة في هذه الحقبة حضورا مكثفا لطلّاب العلم والمعرفة، حتى أضحى لقاءُ الإمام من قبل مريديه ليس سهلاً في كلِّ آن، يقول محمد بن معروف الهلالي: «مضيتُ إلى الحيرة إلى جعفر بن محمدعليه السلام، فما كان لي فيه حيلة، من كثرة الناس، فلما كان اليوم الرابع رآني، فأدناني...»[1].

*** جامعة الإمام الصادقعليه السلام:**

لقد كان مكوث الإمام الصادقعليه السلام في الكوفة قصيرا ومحدودا في عمر الزمن، إلّا أنّ تفرغه الكامل فيها للتعليم والتربية، ووجود مناخ الحرية اللازم لنشأة العلوم وتوسعتها، بالاضافة إلى وجود المريدين والشيعة من طلاب العلم والمعرفة.. هذه العوامل وغيرها أعطت ثمارها. «فصارت مدرسة الكوفة في هاتين السنتين من أعظم الجامعات العلمية في العالم وقتئذٍ، بحيث وصل عدد الدارسين فيها إلى عدّة آلاف»[2].

لم يضبط لنا المؤرخون ـ وللأسف ـ عدد المرات التي استدعي فيها الإمام الصادقعليه السلام للعراق، إلّا أ نّها بدأت مع أبي العباس السفاح، الذي استلم الخلافة سنة (١٣٢ هـ) وتوفي في سنة (١٣٦ هـ) وكانت ولايته أربع سنين وثمانية أشهر[3]. واستمرت مع أبي جعفر المنصور والذي استلم الخلافة بعد موت السفاح سنة (١٣٦ هـ)، وتوفي سنة (١٥٨ هـ)، وكانت مدت ولايته اثنين وعشرين سنة إلّا أيام[4]

---

(١) ابن طاووس ـ عبد الكريم، فرحة الغري: ٥٩، طبعة الرضي ـ قم.

(٢) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٧٩.

(٣) الطبري ـ محمد بن جرير، تاريخ الطبري: ٧ / ٤٤١ ـ ٤٧١.

(٤) المصدر نفسه: ٧ / ٤٧١ و ٨ / ٥٩ ـ ٦٢.

ولمرات متعددة ـ لم يتبين لنا عددها ـ يستدعى الإمام إلى بغداد ليعود بعدها إلى مدينة جدّه، حتى توفي فيها في الخامس والعشرين من شوال سنة (١٤٨ هـ).

ولم يكن وجود الإمام في المدينة يمنع من لقاء شيعته به في موسم الحج، أو الوفود عليه والمكوث عنده للتلمذة عليه لفترة من الزمن كما حصل لبعض أصحابه ومريديه[١].

إلّا أنّ وفود الإمام إلى العراق كان له «الأثر البليغ في ميل النفوس إليه، وانعطافهم عليه، فوق ما يجدونه من السماع عنه، وما كان الناس كلّهم يذهب للحجّ فيجتمع به، فكانت جملة من الأحاديث أخذوها عنه في جيئاته إلى العراق»[٢].

ولم يكن كلُّ الشيعة يعرفون عن الإمام عليه السلام عظيم شأنه، وعلو قدره، قبل قدومه إلى العراق، لأنّ الخوف والتقية، وسلطان الجور... وغيرها من أسباب، شكلت حجبا وحواجز دون نشر فضائله إلّا بشكل محدود وبين الخواص من أصحابه.

ومن الآثار المهمة لمجيء الإمام الصادق إلى العراق إشارته لموضع قبر أمير المؤمنين عليه السلام، وتعريفه ذلك لخواص أصحابه، وكان الصادق عليه السلام يصحب في كلِّ زيارة بعض خواصّ أصحابه، وهو عليه السلام الذي أعطى دراهم لصفوان أمر صفوان بن مهران الجمال وأمره باصلاح القبر وبالبناء عليه[٣].

وقد روى الرواة في كتبهم عدّة زيارات للصادق عليه السلام، وكان الصادق عليه السلام يصحب في كلِّ زيارة واحدا أو أكثر من أصحابه ليدلّهم على القبر، ويصحب غيرهم في الزيارة

---

(١) أُنظر رجال النجاشي في ترجمة أبان بن تغلب: ١١.

(٢) المظفر ـ محمد حسين، الإمام الصادق: ١ / ١٢٤.

(٣) أُنظر: تحقيق محمد مهدي نجف، طبعة العتبة العلوية، الطبعة الأُولى المحققة، ١٤٣١ هـ ـ ٢٠١٠ م.

الأُخرى ليكثر عارفوه وزائروه، فروى كثير من رجاله هذه الزيارة، منهم صفوان الجمال، ومحمد بن مسلم، وأبو بصير وأبو الفرج السندي، وأبان بن تغلب، ومبارك الخباز، ومحمد بن معروف الهلالي،... وغيرهم ممن وردت أسمائهم في روايات المزار[1].

وبعد أن عرَّف الإمام بقبر جدّه أمير المؤمنين عليه السلام كثر زائروه واتُخِذ مسكنا لكثير من زائريه، وأصبحت مدينة النجف الأشرف مركزا علميا بعد وفود الشيخ الطوسي إليها، كما سوف يأتينا لاحقا.

وهنالك آثار أُخرى للإمام الصادق عليه السلام في العراق ذكرها بعض المؤرخين، منها: «محرابه في مسجد الكوفة.. وكذلك محرابه في مسجد السهلة.. وعلى ضفة نهر الحسينية في كربلاء محراب وعليه بنية ينسب إلى الصادق عليه السلام.. وفي الجانب الغربي من بغداد على ضفة النهر شمال جسره الغربي اليوم المعروف بالجسر القديم مكان يعرفه الناس بمدرسة الصادق عليه السلام، وليس فيه اليوم أثر بين، ولعلّه أفاد بعض الناس فيه عند مجيئه إلى بغداد على عهد المنصور...»[2].

إلّا أنّ حضور الصادق عليه السلام في بغداد والذي يذكره العلّامة المظفر في كتابه، لم يذكره الخطيب البغدادي في تاريخه، فيمن قدم بغداد من أهل البيت عليهم السلام، مع أنه ذكر ابنه الكاظم وحفيده الجواد عليهما السلام[3].

---

(١) أُنظر: ابن قالويه، كامل الزيارات: ٣٠ وما بعدها، والطوسي، التهذيب: ٦ / ٣١ وما بعدها. وابن طاووس، فرحة الغري: ١٥٩، الباب السادس.

(٢) المظفر: ١ / ١٣٠.

(٣) أُنظر، الخطيب البغدادي ـ أحمد بن علي، تاريخ بغداد: ٣ / ٢٦٥ و ١٣ / ٢٩، بتحقيق: مصطفى عبد القادر، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م.

وليس هذا بمستغرب من منهج الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) في كتابه: تاريخ بغداد أو مدينة السلام؛ فرغم جهوده الكبيرة في هذا الكتاب والذي يضم (٧٨٣١) ترجمة للمحدثين وأرباب العلوم ورجالات الدول والمجتمع الذين عاشوا ببغداد أو زاروها منذ نشأتها حتى عصره. إلّا أنه لم يكن موضوعيا في الكثير من الموارد حيث كان يتعصب على رجال مذهب أهل البيت عليهم السلام فيذكر الشيخ المفيد وتاريخ وفاته ويشنع عليه بالقول[1]، ويهمل ذكر الشيخ الطوسي مع أنه كان من المعاصرين له، وأهمل ذكر الإمام الصادق عليه السلام مع أن المنصور العباسي كان في بغداد واستدعى الإمام الصادق عليه السلام إليها لأكثر من مرة، فأين كان يلتقي بالإمام، هل كان يلتقيه خارج أسوار بغداد! فليس إلّا التعصب المذهبي المقيت هو السبب الذي حمل الخطيب على هذا الاهمال المتعمد!

بل إن بعض علماء الحنفية يرى أن الخطيب يتعصب على رجال مذهبهم وخاصة في ترجمته للإمام أبي حنيفة النعمان، كما أن ابن الجوزي اتهمه بالتعصب ضد الحنابلة، كذلك اتهم بالتدليس والتصحيف والرواية عن الضعفاء وكثرة الأوهام[2].

---

(١) أُنظر، تاريخ بغداد: ١ / ١٤ مقدمة التحقيق. وأُنظر ترجمته للشيخ المفيد: ٣ / ٤٤٩ ـ ٤٥٠، وترجمته لأبي حنيفة: ١٣ / ٣٢٥.

(٢) أُنظر، تاريخ بغداد: ١ / ١٤ مقدمة التحقيق. وأُنظر ترجمته للشيخ المفيد: ٣ / ٤٤٩ ـ ٤٥٠، وترجمته لأبي حنيفة: ١٣ / ٣٢٥.

*** آثار الإمام الصادقعليه السلام العلمية في الكوفة:**

ومن أهم آثار الإمام الصادقعليه السلام، والتي توسعت وآتت أُكلها بإذن ربها، هي تلك الجامعة الكبرى، والمدرسة العلمية، والحوزة الدينية، التي غرسها الإمام أمير المؤمنينعليه السلام في الكوفة، وأرسى قواعدها وشيّد بنيانها الإمام الصادقعليه السلام من بعده.

لقد كان لمدرسة الإمام الصادقعليه السلام خصائصها وآثارها العلمية، ومن أهمها، أ نّها كانت مدرسة منفتحة على الجميع، ولم تكن تختص بالإمامية فقط، وإنّما تجد فيها من اتباع المذاهب الأُخرى، بل إنّ ابن أبي الحديد قد أرجع علم المذاهب الأربعة إليه في الفقه[1]، وكان الإمامعليه السلام يفيض على الجميع من نمير علمه، «وما كان أخذ العلم عنه على الطراز الذي تجده اليوم في الحوزات العلمية والنقاش في الدليل والمأخذ، بل كان تلامذته يرون امامته عدا قليل منهم.. على أن من أخذوا عنه العلم من غير الإمامية كانوا يرون جلالته وسيادته وإمامته، وقد عدّوا أخذهم عنه منقبة شرفوا بها وفضيلة اكتسبوها.. فكان السائل يأتي إليه ويسأله عمّا أشكل عليه، وكان الكثير منهم قد استحضر الدواة والقرطاس ليكتب ما يمليه عليه الإمامعليه السلام ليرويه عنه عن تثبّت»[2].

لقد اتسعت مدرسة الإمامعليه السلام لتنفرد بكونها أعظم جامعة علمية في العالم وقتئذٍ، بحيث وصل عدد الدارسين فيها إلى عدّة آلاف، فقد ذكر الحافظ ابن عقدة في كتابه:

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح النهج: ١ / ٦.

(٢) المظفر: ١ / ١٣٥.

«أسماء الرجال الذين رووا عن الصادقعليه السلام» أربعة آلاف رجل، وأخرج فيه لكل رجل الحديث الذي رواه»[1].

«وربما كان بعض هؤلاء الرجال الذين ترجم لهم ابن عقدة ممَّن لم يرد الكوفة، وإنما تتلمذ على الإمام الصادقعليه السلام بالمدينة، بيد أنّ اشارة أُخرى جاءت في رجال النجاشي، تدلّل على اتساع نطاق مدرسته بالكوفة، وانضواء جميع أهل العلم تحت لوائه»[2].

وما أشار إليه النجاشي هو رواية أحمد بن محمد بن عيسى إذ يقول: «خرجت إلى الكوفة في طلب الحديث، فلقيت بها الحسن بن علي الوشاء، فسألته أن يُخرج لي كتاب العلاء بن رزين، فقال لي: يا أحمد، رحمك اللّه، وما عجلتك، اذهب فاكتبها، واسمع من بعد، فقلت: لا آمن الحدثان، فقال: لو علمت أنّ هذا الحديث يكون له هذا الطلب لاستكثرت منه، فإني أدركت في هذا المسجد تسعمائة شيخ كلّ يقول: حدّثني جعفر بن محمد»[3].

---

(١) الحلي ـ العلّامة، الرجال: ٢٠٤.

(٢) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٧٩.

(٣) النجاشي، الرجال: ٣٩ ـ ٤٠.

المبحث الثالث: العلوم والمعارف التي رسخها الإمام الصادقعليه السلام في جامعة الكوفة

ومهما يكن من أمر الروايات التي تحاول أن تحدد لنا عدد تلامذة الإمام في الكوفة، إلّا أنَّ ما يمكن أن نطمئن إليه هو كثرة عدد طلاب الإمام، وتنوع مذاهبهم، وتفوق هذه الجامعة على جميع المدارس والجامعات والحواضر العلمية المعاصرة لها، بل نكاد أن نجزم بعدم وجود جامعة أو مدرسة علمية تضاهي جامعة الإمام ومدرسته.

وأما العلوم والمعارف التي ظهرت في هذه الجامعة، فهي كثيرة، ولها حلقات دراسية عدّة، فتجد حلقة الحديث والمحدثين، الذي برع فيه الكثير من تلامذة الإمام، كما نجد فيها حلقة التفسير وعلوم القرآن، والفقه، والكلام، وعلوم اللغة العربية وآدابها، بالاضافة إلى العلوم الأُخرى كعلم النجوم، والكيمياء، وعلوم الطبيعة الأُخرى.

وفيما يلي وقفة مختصرة عند بعض هذه العلوم، ومن برع فيها من تلامذة مدرسة الإمام الصادقعليه السلام:

أولاً: علم التفسير والقراءات

لقد برز من بين تلامذة الإمام الصادقعليه السلام من تخصص في علم التفسير والقراءات، وبرع فيه حتى عُدَّ من أئمته، وشكلت نظرياته مرجعية علمية للدارسين لعلوم القرآن، «فقد عُرف جماعة من المفسّرين من تلامذة الإمام الصادق في الكوفة، ومن أشهرهم ثابت بن أبي صفية أبو حمزة الثمالي صاحب كتاب «تفسير القرآن» وقد

ذكر النجاشي في ترجمته أنّ له كتاب: «تفسير القرآن»؛ وروى عن إسحاق بن داود، عمن حدّثه قال: حدّثني أبو حمزة بالتفسير»[1].

ومنهم: ثعلبة بن ميمون (أبو إسحاق) الذي «كان وجها في أصحابنا، قارئا، فقيها، نحويّا، لغويّا، راويةً، وكان حسن العمل، كثير العبادة والزهد، روى عن أبي عبد اللّه وأبي الحسن عليهما السلام»[2].

ومنهم: عبد اللّه بن يعفور العبدي، الذي قال عنه النجاشي: «ثقة ثقة، جليل القدر في أصحابنا، كريم على أبي عبد اللّه (عليه السلام) وكان قارئا يُقرىء في مسجد الكوفة، له كتاب يرويه عن عدّة من أصحابنا..»[3].

ومنهم: حمران بن أعين الشيباني، الذي كان: «أحد حملة القرآن، ومن يُعدّ ويذكر اسمه في كتب القرّاء»[4].

والذي يبدو من بعض الروايات أن حمران بن أعين كان متخصصا في علم القراءات، وضمن المدرسة التخصصية التي دأب الإمام الصادق عليه السلام على انشائها من أصحابه، ولهذا تجد الإمام الصادق عليه السلام ينتدب حمران لمناظرة الرجل الشامي، الذي طلب من الإمام الصادق عليه السلام أن يناظره بقوله: «بلغني أ نّك عالم بكل ما تسأل عنه، فصرت إليك لأُناظركَ! فقال أبو عبد اللّه: في ماذا؟ قال: في القرآن وقطعه واسكانه وخفضه ونصبه ورفعه، فقال أبو عبد اللّه عليه السلام: يا حمران دونك الرجل، فقال الرجل:

---

(١) النجاشي، الرجال: ١١٥ ـ ١١٦.

(٢) المرجع نفسه: ١١٧ ـ ١١٨.

(٣) المرجع نفسه: ٢١٣.

(٤) أبو غالب الزراري، رسالة أبي غالب إلى ابنه في ذكر آل أعين: ١١٣، تحقيق: السيّد محمد رضا الجلالي، قم، ١٤١١ هـ.

إنما أريدك أنت لا حمران، فقال أبو عبد اللّه: إن غلبت حمران فقد غلبتني، فأقبل الشامي يسأل حمران حتى غرض[1]، وحمران يجيبه، فقال أبو عبد اللّه: كيف رأيت يا شامي؟ قال: رأيته حاذقا، ما سألته عن شيءٍ إلّا أجابني فيه...»[2].

ومنهم: أبان بن تَغلب بن رباح:

قال النجاشي في ترجمته: وكان أبان‏ مقدّما في كُلِّ فنٍّ من العلم في القرآن والفقه والحديث والأدب واللغة والنحو، وله كتب: منها تفسير غريب القرآن ـ ولأبان قراءة مفردة مشهورة عند القراء ـ»[3].

ومنهم الشيخ حمزة بن حبيب بن عمارة (أبو عمارة التَّيمي) الذي يعتبر من أبرز خريجي مدرسة الإمام الصادق في الكوفة. ويعدّ هذا الشيخ من أهم شيوخ القراءات القرآنية بل هو شيخ القرّاء، وأحد القرّاء السبعة الأئمة، والذي أخذ القراءة عن الإمام جعفر بن محمد الصادق، وحمران بن أعين»[4].

وهنالك الكثير من حملة القرآن ومن المفسرين والقرّاء ممن ينتسبون لمدرسة الإمام الصادق‏ في الكوفة، ورووا عنه غُرر الأحاديث التفسيرية، ومما عرف في التفسير بالمأثور، وكذلك في مجال تفسير آيات الأحكام الشرعية، والتي رويت عن أهل البيت وعن الإمام الصادق‏ بكثرة[5].

---

(١) غرض منه: أي ضجر وملَّ.

(٢) الكشي، الرجال: ٢٧٦ و ٢٨٨ من الطبعة الحديثة برقم ٤٩٤.

(٣) النجاشي، الرجال: ١١.

(٤) أُنظر ترجمته في معجم الأُدباء للحموي: ٣ / ٢٦١ ـ ٢٦٢، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م.

(٥) للتوسع أُنظر: طبقات المفسرين للشيخ العقيقي، وطبقات المفسرين للشيخ السبحاني بأجزائه المتعددة. والتفسير والمفسرون للشيخ محمد هادي معرفة: ١ / ٤٥٣ وما بعدها.

ثانيا: علم الحديث

يتبوّأ الحديث الشريف المروي عن النبيﷺ بواسطة أهل البيتعليهم السلام، الأهمية الكبرى بعد القرآن الكريم في مدرسة أهل البيتعليهم السلام، إذ يستند إليه في تفسير القرآن، وبيان تعاليم الدين الحنيف، واستنباط الأحكام الشرعية.

وقد أولى أئمة أهل البيتعليهم السلام علم الحديث أهمية كبيرة، فحدثوا عن جدهم النبي الأكرمﷺ، ووضعوا الضوابط العلمية الدقيقة لقبول الحديث أو رفضه، ويعتبر عصر الإمام الصادقعليه السلام، وخاصة في عهده الكوفي، عصر انتشار الحديث، يقول ابن الصباغ المالكي في ترجمة الإمام الصادقعليه السلام: «.. ونقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيتهُ وذكره في سائر البلدان، ولم ينقل العلماء عن أحد من أهل بيته ما نُقل عنه من الحديث»[1].

ويروي سبط بن الجوزي، عن الواقدي، قال: «أسند جعفر الحديث عن أبيه محمد... وروى عنه الأئمة سفيان الثوري، ومالك.. وشعبة، وأبو أيوب السجستاني وغيرهم»[2].

وفي مطالب السؤول لابن طلحة الشافعي: «نقل عنه (أي الإمام الصادق) الحديث، واستفاد منه العلم جماعة من الأئمة وأعلامهم مثل: يحيى بن سعيد

---

(١) ابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة في معرفة الأئمة: ٢ / ٩٠٨، تحقيق: سامي الغريري، طبعة دار الحديث ـ قم، الطبعة الثانية، ١٣٨٤ هـ ش.

(٢) سبط بن الجوزي ـ يوسف بن فرغلي، تذكرة الخواص: ٣٤٦، قدّم له: السيّد محمد صادق بحر العلوم، طبعة أُفست مكتبة نينوى ـ طهران، د ـ ت.

الأنصاري وابن جريج.. وغيرهم، وعدّوا أخذهم عنه منقبة شُرِّفوا بها، وفضيلة اكتسبوها»[1].

لقد اتسعت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام إلى درجة لم تدانيها أي مدرسة أُخرى في عصره، وكثر الرواة عنه إلى درجة تفوق حدَّ الإحصاء، يقول الشيخ المفيد في الإرشاد: «ولم ينقل عن أحدٍ من أهل بيته العلماء ما نقل عنه.. فإنّ أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرّواة عنه الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات، وكانوا أربعة آلاف رجل»[2].

ولم يشكك أحد فيما ذكره الشيخ المفيد من عدد الرواة عن الإمام الصادق عليه السلام، بل قد ذكر هذا الرقم أكثر الذين ترجموا للإمام عليه السلام[3].

ولم يذكر لنا الشيخ المفيد رحمه الله أسماء أُولئك الرواة، ولا الجامع لهم بهذا العدد، إلّا أنّ ابن شهر آشوب المازندراني قال: «إن ابن عقدة مصنّف كتاب الرجال لأبي عبد اللّه عددهم فيه»[4]. ولم يصلنا كتاب ابن عقدة (الرجال) والذي دوّن فيه أسماء من روى عن جعفر بن محمد عليهما السلام لنعرف مصدره الأصلي وموارده.

ومهما يكن من أمر، فقد كثر الرواة عن الإمام الصادق عليه السلام، و «أخذ عنه من أعلام السنة وأئمتهم، وما كان أخذهم عنه كما يأخذ التلميذ عن الأُستاذ، بل لم يأخذوا عنه

---

(١) ابن طلحة ـ كمال الدين الشافعي، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول: ٢ / ١١٠، تحقيق: ماجد العطية، طبعة دار الكتاب ـ قم.

(٢) الشيخ المفيد، الإرشاد: ٢ / ١٧٩.

(٣) أُنظر: الطبرسي، اعلام الورى: ٢ / ٥٣٥، والمحقق الحلي، المعتبر: ١ / ٢٦، وأُنظر ترجمة ابن عقدة عند النجاشي، الرجال: ٩٤ رقم الترجمة ٢٣٣.

(٤) أُنظر: مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب المازندراني: ٤ / ٢٤٧.

إلّاوهم متّفقون على إمامته وجلالته وسيادته.. بل عدّوا أخذهم عنه منقبة تشرّفوا بها، وفضيلة اكتسبوها..»[1].

وقد مرّ بنا سابقا اسماءُ بعض من روى عنه عليه السلام من أعلام وأئمة السنة.

أما الرواة عنه من الخاصة، فهم من الكثرة بمكان لا يمكن ذكر بعضهم فضلاً عن ذكرهم جميعا، على أن كتب التراجم والرجال قد كفتنا مؤنة ذلك إذ استقصت أكثرهم ذكرا وترجمة «فذكر البرقي في رجاله أكثر من ألف رجل، ممّن روى عنهما ـ أي الباقر والصادق عليهما السلام ـ وأحصى الشيخ الطوسي ثلاثة آلاف ومائتين وثمانية عشر رجلاً من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام»[2].

وكان لرجال مدرسة الكوفة حصة الأسد من بين الرواة عن الإمام الصادق عليه السلام «إنّ السابر لرجال النجاشي يقف على أنّ للكوفيين أثرا بالغا في نشر حديث أئمة أهل البيت عليهم السلام، فأكثر المحدثين الشيعة هم من الكوفة وما والاها، ومن انضمّ إليهم من اليمنيين المقيمين في الكوفة، وكفى بعظمة تلك المدرسة إنّه تخرج منها أبطال علم الحديث نظراء: أبان بن تغلب، وزرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم، وعبد اللّه بن بكير، وعلي بن رئاب، والعلاء بن رزين، وجميل بن درّاج، وإسحاق ابن عمار، ومعاوية بن عمار.. وغيرهم من رواد الحديث...»[3].

---

(١) العلامة المظفر: ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٢) أُنظر، البرقي ـ أبو جعفر أحمد بن محمد، رجال البرقي: ٤٩ ـ ١١٣ تحقيق: جواد القيومي، والطوسي، الرجال: ١٢٣ ـ ٣٢٨، والسبحاني ـ جعفر، دور الشيعة في الحديث والرجال: ١١٣، طبعة مؤسسة الإمام الصادق ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٣١ هـ.

(٣) المرجع نفسه: ٢١٧.

وقد خلّف لنا أُولئك الرواة من التراث العلمي ما يعرف بالأُصول الأربعمائة، وهي التي حوت ما سمعه أُولئك الرواة عن الأئمةعليهم السلام أو عمّن سمعه منهم، دون أن يتوسط بينهم وبين الحديث كتاب، وهذه الأُصول هي المصدر المهم للجوامع الحديثية الأولية والثانوية.

هذا وقد ضبط هذه الأُصول الشيخ المتبحر في الحديث.. محمد بن الحسن الحر العاملي في آخر الفائدة الرابعة من كتابه المسمى بـ «تفصيل وسائل الشيعة إلى أحكام الشريعة» بعد ما عدّد الكتب التي أخرج منها كتابه المذكور بلا واسطة وهي ثمانون كتابا، والذي مع الواسطة وذُكر باسمه سبعين كتابا، ثمّ قال: «وأما ما نقلوه منه ـ ولم يصرّحوا باسمه ـ فكثيرٌ جدا، مذكور في كتب الرجال، يزيد على ستّة آلاف وستمائة كتاب، على ما ضبطناه»[1].

هذا وقد جمع المتأخرون من أهل العلم بالحديث من تلك الكتب والأُصول جوامع كبار عليها المعول، وإليها المرجع للشيعة في هذه الأعصار، واشتهارها عندهم كالشمس في رابعة النهار، تعرف عندهم بالكتب الأربع كالصحاح الست عن أهل السُّنَّة»[2].

ثالثا: علم الفقه

بعد أنّ مرَّ علم الفقه الإسلامي بمرحلة التأسيس في طبقته الأُولى، جاء دور التصنيف والتأليف بعد التأسيس وعلى أيدي فقهاء التابعين الشيعة، ويعتبر عصر

---

(١) الحر العاملي ـ محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ٣٠ / ١٦٥ الفائدة الرابعة، طبعةمؤسسة آل البيت، الطبعة الأُولى، ١٤١٢ هـ.

(٢) حسن الصدر، تأسيس الشيعة: ٢٩٨.

الإمام الصادق عليه السلام من العصر الثاني لانطلاق الفقه الإسلامي، «كما أنّ الفقهاء المعروفين في هذه الفترة تخرجوا من هذه المدرسة، فقد كان أبرز الفقهاء المتقدمين في مدرسة أهل البيت عليهم السلام من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام بالكوفة»[1].

أما المشاهير من الفقهاء في مدرسة الإمام الصادق، فقد سماهم أبو عمرو الكشي في كتاب الرجال بما نصه: «في تسمية الفقهاء من أصحاب أبي جعفر وأبي عبد اللّه عليهما السلام: اجتمعت العصابة على تصديق هؤلاء الأولين من أصحاب أبي جعفر عليه السلام وأبي عبد اللّه عليه السلام، وانقادوا لهم بالفقه، فقالوا أفقه الأولين ستّة: زرارة، ومعروف بن خَربوذ، وبريد، وأبو بصير الأسدي، والفضيل بن يسار، ومحمد بن مسلم الطايفي[2]، قالوا: وأفقه الستّة زرارة، وقال بعضهم مكان أبي بصير الأسدي، أبو بصير المرادي، وهو ليث بن البختري»[3].

وفي نص آخر ينص الكشي على «تسمية الفقهاء من أصحاب أبي عبد اللّه عليه السلام أجمعت العصابة على تصحيح ما يصحّ من هؤلاء وتصديقهم لما يقولون، وأقرّوا لهم بالفقه، من دون أُولئك الستة الذين عددناهم وسمّيناهم، ستّة نفر: جميل بن دراج، وعبد اللّه بن مسكان، وعبد اللّه بن بكير، وحماد بن عيسى، وحماد بن عثمان، وأبان بن عثمان، قالوا: وزعم أبو إسحاق الفقيه يعني ثعلبة بن ميمون: إنّ أفقه هؤلاء جميل بن درّاج، وهم أحداث أصحاب أبي عبد اللّه عليه السلام»[4].

---

(١) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٨٠.

(٢) هكذا ورد في المصدر، ولعل الصحيح: الطائي.

(٣) الكشي ـ أبو عمرو، الرجال: ٢٣٨.

(٤) المصدر نفسه: ٣٧٥.

فأُولئك الفقهاء الرواة، والذين اصطلح عليهم في علم الرجال بـ (أصحاب الإجماع) وهم ثلاث طبقات باضافة طبقة أُخرى ذكرها الكشي[1] أيضا ـ ولم نذكرها لأنها خارجة عن موضوع بحثنا ـ نجد أنّ الطبقة الأُولى والثانية هم من أصحاب الإمام الصادقعليه السلام، مما يعني أنّ مجموعة من أصحابه قد تخصص في مجال الفقه وتبيان الأحكام الشرعية، ترجع إليهم الأُمة الإسلامية لمعرفة معالم أحكام الشريعة.

ويعقب السيّد حسن الصدر بعد تعداد الطبقات الثلاثة من أهل الإجماع بقوله: «وكل هؤلاء أرباب الطبقات الثلاثة مصنفون في الفقه، أو لهم كتب كثيرة مفهرسة في كتب الفهارس؛ ككتاب فهرست الشيخ أبي جعفر الطوسي، وفهرست أبي العباس النجاشي، وفهرست أبي الفرج بن النديم، ورجال العقيلي، وابن الغضائري..»[2].

رابعا: علم الكلام

يعتبر العصر الأول من تاريخ الدولة العباسية، عصر ظهور التيارات الفكرية والعقائدية بالاضافة إلى ظهور فلسفات وثقافات جديدة، لم تكن مألوفة في المجتمع الإسلامي، وأحدثت حالة من الارباك والبلبلة الفكرية والعقائدية بين المسلمين نتيجة النظريات الغريبة الوافدة حول الكون والحياة والإنسان، والتي حملها وروج لها الدهريون والملاحدة والزنادقة، وضمن منهج وأُسس لا تلتقي مع نظرة الإسلام وفلسفته للكون والحياة.

ينقل السيّد حسن الصدر عن الحافظ الذهبي قوله: «وفي هذا الزمان ـ يعني أول دولة بني العباس ـ ظهر بالبصرة عمرو بن عبيد العابد، وواصل بن عطاء الغزال، ودعوا

---

(١) الكشي: ٥٥٦.

(٢) الصدر ـ السيّد حسن، تأسيس الشيعة: ٢٩٩.

الناس إلى الاعتزال والقول بالقدر، وظهر في خراسان الجهم بن صفوان ودعا إلى تعطيل الرَّب عزّ وجل، وخلق القرآن، وظهر بخراسان في مقابلته مقاتل بن سليمان المفسر، وبالغ في إثبات الصفات حتى الجسم»[1].

يدل هذا النص على أنّ العصر الأول للدولة العباسية هو عصر ظهور التيارات العقائدية المتباينة، وعصر المجادلات والنظر، وعصر اتساع دائرة الخلافات العقائدية.

وقد عاصر الإمام الصادق عليه السلام، هذا العصر، وتلك التيارات العقائدية، فكان موقفه هو موقف الدفاع عن الإسلام ورد الشبهات العقائدية والفكرية، «كما أنّه عليه السلام، قد وجه أصحابه على قدر كفاءتهم ومقدرتهم، ليخوضوا تلك المعارك الفكرية، ويقفوا في صد تلك التيارات والأعاصير... فكانت لهم اليد الطولى في خوض تلك المعارك ومحاربة أهل الالحاد والزندقة، ومناظرة أهل العقائد الفاسدة والفرق الشاذة»[2].

لقد كان أصحاب الإمام الصادق عليه السلام يقومون بمهامهم العلمية بحسب اختصاصهم وملكاتهم العلمية، ووفق التوجيهات والخطط التي يرسمها لهم أُستاذهم وتحت اشرافه المباشر، فهو المصدر الأول والمنتهى الأخير لتلك التعاليم التي تقوم بها النخبة من أصحابه.

وقد اشتهر مجموعة من تلامذة الإمام الصادق بمحاجاتهم، منهم:

أولاً: زرارة بن أعين.

---

(١) الصدر ـ حسن، تأسيس الشيعة: ٣٥٠ وتجد قطع من هذا النص متفرقا عند الذهبي في تاريخ الإسلام: ٦٥ ـ ٦٨، مجلد حوادث سنة ١٢١ ـ ١٤٠ هـ.

(٢) أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ٤ / ٤١٠، طبعة دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية، ١٩٧١م.

الذي عرف عنه أنه كان: «خَصِما، جَدلاً، لا يقوم أحد لحجّته،... والمتكلمون من الشيعة تلاميذه»[1]. وينصّ النجاشي على أنّ زرارة «كان... متكلما، وإنه له كتابا في الاستطاعة والجبر»[2].

وكان لزرارة منزلة عظيمة عند الإمام الصادقعليه السلام فقد روي عنه: «.. لولا زرارة لظننت أن أحاديث أبيعليه السلام ستذهب»[3]. بالاضافة إلى أحاديث أُخرى أوردها الكشي في ترجمته المطولة له.

وكان أصحاب الإمام الصادقعليه السلام على جلالة قدرهم يعتبرون أنفسهم تلامذة لزرارة، ففي رواية داود المنقري، عن ابن أبي عمير، قال: قلتُ لجميل بن دراج ما أحسن محضرك وأزين مجلسك؟! فقال: اي واللّه ما كنّا حول زرارة بن أعين، إلّا بمنزلة الصبيان في الكتّاب حول المعلم»[4].

فزرارةرحمه الله قد جمع الفضل كلّه، ولكن شهرته في الفقه غلبت على فضائله الأُخر.

ثانيا: هشام بن الحكم.

ولعلّه من أبرز تلامذة الإمام الصادقعليه السلام تخصصا في علم الكلام، وبحسب تعبير العلّامة الحلّي كان: «حاذقا بصناعة الكلام، حاضر الجواب»[5].

لقد خاض هشام بن الحكم عباب المناظرات الكلامية مع متكلمي الفرق والمذاهب، «حتّى لم يبق أحد من أهل الفرق والمقالات بالكوفة والبصرة وبغداد، إلّا

---

(١) رسالة أبي غالب الزراري: ١٣٦.

(٢) الكشي، الرجال: ١٣٣.

(٣) النجاشي، الرجال: ١٧٥.

(٤) المصدر نفسه: ١٣٤.

(٥) العلّامة الحلّي، الرجال: ١٧٨.

ناظره هشام وأفحمه، وله مجالس مع أهل المقالات مروية في المطولات وكتب المناظرات والاحتجاجات، وصنّف في كثير من المباحث الكلامية..»[1].

قال ابن النديم في الفهرست عند ذكره لهشام بن الحكم: «... كوفي تحول إلى بغداد من الكوفة من أصحاب جعفر بن محمدعليه السلام، من متكلمي الشيعة، ممن فتق الكلام في الإمامة، وهذّب المذهب بالنظر، وكان حاذقا بصناعة الكلام، حاضر الجواب.. وله من الكتب: كتاب الإمامة، كتاب الدلالات على حدوث الأشياء، كتاب الرد على الزنادقة...، كتاب التوحيد، كتاب الرد على من قال بإمامة المفضول، كتاب اختلاف الناس في الإمامة، كتاب الوصية والرد على من أنكرها، كتاب الردّ على المعتزلة...»[2].

والذي يستفاد من ترجمة هشام بن الحكم أنه كان يلاحق المعتزلة ويخوض معهم المناظرات، بل كان يلاحقهم في عقر دارهم وموطنهم آنذاك «البصرة»، فيحضر في حلقات درسهم، وينقض آراءهم بحضور تلامذتهم، وهكذا كان يفعل مع علمائهم في بغداد، وهنالك مناظرة طريفة ينقلها الكشي، خاضها هشام بن الحكم مع شيخ المعتزلة في البصرة آنذاك عمرو بن عبيد[3].

وسوف يأتينا مزيد من البحث حول هشام ودوره في مدرسة بغداد عند الحديث عنها.

ثالثا: محمد بن علي بن النعمان المعروف بمؤمن الطاق.

---

(١) الصدر ـ حسن، تأسيس الشيعة: ٣٦١.

(٢) ابن النديم، الفهرست: ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

(٣) الكشي، الرجال: ٢٧١ ـ ٢٧٢، والكافي للكليني: ١ / ١٦٩ ـ ١٧٠.

قال عنه ابن النديم: «وهو أبو جعفر الأحول، واسمه محمد بن النعمان، ويلقّب بشيطان الطاق، ويلقبه الشيعة بمؤمن الطاق، من أصحاب أبي عبد اللّه جعفر بن محمدعليه السلام، وكان متكلما حاذقا، وله من الكتب: كتاب الإمامة، كتاب المعرفة، كتاب الرد على المعتزلة في إمامة المفضول...»[1].

وكان مؤمن الطاق من المقربين عند الإمام الصادقعليه السلام ومن المحببين إليه، ففي رواية عنهعليه السلام أنه قال: أربعة أحب الناس إليَّ احياءا وأمواتا، بريد بن معاوية العجلي، وزرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم، وأبو جعفر الأحول...»[2].

وكانت لمؤمن الطاق مناظرات كثيرة ومع شخصيات مهمة، كمناظرته مع زيد بن علي بن الحسينعليه السلام، والذي ينسب إليه المذهب الزيدي، كذلك مناظرته مع الضحاك الشاري، الذي ظهر في الكوفة وتسمّى بإمرة المسلمين، وهو من كبار رجال الخوارج، كذلك له مناظرات مع بعض الزنادقة من أمثال ابن أبي العوجاء ومع أبي حنيفة والمرجئة مجالس تخللتها مناظرات كلامية طويلة في مسجد الكوفة دوّنها في كتابه: «مجالس مع أبي حنيفة والمرجئة»[3].

والذي يبدو من بعض روايات الكشي في رجاله أنّ مؤمن الطاق كان من المتبحرين في علم الكلام وممن يعتمد عليهم الإمامعليه السلام في المناظرة والجدل، حيث أطلق له العنان في ذلك، في الوقت الذي كان يمنع بعض أصحابه من الخوض في ذلك، ففي رواية عن أبي خالد الكابلي، قال: رأيتُ أبا جعفر صاحب الطاق وهو قاعد في الروضة قد قطع أهل المدينة أزراره وهو دائب يجيبهم ويسألونه، فدنوت منه فقلت:

---

(١) ابن النديم، الفهرست: ٢٢٤.

(٢) الكشي، الرجال: ١٨٥.

(٣) للتوسع أُنظر المصدر نفسه: ١٨٦ ـ ١٨٨، والنجاشي: ٣٢٦.

إنّ أبا عبد اللّه ينهانا عن الكلام، فقال: أمرك أن تقول لي؟ فقلت: لا واللّه، ولكن امرني أن لا أُكلّم أحدا، قال: فاذهب فأطعه فيما أمرك، فدخلت على أبي عبد اللّهعليه السلام فأخبرته بقصّة صاحب الطاق وما قلت له، وقوله لي: أذهب واطعه فيما أمرك، فتبسّم أبو عبد اللّهعليه السلام وقال: يا أبا خالد؛ إنّ صاحب الطاق يكلّم الناس فيطير وينقض، وأنت ان قصوك لن تطير[1].

وهنالك أسماء أُخرى لامعة من أصحاب الإمام الصادقعليه السلام ومن المنتسبين لمدرسته الكبرى في الكوفة، قد تخصصوا في علم الكلام كهشام بن سالم، وحمران بن أعين، وقيس بن الماصر، الذين اشتركوا في مناظرة الرجل الشامي، الذي أتى الإمام وعرّف نفسه فقال: «إني رجل صاحب كلام وفقه وفرائض وقد جئت لمناظرة أصحابك»... فقال أبو عبد اللّهعليه السلام ليونس بن يعقوب، وكان حاضرا المجلس: «اخرج إلى الباب فانظر من ترى من المتكلمين فأدخله» يقول يونس: «فأدخلت حمران بن أعين وكان يحسن الكلام، وأدخلت الأحول [مؤمن الطاق] وكان يحسن الكلام، وأدخلت هشام بن سالم وكان يحسن الكلام، وأدخلت قيس بن الماصر، وكان عندي أحسنهم كلاما...»[2].

وهذه الرواية تشير إلى وفرة من تخصص من أصحاب الإمام الصادقعليه السلام في علم الكلام بالاضافة إلى العلوم الأُخرى التي برع فيها البعض الآخر من أصحابه، وكان بعضهم يجمع بين التخصص في الحديث والفقه والكلام.

---

(١) الكشي، الرجال: ١٨٥ ـ ١٨٦.

(٢) الكليني، الكافي: ١ / ١٧١.

خامسا: علوم اللغة العربية

ولمدرسة الإمام الصادق‹ع› مساهمة تأسيسية في علوم اللغة العربية، وفي فروعها المتعددة، «وانجبت هذه المدرسة بالكوفة أعلاما آخرين سجّل لهم تاريخ العلم مساهمات رائدة في علوم العربية وغيرها»[١].

وقد مرّ بنا سابقا أنّ واضع علم النحو وأصله هو الإمام علي‹ع› الذي أشار على تلميذه أبي الأسود الدؤلي بتفاريعه، وهذه تكاد أن تكون من المسلمات الواضحة عند علماء اللغة ومدوّنة في أكثر من مؤلف، وقد حشد لها السيّد حسن الصدر في كتابه تأسيس الشيعة عشرات المصادر والأدلة[٢].

أما ظهور مدرسة الكوفة في علم النحو، وكذلك مدرسة البصرة النحوية، فيعود الفضل في ظهورهما إلى تلامذة الإمام الصادق‹ع› ومن تتلمذ عليهم في العصور اللاحقة.

يقول السيّد الصدر: «في أول من صنّف ونقّح علم النحو تنقيحا يجري مجرى التأسيس بعد أبي الأسود الدؤلي: فاعلم أنهما اثنان من الشيعة اماما البصريين والكوفيين، اما امام البصريين فهو الخليل بن أحمد، وأما امام الكوفيين فهو محمد بن الحسن الرؤاسي، وهما اماما العربية في المصرين بالاتفاق...»[٣].

---

(١) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٨٣.

(٢) للتوسع أُنظر: السيّد حسن الصدر، تأسيس الشيعة: ٣٩ وما بعدها.

(٣) المرجع نفسه: ٦١.

وقد نص على تشيع الخليل ـ الفراهيدي ـ العلّامة الحلّي في خلاصة الأقوال، بل عدّه في القسم الأول، وهم الإمامية الثقات أو الممدوحين الذين يعتمد على قولهم[١].

وقال المولى عبد اللّه أفندي الإصفهاني في رياض العلماء: «فكان الخليل على ما قاله الأصحاب من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، ويروي عنه... وكان اماما في علم النحو».

ثمَّ يضيف: «.. إنّ زهد الخليل كان في الغاية، فإنّه نقل أ نّه كان يعيش في البصرة في بيت من القصب إلى أن مات فيه، وكان تلاميذه قد حصلوا بالعلم الذي أخذوهُ عنه أموالاً جليلة، وقد كانوا في غاية الرفاهية ونهاية السعة..»[٢].

وأضاف السيّد حسن الصدر في التأسيس: «وله كتاب في الإمامة وذكر فيه جملة من الأدلة على امامة علي عليه السلام، وتممه محمد بن جعفر المراغي من علماء الإمامية شيخ النجاشي وسماه كتاب الإمامة.. ويعرف بكتاب الخليلي، كما في فهرست النجاشي، ذكره في ترجمة أُستاذه محمد بن جعفر المراغي»[٣].

وأما أبو جعفر الرَّؤاسي فهو «محمد بن الحسن بن أبي سادة يعرف بالرَّؤاسي أصله كوفي سكن هو وأبوه قبلة النيل، روى هو وأبوه عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه عليهما السلام. وابن عمّ محمد بن الحسن (الرؤاسي) معاذ بن مسلم بن أبي سارة، وهم أهل بيت فضل وأدب، وعلى معاذ ومحمد فَقِه الكسائي علم العرب، والكسائيّ والفَرّاء يحكون في

---

(١) العلّامة الحلّي ـ الحسن بن يوسف، خلاصة الأقوال: ١٤٠، تحقيق: نشر الفقاهة ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٧ هـ.

(٢) الأفندي ـ عبد اللّه، رياض العلماء وحياض الفضلاء: ٢ / ٢٤٩، تحقيق: أحمد الحسيني، طبعة مكتبة المرعشي ـ قم، ١٤٠٣ هـ.

(٣) الصدر، تأسيس الشيعة: ٦٢، والنجاشي، الرجال: ٣٩٤.

كتبهم كثيرا: قال أبو جعفر الرواسي ومحمد بن الحسن، وهم ثقات لا يطعن عليهم بشيءٍ»[1].

وفي طبقات النحاة للسيوطي عند ترجمته له، قال: وهو أول من وضع من الكوفيين كتابا في النحو، وهو أُستاذ الكسائي والفراء، وكان رجلاً صالحا، قال: بعث الخليل إليّ يطلب كتابي فبعثته إليه فقرأه، فكلُّ ما في كتاب سيبويه: وقال الكوفي.. كذا، فإنما عني الرؤاسي هذا، وكتابه يقال له الفيصل، وقال عبد الواحد اللغوي في مراتب النحويين أبو جعفر الرؤاسي شيخ الكوفيين[2].

وفي فهرست ابن النديم قال في أخبار الرؤاسي: «... وهو أول من وضع من الكوفيين كتابا في النحو»[3].

إذا نحن أمام قمة من القمم العلمية، ويشهد له بالعلم والفضل والصلاح الموافق والمخالف، وله الأولوية في تأسيس مدرسة الكوفة النحوية، وتخرّج عليه ائمة النحو واللغة.

إلّا أنّ التعصب الأعمى دفع ببعضهم إلى التنكر لكلِّ هذه الفضائل فقال أبو حاتم في مراتب النحويين: «كان بالكوفة نحوي يقال له أبو جعفر الرَّؤاسي، وهو مطروح العلم ليس بشيءٍ، وأهل الكوفة يعظمون من شأنه ويزعمون أنّ كثيرا من علومهم وقراءتهم مأخوذة عنه»[4].

---

(١) النجاشي، الرجال: ٣٢٤.

(٢) الصدر، تأسيس الشيعة: ٦٣ نقلاً عن السيوطي في طبقات النحاة: ٣٣.

(٣) ابن النديم، الفهرست: ٧١.

(٤) شوقي ضيف، المدارس النحوية: ١٥٤.

إلّا أن السيوطي في المزهر أنصف الرجل، فردّ ما قاله أبو حاتم بعد أن نقل كلامه السابق، وأيّد ما نقله عن الكوفيين فقال: «الأمر كذلك وأبو جعفر هذا هو أُستاذ الكسائي، وهو أول من وضع من الكوفيين كتابا في النحو..»[1].

سادسا: علم أُصول الفقه

يعتبر علم أُصول الفقه من أهم العلوم الإسلامية التي يعتمد عليها الفقيه في استنباط الحكم الشرعي من مداركه الشرعية. «ولهذا بذل العلماء جهودا مضنية في تدوين كل ما يمت لهذا العلم من صلة، وبلغوا النهاية في تحقيق هذا العلم، حتى صار عندهم من أعظم العلوم الدينية»[2].

وعندما نعود إلى تاريخ تأسيس هذا العلم للتعرف على أول من أسس أُسسه، وفتح بابه، وفتق مسائله... نجده يعود إلى «الإمام أبو جعفر الباقر للعلوم عليه السلام، ثمّ بعده ابنه الإمام أبو عبد اللّه الصادق عليه السلام؛ وقد أمليا على أصحابهما قواعده، وجمعوا من ذلك مسائل رتبها المتأخرون على ترتيب المصنفين فيه بروايات مسندة إليهما»[3].

أما أول من صنّف في مسائل علم أُصول الفقه من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام فيشير المؤرخون إلى:

أولاً: هشام بن الحكم.

---

(١) الصدر ـ حسن، تأسيس الشيعة: ٦٣.

(٢) المرجع نفسه: ٣١٤.

(٣) المرجع نفسه: ٣١.

يقول السيّد الصدر: «هشام بن الحكم شيخ المتكلمين في الأُصوليين الإمامية، صنّف كتاب الألفاظ ومباحثها، وهو أهم مباحث هذا العلم»[1].

ثانيا: يونس بن عبد الرحمن.

وهو مولى آل يقطين، صنّف كتاب (اختلاف الحديث) ومسائله، وهو مبحث تعارض الحديثين، ومسائل التعادل والترجيح في الحديثين المتعارضين...»[2].

وفي ترجمته يعدد النجاشي وابن النديم له تصانيف كثيرة منها كتاب (علل الحديث)[3] ولعلّه نفس الكتاب الذي أشار إليه السيّد حسن الصدر بعنوان (اختلاف الحديث). إلّا أنّ النجاشي يشير إلى يونس بن عبد الرحمن «رأى جعفر بن محمدعليه السلام بين الصفا والمروة ولم يروِ عنه، وروى عن أبي الحسن موسى والرضاعليهما السلام»[4].

فهو يروي عن الإمام الصادقعليه السلام بواسطة واحدة.

أما الكتب التي جمعها المتأخرون والتي تضمنت القواعد الأُصولية التي أملاها الإمامان الصادقانعليهما السلام وبروايات مسندة إليهما، متصلة الاسناد، فهي:

١ ـ كتاب أُصول آل الرسول للسيّد الشريف الموسوي هاشم بن زين العابدين الخونساري الإصفهاني، وهو كتاب مرتب على ترتيب مباحث أُصول الفقه الدائر بين المتأخرين.

---

(١) الصدر ـ حسن، تأسيس الشيعة: ٣١٠، والنجاشي، الرجال: ٤٣٣ في ترجمة هشام بن الحكم.

(٢) المرجع نفسه: ٣١٠ ـ ٣١١.

(٣) النجاشي، الرجال: ٤٤٧، وابن النديم، الفهرست: ٢٧٦.

(٤) المصدر نفسه: ٤٤٦.

٢ ـ كتاب الأُصول الأصيلة، للسيّد العلّامة المحدّث عبد اللّه بن محمد رضا الحسيني الغروي الشبري. «وهذا الكتاب من أحسن ما روي فيه أُصول الفقه».

٣ ـ كتاب الفصول المهمة في أُصول الأئمة، للشيخ المحدث محمد بن الحسن بن علي بن الحر المشغري، صاحب كتاب وسائل الشيعة[١].

وكل هذه الكتب مطبوعة ومنتشرة بالاضافة إلى كتب أُخرى تلامس الموضوع.

فللشيعة عامة، ولمدرسة الإمام الصادق عليه السلام الأولية في تأسيس علم الأُصول وفتح أبوابه وفصوله.

إلّا أنّ جلال الدين السيوطي في كتابه «الأوائل» يقول: أوّل من صنّف في أُصول الفقه الشافعي بالإجماع، وتابعه على ذلك علماء السنة، وحاول الشيخ أبو زهرة في كتابه (الإمام الصادق) أن يحشد الأدلة على أسبقية الشافعي في مجال علم أُصول الفقه[٢]. مناقشا لما قاله السيّد الصدر في تأسيس الشيعة.

ومهما يكن من أمر، فلا نريد أن نتوقف كثيرا عند هذا البحث لأ نّه خارج عن موضوع بحثنا، إذ إنّ الإجماع المدّعى من قبل السيوطي في غير محله ولا يمكن التعويل عليه، ومن يلقي نظرة سريعة على كتاب الرسالة للشافعي لا يجد فيه إلّا بعض المباحث الأُصولية التي لا تشكل إلّا جزءا يسيرا من موضوعات الكتاب، فلا يمكن أن ندعي للشافعي ما لم يدعه هو لنفسه. فدعوى السيوطي للاجماع: «في غير محله إن أراد التأسيس والابتكار، وإن أراد المعنى المتعارف من التصنيف فقد تقدّم

(١) الصدر، تأسيس الشيعة: ٣١٠.

(٢) أبو زهرة، الإمام الصادق حياته وعصره، آراؤه وفقهه: ٢٦٦، طبعة دار الندوة ـ القاهرة، د ـ ت.

على الإمام الشافعي في التأليف فيه هشام بن الحكم من أصحاب أبي عبد الله الصادق عليه السلام»[1].

سابعا: العلوم الطبيعية (الكيمياء)

لم يقتصر اشتهار مدرسة الإمام الصادق عليه السلام على العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والفقه.. فقط، وإنما تعدى ذلك ليشمل العلوم الطبيعة كالكيمياء والأحياء والعلوم الإنسانية.

وهذا ما تشهد به كتب العلوم وكتب التراجم حيث نقلت لنا أسماء المصنفات العلمية التي لها صلة مباشرة بهذه العلوم والمعارف الطبيعية والإنسانية.

ذكر ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) في ترجمة الإمام الصادق عليه السلام ما نصه: «له كلام في صناعة الكيمياء والزجر والفال، وكان تلميذه أبو موسى جابر بن حيان الصوفي الطرسوسي قد أ لّف كتابا يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق وهي خمسمائة رسالة»[2].

ومن أبرز تلامذة الإمام الصادق عليه السلام والذي تخصّص في علم الكيمياء هو:

جابر بن حيان الكوفي:

فالإمام الصادق عليه السلام له باع طويل في العلوم الطبيعية ومنها علم الكيمياء، وله فيها رسائل تصل إلى خمسمائة رسالة، دوّنها أشهر تلامذته في مجال علم الكيمياء جابر بن حيان الكوفي.

---

(١) الصدر ـ حسن، تأسيس الشيعة: ٣١٠.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١ / ٣٢٧، تحقيق: الدكتور احسان عباس، طبعة دار الفكر ـ بيروت، أُفست دار صادر ـ بيروت، بلا ـ ت.

وقد ذكر صاحب كشف الظنون أنّ: «أول من اشتهر بهذا العلم عنه جابر بن حيّان». وعندما يذكر جابر يصفه بقوله: «جابر تلميذ جعفر الصادق»[1].

قال ابن النديم: «وكان ـ جابر ـ من أهل الكوفة... وإن جابرا كان أكثر مقامه بالكوفة... وقد قيل إنّ أصله من خراسان»[2].

وينقل السيّد الأمين ـ حسن ـ في حاشيته على الأعيان، عن الأهواني قوله: «إنّ والد جابر من قبيلة الأزد، وإنّه كان عطارا في الكوفة أو عشابا يبيع الأعشاب وأنواع العطارة النافعة في الدواء، وإنّه خلال رحلة له إلى خراسان ولد له فيها ولده جابر. وإنّ والي خراسان قتل والده لاتهامه بالتشيع، ثمّ إنّ جابر اليتيم قدر له من أرسله إلى أهله الأزديين في الكوفة»[3].

أما تشيع جابر بن حيان، فقد نص عليه ابن النديم بقوله: «واختلف الناس في أمره، فقالت الشيعة إنه من كبارهم، وأحد الأبواب، وزعموا أنه كان صاحب جعفر الصادق عليه السلام»[4].

إلّا أنّ ابن النديم لم يذكر لنا المصدر الذي استند إليه لاثبات تشيع جابر بن حيان.

وعندما نعود إلى كتب الرجال، ككتاب النجاشي، والكشي، وفهرست الشيخ ورجاله، إلى أن نصل إلى خلاصة الأقوال للعلّامة الحلّي.. فإننا لا نجد لجابر بن حيان أثرا في هذه الكتب! ولهذا نجد السيّد الخوئي في المعجم يتعجب من ذلك

---

(١) حاج خليفة، كشف الظنون: ٢ / ١٥٢٩، ١٥٣١، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٩٩٢ م.

(٢) الفهرست: ٤٢٠ ـ ٤٢١.

(٣) الأمين ـ محسن، أعيان الشيعة: ٦ / ٤٢ الحاشية بقلم السيّد حسن الأمين، الطبعة الخامسة، (١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠ م).

(٤) الفهرست: ٤٢٠.

فيقول بعد العنوان: «أبو موسى من مشاهير أصحابنا القدماء، كان عالما بالفنون الغريبة، وله مؤلّفات كثيرة أخذها عن الصادق عليه السلام، وقد تعجّب غير واحد من عدم تعرّض الشيخ والنجاشي لترجمته، وقد كتبت في أحواله وذكر مؤلفاته كتب عديدة من أراد الاطلاع عليها فليراجعها».

ثمّ أضاف: «قال جرجي زيدان في مجلّة الهلال ـ على ما حكي عنه ـ: إنّه من تلامذة الصادق عليه السلام، وإنّ أعجب شيءٍ عثرت عليه في أمر الرجل أنّ الأُوربيين اهتموا بأمره أكثر من المسلمين والعرب، وكتبوا فيه وفي مصنّفاته تفاصيل، وقالوا: إنّه أوّل من وضع أساس الشيمي [الكيمياء] الجديد، وكتبه في مكاتبهم كثيرة، وهو حجّة الشرقي على الغربي إلى أبد الدهر»[1].

وحاول الشيخ محي الدين المامقاني في تحقيقه واستدراكه على كتاب والده تنقيح المقال، أن يوجه القضية ويرفع العجب الذي أبداه السيّد الخوني، فقال: «أقول: إنّ موضوع رجال الشيخ والنجاشي هو ترجمة وذكر رواة الشيعة وليس موضوع كتابهما ذكر المخترعين والفلاسفة والشعراء أو غيرهم من أرباب العلوم، ولعلّه لهذا لم يذكرا المعنون، فتفطن».

ثمّ أضاف: «وقد عنونه وترجم له ابن النديم في فهرسته وابن خلكان وغيرهما؛ لأنّ موضوع تأليفهم أعمّ من الرواة وغيرهم»[2].

ومهما يكن من أمر تشيع جابر بن حيان أو عدم تشيعه، فمدرسة الإمام الصادق عليه السلام حوت في جنباتها من كل اتباع المذاهب الأُخرى. فالذي يهمنا أنه من مدرسة الكوفة

---

(١) الخوني ـ أبو القاسم، معجم رجال الحديث: ٤ / ٣٢٨ برقم ٢٠١٧.

(٢) المامقاني ـ عبد اللّه، تنقيح المقال: ١٤ / ٢٥ ـ ٢٦، تحقيق واستدراك الشيخ محي الدين المامقاني، طبعة مؤسسة آل البيت ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٦ هـ.

ومن أصحاب الإمام الصادقعليه السلام وممن حمل علم الإمامعليه السلام وصنّف المؤلفات الكثيرة في هذا المجال، وهذا الانتساب للإمام ومدرسته في الكوفة مما لا خلاف فيه بين المؤرخين وأصحاب الفهارس كما نقلنا ذلك عن ابن النديم وابن خلكان، وحاجي خليفة في كشف الظنون. على أنّ السيّد علي بن طاووس في كتابه فرج المهموم بمعرفة علم النجوم ينص على تشيع ابن حيان الكوفي[1].

وابن حيان الكوفي أشهر من أن يعرف، إذ إن شهرته طارت في الآفاق، واثنى المؤرخون على نبوغه في العلوم الطبيعة[2]، فقال عنه القفطي أ نّه: «كان متقدما في العلوم الطبيعية، بارعا منها في صناعة الكيمياء، وله فيها تآليف كثيرة ومصنفات مشهورة»[3].

ووصف منزلته العلمية «برتلو» بقوله: «ينزل في تاريخ الكيمياء منزلة أرسطو في تاريخ المنطق»[4].

أما مؤلفات ابن حيان الكوفي وتنوعها فهي فوق الحصر والاحصاء، وتتنوع بتنوع العلوم والمعارف البشرية، والأرقام التي تذكر لمؤلفاته لا تكاد أن تصدق، يقول السيّد الأمين في ترجمة جابر في الأعيان: «كان حكيما رياضيا فيلسوفا عالما بالنجوم، طبيبا منطقيا رصديا مؤلفا مكثرا في جميع هذه العلوم وغيرها، كالزهد والمواعظ، من أصحاب الإمام جعفر الصادقعليه السلام وأحد أبوابه ومن كبار الشيعة، وما يأتي عند تعداد

---

(١) ابن طاووس، فرج المهموم في تاريخ علم النجوم: ١٤٦. وأُنظر: السيّد الأمين، أعيان الشيعة: ٤ / ٣٠، طبعة ١٤٠٣ هـ ـ دار التعارف.

(٢) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٨٤.

(٣) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١١١، القاهرة، مكتبة الخانجي.

(٤) د. زكي ـ نجيب محمود، جابر بن حيان: ٢٤، أُفست طبعة مكتبة مصر.

مؤلفاته يدل على أ نّه كان من عجائب الدنيا ونوادر الدهر، وإنّ علما يؤلف ما يزيد على (٣٩٠٠) كتابا في علوم جلها عقلية وفلسفية لهو حقا من عجائب الكون...»[(١)].

وفي الفهرست قائمة طويلة ومتنوعة يذكرها ابن النديم تحت عنوان كتبه في الصنعة فيقول: «له فهرست كبير يحتوي على جميع ما أ لّف في الصنعة وغيرها، وله فهرست صغير يحتوي على ما أ لّف في الصنعة فقط، ونحن نذكر جملاً من كتبه رأيناها، وشاهدها الثقات فذكروها لنا، فمن ذلك..» ثمّ يذكر هذا البعض من الكتب مما رآه، أو شاهده الثقات، وضمن قائمة طويلة استوعبت ثلاث صفحات من كتابه[(٢)].

وقد ادهشت هذه القائمة الطويلة من المؤلفات، ومع هذا التنوع في العلوم والمعارف الإنسانية والطبيعية التي تناولتها.. الكثير من الباحثين مما حمل البعض منهم على التشكيك في نسبتها إلى جابر بن حيان، بل انسحب الشك ليطال جابرا في أصل وجوده!

يقول ابن النديم: «وقال جماعة من أهل العلم، وأكابر الوراقين؛ إنّ هذا الرجل يعني جابرا، لا أصل له ولا حقيقة، وبعضهم قال إنه ما صنّف، وإن كان له حقيقة إلّا كتاب الرحمة، وإنّ هذه المصنفات صنّفها الناس ونحلوه إياها»[(٣)].

والذي يبدو أنّ هذه الشبهات والشكوك القديمة في مؤلفات وشخصيات جابر بن حيان والتي قرّرها ابن النديم ودفعها ـ كما سوف يأتي ـ قد كررها غير واحد من الباحثين في تاريخ العلوم منهم المستشرق الفرنسي (برتلو = Berthelot, M) الذي له كتاب تاريخ العلوم: الكيمياء في القرون الوسطى، في ثلاثة مجلدات.. والمجلد

(١) الأمين، أعيان الشيعة: ٤ / ٣٠.

(٢) ابن النديم، الفهرست: ٤٢١ ـ ٤٢٣.

(٣) المصدر نفسه: ٤٢٠.

الثالث ترجمة القسم العاشر من كتاب (الفهرست لابن النديم وطبع في باريس سنة ١٨٩٣ م)[١].

وترجمة ابن حيان يقع ضمن الجزء العاشر من كتاب الفهرست والذي خصّصه للمقالة العاشرة «في أخبار العلماء في سائر العلوم القديمة والمحدثة وأسماء ما صنّفوه من الكتب»[٢].

وقد حاول ابن النديم أن يدفع هذا التشكيك عن مؤلفات ابن حيان بعد أن ذكر تلك التشكيكات كما ذكروها، فقال: «.. وأنا أقول: إنَّ رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب ويصنّف كتابا، يحتوي على ألفي ورقة، يتعب قريحته وفكره باخراجه، ويتعب يده وجسمه بنسخه، ثمّ ينحله لغيره، أما موجودا أو معدوما، ضرب من الجهل، وإنّ ذلك لا يستمرُّ على أحد، ولا يدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم، وأي فائدة في هذا وأي عائدة، والرجل له حقيقة وأمره أظهر وأشهر، وتصنيفاته أعظم وأكثر...»[٣].

وممن دفع هذه الشبهة وبمنهجية علمية فذة، الكاتب المصري المعروف زكي نجيب محمود في كتابه القيّم «جابر بن حيان»[٤].

ومهما يكن من أمر، فلجابر بن حيان وجود عيني حقيقي، وله مؤلفات كثيرة في العلوم الطبيعية، بل قد نص ابن النديم وغيره على أنّ كتبه على مذهب الشيعة[٥]. وإنه تلميذ الإمام الصادق عليه السلام، وإنّه من أهل الكوفة التي كانت حاضرة التشيّع منذ

---

(١) عقيقي ـ نجيب، المستشرقون: ١ / ١٩٤، طبعة دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة.

(٢) ابن النديم، الفهرست: ٤١٥ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه: ٤٢٠.

(٤) أُنظر: الدكتور زكي نجيب محمود، جابر بن حيان: ٢٠ ـ ٢٦.

(٥) ابن النديم، الفهرست: ٤٢٠.

تمصيرها، ومن نفي نسبته إلى التشيع لم ينسبه إلى مذهب آخر مقابل التشيع، وإنما زعم أنّه من الفلاسفة، أو من أهل صناعة الذهب والفضة...»[1].

ولا غرابة في أن يكون الرجل له هذه الأوصاف: «فهو من الشيعة سياسة، وهو من الفلاسفة جدلاً، وهو من الكيمويين [هكذا] علما، ثمّ هو فوق هذا وذاك صوفيّ»[2] وليس بدعا في التاريخ أن يتصف بعض أهل العلم بمجموعه من الصفات؛ إذ له شواهد كثيرة في كتب التراجم والسير.

هذه أهم العلوم والمعارف التي رسخها الإمام الصادقعليه السلام في مدرسته الكبرى في الكوفة، ثمّ توسعت بعد ذلك بواسطة تلامذته وتلامذتهم من بعدهم.

---

(١) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٨٥.

(٢) زكي ـ نجيب محمود، جابر بن حيان: ١٦.

المبحث الرابع: انتشار تلامذة الإمام الصادقعليه السلام في البصرة وقم والري وبغداد

«في ضوء ما سبق يتبين لنا أنّ مدرسة الإمام جعفر بن محمد الصادقعليه السلام بالكوفة، اتسعت لتستوعب آلافا من طلّاب العلم والمعرفة، وتنوّعت في تخصصاتها وفروعها المعرفية، فشملت العلوم الطبيعية، وعلوم اللغة العربية، مضافا إلى العلوم الشرعية؛ وشاع في فضائلها منطق الحوار والحرية والتسامح[1]. فاصبحت هذه المدرسة كما يصفها المستشرق البريطاني (دونالدسون = Donaldson) في كتاب: عقيدة الشيعة المطبوع في لندن سنة (١٩٣٣ م) والمترجم إلى العربية والمطبوع في بيروت، يقول: «كانت مدرسة شبه سقراطية، وقد ساهم عدد من تلامذته مساهمة عظمى في تقدّم الفقه والكلام، وصار اثنان من تلامذته، وهما أبو حنيفة، ومالك بن أنس فيما بعد من أصحاب المذاهب الفقهية»[2].

*** مدرسة الكوفة بعد الإمام الصادقعليه السلام:**

لم تحدد لنا كتب التاريخ بدقة زمن رحيل الإمام جعفر بن محمد **الصادق**عليه السلام من الكوفة إلى المدينة حيث توفي فيها في الخامس والعشرين من شهر شوال سنة (١٤٨ هـ) على القول المشهور[3]. ودفن إلى جنب والده في بقيع الغرقد.

---

(١) مدرسة أهل البيت: ٨٦.

(٢) دونالدسون، عقيدة الشيعة: ١٤١، طبعة مؤسسة المفيد ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٩٩٠ م.

(٣) الشيخ المفيد، الإرشاد: ٢ / ١٨٠.

إلّا أ نّه بعد وفاة الإمام الصادق عليه السلام استمرت مدرسته في المدينة بواسطة ولده وخليفته من بعده الإمام موسى بن جعفر عليه السلام كما مرَّ بنا سابقا عند الحديث عن مدرسة الإمام في المدينة. وأما مدرسته في الكوفة فقد واصلت نشاطها كحاضرة علمية تضمّ عددا كبيرا من شيوخ العلم، الذين ازدحمت بهم أروقة مسجد الكوفة، واستمرّت حلقات الدرس فيه عدّة قرون لم تتوقف عن إعداد طلّاب العلم وتأهيلهم لنشر علوم الشريعة وغيرها في أمصار أُخرى»[1].

لقد أصبحت الكوفة مركز اشعاع علمي، يشع نورها لبقية الأمصار الإسلامية، ومنها يفيض العلم للأمصار والبلاد الإسلامية، وكان بينها وبين المدن الأُخرى نوع من التبادل العلمي والثقافي، فنجد من علمانها من يقصد البصرة، التي عرفت بمدرستها النحوية ـ يقول أحد الباحثين ـ «ومن الملاحظ أنّ الكوفة على الرغم من حملها لواء المعرفة الإسلامية، فقد كان علماؤها يقصدون البصرة، ويأخذون من علمائها، وهذا ما نطلق عليه في الوقت الحاضر لفظ (التبادل الثقافي) بين المدرستين، وكان هذا التبادل يأخذ طابعين هما: الأخذ والعطاء من جهة، وطابع الخصومات الفكرية من جهة أُخرى؛ وكلا الطابعين قدما للفكر والمعرفة خدمة جليلة، وبرزت للوجود في النحو العربي (مدرسة الكوفة) و (مدرسة البصرة) وما بين المدرستين من خصومات ومناظرات، ولكن هذا لم يمنع الكساني النحوي وتلميذه الفراء، والقاسم بن سلام اللغوي، وهم من علماء الكوفة أن يقصدوا البصرة والاستماع لعلمائها، وهكذا كان التبادل الثقافي بين الكوفة والبصرة مستمرا، فلا يكاد يظهر مذهب من المذاهب

---

(١) مدرسة أهل البيت: ٨٦.

العقلية، أو فكرة من الأفكار العلمية... حتى يرن صداها في المدينة الأُخرى، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا أن كثرت المنافسات العلمية والخصومات الفكرية بينهما...»[1].

إنّ وفود العلماء من أصحاب الإمام الصادقعليه السلام إلى البصرة قد نجد له بعض المفردات في عصر الإمامعليه السلام كما في قضية وفود هشام بن الحكم إلى مسجد البصرة لمناظرة عمرو بن عبيد والتي أشرنا إليها سابقا، إلّا أنّ هذه الوفادات قد تكشف بعد رحيله، كما أنها لم تقتصر على البصرة فقط، وإنما كان لبغداد، وقم، ومكة نصيب منها، فالنجاشي ينصّ على هجرة المتكلم المعروف، وأبرز أصحاب الإمام الصادقعليه السلام هشام بن الحكم إلى بغداد سنة تسع وتسعين ومائة[2]، وكان له دور الريادة في تأسيس مدرسة الكلام الإمامية في بغداد ـ كما سوف يأتينا لاحقا ـ كذلك هاجر إليها الكثير من علماء النحو والمؤَدِبينَ من الكوفيين والبصريين «وكان للكوفيين حظوة عند الخلفاء والأُمراء أكثر مما كان للبصريين»[3].

وفعلاً، «أصبحت الكوفة في العصر العباسي تنشر علومها في بغداد وغيرها من المدن الإسلامية، وكانت هي وأُختها البصرة أغنى الأمصار الإسلامية من الناحية الفكرية والثقافية... ومن حق الكوفة أن تفاخر البصرة بمجموعة من العلوم والمعارف الإسلامية التي تجمعت في شخصية الإمام جعفر بن محمد الصادقعليه السلام، الذي استقرأ منه أئمة المذاهب الإسلامية كثيرا من علومه، فإنّ مدرسته في الكوفة قد تلاقحت مع

---

(١) الدكتور حسن الحكيم، الكوفة بين العمق التاريخي والتطور العلمي: ٢٠٠ ـ ٢٠١، طبعة دار العارف ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م.

(٢) النجاشي، الرجال: ٤٣٣.

(٣) أحمد أمين، ضحى الإسلام: ٢ / ٣٤ ـ ٣٥.

مدرسته في المدينة، واستقطبت في وقت وجود الإمام الصادق فيها أعلاما من البصرة وواسط والحجاز...»[1].

وعندما نعود إلى كتب التراجم نجد أنّ بعض أهل العلم قد غادر الكوفة للتعلم أو التعليم وكانت محطتهم الأُولى هي البصرة ثاني حاضرة إسلامية في العراق، ففي ترجمة النجاشي لأبان بن عثمان الأحمر، وهو من أصحاب الإمام الصادقعليه السلام وممن روى عنه وعن أبي الحسن موسىعليه السلام، وصاحب الكتاب الكبير في السيرة النبوية، والذي يجمع المبتدأ والمغازي والوفاة والرِّدة[2]، نجد في ترجمته عند النجاشي: «أصله كوفي كان يسكنها تارةً والبصرة تارةً، وقد أخذ عنه أهلها: أبو عبيدة معمر بن المثنى، وأبو عبد اللّه محمد بن سلّام، وأكثروا الحكاية عنه في أخبار الشعراء والنسب والأيام...»[3].

كذلك نجد في ترجمة «الحكم بن هشام بن الحكم» مولى كِندة، يقول عنه النجاشي: «سكن البصرة، وكان مشهورا بالكلام، كلّم الناس، وحُكي عنه مجالس كثيرة..»[4] والحكم بن هشام، قد ورث العلم من أبيه شيخ المتكلمين هشام بن الحكم.

كذلك نجد وريثا آخر لعلم أبيه وجدّه، وخير سلف لخير خلف وهو: علي بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم بن يحيى التمار الكوفي، الذي يقول النجاشي في

---

(١) الحكيم ـ حسن، الكوفة: ٢٠٢.

(٢) طبع مؤخرا كتاب: «المبعث والمغازي والوفاة..» لأبان بن عثمان بتقديم وإعداد وتحقيق المحقق: «رسول جعفريان»، مكتب الإعلام والنشر ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٧ هـ.

(٣) النجاشي، الرجال: ١٣.

(٤) المصدر نفسه: ١٣٦.

ترجمته: «.. مولى بني أسد، كوفيّ، سكن البصرة وكان من وجوه المتكلّمين من أصحابنا، كلّم أبا الهُذيل والنظّام، له مجالس وكتب..»[1].

ولم تقتصر هجرة علماء الكوفة على الحدود الجغرافية للعراق وحسب، وإنما تعدت ذلك إلى مدينة «قم» والتي كانت قد شهدت هجرة الأشعريين إليها في النصف الثاني من القرن الأول الهجري وما بين سنة (٧٣) و (٨٣) هجرية..[2] ـ كما سوف يأتينا لاحقا ـ وقد نص النجاشي على هجرة مجموعة من الفضلاء والمحدثين والمفسرين من الكوفة إليها، وعلى رأس هؤلاء المحدّث الغزير الرواية إبراهيم بن هاشم الكوفي المعروف بالقُمّي، فكان: «أوّل من نشر حديث الكوفيين بقم» بحسب تعبير النجاشي[3].

كذلك نجد في ترجمة إبراهيم بن محمد بن سعد الثقفي الكوفي، المتوفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين، أنه انتقل إلى مدينة إصفهان «مع ما كانت عليه هذه المدينة من موقف مناوئ لمدرسة أهل البيت عليهم السلام بهدف نشر أحاديث المناقب والمثالب بين أهلها»[4]، فقد حكى النجاشي أنّ «سبب خروجه من الكوفة، أ نّه عمل كتاب (المعرفة) وفيه المناقب المشهورة والمثالب، فاستعظمه الكوفيون، وأشاروا عليه، بأن يتركه ولا يخرجه، فقال: أي البلاد أبعد من الشيعة؟ فقالوا: إصفهان، فحلف، لا أروي

---

(١) النجاشي، الرجال: ٢٥١.

(٢) أُنظر بحث حسين مدرسي طباطبائي حول الأشعريون، في دائرة المعارف الإسلامية الشيعية: ٤ / ٢١٤ وما بعدها.

(٣) النجاشي، الرجال: ١٦.

(٤) النجاشي، الرجال: ١٧.

هذا الكتاب إلّا بها، فانتقل إليها، ورواه بها، ثقة منه بصحة ما رواهُ فيه»[1] ولإبراهيم، مصنفات كثيرة يذكر بعضها النجاشي في ترجمته.

«كذلك فاض العلم من الكوفة، فعاد إلى مكة عبر رهط من أهل العلم، كان منهم أحمد بن علي بن محمد.. العلويّ العقيقي الذي كان مقيما بمكة، وسمع أصحابنا الكوفيين وأكثر منهم»[2].

* خاتمة مدرسة الكوفة:

بعد هذه الجولة السريعة في المناحي العلمية لمدرسة أهل البيت عليهم السلام في الكوفة، لابدّ لنا من التوقف عند محطات نستجلي منها خاتمة هذه المدرسة، ثمّ التقويم العام لمسيرتها والأدوار التي مرّت بها عبر مسيرتها العلمية.

فمن خلال ما استعرضنا من أوجه النشاطات العلمية لمدرسة الكوفة يتضح لنا أن هذه المدينة لها الفضل الكبير في تنمية العلوم الإسلامية الشرعية وما له صلة بها، كعلوم القرآن والحديث والفقه الإسلامي بالاضافة إلى علوم اللغة العربية والنحو والأدب، كذلك كان لها تأثير واضح في بقية الأمصار الإسلامية وخاصة عاصمة الدول الإسلامية بغداد التي أصبحت مصبا لروافد العلم، وكان لها من الكوفة الرافد الأكبر، والأوفر: «فقد استطاعت بغداد بعد تأسيسها اجتذاب عدد من أعلام الكوفة، وقد قاموا بالتدريس في مؤسساتها العلمية، وإذا قرأنا (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي، وكتاب (المنتظم) لابن الجوزي، وكتاب (تلخيص مجمع الآداب) لابن الفوطي، وذيول بغداد لابن النجار وابن الدبيثي والدمياطي وغيرهم، لرأينا كم عدد الكوفيين الذين

---

(١) النجاشي، الرجال: ١٧.

(٢) المصدر نفسه: ٨١.

احتضنتهم بغداد، وأثروا في حركتها العلمية، والكوفة مع كل هذه الهجرة من علمائها بقيت تحتفظ بمؤسساتها العلمية التي تخطت مسجدها الكبير فترة من الزمن، وبقيت دار علم تشد إليها الرحال...»[1].

من الصعب جدا أن نحدِّد نهايات الحركة العلمية في الكوفة، فالمعطيات التاريخية لا يمكن الركون إليها في تحديد سقف زمني لهذه الحركة العلمية المباركة، إلّا أنّ بعض الشذرات والإشارات التي يمكن اقتناصها من بعض تراجم العلماء، تشير إلى استمرارية هذه الحركة وعدم توقفها تماما إلى قرون من الزمن قد يمتد إلى القرن الثامن الهجري.

يقول أحد الباحثين: «وظلت الكوفة تغذي مراكز العلم في بقية الأمصار قرونا متوالية ولم تتوقف الحركة العلمية فيها تماما إلى القرن الثامن الهجري، غير أنها فقدت الكثير من وهجها وحيويتها منذ القرن الرابع الهجري، فقد وردت إشارات تؤكّد تواصل مجالس الدرس الشرعي في فترة متأخرة، يقول الشريف عمر بن إبراهيم بن محمد المنتهي نسبه إلى زيد الشهيد، أبو البركات الكوفي، المتوفى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة: «دخل أبو عبد اللّه الصُّوريُّ الكوفة، فكتب بها عن أربعمائة شيخ، وقَدِمَ علينا هبة اللّه بن المبارك السَّقطي، فأفدتُهُ عن سبعين شيخا من الكوفيِّين، وما بالكوفة اليوم أحد يروي الحديث غيري»[2]. وبعد هذا التاريخ نجد الشريف عز الدين أبو

---

(١) الحكيم ـ حسن، الكوفة: ٢٠٨.

(٢) الحموي ـ ياقوت، معجم الأُدباء: ٤ / ٤٢٨، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م.

المكارم حمزة بن علي بن زهرة العلوي يُحدّث بالكوفة سنة أربع وسبعين وخمسمائة. وهذا يعني وجود بقايا للحركة العلمية في الكوفة، وإن كانت محدودة»[1].

ويقول الشيخ علي الشرقي: «... وفي القرن الثاني للهجرة بدأت العمارة والتشييد لمدينة النجف تدريجيا، فانتقلت المدرسة من الكوفة إليها، وبقيت الكوفة تصب في بحر النجف إلى القرن الثامن للهجرة، وعند ذلك استوعبت النجف كلما كان في الكوفة، وأصبحت أهم مدينة في العراق حسب صراحة الرحالة ابن بطوطة... وصارت الكوفة محلة للآثار والتاريخ»[2].

ويقول مؤرخ الكوفة السيّد البراقي في خاتمة كتابه تاريخ الكوفة: «هذه خلاصة تاريخ الكوفة، وأهم أخبارها في العصور السالفة، وقد كانت عامرة حتى القرن الثامن الهجري على ما نحسب، ثمّ توالى عليها الدهور والخراب وهجرها أهلها فعادت مقفرة العرصات..»[3].

أدوار مدرسة الكوفة من الظهور إلى الاندثار

بعد هذه الجولة التاريخية لمناحي الحياة الفكرية والثقافية لمدرسة الكوفة وحوزتها العلمية ونتاج علمائها؛ يمكن لنا أن نستنتج عدّة أدوار مرّت بها هذه المدرسة عبر تاريخها الطويل؛ والذي يمتد إلى قرون من الزمن، وما يمتاز به كلّ دور من هذه الأدوار من مميزات، وفيما يلي استعراض سريع ومختصر لهذه الأدوار:

---

(١) المشهدي ـ محمد بن جعفر، فضل الكوفة: ٦١.

(٢) الشرقي ـ علي، الأحلام: ٤٢ ـ ٤٣، طبعة شركة الطبع والنشر الأهلية ـ بغداد، الطبعة الأُولى، ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م. وانظر: رحلة بن بطوطة: ٢٣١ بتحقيق: طلال حرب، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م).

(٣) البراقي ـ حسين بن السيّد أحمد النجفي، تاريخ الكوفة: ٥١٠.

الدور الأول: المرحلة التأسيسية لمدرسة أهل البيت عليهم السلام العلمية في الكوفة:

ويبدأ هذا الدور بتمصير الكوفة سنة (١٧ هـ) ويتواصل حتى سنة (٤١ هـ) بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام، ولجوء ولده الإمام الحسن عليه السلام لإبرام الصلح مع معاوية بن أبي سفيان، ثمّ مغادرة أهل البيت عليهم السلام الكوفة وعودتهم إلى موطنهم المدينة المنوّرة، وتفريغ مدرسة الكوفة من أساتذتها من أهل البيت عليهم السلام، ويمثّل هذا الدور المرحلة التأسيسية في مسار مدرسة الكوفة.

الدور الثاني: مرحلة التراجع والخمول لمدرسة أهل البيت عليهم السلام:

ويبدأ هذا الدور مع بداية العهد الأموي وبسط معاوية لسلطته على الكوفة، حيث فرض الولاة الأمويون ما يشبه الأحكام العرفية على الكوفيين، وطاردت الطليعة الواعية من تلامذة أمير المؤمنين عليه السلام وطالتهم حبسا وتنكيلاً وقتلاً وصلبا، ومن استطاع منهم الهجرة، خرج من الكوفة إلى حيث استقرّ به المقام كهجرة الأشعريين إلى قم. ويمتد هذا الدور إلى المرحلة النهائية للدولة الأموية حيث سقطوها سنة (١٣٢ هـ)، أي بعد مضي الربع الأول من القرن الثاني الهجري. وقد شهد هذا العهد تراجعا في نشاط مدرسة أهل البيت عليهم السلام بالكوفة، وأُصيبت المدرسة بحالة من التراجع والخمول في حركتها الفكرية والعلمية، لأنّ الحركة العلمية لا يمكن أن تنمو وتتسع مع أجواء الإرهاب والاضطهاد.

الدور الثالث: مرحلة الازدهار والتكامل والتوسع لمدرسة أهل البيت عليهم السلام في الكوفة:

ويبدأ هذا الدور بعد سقوط الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية، حيث كانت الدولة الجديدة منشغلة ببسط نفوذها وترتيب أُمورها، مما أتاح للحركة العلمية أن

تنهض من سباتها، فعاد النشاط العلمي لمدرسة أهل البيت في الكوفة، وخاصّة بعد مجيء الإمام جعفر بن محمد الصادقعليه السلام إليها في العقد الرابع من القرن الثاني الهجري، وبقائه سنتين فيها[1]، واستمر هذا الدور إلى أوائل العقد الرابع الهجري بعد زوال شأن الكوفة، واضمحلال الحياة العلمية فيها، وانتقال مدرسة أهل البيت إلى بغداد وبعدها إلى مدينة النجف الأشرف ـ كما سوف يأتينا لاحقا ـ

الدور الرابع: مرحلة الاندثار لمدرسة أهل البيتعليهم السلام في الكوفة:

ويبدأ هذا الدور منذ أوائل القرن الرابع ويمتد إلى اندثار الكوفة وخرابها في القرن الثامن الهجري، وفي هذا الدور استمر مؤشر الحركة الفكرية بالانحدار تدريجيا، بعد نزوح أكثر أهل العلم، وتوطنهم في حواضر علمية أُخرى.

ويمثل هذا الدور عهد الاندثار والتلاشي وانطفاء شعلة الحياة العلمية بالكوفة[2].

خلاصة وتقويم عام لمدرسة أهل البيتعليهم السلام في الكوفة

بعد هذه الجولة المقتضبة في أدوار مدرسة أهل البيتعليهم السلام في الكوفة، يمكن أن نستخلص مجموعة من النتائج التقويمية العامة، والسمات الأساسية للحركة العلمية التي سادت في هذه المدرسة، بالاضافة إلى العوامل التي ساعدت على الارتقاء بهذه المدرسة، وما أسهمت به من منجز علمي وتراث حضاري وانساني.

وفيما يلي استعراض موجز لأهم نتائج هذه المدرسة:

أولاً: بدأت الحركة العلمية في الكوفة مع بدايات تمصيرها سنة (١٧ هـ)، بعد أن سكنها مجموعة كبيرة من الصحابة، وكان فيهم من له باع في تفسير والحديث من

---

(١) البراقي ـ السيّد حسين، تاريخ الكوفة: ٤٦٦.

(٢) الرفاعي، مدرسة أهل البيت: ٩٩ ـ ١٠٠ بتصرف.

أمثال ابن مسعود وعمار بن ياسر،.. فبدأت بهم حلقات التفسير والحديث ثم تنامت تدريجيا، وبلغت ذروتها بقدوم الإمام علي‎عليه السلام إليها متخذا إياها عاصمة للدولة الإسلامي، وكان لتلامذة مدرسة أهل البيت‎عليهم السلام في مكة والمدينة دور كبير في انتقال العلوم والمعارف إلى مدرسة الكوفة.

كما كان للإمام علي‎عليه السلام دوره الأكبر في ترسيخ العلوم وتربية العلماء فيها.

ثانيا: استطاع الإمام‎عليه السلام وخلال تلك الفترة الوجيزة التي قضاها في الكوفة أن يأسس لمجموعة من العلوم والمعارف والتي شملت علوم العربية والنحو، وعلم الكلام والتوحيد، وعلم الفقه وخاصة في مجال القضاء وفقه الدولة، بالاضافة إلى علم الفصاحة والبلاغة والبيان والتي كان أمير المؤمنين‎عليه السلام أميرها بلا منازع.

ثالثا: اتخذ الإمام علي‎عليه السلام من مسجد الكوفة الجامع، مركزا من مراكز نشر العلوم والمعارف بالاضافة إلى وظيفة المسجد العبادية والروحية، فتحول هذا المسجد إلى جامعة إسلامية، وتوزعت في أروقته حلقات الدرس القرآني، والحديثي، والفقهي، والكلامي، بالاضافة إلى العلوم الأُخرى.

وإلى جانب المسجد كانت هنالك أماكن أُخرى ابتكرها الإمام‎عليه السلام وتلامذته كأماكن للتعليم، فكان الإمام يدور في أسواق الكوفة ليعلم التجار كيفية تعاطي التجارة بعيدا عن الربا والغش والتطفيف.. بالاضافة إلى تربيته لخواص أصحابه في الأماكن الخاصة وفي بيتهِ احيانا.

رابعا: استمرت مدرسة الإمام علي‎عليه السلام في عطائها العلمي بعد استشهاده سنة (٤٠ هـ)، وذلك من خلال النابغين من تلامذته، حيث واصل أُولئك الأعلام مسيرة مدرسة الإمام العلمية، ومن خلالهم انتقلت بعض العلوم والمعارف إلى الأمصار الأُخرى. إلّا أن الضغوط السياسية والاقتصادية والأمنية التي مارسها الجهاز الأموي

الحاكم حال دون استمرار هذه المدرسة في عطائها العلمي، فأصابها حالة من الانكماش والخمود والذي استمر لعشرات السنين، إلّا أنها لم تندثر نهائيا.

خامسا: استأنفت مدرسة أهل البيتعليهم السلام نشاطها العلمي، وازدهرت فيها حركة التدريس والتدوين والابداع في نهاية أيام الدولة الأموية وظهور الدولة العباسية والتي كانت ترفع شعار أهل البيتعليهم السلام ظاهرا، فكان عصر الباقر والصادقعليهما السلام من أهم عصور التشيع عامة، وازدهار الحركة العلمية وتجذرها في مدرسة الكوفة خاصة.

سادسا: لقد كان لحضور الإمام الصادقعليه السلام في الكوفة والذي استمر لسنتين بحسب بعض المؤرخين، دور كبير وفاعل في نمو مدرستها العلمية وازدهارها حتى أصبحت في مصاف الجامعات العلمية الكبرى، بل الجامعة العلمية الوحيدة في ذلك الزمن، حيث بلغ عدد طلّابها والدارسين فيها عدّة آلاف.

سابعا: لقد اتسمت جامعة الإمام الصادقعليه السلام في الكوفة بسمات علمية، وخصائص حضارية خلاقة وقف عندها كبار الباحثين في الحقل العلمي والتربوي اجلالاً وتعظيما. وكانت جامعة مفتوحة على اتباع المذاهب الأُخرى، بل إن الإمام الصادقعليه السلام يعتبر أُستاذ أئمة المذهب الأربعة إما مباشرة أو بواسطة واحدة.

ثامنا: اتسع نطاق العلوم والمعارف في مدرسة الكوفة في عصر الإمام الصادقعليه السلام، لتشمل علوم القرآن وتفسيره، والفقه وأُصوله، والكلام والتوحيد، وعلوم الحديث والرواية، وعلوم اللغة العربية وآدابها، بالاضافة إلى العلوم الطبيعية كالنجوم والفلك والكيمياء والطب وغيرها من العلوم التي تخصص فيها تلامذة الإمامعليه السلام وساهموا في تدوين المدونات العلمية وخاصة في مجال علم الحديث الذي كثر رواته فوصل عدد الثقات منهم إلى أربعة آلاف رجل، وكان من أهم آثارهم الأُصول الأربعمائة والتي تمخض منها الكتب الأربعة بعد ذلك.

وليس لدينا احصاء دقيق لعدد المؤلفات والآثار العلمية لهذه الحقبة المزدهرة بالعلم سوى بعض النقول التي نوصل عددها إلى أكثر من ستة آلاف كتاب وفي مختلف فروع العلوم والمعارف.

تاسعا: لقد استطاع الإمام الصادقعليه السلام وخلال فترة قصيرة من عمر الزمن أن يربى مجموعة من تلامذته وبحسب كفاءتهم العلمية لتمتد مدرسته العلمية من خلالهم، فكان لهؤلاء التلامذة دور كبير في خوض المعارك الفكرية، ومحاربة أهل الالحاد والزندقة، ومناظرة أهل العقائد الفاسدة والشاذة، فكان من هؤلاء الأفذاذ هشام بن الحكم، ومؤمن الطاق، وزرارة بن أعين، وجابر بن حيان.. وغيرهم من الأسماء اللامعة، ممن لم يقتصر دورهم في مدرسة الكوفة وإنما امتد ليصب في مدرسة بغداد والنجف وقم بعد ذلك.

عاشرا: اقتصرت أماكن التعليم في عصر الإمام الصادقعليه السلام على المسجد الجامع بشكل رئيسي وبعض الأماكن الأُخرى بشكل محدود.

كما أن أُسلوب التدريس والإفادة في هذه المدرسة كانت عن طريق السماع والتلقي المباشر من الإمامعليه السلام أو من خلال النابغين من تلامذته، وكانت بعض حلقات هذه الدروس تعقد بحضور الإمام وبتشجيع مباشرة منه. كما أن أُسلوب الرواية وكتابة المرويات عن الأُستاذ كانت أيضا قد راجت بعد ذلك، والتي تطورت بعدها إلى أُسلوب الاجازة بجميع المرويات أو ما يشتمل عليه أصل من الأُصول.

أما نفقات التعليم في مدرسة الكوفة فإنها كانت محدودة جدا، فلم يكن طلّاب العلوم يتقاضون مرتبا شهريا لأنهم بالغالب كانوا من أصحاب المهن والحرف الصناعية أو التجارية كما هو معروف من القابهم، كالصيرفي، وبياع السابري، والدهان، والجمّال... كما أن الأساتذة والمشايخ لم يكن يتقاضون أجرا على

ممارستهم للتدريس والتعليم كما أن أماكن التعليم كانت مجانية كالمساجد، والبيوت، والأماكن العامة، فلم تكن هنالك مدارس أو معاهد مخصصة لغرض التعليم في هذه الفترة.

حادي عشر: لم تنطفأ الجذوة العلمية في مدرسة الكوفة بعد رحيل الإمام الصادقعليه السلام عنها، وإنما استمرت في عطائها العلمي، وواصلت نشاطها كحاضرة علمية، واستمرت حلقات الدرس في أُروقة مسجدها ولقرون من الزمن؛ يحددها بعض المؤرخين بالقرن الثامن الهجري، إلّا أن علوم هذه المدرسة أخذت تصب في الأمصار الأُخرى حيث هاجر بعض تلامذتها إلى بغداد أو البصرة أو النجف أو قم، حاملين معهم زادهم العلمي والتربوي إلى تلك الديار فكان لبعضهم فتوحات علمية في تلك الأمصار كما سوف يأتينا لاحقا.

مصادر ومراجع الكتاب

القرآن الكريم، كتاب اللّه تبارك وتعالى.

نهج البلاغة، للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

ترتيب وفهرست د. صبحي الصالح، طبعة دار الهجرة ـ قم، الطبعة (بلا ـ ت).

(حرف الألف)

الاصفي ـ محمد مهدي

١ ـ الشيخ محمد رضا المظفر وتطور الحركة الاصلاحية في النجف، طبعة مؤسسة التوحيد ـ طهران، ضمن سلسلة رواد الاصلاح، الطبعة الأُولى، (١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م).

آل قاسم ـ عدنان فرحان (الدكتور)

٢ ـ دروس في السيرة النبوية، طبعة دار الإسلام ـ بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٣٢ هـ ـ ٢٠١١ م).

الآلوسي أبو الثناء شهاب الدين السيّد محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ)

٣ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: محمد أحمد الآمد وزميله، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م).

ابن أبي الحديد ـ عز الدين بن هبة اللّه المعتزلي (ت ٦٥٦ هـ)

٤ ـ شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة، الطبعة الأُولى، (١٣٨٨ هـ ـ ١٩٥٩ م).

ابن الأثير ـ مجد الدين أبو السعادات، المبارك بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري (ت ٦٠٦ هـ)

٥ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، (بلا ـ ت).

ابن الأثير ـ عز الدين أبي الحسن علي بن محمد أبي الكرم الجزري (ت ٦٣٠ هـ)

٦ ـ أُسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: عادل الرفاعي، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م).

٧ ـ الكامل في التاريخ، تحقيق: علي شيري، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٩ م).

ابن الجوزي ـ أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)

٨ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأُمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا وزميله، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الثانية، (١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م).

ابن حجر ـ شهاب الدين أحمد الهيتمي (ت ٩٧٤ هـ)

٩ ـ الصواعق المحرقة في الردّ على أهل البدع والزندقة، تخريج وتعليق: عبد الوهاب عبد اللطيف، طبعة مكتبة القاهرة، الطبعة الثانية، (١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م).

ابن حجر العسقلاني، أبي الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ)

١٠ ـ تهذيب التَّهذيب، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٥ هـ.

١١ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، طبعة أُفست على طبعة دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن، (بلا ـ ت).

ابن حزم ـ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦ هـ)

١٢ ـ ملخص ابطال القياس أو الصادع في الرَّد على من قال بالقياس، تحقيق: مشهور بن حسان، طبعة دار الأثرية ـ عمان، ٢٠٠٨ م.

ابن خلدون ـ عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ)

١٣ ـ المقدمة، طبعة أُفست مؤسسة الأعلمي ـ بيروت، (بلا ـ ت).

ابن خلكان، شمس الدين أبي العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ)

١٤ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: احسان عباس، طبعة دار الفكر ـ بيروت، أُفست دار صادر ـ بيروت، ١٣٩٨ هـ.

ابن سعد ـ أبو عبد اللّه محمد بن سعد الزهري (ت ٢٣٠ هـ)

١٥ ـ الطبقات الكبرى، المعروف بـ (طبقات الصحابة والتابعين والعلماء)، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م).

ابن شبة ـ أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري (ت ٢٦٢ هـ)

١٦ ـ تاريخ المدينة المنورة، أُفست دار الفكر ـ قم، (بلا ـ ت).

ابن شُعبة الحراني ـ الحسن بن علي (من علماء الإمامية في القرن الرابع)

١٧ ـ تُحف العقول عن آل الرسول، تصحيح: علي أكبر الغفاري، طبعة جامعة المدرسين ـ قم، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ هـ.

ابن شهر آشوب ـ رشيد الدين أبو جعفر محمد بن علي المازندراني (ت ٥٨٨ هـ)

١٨ ـ معالم العلماء في فهرست كتب الشيعة، طبعة مؤسسة نشر الفقاهة ـ قم، ١٤٢٥ هـ.

١٩ ـ مناقب آل أبي طالب، طبعة المطبعة العلمية ـ قم، أُفست طبعة النجف الأشرف.

ابن الصَّباغ ـ علي بن محمد المالكي (ت ٨٥٥ هـ)

٢٠ ـ الفصول المهمة في معرفة الأئمة، تحقيق: سامي الغريري، طبعة دار الحديث ـ قم، الطبعة الثانية، ١٣٨٤ ش، وطبعة المجمع العالمي لأهل البيت ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٧ هـ وأُفست المكتبة الحيدرية ـ النجف الأشرف ـ ١٣٨١ هـ.

ابن طاووس ـ رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد (ت ٦٦٤ هـ)

٢١ ـ فرج المهموم في تاريخ علماء النُّجوم، أُفست منشورات الرضي ـ قم، ١٣٦٣ ش.

ابن طاووس ـ عبد الكريم بن أحمد (ت ٦٩٣ هـ)

٢٢ ـ فرحة الغري، طبعة الرضي ـ قم (بلا ـ ت)، وطبعة العتبة العلوية بتحقيق الشيخ محمد مهدي نجف، الطبعة الأُولى، (١٤٣١ هـ ـ ٢٠١٠ م).

ابن الطقطقا ـ محمد بن علي بن طبطبا المعروف بابن الطقطقا (ت ٧٠٩ هـ)

٢٣ ـ الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، طبعة دار صادر ـ بيروت، (بلا ـ ت).

ابن عبد البر ـ يوسف بن عبد اللّٰه القرطبي (ت ٤٦٣ هـ)

٢٤ ـ الاستيعاب في أسماء الأصحاب، طبعة دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م).

ابن عساكر ـ أبو القاسم علي بن الحسين (ت ٥٧١ هـ)

٢٥ ـ تاريخ دمشق الكبير، الشهير بتاريخ ابن عساكر، تحقيق: علي عاشور الجنوبي، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م).

ابن عِنبَة ـ أحمد بن عليّ جمال الدين الحسيني (ت ٨٢٨ هـ)

٢٦ ـ عُمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، طبعة المكتبة الحيدرية ـ النجف الأشرف، ١٣٨٠ هـ

ابن فارس ـ أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ)

٢٧ ـ معجم مقاييس اللغة، حققه: شهاب الدين أبو عمرو، طبعة دار الفكر ـ بيروت، ١٤١٤ هـ

ابن الفوطي ـ كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد الشيباني المعروف بابن الفوطي (٦٤٢ هـ)

٢٨ ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة (المنسوب لابن الفوطي)، حققه: الدكتور بشار عواد معروف وزميله، طبعة أُفست المكتبة الحيدرية ـ قم، ١٤٢٦ هـ

ابن قالويه ـ أبو القاسم جعفر بن محمد (ت ٣٦٨ هـ)

٢٩ ـ كامل الزيارات، تحقيق: بهزاد جعفري، طبعة مكتبة الصدوق ـ طهران، (بلا ـ ت).

ابن قيّم ـ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزّرعي الدمشقي الشهير بابن القيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ)

٣٠ ـ إعلام الموقعين، طبعة دار الجيل الجديد ـ بيروت لبنان (بلا ـ ت).

٣١ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م).

ابن كثير ـ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)

٣٢ ـ البداية والنهاية، طبعة مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت، (١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م).

ابن منظور ـ محمد بن مكرّم بن علي (ت ٧١١ هـ)

٣٣ ـ لسان العرب، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م).

ابن النديم ـ محمد بن إسحاق النديم أو ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ)

٣٤ ـ الفهرست، طبعة دار المعرفة ـ بيروت لبنان، (١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م)، وطبعة بتحقيق: رضا تجدد، طهران، ١٩٧١ م.

ابن هشام ـ أبو محمد عبد الملك الحميري (ت ٢١٨ هـ)

٣٥ ـ السيرة النبوية، حققه: إبراهيم الآبياري وآخرون، طبعة مطبعة البابي ـ مصر، (١٣٥٥ هـ).

أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي الشهير بالقاضي (ت ٣٦٣ هـ)

٣٦ ـ دعائم الإسلام في مسائل الحلال والحرام، طبعة دار الأضواء، (بلا ـ ت).

أبو رية ـ محمود

٣٧ ـ أضواء على السنة المحمدية، أُفست دار الذخائر ـ قم، (بلا ـ ت).

أبو زهرة ـ محمد أحمد (ت ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م)

٣٨ ـ الإمام زيد حياته وعصره، آراؤه وفقهه، طبعة دار الفكر العربي، (بلا ـ ت).

٣٩ ـ الإمام الصادق عليه السلام حياته وعصره، آراؤه وفقهه، طبعة دار الندوة ـ بيروت، (بلا ـ ت).

٤٠ ـ تاريخ المذاهب الإسلامية، طبعة دار الفكر العربي ـ بيروت، ١٩٨٩ م.

٤١ ـ الشافعي، حياته وعصره، طبعة دار الفكر العربي ـ القاهرة، البعة الأُولى، (بلا ـ ت).

أبي نعيم ـ أحمد بن عبد الله (ت ٤٣٠ هـ)

٤٢ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م).

الأحمدي الميانجي ـ علي (ت ١٤٢٣ هـ)

٤٣ ـ مكاتيب الرسول، طبعة دار الحديث ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٩٩٨ م.

الأديب ـ عادل محمد حسين

٤٤ ـ الأئمة الاثنا عشر، دراسة تحليلية، طبعة الدار الإسلامية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م).

الإربلي ـ علي بن عيسى (ت ٦٨٧ هـ)

٤٥ ـ كشف الغمة في معرفة الأئمة، تحقيق: هاشم رسول محلاتي، طبعة دار الكتاب ـ قم، (بلا ـ ت).

الأزرقي ـ ابن الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٢٢٣ هـ)

٤٦ ـ أخبار مكة وما جاء فيها من آثار، طبعة أُفست الشريف الرضي ـ قم، ١٤١١ هـ.

الأسترآبادي ـ محمد أمين بن محمد شريف (ت ١٠٣٣ هـ)

٤٧ ـ الفوائد المدنية، تحقيق ونشر مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٤ هـ وطبعة حجرية بتقديم آل عصفور، طهران، ١٣٢١ هـ.

الأسترآبادي ـ ميرزا محمد بن علي (ت ١٠٢٨ هـ)

٤٨ ـ منهج المقال في تحقيق علم الرجال، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، الطبعة الأُولى، ١٤٢٢ هـ.

أسد حيدر

٤٩ ـ الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الثانية، (١٣٩٠ هـ ـ ١٩٦٩ م).

أفندي ـ الميرزا عبد اللّه أفندي الإصفهاني (من أعلام القرن الثاني عشر)

٥٠ ـ رياض العلماء وحياض الفضلاء، تحقيق: أحمد الحسيني، طبعة مكتبة المرعشي ـ قم، ١٤٠٣ هـ.

أمير علي

٥١ ـ مختصر تاريخ العرب، ترجمة عفيف البعلبكي، طبعة دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٩٠ م.

أمين ـ أحمد الدكتور (ت ١٣٧٣ هـ)

٥٢ ـ ضحى الإسلام، طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت، لبنان، الطبعة العاشرة، (بلا ـ ت).

٥٣ ـ فجر الإسلام، طبعة مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة، الطبعة الخامسة عشر، (بلا ـ ت).

الأمين ـ حسن (الدكتور)

٥٤ ـ دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، طبعة دار التعارف ـ بيروت، الطبعة السادسة، (١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م).

الأمين ـ محسن بن عبد الكريم بن علي بن محمد الأمين الحسيني العاملي الدمشقي (ت ١٣٧١ هـ)

٥٥ ـ أعيان الشيعة، حققه: السيّد حسن الأمين، طبعة دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت، الطبعة الخامسة، (١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م) في خمسة عشر مجلدا والطبعة الرابعة في عشرة مجلدات.

(حرف الباء)

البجنوردي ـ محمد كاظم وآخرون

٥٦ ـ دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، (مقالة الأشعريون)، ترجمة لجنة في مؤسسة دائرة المعارف، طبع وتوزيع المؤسسة، الطبعة الأُولى، (١٤٣٣ هـ ـ ٢٠١٢ م).

بحر العلوم ـ محمد صادق

٥٧ ـ مقدمة كتاب رجال الطوسي، طبعة المكتبة الحيدرية ـ النجف الأشرف، الطبعة الأُولى، (١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م).

بحر العلوم ـ محمد مهدي بن مرتضى بن السيّد محمد (ت ١٢١٢ هـ)

٥٨ ـ الرجال، الشهير بالفوائد الرجالية أو رجال السيّد بحر العلوم، بتحقيق وتقديم: محمد صادق بحر العلوم، والسيّد حسين بحر العلوم، طبعة أُفست مكتبة العلمين في النجف الأشرف.

البخاري ـ أبو عبد اللّه محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (ت ٢٥٦ هـ)

٥٩ ـ الجامع الصحيح، طبعة دار الفكر ـ بيروت، (١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م).

البراقي ـ حسين بن أحمد (ت ١٣٣٢ هـ)

٦٠ ـ تاريخ الكوفة، تحقيق: ماجد العطية، استدراك: محمد صادق بحر العلوم، طبعة أُفست المكتبة الحيدرية ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٤ هـ

البرقي ـ أبي جعفر أحمد بن محمد بن خالد (ت ٢٨٠ هـ)

٦١ ـ رجال البرقي، تحقيق: جواد القيومي، طبعة مؤسسة قيوم، الطبعة الأُولى، قم، ١٤١٩ هـ

٦٢ ـ المحاسن، تحقيق: مهدي الرَّجائي، طبعة المجمع العالمي لأهل البيت ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٣ هـ

البكري ـ عبد اللّه بن عبد العزيز الأندلسي (٤٨٧ هـ)

٦٣ ـ معجم ما اسْتعجم، تحقيق: مصطفى السقا، طبعة مكتبة الخانجي ـ القاهرة، الطبعة الثالثة، (١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م).

البلاذري ـ أبو الحسن أحمد بن يحيى البغدادي (ت ٢٧٩ هـ)

٦٤ ـ فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، (١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م).

البهادلي ـ علي أحمد

٦٥ ـ الحوزة العلمية في النجف الأشرف، طبعة دار الزهراء ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٣ هـ

(حرف الجيم)

الجاحظ ـ أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ)

٦٦ ـ الحيوان، طبعة دار احياء العلوم ـ بيروت، (١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م).

٦٧ ـ مجموعة رسائل الجاحظ، رسالة في فضل بني هاشم، طبعة دار ومكتبة الهلال ـ بيروت، (بلا ـ ت).

الجزيري ـ عبد الرحمن

٦٨ ـ الفقه على المذاهب الأربعة، طبعة دار احياء التراث العربي، الطبعة السابعة، (١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م).

الجعفري ـ محمد رضا

٦٩ ـ الكلام عند الإمامية، مجلة تراثنا الصادرة عن مؤسسة آل البيت لاحياء التراث ـ قم، العدد المزدوج: ٣١، ص ١٨٨.

جعيط هشام

٧٠ ـ نشأة المدينة العربية الإسلامية الكوفة، طبعة دار الطليعة ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥ م.

الجلالي ـ محمد رضا الحسيني

٧١ ـ تدوين السنة الشريفة، طبعة مكتب الإعلام الإسلامي ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٣ هـ.

٧٢ ـ جهاد الإمام السجاد، طبعة قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٣ هـ وطبعة دار الحديث ـ قم، ١٤١٨ هـ.

٧٣ ـ مقدمة كتاب الإمامة والتبصرة من الحيرة للفقيه المحدث أبي الحسن علي بن الحسين بن بابويه القمي والد الشيخ الصدوق.

الجندي ـ عبد الحليم

٧٤ ـ الإمام جعفر الصادق، تحقيق: أحمد جاسم المالكي، طبع المجمع العالمي لأهل البيت، الطبعة الأُولى، (١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٤ م).

جواد علي (الدكتور) (ت ١٤٠٨ هـ)

٧٥ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، أُفست منشورات الشريف الرضي ـ قم، (بلا ـ ت).

٧٦ ـ المهدي المنتظر عند الشيعة، طبعة مكتبة الجمل ـ ألمانيا، الطبعة الأُولى، ٢٠٠٥ م.

الجواهري ـ محمد

٧٧ ـ المفيد من معجم رجال الحديث (للسيد الخوئي)، طبعة مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت لبنان، الطبعة الأُولى، (١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م).

الجوهري ـ إسماعيل بن حمّاد (ت ٣٩٣ هـ)

٧٨ ـ الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، طبعة دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة الثانية، (١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م).

(حرف الحاء)

الحاكم النيسابوري ـ محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي (ت ٤٠٥ هـ)

٧٩ ـ المستدرك على الصحيحين، طبعة دار المعرفة ـ بيروت، (بلا ـ ت).

الحاكم النيسابوري ـ محمد بن عبد الله (ت ٤٥٦ هـ)

٨٠ ـ معرفة علوم الحديث، طبعة القاهرة، ١٩٣٧ م.

حامد جامع (الدكتور)

٨١ ـ علي بن أبي طالب حاكما وفقيها، طبعة القاهرة، (١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م).

الحربي ـ عبد الرحيم حسن محمد

٨٢ ـ خطباء المنبر الحسيني في المدينة المنورة، إعداد حسين الواثقي، سلسلة ذخائر الحرمين الشريفين، طبعة قم، الطبعة الأُولى، ١٤٣٠ هـ

٨٣ ـ قضاة المدينة المنورة من آل البيت وأتباعهم، إعداد: حسين الواثقي، سلسلة ذخائر الحرمين الشريفين، طبعة قم، الطبعة الأُولى، ١٤٣٠ هـ

الحسيني ـ محمد طاهر

٨٤ ـ الفقه في جنوب لبنان، طبعة دار المحجة البيضاء ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م).

الحكيم ـ حسن عيسى (الدكتور)

٨٥ ـ الكوفة، طبعة دار العارف ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م).

٨٦ ـ مذاهب الإسلاميين في تدوين الحديث، طبعة المكتبة الحيدرية ـ النجف الأشرف، (بلا ـ ت).

الحكيم ـ محمد باقر

٨٧ ـ علوم القرآن، طبعة مجمع الفكر الإسلامي ـ قم، الطبعة الثالثة، ١٤١٧ هـ

الحكيم ـ محمد تقي (ت ١٤٢٣ هـ)

٨٨ ـ الأُصول العامة للفقه المقارن، طبعة دار الأندلس ـ بيروت، (بلا ـ ت).

الحلبي ـ نورالدين علي بن إبراهيم (ت ٩٧٥ هـ)

٨٩ ـ إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، المعروف بـ (السيرة الحلبية)، تحقيق: عبد اللّه الخليلي، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦ م).

الحلي ـ تقي الدين الحسن بن علي ابن داود (ت بعد سنة ٧٠٧ هـ)

٩٠ ـ كتاب الرجال، حققه وقدّم له السيّد محمد صادق آل بحر العلوم.

الحلي ـ أبو منصور جمال الدين الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الشهير بالعلّامة الحلّي (ت ٧٢٦ هـ)

٩١ ـ خلاصة الأقوال في معرفة الرجال، تحقيق وطباعة نشر الفقاهة ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٧ هـ

٩٢ ـ منهاج الكرامة، تحقيق: عبد الرحيم مبارك، طبعة قم، ١٤٢٥ هـ

الحموي ـ شهاب الدين أبي عبد اللّه ياقوت (ت ٦٢٦ هـ)

٩٣ ـ معجم الأُدباء، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م).

٩٤ ـ معجم البلدان، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، (بلا ـ ت).

الحويزي ـ عبد علي بن جمعة

٩٥ ـ تفسير نور الثقلين، طبعة المطبعة العلمية ـ قم، (بلا ـ ت).

(حرف الخاء)

الخرسان ـ حسن الموسوي

٩٦ ـ مقدمة كتاب من لا يحضره الفقيه للصدوق، طبعة دار الكتب الإسلامية ـ طهران، الطبعة الخامسة، ١٣٩٠ هـ

الخطيب البغدادي ـ أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ)

٩٧ ـ تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م).

خفاجي ـ محمد عبد المُنعم

٩٨ ـ الأزهر في ألف عام، طبعة عالم الكتب ـ بيروت، ومكتبة الكليّات الأزهرية ـ القاهرة، الطبعة الثانية، (١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م).

الخليلي ـ جعفر

٩٩ ـ موسوعة العتبات المقدّسة، طبعة مؤسسة الأعلمي ـ بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م).

الخوئي ـ السيّد أبو القاسم بن علي أكبر الخوئي (١٤١٣ هـ)

١٠٠ ـ معجم رجال الحديث وتفصيل الرواة، نشر الفقاهة ـ قم، الطبعة الخامسة، (١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م).

الخوانساري ـ محمد باقر (١٣١٣ هـ)

١٠١ ـ روضات الجنات في تراجم العلماء والسادات، طبعة مكتبة اسماعيليان ـ قم، ١٣٩٠ هـ

(حرف الدال)

دراز ـ محمد عبد الله

١٠٢ ـ الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، طبعة دار القلم ـ الكويت، الطبعة الثانية، (١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م).

الدوري ـ عبد العزيز (الدكتور)

١٠٣ ـ مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، طبعة مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥ م.

الديار بكري ـ حسين بن محمد بن الحسن (٩٦٦ هـ)

١٠٤ ـ تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، طبعة دار صادر ـ بيروت، (بلا ـ ت).

(حرف الذال)

الذهبي ـ شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ)

١٠٥ ـ سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الارناؤوط، طبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة العاشرة، (١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م).

١٠٦ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: محمد البَجاوي، طبعة دار المعرفة ـ بيروت، ١٩٦٣ م، وطبعة دار الفكر ـ بيروت.

(حرف الراء)

الراغب الإصفهاني ـ أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل (ت ٤٢٥ هـ)

١٠٧ ـ مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، طبعة دار القلم ـ دمشق، الطبعة الأُولى، (١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م).

الرجائي ـ مهدي

١٠٨ـ مقدمة كتاب المحاسن للبرقي (أحمد بن محمد بن خالد)، الطبعة الحديثة الثانية، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام ـ قم، ١٤١٦ هـ.

الرفاعي ـ عبد الجبار (الدكتور)

١٠٩ـ مدرسة أهل البيت في المدينة المنورة والكوفة، طبعة مؤسسة الهدى الدولية، الطبعة الأُولى، ١٤٢٢ هـ.

رونلدسن ـ دوايت م. (المستشرق)

١١٠ ـ عقيدة الشيعة، تعريب: ع. م، طبعة مؤسسة المفيد ـ بيروت، الطبعة الثانية، (١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م).

(حرف الزاي)

زكي نجيب محمود

١١١ ـ جابر بن حيان، أُفست طبعة مكتبة مصر.

(حرف السين)

السبحاني ـ جعفر

١١٢ ـ دور الشيعة في الحديث والرجال، طبعة مؤسسة الإمام الصادق ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٣١ هـ.

سبط ابن الجوزي ـ يوسف بن فَرَغلي (٦٥٤ هـ)

١١٣ ـ تذكرة الخواص المعروف بـ (تذكرة خواص الأئمة)، قدّم له السيّد محمد صادق بحر العلوم، طبعة مكتبة نينوى الحديثة ـ طهران، (بلا ـ ت).

السهيلي ـ أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي الحسن (ت ٥٨١ هـ)

١١٤ـ الروض الأُنف في تفسير السيرة النبوية، طبعة دار الفكر ـ بيروت، (١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩م).

السيوطي ـ الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن كمال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)

١١٥ ـ الاتقان في علوم القرآن، طبعة دار احياء العلوم ـ بيروت، (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧ م).

١١٦ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، قدّم له: عبد الرزاق المهدي، صححها وخرج أحاديثها: نجدت نجيب، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م).

(حرف الشين)

الشافعي ـ كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي (ت ٦٥٢ هـ)

١١٧ ـ مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، تحقيق: ماجد العطية، طبعة مؤسسة أُم القرى، الطبعة الأُولى، ١٤٢٠ هـ.

الشاهرودي ـ نور الدين

١١٨ ـ تاريخ الحركة العلمية في كربلاء، طبعة دار العلوم ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م).

الشبراوي الشافعي ـ عبد الله بن محمد بن عامر (١١٧٢ هـ)

١١٩ ـ الاتحاف بحب الاشراف، تحقيق: سامي الغريري، طبعة مؤسسة الكتاب الإسلامي، الطبعة الأُولى، (١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م).

شرف الدين ـ عبد الحسين (ت ١٣٧٧ هـ)

١٢٠ـ بغية الراغبين في نسب آل شرف الدين، مطبوع ضمن موسوعة السيّد شرف الدين، المجلد السابع والثامن، طبعة دار المؤرخ العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦ م).

١٢١ ـ النص والاجتهاد، تقديم السيّد محمد تقي الحكيم، طبعة دار النهج ـ صور لبنان، الطبعة الثانية، (١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م).

الشرقي ـ علي

١٢٢ ـ الأحلام، الطبعة الأُولى، بغداد، ١٩٦٣ م.

شلبي ـ أحمد (الدكتور)

١٢٣ ـ تاريخ التربية الإسلامية، طبعة القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٠ م.

شمس الدين ـ محمد مهدي

١٢٤ ـ الاجتهاد والتجديد في الفقه الإسلامي، طبعة المؤسسة الدولية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ م).

شوقي ضيف (الدكتور)

١٢٥ ـ المدارس النحوية، طبعة دار المعارف ـ مصر القاهرة، الطبعة السابعة، (بلا ـ ت).

الشوكاني ـ محمد بن علي بن محمد بن عبد اللّه (١٢٥٠ هـ)

١٢٦ ـ فتح القدير (تفسير)، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، ١٤٠٣ هـ

١٢٧ ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيّد الأخيار، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، (بلا ـ ت).

الشهرستاني ـ أبو الفتوح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨ هـ)

١٢٨ ـ الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، طبعة دار المعرفة، الطبعة الثانية، (١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م).

الشهرستاني ـ جواد

١٢٩ ـ مقدمة جامع المقاصد، طبعة مؤسسة آل البيت ـ قم، الطبعة الأُولى.

الشهرستاني ـ علي

١٣٠ ـ منع تدوين الحديث، طبعة مؤسسة آل البيت ـ مشهد، الطبعة الأُولى.

الشهرستاني ـ هبة الدين (ت ١٣٨٦ هـ)

١٣١ ـ مقدمة كتاب فرق الشيعة للنوبختي، طبعة الحيدرية، (١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م).

١٣٢ ـ نهضة الحسين، طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت، (بلا ـ ت).

الشيبي ـ كامل مصطفى (الدكتور)

١٣٣ ـ الصلة بين التصوف والتشيع، طبعة دار الأندلس ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٢ م.

(حرف الصاد)

الصالحي ـ عبد الحسين

١٣٤ ـ الحوزات العلمية في الأقطار الإسلامية، طبعة بيت العلم ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤ م).

صبحي ـ أحمد محمود (الدكتور)

١٣٥ ـ نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية، طبعة دار النهضة العربية ـ بيروت، (بلا ـ ت).

صبحي الصالح

١٣٦ـ علوم القرآن، طبعة دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٦٨م.

الصدر ـ حسن (ت ١٣٥٤ هـ)

١٣٧ـ تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، طبعة انتشارات اعلمي ـ طهران، (بلا ـ ت).

١٣٨ـ تكملة أمل الآمل، تحقيق: حسين علي محفوظ وآخرون، طبعة دار المؤرخ العربي ـ بيروت، (١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨ م).

١٣٩ـ الشيعة وفنون الإسلام، تحقيق: مرتضى المير سجادي، طبعة مؤسسة السبطين العالمية ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٧ هـ

الصدر ـ محمد باقر (ت ١٤٠١ هـ)

١٤٠ـ بحث حول الولاية، مقدمة لكتاب عبد اللّه فياض تاريخ الإمامية، طبعة مؤسسة الأعلمي ـ بيروت، (١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م).

١٤١ـ المُرسل والرَّسول والرِّسالة، مقدمة كتاب الفتاوى الواضحة، طبعة دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت، الطبعة السابعة، (١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م).

الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ)

١٤٢ـ اكمال الدين وتمام النعمة عُني بتصحيحه وتحقيقه: علي أكبر الغفاري، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، الطبعة الخامسة، ١٤٢٩ هـ

١٤٣ـ الأمالي، قدّم له: حسين الأعلمي، طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، الطبعة الخامسة، (١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م).

١٤٤ـ الخصال، تصحيح: علي أكبر الغفاري، طبعة جامعة المدرسين ـ قم، (بلا ـ ت).

١٤٥ـ عيون أخبار الرضا، طبعة منشورات المكتبة الحيدرية ـ النجف الأشرف، (بلا ـ ت).

١٤٦ـ من لا يحضره الفقيه، طبعة المكتبة الإسلامية ـ طهران، (بلا ـ ت).

الصفار ـ محمد بن الحسن بن فروخ

١٤٧ـ بصائر الدرجات، تحقيق: محمد حسين المعلم، طبعة المكتبة الحيدرية ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٦ هـ.

الصفدي ـ صلاح الدين خليل بن أيبك الصَّفدي (ت ٧٦٤ هـ)

١٤٨ـ الوافي بالوفيات، طبعة دار النشر فرانز شتانيز ـ قيسبادان، (١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٢ م).

(حرف الطاء)

الطبرسي أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب (من علماء القرن السادس)

١٤٩ـ الاحتجاج، تحقيق: إبراهيم البهادري وزميله، طبعة دار الأُسوة ـ إيران، الطبعة الخامسة، ١٤١٤ هـ.

الطبرسي ـ أمين الإسلام الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن (من أعلام القرنالسادس)

١٥٠ـ اعلام الورى بأعلام الهدى، طبعة مؤسسة آل البيت لاحياء التراث ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٧ هـ.

الطبري ـ أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم (من علماء الإمامية في القرن الرابع)

١٥١ـ دلائل الإمامة، منشورات المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف، (١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م).

الطبري ـ عماد الدين أبو جعفر محمد بن القاسم الطبري (من علماء القرن الخامس الهجري)

١٥٢ـ بشارة المصطفى لشيعة المرتضى، تحقيق: جواد القيومي، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٠ هـ

الطبري ـ محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)

١٥٣ـ التفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بـ (تفسير الطبري)، ضبط وتعليق: محمود شاكر، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م).

١٥٤ـ التاريخ، المعروف بتاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

الطبسي ـ محمد جواد

١٥٥ـ حياة الإمام العسكري، دراسة تحليلية، طبعة مكتب الإعلام الإسلامي ـ قم، ١٤١٣ هـ.

الطريحي ـ فخر الدين (ت ١٠٨٥ هـ)

١٥٦ـ مجمع البحرين، تحقيق: مؤسسة البعثة ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١٤ هـ

الطوسي ـ أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي (ت ٤٦٠ هـ)

١٥٧ـ الأمالي، بتحقيق علي أكبر الغفاري، طبعة دار الكتب الإسلامية ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٣٨١ هـ

١٥٨ـ الغيبة، تحقيق: عبد اللّه الطهراني وزميله، طبعة مؤسسة المعارف ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤١١ هـ

١٥٩ـ فهرست كتب الشيعة وأُصولهم، تحقيق وتقديم: عبد العزيز الطباطبائي، طبعة مؤسسة آل البيت ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٠ هـ

١٦٠ـ الرجال، تحقيق: جواد القيومي، طبعة جامعة المدرسين ـ قم، ١٤٢٠ هـ

الطوسي ـ نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن المعروف بـ (الخواجة) (ت ٦٧٢ هـ)

١٦١ـ آداب المتعلمين، تحقيق: محمد رضا الجلالي، طبعة مؤسسة بضعة المختار لإحياء تراث أهل البيت، الطبعة الأُولى، ١٤٢٢ هـ

الطهراني آقا بزرك ـ محسن، (ت ١٣٨٩ هـ)

١٦٢ـ الذريعة إلى تصانيف الشيعة، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م).

١٦٣ـ طبقات أعلام الشيعة، طبعة دار احياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ م).

(حرف العين)

عارف ـ أحمد عبد الغني

١٦٤ـ أمراء المدينة، أُفست دار الاقليم ـ قم، ١٤١٨ هـ

العاملي ـ جعفر مرتضى

١٦٥ـ الصحيح من سيرة النبي الأعظم، طبعة دار الحديث ـ قم، الطبعة الأُولى، (١٤٢٦ هـ).

العاملي ـ زين الدين أبي محمد علي بن يونس العاملي النباطي (ت ٨٧٧ هـ)

١٦٦ـ الصراط المستقيم لمستحقي التقويم، تحقيق: محمد باقر البهبودي، طبعة المكتبة الرضوية، الطبعة الأُولى، ١٣٨٤ هـ

العاملي ـ زين الدين بن علي، الشهير بـ (الشهيد الثاني) استشهد (٩٦٥ هـ)

١٦٧ـ الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، طبعة دار العالم الإسلامي ـ بيروت، (بلا ـ ت).

١٦٨ـ منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، تحقيق: رضا المختاري، طبعة مركز الإعلام الإسلامي ـ قم، الطبعة الرابعة، ١٤١٨ هـ

العاملي ـ محمد بن الحسن بن علي الشهير بـ (الحر العاملي) (ت ١١٠٤ هـ)

١٦٩ـ تفصيل وسائل الشيعة، طبعة مؤسسة آل البيت، الطبعة الأُولى، ١٤١٢ هـ

عبد الباقي ـ محمد فؤاد

١٧٠ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، أُفست مؤسسة الصادق ـ قم، ١٤٢٠ هـ

العُطاردي ـ عزيز الله

١٧١ ـ مسند الإمام الجوادعليه السلام، طبعة انتشارات عطارد ـ ايران خراسان، ١٣٧٩ ش.

عطوي ـ محسن

١٧٢ ـ مقال «الحوزة العلمية في فكر الإمام الخميني»، مجلة المنطلق ـ بيروت، العدد ٥٧، محرم سنة ١٤١٠ هـ

العقيقي ـ نجيب

١٧٣ ـ المتشرقون، طبعة دار المعارف ـ القاهرة، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٦ م.

العلوي ـ أبي عبد الله محمد بن علي (ت ٤٤٥ هـ)

١٧٤ ـ فضل الكوفة وفضل أهلها، تحقيق: محمد سعيد الطريحي، طبعة مؤسسة أهل البيت ـ بيروت، (١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م).

العلي ـ أحمد صالح (الدكتور)

١٧٥ ـ الكوفة وأهلها في صدر الإسلام، طبعة شركة المطبوعات ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ٢٠٠٣ هـ

علي ـ سعيد إسماعيل

١٧٦ ـ الأزهر على مسرح السياسة المصرية، طبعة دار الثقافة والنشر ـ القاهرة، ١٩٧٤ م.

العياشي ـ محمد بن مسعود بن عياش السَّلمي السَّمرقندي المعروف بـ (العياشـي) (من علماء أواخر القرن الثالث الهجري)

١٧٧ ـ كتاب التفسير المعروف بـ (تفسير العياشي)، قدم له: السيّد محمد حسين الطباطباني، حقّقه: السيّد هاشم الرّسوليالمحلاتي، طبعة المكتبة العلمية الإسلامية ـ طهران، ١٣٨٠ هـ.

(حرف الغين)

الغريفي ـ عبد اللّه

١٧٨ ـ التشيع، نشؤوه ومراحله ومقوماته، طبعة دار الملاك ـ بيروت، الطبعة الخامسة ـ (١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م).

(حرف الفاء)

الفاسي ـ تقي الدين محمد بن أحمد (ت ٨٣٢ هـ)

١٧٩ ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، طبعة مكتبة النهضة الحديثة ـ مكة، الطبعة الثانية، ١٩٩٩ م.

فضل اللّه ـ محمد جواد

١٨٠ ـ الإمام الصادق، طبعة دار الزهراء ـ بيروت، (١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م).

الفضلي ـ عبد الهادي

١٨١ ـ تاريخ التشريع الإسلامي، طبعة مؤسسة دار الكتاب الإسلامي ـ قم، الطبعة الأُولى، (١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م).

فلهوزن ـ يوليوس

١٨٢ ـ الخوارج والشيعة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، طبعة وكالة المطبوعات ـ الكويت، الطبعة الثالثة، (١٩٧٨ م).

الفياض ـ عبد اللّه (الدكتور)

١٨٣ ـ تاريخ الإمامية واسلافهم من الشيعة، قدّم له: السيّد محمد باقر الصدر، طبعة مؤسسة الأعلمي ـ بيروت، الطبعة الثانية، (١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م).

الفيومي ـ أحمد بن محمد بن علي (ت ٧٧٠ هـ)

١٨٤ ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أُفست طبعة دار الهجرة ـ قم، (بلا ـ ت).

(حرف القاف)

القرطبي ـ أبو عبد اللّه محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١ هـ)

١٨٥ ـ جامع بيان العلم وفضله، طبعة دار التعارف ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م).

القزويني ـ جودت (الدكتور)

١٨٦ ـ تاريخ المؤسسة الدينية الشيعية من العصر البويهي إلى نهاية العصر الصفوي، طبعة دار الرافدين ـ بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤٢٦ هـ

القفطي ـ جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ)

١٨٧ ـ إخبار العلماء بأخبار الحكماء ـ القاهرة، مكتبة الخانجي، (بلا ـ ت).

القمي ـ عباس بن محمد رضا بن أبي القاسم (١٣٥٩ هـ)

١٨٨ ـ الأنوار البهية في تواريخ الحجج الإلهية، تحقيق: محمد كاظم الخراساني، طبعة دار الأضواء ـ بيروت، (١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م).

١٨٩ ـ سفينة البحار، طبعة دار الأُسوة ـ قم، (بلا ـ ت).

١٩٠ ـ الكنى والألقاب، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، الطبعة الثانية، ١٤٢٩ هـ.

القندوزي الحنفي ـ سليمان بن إبراهيم (ت ١٢٩٤ هـ)

١٩١ ـ ينابيع المودة لذوي القربى، أُفست المكتبة الحيدرية في النجف الأشرف.

(حرف الكاف)

كاتب جلبي ـ حاج خليفة

١٩٢ ـ كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٩٩٢ م.

الكتاني ـ محمد بن عبد الحي الكتاني الأردبيلي

١٩٣ ـ نظام الحكومة الإسلامية المسمى بـ (التراتيب الإدارية)، طبعة شركة الأرقم ـ بيروت، (بلا ـ ت).

الكشي ـ أبو عمرو محمد بن عمرو بن محمد بن عبد العزيز (ت نحو ٣٤٠ هـ)

١٩٤ ـ اختيار معرفة الرجال المعروف بـ (رجال الكشي) أو (معرفة الناقلين)، تلخيص وتهذيب: محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ)، تحقيق: حسن مصطفوي، طبعة دانشكاه مشهد، (١٣٤٨ ش).

الكليني ـ أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الرازي (ت ٣٢٨ هـ)

١٩٥ ـ الأُصول من الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر غفاري، طبعة دار الأضواء ـ بيروت، (١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م).

الكنجي الشافعي أبي عبد اللّه محمد بن يوسف بن محمد (ت ٦٥٨ هـ)

١٩٦ـ كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب، تحقيق: محمد هادي الأميني، طبعة احياء تراث أهل البيت ـ طهران، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ هـ

(حرف الميم)

ماسينيون المسيو لويس (المستشرق)

١٩٧ـ خطط الكوفة، ترجمة: محمد تقي المصعبي، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، طبعة جمعية منتدى النشر ـ النجف الأشرف، الطبعة الأُولى، (١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م).

المامقاني ـ عبد اللّه (ت ١٣٥١ هـ)

١٩٨ ـ تنقيح المقال، تحقيق واستدراك: محي الدين المامقاني، طبعة مؤسسة آل البيت ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٦ هـ

المتقي الهندي ـ علاء الدين المتقي حسام الدين الهندي البرهان فوري (ت ٩٧٥ هـ)

١٩٩ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ضبط وتصحيح: صفوة السّقا، طبعة مؤسسة الرسالة ـ بيروت، (١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م).

المجلسي ـ محمد باقر (ت ١١١١ هـ)

٢٠٠ ـ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، تحقيق ومراجعة وتقديم الشيخ محمود درياب ومجموعة من العلماء، طبعة دار التعارف للمطبوعات، الطبعة الأُولى، (١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م).

المرتضى ـ علم الهدى الشريف علي بن الحسين بن موسى (ت ٤٣٦ هـ)

٢٠١ ـ أمالي المرتضى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة مصر، (١٣٢٥ هـ ـ ١٩٠٧ م).

المسعودي ـ أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ)

٢٠٢ ـ إثبات الوصية، منشورات مكتبة بصيرتي ـ قم، (بلا ـ ت).

٢٠٣ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة دار الأندلس ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م).

مسلم ـ أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ)

٢٠٤ ـ الصحيح أو (صحيح مسلم) بشرح النووي، طبعة دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٩ م).

مصطفى جواد وأحمد سوسه

٢٠٥ ـ دليل خارطة بغداد المفصل.

المظفر ـ محمد حسين

٢٠٦ ـ الإمام الصادقعليه السلام، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي ـ قم، الطبعة الرابعة، (بلا ـ ت).

٢٠٧ ـ تاريخ الشيعة، طبعة مكتبة بصيرتي ـ قم، (بلا ـ ت).

مغنية ـ محمد جواد

٢٠٨ ـ تجارب محمد جواد مغنية بقلمه، تحقيق: رياض الدباغ، طبعة أنوار الهدى ـ قم، ١٤٢٧ هـ

المفيد ـ أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣ هـ)

٢٠٩ ـ الاختصاص، تحقيق: علي أكبر غفاري ومحمود الزرندي، طبعة دار المفيد ـ بيروت، موسوعة مؤلفات الشيخ المفيد، الطبعة الثانية (١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م).

٢١٠ ـ الإرشاد في معرفة حُجج اللّه على العباد، طبعة مؤسسة آل البيت ـ قم، طبعة دار المفيد ـ بيروت، الطبعة الثانية، (مؤلفات الشيخ المفيد)، (١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م).

٢١١ ـ الأمالي، طبعة موسوعة الشيخ المفيد (١٣)، نشر دار المفيد، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ.

٢١٢ ـ أوائل المقالات في المذاهب المختارة، قدّم له وعلّق عليه: الشيخ فضل اللّه الزنجاني، طبعة تبريز، ١٣٧١ هـ.

المنذري ـ عبد العظيم بن عبد القوي (ت ٦٥٦ هـ)

٢١٣ ـ التَّرغيب والتَّرهيب، تحقيق: مصطفى عمارة، بيروت، ١٩٦٨ م.

الميلاني ـ محمد هادي الحسيني (ت ١٣٩٥ هـ)

٢١٤ ـ قادتنا كيف نعرفهم، طبعة مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ـ قم، الطبعة الثانية، ١٤١٣ هـ.

(حرف النون)

النجاشي ـ أحمد بن علي (ت ٤٥٠ هـ)

٢١٥ ـ الرجال، تحقيق: السيّد موسى شبيري، طبعة جامعة المدرسين ـ قم، ١٤٠٧ هـ.

النُعيمي ـ عبد القادر بن محمد (ت ٩٢٧ هـ)

٢١٦ ـ الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسني، طبعة مكتبة الثقافة الدينية ـ مصر، ١٩٨٨ م.

النوبختي ـ أبي محمد الحسن بن موسى (من أعلام القرن الثالث للهجرة)

٢١٧ ـ فرق الشيعة، صححه وعلّق عليه: محمد صادق آل بحر العلوم، طبعة الحيدرية، (١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م).

النوري ـ ميرزا حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي، الشهير بالمحدث النوري (ت ١٣٢٠ هـ ـ ١٩٠٢ م)

٢١٨ ـ مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، الخاتمة، طبعة وتحقيق: مؤسسة آل البيت لاحياء التراث ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٠٧ هـ

(حرف الهاء)

الهيثمي ـ نور الدين علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧ هـ)

٢١٩ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م).

(حرف الواو)

الوائلي ـ أحمد (الدكتور)

٢٢٠ ـ هوية التشيع، تحقيق: مؤسسة السبطين عليهما السلام العالمية ـ قم، الطبعة الأُولى، ١٤٢٦ هـ

الواقدي ـ محمد بن سعد الواقدي الزهري (ت ٢٣٠ هـ)

٢٢١ ـ المغازي، تحقيق: الدكتور مارسون جُونسن، طبعة مؤسسة الأعلمي ـ بيروت، (بلا ـ ت).

الوكيل ـ محمد السيّد

٢٢٢ ـ الحركة العلمية في عصر الرَّسول، طبعة دار المجتمع للنشر ـ جِدة، الطبعة الثانية، (١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م).

(حرف الياء)

اليافعي ـ عبد اللّه بن أسعد بن علي بن سليمان (ت ٧٦٨ هـ)

٢٢٣ ـ مِرآة الجنان وَعبرة اليقظان، تحقيق: خليل منصور، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م).

اليعقوبي ـ أبو يعقوب أحمد بن إسحاق بن واضح (ت ٢٨٤ هـ)

٢٢٤ ـ تاريخ اليعقوبي، طبعة دار صادر ـ بيروت، (بلا ـ ت).

بسم الله الرحمن الرحيم

(١٣٧) الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطاهرين
وبعد: لا يخفى على اخواننا المؤمنين أيدهم الله تعالى أن
فضيلة العلامة الشيخ عدنان فرحان دامت تأييداته مجاز
ومأذون من قبلنا في التصدي للأمور الحسبية المنوطة بإذن
الحاكم الشرعي كما هو مجاز ومأذون في صرف الثلث مما يقبضه
من حق الإمام عليه أفضل الصلاة والسلام وغيره من الحقوق
الشرعية في مواردها المقررة شرعاً وإيصال الباقي إلينا و
أوصيه سلمه الله تعالى بملازمة التقوى وسلوك سبيل
الاحتياط فإنه طريق النجاة والسلام عليه وعلى جميع
اخواننا المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

علي السيستاني

٤/ع٢
١٤٢٤

صورة الإجازة الشرعية التي منحها المرجع الأعلى آية الله العظمى
السيد علي الحسيني السيستاني (دام ظله) للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

وبعد فلا يخفى على إخواننا المؤمنين وفقهم الله تعالى أن جناب العلامة الشيخ عدنان فرحان آل قاسم دام تأييده ممن يهتم بنشر المعارف الدينية وترويج الدين ونفع المؤمنين فالأمل منهم تجليله وتكريمه والاستماع إلى نصائحه وإرشاداته.

وهو مجاز من قبلنا في التصدي للأمور الحسبية التي يرجع فيها للحاكم الشرعي ويحتاج فيها للإذن، ومنها قبض سهم الإمام «عجل الله فرجه وجعل أرواحنا فداه» وصرف الثلث منه في ترويج الدين الحنيف وإغاثة المضطرين من المؤمنين على ما أوضحناه في رسالتنا العملية مع ملاحظة الأولويات والمرجحات أداءً لهذه الأمانة وخروجاً عن عهدتها، ومراجعتنا في الباقي لنتولى صرفه في المصارف المذكورة بتوفيقه تعالى وتسديده.

وأوصيه ونفسي وجميع المؤمنين بتقوى الله تعالى وإيثار رضاه والاحتياط في جميع الأمور والتثبت فيها.

كما أوصيه بخدمة المؤمنين وتفقيههم في دينهم وتهذيب نفوسهم وتقريبهم من ربهم وجمع كلمتهم وإصلاح ذات بينهم والله سبحانه من وراء القصد ونسأله التوفيق والتسديد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

محمد سعيد الطباطبائي الحكيم

٤ شوال
١٤٣١ هـ

صورة الوكالة الشرعية التي منحها المرجع آية الله العظمى السيد سعيد الحكيم (دام ظله) للمؤلف

٢٤ رجب ١٣٧٤

٢٨٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه وأشرف بريته محمد (ص) وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين واللعن الدائم على اعدائهم أجمعين الى قيام يوم الدين.

وبعد فقد استجازني صاحب الفضيلة سماحة العلامة حجة الاسلام الشيخ عدنان فرحان آل قاسم دامت تأييداته وإفاداته فأجزت له ان يتصدى لجميع ما هو منوط باذن الحاكم الشرعي من الامور الحسبية مع رعاية الاحتياط في جانبي الموضوع والحكم واجزت له في اخذ الوجوه الشرعية من الزكوات والكفارات والمظالم المردودة وغيرها كما اني اجزت له ان يأخذ السهمين المباركين ويصرف الثلث في مصارفه الشخصية الاقتصادية وسائر المصارف المقررة الشرعية وايصال البقية الي للصرف في الحوزات العلمية سيما الحوزة المقدسة العظيمة بقم المحمية عش آل محمد صلوات الله عليهم واجزت له ان يروي عني جميع ما صحت لي روايته عن شيخ مشايخ الاجازة الشيخ آغا بزرك الطهراني - قدس سره الشريف - صاحب كتاب الذريعة الى تصانيف الشيعة وسائر المؤلفات القيمة بطرقه المذكورة الى الجوامع الاربعة الروائية المذكورة في محالها واوصيه بما اوصى به السلف الصالح من ملازمة التقوى ومراعاة الاحتياط في جميع الحالات وان لا ينساني من صالح الدعوات كما اني لا انساه ان شاء الله تعالى والسلام عليه وعلى جميع اخواننا المؤمنين ورحمة الله وبركاته

١٤ ذي الحجة الحرام ١٤١٥

محمد فاضل

[ختم]

صورة الوكالة الشرعية واجازة الرواية التي منحها المرجع آية الله العظمى الشيخ فاضل اللنكراني (دام ظله) للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف الخلق اجمعين سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين

وبعد: فان جناب حجة الاسلام الشيخ عدنان فرحان حفظه الله ممن صرف شطراً من عمره في تحصيل العلوم الدينية بحوزة قم المقدسة وحضر جملة من ابحاثنا فبلغ درجة من الفضيلة والتقوى وقد وفقه الله سبحانه للتوجه الى تبليغ الإسلام في ديار اليمن ونشر تعاليمه الخالدة الصافية المستمدة من مذهب أهل البيت عليهم السلام

وقد سألنا الاجازة في الامور الحسبية التي يبتلي بها هناك خلال عمله التبليغي

وعلى هذا الأساس قد أجزنا له في التصدي للامور الحسبية المنوط أمرها باذن الحاكم الشرعي

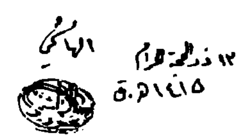
كما وانه مجاز في استلام الحقوق الشرعية من سهم الإمام «ارواحنا فداه» وسهم الفقراء السادة وصرف الثلث منها في مواردها المقررة شرعاً وايصال الباقي الينا لصرفه في شؤون الحوزة العلمية

واوصيه بما اوصى به السلف الصالح من ملازمة التقوى ومراعاة الاحتياط فانه طريق النجاة.

والسلام عليه وعلى كافة اخواننا المؤمنين ورحمة الله وبركاته

١٢ ذي الحجة الحرام ١٤١٥ هـ.ق

الهاشمي



صورة الإجازة الشرعية التي منحها المرجع آية الله العظمى السيد محمود الهاشمي الشاهرودي (دام ظله) للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين . وبعد

فإن جناب حجة الإسلام آقاى شيخ عدنان فرحان دامت إفاضاته مأذون من قبلنا في التصدي للأمور الحسبية واستلام الحقوق الشرعية وصرف الزكوات والكفارات والمظالم في مواردها المقررة شرعاً وكذلك مأذون في استلام السهمين المباركين وصرف النصف من سهم الإمام عليه السلام في ترويج الشريعة المقدسة وإعطاء النصف من سهم السادة إلى السادات وإرسال ما بقي من السهمين إلينا لصرفه في الحوزات العلمية صانها الله تعالى من الحدثان وإيصال القبوض المأخوذة إلى معطيها وأوصيه أيده الله تعالى بما أوصى به السلف الصالح من ملازمة التقوى والتجنب عن الهوى والتمسك بعروة الاحتياط في أمور الدين والدنيا . والسلام عليه وعلى إخواننا المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

بتاريخ ١٢ ربيع الثاني ١٤١٨

صورة الوكالة الشرعية التي منحها المرجع آية الله العظمى السيد علي الخامنئي (دام ظله) للمؤلف

الفهرست



المؤلف:السيرة العلمية والفكرية

الدكتور الشيخ عدنان فرحان خميس القاسم (أبو أنس)

١. من مواليد جنوب العراق – الناصرية ١٩٥٦.
٢. دكتوراه في الفقه والمعارف الاسلامية ٢٠١٠ بتقدير إمتياز.
٣. ماجستير في الفقه الاسلامي والأصول ٢٠٠٤بتقدير إمتياز.
٤. بكالوريوس في الشريعة ١٩٨٨.
٥. أكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة والاعدادية في مسقط رأسه في العراق.
٦. هُجر قسراً الى خارج العراق ١٩٨٠م وعاد الى العراق سنة ٢٠٠٣م.
٧. التحق بالدراسات الاسلامية الحوزوية في الحوزة العلمية في مدينة قم المقدسة سنة ١٤٠٢ه -١٩٨٣م.
٨. أكمل دراسته المقدمات والسطوح في النحو والمنطق وعلوم اللغة والفقه والأصول في مدرسة الشهيد محمد باقر الصدر (رض). وتتلمذ عند خيرة أساتذتها من أمثال الشيخ حسن الجواهري، والشيخ هادي آل راضي، والشيخ سعيد الواعظي والسيد حسن النوري، والسيد محمد التبريزي، وغيرهم.
٩. واصل دراسته الحوزوية للسطوح العالية بعد تخرجه من مدرسة الشهيد محمد باقر الصدر سنة ١٤٠٦ه – ١٩٨٧م وأكمل دروس المكاسب والرسائل للشيخ الأنصاري وكفاية الأصول للشيخ الآخوند الخراساني، والحلقة الثالثة من دروس في علم الأصول للسيد الشهيد الصدر وأصول الفقه للشيخ محمد رضا المظفر عند الشيخ محمد باقر الأيرواني والشيخ هادي آل راضي.
١٠. حضر دروس بداية الحكمة ونهايتها في الفلسفة للسيد محمد حسين الطباطبائي ودروس في علم الرجال ودراية الحديث والقواعد الفقهية عند أستاذه الشيخ محمد باقر الأيرواني.
١١. حضر دروس البحث الخارج في الفقه والأصول ولأكثر من ثمان سنوات عند السيد محمود الهاشمي الشاهروردي، ودوّن تقريرات درسه في الاجارة والخمس والمزارعة والمساقات، ومقدمات العقود وغيرها، كما وحضر بحوث الخارج في

الفقه عند الشيخ هادي آل راضي في مبحث الصيد والذباحة، كذلك حضر بحوث الخارج في النجف الأشرف عند الشيخ محمد باقر الأيرواني، ومباحث الحج عند السيد محمد رضا السيستاني.

١٢. يحمل وكالة شرعية من المرجعية العليا في النجف الأشرف من سماحة آية الله العظمى السيد علي السيستاني (دام ظله)، وآية الله العظمى السيد سعيد الحكيم (دام ظله) كما ويحمل وكالة شرعية من بعض مراجع الدين في مدينة قم المقدسة منهم آية الله العظمى الشيخ فاضل اللنكراني (قدس سره)، وآية الله العظمى السيد محمود الهاشمي الشاهرودي (دام ظله)، وآية الله العظمى السيد علي الخامنئي (دام ظله).

١٣. يحمل إجازة رواية من آية الله العظمى الشيخ فاضل اللنكراني (قدس سره).

١٤. له نشاط تبليغي واسع في بعض البلدان الاسلامية، حيث مارس العمل التبليغي في الجمهورية الاسلامية في ايران وفي مدن سوريا ولبنان وكان له حضور مؤثر في بلاد اليمن واستمر عمله التبليغي فيها لأكثر من خمسة عشر سنة متتالية وكيلاً عن المرجعية العليا في النجف الأشرف.

١٥. مارس التدريس في الحوزة العلمية ومدارسها الدينية على مستوى المقدمات والسطوح العالية وفي مختلف العلوم الاسلامية والشؤون المعرفية.

١٦. عمل في بعض مؤسسات التحقيق العلمي وكان له حضور ومساهمة في دائرة معارف فقه أهل البيت (عليهم السلام).

١٧. شارك في تأسيس بعض المدارس والمعاهد الدينية في المَهْجَر فكان من المؤسسين لمدرسة الشهيدة بنت الهدى (رض) سنة ١٤٠٥ه ومعهد الامام الرضا (عليه السلام) بالتعاون مع آية الله الشيخ محمد مهدي الآصفي (حفظه الله).

١٨. عمل مديراً عاماً لمدرسة الشهيدة بنت الهدى في مدينة قم المقدسة لمدة عشرة سنوات متتالية بتولية آية الله الشيخ محمد مهدي الآصفي حفظه الله؛ كما وعمل مديراً ومشرفاً عاماً على مدارس أهل البيت (عليهم السلام) في مدينة النجف الأشرف وبغداد والتي أسسها الشهيد الشيخ مهدي العطار (رحمه الله).

١٩. عضو الهيئة العلمية لجامعة المصطفى العالمية ورئيس قسم الفقه والأصول في مركز دراسات المصطفى العالمية.

٢٠. حصل على اللقب العلمي أستاذ مساعد سنة ٢٠١٢م.

٢١. أشرف وناقش وترأس لجان المناقشة للكثير من رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراة في الفقه والأصول وعلوم القرآن والحديث في كليات جامعة المصطفى العالمية والجامعة المستنصرية (كلية التربية).

٢٢. عيّن تدريسياً في الجامعة المستنصرية كلية التربية، قسم علوم القرآن والتربية الدينية بداية سنة ٢٠١٢م .

٢٣. لا زال ممارساً للتدريس لطلاب الدراسات الأولية (البكالوريوس) وطلاب الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراة) في الجامعة المستنصرية وكلية العلوم الاسلامية التابعة لجامعة بغداد؛ ولا زال متواصلاً مع الحوزة العلمية ولم ينقطع عن التدريس وإلقاء المحاضرات فيها.

٢٤. نُشِرَ له مجموعة من البحوث والدراسات في المجلات العلمية المحكمة في العراق وخارجه.

٢٥. حضر وشارك في مجموعة من المؤتمرات والندوات العلمية قي العراق ولبنان والجمهورية الاسلامية.

٢٦. له حضور فاعل ومؤثر في عدة لجان علمية في مجال تخصصه في العلوم الاسلامية، منها عضويته في اللجنة العليا لتطوير المناهج الدراسية في الكليات الاسلامية بموجب الأمر الوزاري الصادر من وزير التعليم العالي والبحث العلمي في جمهورية العراق ومنها: عضويته في لجنة تدوين المناهج الدراسية، ولجان الترجمة للكتب المساعدة.

٢٧. له من المؤلفات المطبوعة:

- مفهوم العزة في الاسلام ٢٠٠٦ والطبعة الثانية ٢٠٠٨.
- نهضة كربلاء والعزة الحسينية ٢٠٠٧ والطبعة الثالثة ٢٠١٠.
- أدوار الاجتهاد عند الشيعة الإمامية ٢٠٠٨ والطبعة الثالثة ٢٠١٣.

- دروس في السيرة النبوية "العهد المكي" ٢٠٠٦ (رسالة ماجستير) والطبعة الثانية٢٠٠٨.
- دروس في السيرة النبوية "العهد المدني" القسم الثاني والثالث والرابع ٢٠١٠ والطبعة الثالثة ٢٠١٢.
- تطور حركة الاجتهاد عند الشيعة الامامية (اطروحة دكتوراة) الطبعة الثالثة بيروت ٢٠١٢م وطبع عدة مرات في الجمهورية الاسلامية من قبل جامعة المصطفى العالمية.
- وهذا الكتاب: تاريخ الحوزات العلمية والمدارس الدينية عند الشيعة الامامية؛ القسم الأول منه في ستة مجلدات:

١. المجلد الأول: تاريخ مدرسة أهل البيت العلمية في مكة والمدينة والكوفة.
٢. المجلد الثاني: تاريخ الحوزة العلمية في بغداد والكاظمية.
٣. المجلد الثالث: تاريخ الحوزة العلمية في النجف الأشرف.
٤. المجلد الرابع: تاريخ الحوزة العلمية في الحلة وكربلاء وسامراء.
٥. المجلد الخامس: تاريخ الحوزة العلمية في بلاد الشام وجبل عامل.
٦. المجلد السادس: تاريخ الحوزة العلمية في قم المقدسة.

ويعمل المؤلف بجد على تدوين القسم الثاني من تاريخ الحوزات العلمية والمدارس الدينية والذي سوف يصدر إن شاء الله تعالى في عدة مجلدات تشمل تاريخ الحوزات العلمية في أصفهان، ومشهد، وطهران والري، وزنجان.. وغيرها من المدن الإيرانية، بالاضافة الى تاريخ الحوزة العلمية في بلاد الهند وباكستان وافغانستان ، والبحرين والإحساء والقطيف وغيرها من بلدان انتشار التشييع واتباع أهل البيت عليهم السلام.

٢٨. للمؤلف ترجمة مختصرة في كتاب أعلام العراق الحديث الجزء الثاني والذي أعده الدكتور حميد المطبعي.